سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٣٨)



تفسير القرآن الكريم

سورة الروم

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٣٨)

تفسير القرآن الكريم

سورة الروم

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

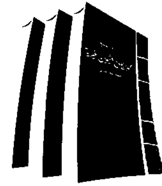

بسم الله الرحمن الرحيم

ⓒ مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٣٦ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين، محمد بن صالح
تفسير سورة الروم. / محمد بن صالح العثيمين ـ ط ١ ـ القصيم، ١٤٣٦هـ.
٣٥٨ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين؛ ١٣٨)
ردمك: ٩ ـ ٥٥ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ القرآن ـ سورة الروم ـ تفسير.
أ ـ العنوان
ديوي: ٢٢٧،٦ ١٤٣٦/٧٨٣٧

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٧٨٣٧
ردمك: ٩ ـ ٥٥ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

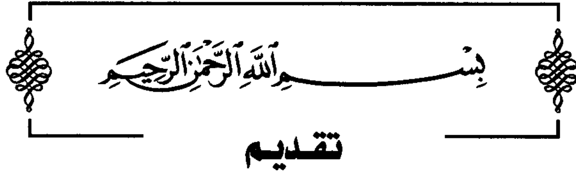
الطبعة الأولى
١٤٣٦ هـ

يُطلب الكتاب من:
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية



المملكة العربية السعودية
القصيم ـ عنيزة ـ ٥١٩١١ ص.ب: ١٩٢٩
هاتف: ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ ـ ناسوخ: ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩
جوّال: ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧
www.ibnothaimeen.com
info@binothaimeen.com

الموزع المعتمد والحصري في جمهورية مصر العربية
دار الدُّرة للنشر والتوزيع ـ شارع محمد مقلد ـ متفرع من مصطفى النحاس
بجوار سوبر ماركت أولاد رجب
هاتف وفاكس: ٢٢٧٢٠٥٥٢ ـ محمول: ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤



تقديم

•●۞●•

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُهُ ونَستعينُه ونَسْتغفرُه، ونَعوذُ بالله مِن شُرور أَنْفُسنا ومِن سيِّئات أعمالِنا، مَن يَهْده اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ فَلا هادِيَ له، وأَشْهَد أنْ لا إلَهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لَه، وأَشْهَد أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، أرسلَه اللهُ بالهُدَى ودِين الحقِّ؛ فبلَّغَ الرِّسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَح الأمَّةَ، وجاهَد في الله حَقَّ جِهادِه ، حتَّى أتاهُ اليَقينُ ، فصَلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ وعلَى آلِه وأصحابِه ومَن تَبِعهم بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّين، أمَّا بَعْدُ:

فمِنَ الدُّروسِ العِلميَّة المُسجَّلَة صَوتيًا، والَّتِي كانَ يَعقِدُها صاحِبُ الفَضِيلةِ شَيخُنا العلَّامةُ الوالِدُ محمَّدُ بنُ صالحِ العُثَيْمِين -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- في جامِعِهِ بمَدِينَةِ عُنَيْزَةَ صَباحَ كُلِّ يومٍ أَثْناءَ الإجازاتِ الصَّيْفيَّة؛ حَلقاتٌ فِي تَفْسير القُرآن الكَريم كانَت بِدايتُها مِن سُورة النُّور وما بَعدَها؛ حتَّى بلَغ قَولَه تَعالَى في سُورة الزُّخرف: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

وقَدِ اعتَمدَ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في تَفْسيرِه لتِلْكَ السُّور كِتابًا بَيْن يَدَيِ الطُّلاب هُو (تَفْسير الجَلالَيْنِ) للعلَّامة جَلال الدِّين محمَّد بنِ أَحْمَدَ بنِ محمَّدِ بنِ إبراهيمَ المَحَلِّيِّ، المُتوفَّى سَنَةَ (٨٦٤هـ)[1]، والعلَّامة جَلال الدِّين عبد الرَّحمن بن أَبِي بَكْر بنِ محمَّد

(١) انظر ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حُسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

ابنِ سابِق الدِّين الخُضَيْرِيِّ السُّيُوطِيِّ، المُتوفَّى سنة (٩١١هـ)[١]. تغمَّدهما الله بواسِع رَحمته ورِضوانه، وأَسْكنهما فَسِيحَ جنَّاتِه، وجَزاهُما عَنِ الإِسْلام والمُسلِمِينَ خَيرَ الجَزاءِ.

وسَعْيًا -بإِذْنِ اللهِ تَعالَى- لِتَعْمِيمِ النَّفْع بتِلْكَ الجُهُود المُبارَكة فِي هَذا المَيْدَان العَظِيم باشَر القِسْمُ العِلْمِيُّ بِمُؤَسَّسةِ الشَّيخِ مُحمَّد بنِ صالِحِ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ واجِباتِه فِي شَرَفِ الإِعْدادِ والتَّجْهِيز للطِّباعةِ والنَّشْر لِإِخْراجِ ذَلِكَ التُّراث العِلمِي؛ إِنفاذًا للقَواعِدِ والضَّوابِط والتَّوْجِيهاتِ الَّتِي قَرَّرها فَضيلةُ الشَّيخِ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى فِي هَذا الشَّأْنِ.

نَسْأل اللهَ تعالَى أنْ يَجْعلَ هَذا العَمَلَ خالِصًا لِوجهِه الكَرِيمِ؛ نافِعًا لعِبادِه، وأنْ يَجزِيَ فَضِيلةَ شيخِنا عَنِ الإسلامِ والمسلِمِينَ خَيْرَ الجَزاء، ويُضاعِفَ لهُ المَثُوبَةَ والأَجْرَ، ويُعْلِيَ دَرَجَتَهُ في المَهْدِيِّينَ، إِنَّه سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

وَصَلَّى اللهُ وسلَّم وبارَك علَى عبدِه ورَسولِه، خاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإِمامِ المُتَّقِينَ، وسيِّدِ الأَوَّلِينَ والآخِرينَ، نبيِّنا محمَّدٍ، وعلَى آلِه وأَصْحابِه والتَّابعينَ لهُمْ بِإِحْسانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّين.

القِسْمُ العِلْمِيُّ

فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ

٢٠ جُمَادَى الآخِرَة ١٤٣٦هـ



---

(١) انظر ترجمته في: الأعلام للزركلي (٣/ ٣٠١).

سورة الروم

الحمدُ للهِ ربِّ العَالَمِينَ، وصلَّى اللهُ وسلَّمَ عَلَى نبيِّنَا مُحَمَّدٍ، وعَلَى آلِهِ وأصحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُم بإحسَانٍ إِلَى يَومِ الدِّينِ. وبَعد:

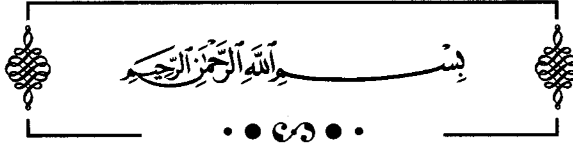
قال المُفَسِّر[1] رَحِمَهُ اللَّهُ: [مَكِّيَّة إلا آيَة ١٧، فمدنيَّةٌ، وآياتها ستون] اهـ.

المكِّيُّ هو الَّذي نزل قبْلَ الهجرة، والمدَنِيُّ ما نزل بعدها سواءٌ نزل في مكَّة أم لا، وعلى هَذا فإن قوْلُه تعالَى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ [المائدة:٣]، هو من المدنيِّ، رغم أنه نزلَ بعرفَة يومَ حجة الوداع، أي قَد نزلَ بمكة.

وقوله: [وآياتها ستون]: أو تِسعٌ وخمسُونَ آيَةً، إِنْ جعلنا ﴿الٓمٓ﴾ آيةً مستقلَّةً صارتْ سِتِّينَ آيةً، وإلَّا فتِسعٌ وخمْسونَ.

---

(١) المقصود بـ(المفسر) هنا: محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم جلال الدين المحلي، المتوفى سنة (٨٦٤هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ، ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).



❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

• • ☙ • •

تقدَّم[1] أنَّ البسملةَ آيَةٌ مستقلَّةٌ يُؤْتَى بِهـا فِي ابتداءِ السُّوَرِ، وليست تابعَةً لـما بعدَها لَا فِي الفاتِحَةِ ولا في غيرِها؛ خِلافًا لِبعضِ العلَماء الَّذِين يقُولونَ هِي آيَةٌ مِن الفاتحةِ، فيحْسِبُونَ الفاتِحَةَ سبْعَ آياتٍ منْهَا البسملة، ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة:١-٧]، هَذِهِ سبْعٌ بالبسملةِ، والصَّحِيحُ أنَّ البسملةَ ليست آيَةً مِن الفاتحَةِ ولَا مِنْ غيرِها، فأوَّلُ آياتِ الفاتحة هِي: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

فإن قِيلَ: لكنها سبعُ آياتٍ بالِاتِّفاق، فأَيْنَ الآيَةُ السّابِعَةُ؟

قُلْنَا: قوْله تَعالَى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ آيتَان، فقوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ هو الآية السَّادِسة، و﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ هو الآيَةُ السّابعةُ، وفي المصحَفِ المنتشر بينَ النّاس نجدُ أن البسملةَ مِن الفاتحةِ آيةً، ومِنْ غيرِها ليسَتْ آيةً، ولكِنَّ الصّحِيحَ أنّه لا فرقَ.

(١) انظر الكلام على البسملة في (تفسير سورة الفاتحة) لفضيلة الشّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الآيــة (١)

• • ༄ • •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿الٓمٓ﴾.

• • ༄ • •

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿الٓمٓ﴾ الله أَعْلَم بِمُرَادِهِ فِي ذَلِكَ] اهـ.

نعم، إذا لم نعلم شيئًا فالواجبُ أن نقولَ: «الله أعلمُ بما أرادَ»، وَهَذا قدْ قِيل أنَّه نِصْفُ العلْمِ[1]؛ لأَنَّ الإنسان إمَّا عالمٌ وإمّا جَاهِلٌ، فإِذَا قَال فِيما يعْلَمُ بما عَلِم وفيما يجْهَل: «الله أعلم» صارَ نِصْف العلْمِ، ولَا شَكَّ أنَّ قولَ الإنسان: «الله أعْلَمُ» فيما لم يعلَمْه هُو الواجِبُ، فَلا تقُلْ: إِذا قلْتُ: «لا أَدْري» نقَص قدْرِي عندَ النّاسِ، فإنَّ قدْرَكَ عِنْد النّاس لنْ ينْقُص بل سيزْدَاد عنْدَهم، فكَما أنَّه لا ينْقُص عنْدَ الله فإِنَّهُ لَا ينْقُص عنْدَ النّاس؛ لأَنَّ النّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقول: «مَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ للهِ إلا رَفَعَهُ الله»[2]، وَهَذا مِن بَاب التّواضُع للهِ أَنَّك تقُولُ فِيما لا تعلَمُ: «لا أعلم»، وهُوَ نظِيرُ العفْوِ لا يَزِيدُ الإنسان إلا عِزًّا، ونَظِيرُ الصّدقَةِ لا ينْقُص بِها المالُ[3]، فكَذَلِك قولُ: «لا أدري» لا ينْقُص بِهِ قدْرُ الإنسان في العِلْم، بَلْ يزْدَادُ لأَنَّ النّاس إِذا رَأَوْا هَذا

---

(١) أخرجه الدّارمي (١/ ٦٣) والفقيه المتفقه (٢/ ٣٦٩) عن الشّعبي في قولة: (لا أدري).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع، رقم (٢٥٨٨).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع، رقم (٢٥٨٨)، ونصه: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ الله عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لله إِلَّا رَفَعَهُ الله».

الرّجُلَ محترِزًا يقُولُ فِيما يعْلَمُ ويتَوقَّفُ عمَّا لا يَعْلَمُ وثِقُوا بِه، وعرَفُوا أنَّه لا يتكلَّمُ إلا بما عَلِم.

فقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الله أعلم بمراده بذلك]، هَذا هُو الوَاجِبُ عَلَى كلِّ إِنْسَانٍ لا يَدْرِي مَا أرادَ الله.

ولَكِنْ إِذا رجَعْنَا إِلَى قوْله تَعالَى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزّخرف:٣]، عَلِمْنا أنَّ هَذا القرآنَ بمُقْتَضى اللُّغَةِ العرَبيَّةِ، وأنَّه لا تُوجَدُ فِيهِ كلِمَةٌ إلا وَهِي معْقُولَةٌ، وإلّا لَكانَ الله أَنْزَلَ شيْئًا لا نَعْرِفُ معْنَاهُ، فإِذَا طَبَّقْنَا هَذِهِ الحرُوفَ الهجَائِيَّةَ عَلَى هَذِهِ القاعِدَةِ، والقاعِدَةُ هِي قوْله تَعالَى: ﴿جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وجَدْنا أنَّ مَثل هَذا التّركيبِ في اللُّغَةِ العرَبيَّةِ ﴿الٓمٓ﴾ لَيْس له معْنًى فيها، إِنَّما هِيَ مجمُوعَةُ حُروفٍ هجَائِيَّةٍ: (ألف، ولَامٌ، ومِيمٌ)؛ وَلِهَذا أنْتَ لا تنْطِقُ بِها فتَقُول: (ألم)، بَلْ تقُول: (ألف، لام، ميم).

إِذَنْ: فهِيَ بمقْتَضى اللِّسَانِ العرَبِيِّ الَّذي نزَل بِهِ القرآنُ لِنَعْقِلَهُ لَيْسَ لها معْنًى، وإِنَّما هِي حُروفٌ هِجائِيَّةٌ ليْس لها معْنًى في ذاتِها، وحِينَئِذٍ نكونُ قَدْ علِمْنَا.

لَكِن مَا مُرَادُ الله بِها؟

ذَكَر شيخُ الإسْلام وكَثِيرٌ مِنْ أهْلِ العلْمِ أنَّ الغرضَ منْهَا بَيان أنَّ القرآنَ مُعجِزٌ معَ كونِه مِنْ هَذِهِ الحرُوفِ الهجَائِيَّة التّي يتكَلَّمُ النّاسُ بِها، فَلَمْ يَأْتِ بحُروفٍ غريبةٍ جديدةٍ حتَّى نقُولَ أنَّه أَعْجَزَ النّاسَ لأَنَّهُ أَتى بحُروفٍ لا يفْهَمُونَها وَلا ينْطِقُونَ بِها، بلْ هِي حُروفٌ يتَركَّبُ منْهَا كلامُهُمْ.

إِذَنْ: فالإِعْجازُ ليس مِنْ حيْثُ الحُروفُ، يعني ليسَ أنَّه أَتى بحرُوفٍ جديدةٍ،

بَلْ مِن حيْثُ التَّرِكِيبُ والسِّيَاقُ والمعَانِي الجليلَةُ النَّافِعَةُ، وَهَذا الَّذي ذَهَب إِلَيْهِ شَيْخُ الإِسْلام لَا شَكَّ أَنَّه قَوِيٌّ وأنَّ هَذِهِ الحروفَ الهجَائِيَّةَ فِي حدِّ ذاتِها ليْسَ لَها معْنًى، لَكِنْ لها مغْزًى ومُرَادٌ، وهُوَ أنَّ هَذا القرآنَ الَّذي أعْجزَ كُلَّ الخلْقِ لمْ يَأْتِ بجَدِيدٍ في الحرُوفِ، وَإِنَّما هُوَ مِنَ الحرُوفِ التّي يتكلَّمُونَ بِهَا.

وَذَهبَ بعْضُ المعَاصِرينَ إِلَى أنَّ هَذِهِ الحروفَ كالمِفتَاح لِلسُّورَةِ التّي هِيَ فِيها بمَعْنَى أَنَّكَ إِذا وجَدْت (لَام، وَمِيم) مُصَدَّرًا بِها سُورَةٌ مِنَ القرآنِ فَما ذَاكَ إلا لِكَثْرَةِ (اللَّامِ والميم) فِيها، فتكُونُ كَالمِفتَاح لها، وَكَذلِكَ إِذَا وجدْتَ (نون) فهُوَ لكَثْرَةِ النّونِ فِيها، وَإذا وَجدتَ فِيها (اللّام، والرّاء) فَهِي لكَثْرَةِ اللّامِ والرّاءِ، لكِنَّ هَذا مُنْتَقِضٌ، وَإِلَّا لَو اطَّردَ هَذا لَكانَ أيضًا لَهُ وَجْهٌ.

وعَلَى كُلِّ حَالٍ: نحْنُ نعْلَمُ بمقْتَضَى كَوْنِ القرآنِ بِاللِّسانِ العرَبِيِّ لنَعْقِلَه أنَّ هَذِهِ الحرُوفَ الهجَائِيَّةَ فِي حدِّ ذاتِها ليْسَ لها معْنًى.



الآيـة (٢)

• • ✿ • •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ [الرّوم:٢].

• • ✿ • •

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾، وَهُمْ أَهْل الكتَاب، غَلَبَتْهَا فَارِسُ وَلَيْسُوا أَهْلَ كِتَابٍ، بَلْ يَعْبُدُونَ الأَوْثَانَ، فَفَرِحَ كُفَّار مكَّة بِذَلِكَ، وَقَالُوا لِلْمُسْلِمِينَ: نَحْنُ نَغْلِبكُمْ كَمَا غَلَبَتْ فَارِس الرّومَ] اهـ.

قوْله تَعالَى: ﴿غُلِبَتِ﴾: فعلٌ مبني للمجهول، و﴿ٱلرُّومُ﴾ نائبُ فاعِلٍ، وأَنَّثها فقال: ﴿غُلِبَتِ﴾، لم يقل غُلِب الرّوم معَ أن الَّذي يحارِبُهم هُمُ الرّجالُ، لكِنَّهُ أَنَّثها باعتبارِ القبيلَةِ، والَّذي غَلَبَها الفرْسُ، والحكْمَةُ -واللهُ أعْلَمُ- في حَذْفِ الفاعِلِ لِسَبَبَيْنِ:

السّببُ الأوّلُ: لِيَكُونَ ذَلِك أعْظَمَ إِهَانَةً للْفُرْسِ، وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا أَهْلًا لِلذِّكْرِ.

السّبَبُ الثّانِي: لِيَكُونَ هَذا أَخفَى بِالنّسْبَةِ لِذُلِّ الرّوم وخِذْلانِها، أَيْ: تَهْوِينًا للأَمْرِ عَلَى الرّومِ؛ لأَنَّهُ إذا قِيلَ لَلإنْسَانِ: أنْتَ غُلِبْتَ، أَهْونُ مِن أَنْ يُقالَ لَه: غَلَبَكَ فُلانٌ؛ فإِنَّهُ إذا قِيل لَهُ: غَلبَك فُلانٌ صارَ معْنَاه أنَّه ذَلِيلٌ لهذَا الرّجُلِ المذْكُورِ.

وقـوْلهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلرُّومُ﴾ هُمْ أَهْـلُ الكتَابِ]: ولـوْ قال المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أهـلُ كتابٍ) لكَانَ أَحْسَـنَ؛ لأَنَّ الرّوم نَصارَى، وأَهْـلُ الكتَابِ يَشْمَلُ اليَهُودَ والنّصارَى.

قَوْلهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [غَلَبَتْهَا فارسُ، وَلَيْسُوا أَهْلَ كِتَابٍ، بَلْ يَعْبُدُونَ الأَوْثَانَ]، لأَنَّهم مجوسٌ يعبدونَ النّارَ، [فَفَرِحَ كُفَّارُ مكَّة بِذَلِكَ، وَقَالُوا لِلْمُسْلِمِينَ: نَحْنُ نَغْلِبُكُمْ كَمَا غَلَبَتْ فارسُ الرّومَ]، يعني أنَّ كُفَّارَ مكَّة تفاءَلُوا بِهَذا الشَّيْءِ، وقَالُوا: إِذا كان الرّوم أهلَ كتابٍ وغلبَتْهم الفرْسُ وهُمْ أهْلُ أوْثَانٍ فهَذا مِفتَاح نصْرٍ لَنا أَنْ نغْلِبَ المسْلِمِينَ الَّذِين هُمْ أهْلُ كِتَابٍ ونَحْنُ أهْلُ أوْثَانٍ.



الآيـة (٣)

• ● ෆ ● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فِىٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ [الرّوم:٣].

• ● ෆ ● •

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فِىٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾: أَيْ أَقْرَبَ أَرْضِ الرّوم إِلَى فَارِسٍ بِالجزِيرَةِ التّقَى فِيهَا الجيْشَانِ، وَالبادِي بِالغزْوِ الفرْسُ، ﴿وَهُم﴾ أَيْ الرّوم، ﴿مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ﴾ أُضِيفَ المصْدَرُ إِلَى المفْعُولِ، أَيْ غَلَبَة فَارِسٍ إِيَّاهُمْ ﴿سَيَغۡلِبُونَ﴾ فَارِسَ] اهـ.

قوْله تَعالَى: ﴿فِىٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ قِيلَ: المعْنَى أقربَ الأرْض إِلَى فارسَ، وأنَّ فارِسَ اعتَدَوْا عَلَى الرّومِ، فحَصل القتَالُ بَيْنَهُما، وقِيلَ: إنَّ معْنَى قوْله تعالَى: ﴿فِىٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أيْ فِي أقْربِها إِلَى أَرْض العرَبِ، وَهَذا يرْجِعُ إِلَى التّاريخِ الَّذي يُحَدِّد موقعَ هَذِهِ المعْرَكَةِ حتّى نعرِفَ أدْنَى الأرْض، إنَّما لا شَكَّ أنَّ (أدْنَى) بمعْنَى أقْرب.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَهُم﴾ أي الرّوم ﴿مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ﴾ أضيف المصدر إِلَى المفعول أي غلبة فارس إياهم ﴿سَيَغۡلِبُونَ﴾ فارس]، انظر تأكيدَ هَذا الوعدِ، حيْثُ صُدِّر بالاسْمِ ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ﴾؛ لأَنَّهُ إذا صُدِّر بالاسْمِ صارَ جمْلَةً اسْمِيَّةً دالَّةً عَلَى الدّوامِ والثّبوتِ، وأكَّد مِنْ وَجْهٍ آخر بقُرْبه حيْثُ كانَ الخبَرُ مقرونًا بالسّين الدّالَّةِ عَلَى القرْب، ثمَّ أكَّدَه أيضًا بمؤكِّد ثالِث وهُوَ قولُه: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾؛

لِتَحَقُّق الغلَبَةِ، وأنَّ هَذا أَمْرٌ لا بُدَّ أنْ يقعَ وَلَوْ كَانُوا مغلُوبِينَ؛ لأَنَّهُ لو حُذِف قولُه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ﴾ فقال: (وهم سيغلبون) لقِيلَ: سَيَغْلِبُون، ولَوْ غُلِبُوا: لقَال البعْضُ: إِذَا كَانُوا قَدْ غُلِبوا فإنَّهُم لا يَغْلِبُون، فلَمَّا قَال: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ صارَ فِي ذَلِك تأكِيدٌ للْغَلَبَةِ، فصارَ تأكِيدُ غَلَبَةِ هَؤُلاءِ مِنْ وُجوهٍ ثلاثَةٍ.



الآيتان (٤، ٥)

• • ◆ • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الروم:٤-٥].

• • ◆ • •

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ هُوَ مَا بَيْن الثّلاث إِلَى التّسْع أَوْ العشر فَالتقى الجيْشَانِ فِي السّنَة السّابِعَة مِنْ الالتقاء الأوّل وَغَلَبَتْ الرّوم فَارِس ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ﴾ أَيْ مِنْ قَبْل غَلْب الرّوم وَمِنْ بَعْده المعْنَى أَنَّ غَلَبَة فَارِس أَوَّلًا وَغَلَبَة الرّوم ثَانِيًا بِأَمْرِ الله أَيْ إرَادَته ﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ أَيْ يوم تغلب الرّوم ﴿يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ إِيَّاهُمْ عَلَى فَارِس وَقَدْ فَرِحُوا بِذَلِكَ وَعَلِمُوا بِهِ يَوْم وُقُوعه أَيْ يَوْم بَدْر بِنُزُولِ جِبْرِيل بِذَلِكَ مَعَ فَرَحهمْ بِنَصْرِهِمْ عَلَى المشْرِكِينَ فِيهِ ﴿يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب ﴿الرَّحِيمُ﴾ بِالمؤْمِنِينَ] اهـ.

قوْله تَعالَى: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ متعلِّقٌ بقوْله تَعالَى: ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ أي في خِلالِ هَذا البضْع، والبضْعُ هُوَ مَا بَيْن الثّلاثِ إِلَى التّسْعِ، أَوْ مَا بَيْن الثّلاثِ إِلَى العشْر، يَعْني إمَّا خمْسُ سنَواتٍ وإمّا سِتّ سنواتٍ هَذا البِضْعُ، فَإِذا قُلْنا إنَّه ما بَيْن الثّلاثِ إِلَى العشْر، فهي: (أَرْبعٌ وخَمْسٌ وسِتٌّ وسَبْعٌ وثَمانٍ وتِسْعٌ)، فَهَذِه سِتٌّ، وإِذَا قُلنَا إنَّه مَا بَيْنَ الثّلاثِ إِلَى التّسْعِ يكونُ: (أَرْبَعٌ وخَمْسٌ وسِتٌّ وسَبْعٌ وثَمانٍ)،

فهذِهِ خمْسُ سنَواتٍ، يَعْني الثّلاثُ غيْرُ داخِلَةٍ، لأَنَّ مَا بَيْن الشّيءِ والشّيْءِ لَا يدْخُلُ فِيه الجانِبَانِ.

قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فالتقى الجيْشَانِ فِي السّنَةِ السّابِعَةِ مِن الالتقَاء الأوَّل وغَلَبَتِ الرّوم فَارِس]: يعْنِي حصَل بَيْنَهُما حَرْبٌ أُخْرَى فغَلَبَتِ الرّوم فارِسَ، فصَدَق بذَلِك خَبَرُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأَنَّهُمْ سيَغْلِبُونَ في بِضْع سِنِينَ؛ لأَنَّ الأمْر لم يتَجَاوَزْ سبْعَ سَنَواتٍ حتَّى كانَتِ الغلبَةُ لِلرُّومِ عَلَى الفرْسِ، فَصدَقَ الله وَعْدَهُ.

قوْله تَعالَى: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ المعْنَى أنَّ الغلَبَةَ تتِمُّ في خِلَالِ بِضْع سِنِينَ، ولَيْس المعْنَى أنَّ الغلبَةَ تحْصُل بعْدَ سَبْع سَنوَاتٍ.

قوْله تَعالَى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ﴾: هَـذِهِ الجملة اسميَّـةٌ قُـدِّم فِيها الخبَرُ لإفَـادَةِ الاخْتِصَاصِ للهِ وحْدَه، و(أل) هُنَا للاسْتِغْرَاقِ، يَعْنِي كُلّ الأمْرِ، أيْ لاسْتِغرَاق الجنْس، و(أل) التي للاسْتِغْراقِ هِي التي يحِلُّ محلَّها (كُلّ) فإِنْ كانَتْ لاسْتِغراقِ المعْنَى فَهِي لاسْتِغْراقِ المعْنَى، وإِنْ كَانَت لاسْتِغراقِ الأفْرادِ فَهِي لاسْتِغْراقِ الجِنْس، فَفِي قوْلِه تَعالَى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النّساء:٢٨]، (أل) لاسْتِغراق الجِنْس؛ لأَنَّهُ يَصِحُّ أنْ يَحِلَّ محلَّها (كُلُّ)، فيُقَالُ: وَخُلِق كُلُّ إِنْسَانٍ ضَعيفًا، وَفِي قوْلِه تَعالَى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر:١-٢]، هَذِهِ أيضًا لاسْتِغْراقِ الجِنْس، أيْ كُلُّ إنسانٍ، وإِنْ كانَت لاسْتِغراقِ المعْنَى فَهِي لاسْتِغْراقِ المعْنَى، ومثّلوا لِذَلِكَ بقَوْلِهِم: (زَيْدٌ نِعْم الرّجُلُ)، أَي: نِعْم الشّخْصُ الجامِعُ لِصِفَات الرّجُولَةِ.

وَهِلِ المرَادُ بالأمْر هُنا الأمْرُ الكوْنِيُّ أو الأمْرُ الشّرْعِيُّ؟

والجوابُ: الأمْرُ الكوْنِيُّ، أَي أنَّ جَمِيعَ الأمورِ تَرْجِـعُ إِلَى الله عَزَّوَجَلَّ، المتعَلِّقة

بأفْعَالِ العبادِ والمتعلِّقَة بأفعَالِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى فإِنَّها راجِعَةٌ إِلَيْهِ، والأمْرُ الإلهيُّ ينْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: أَمْرٌ كَوْنِيٌّ وأَمْرٌ شَرْعِيٌّ.

مِثالُ الأمْرِ الكوْنِيِّ: قوْلُهُ تَعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

ومِثالُ الأمْرِ الشّرْعِيِّ: قوْلُه تَعالَى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾، أَي عَنْ أَمْرِه الشّرْعِيِّ، ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النّور:٦٣]، ومِثْلُ قوْلِه تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ﴾ [النّساء:٥٨]، هَذا أَمْرٌ شَرْعِيٌّ.

وعَلَيْهِ فإنَّ قوْلَه تَعالَى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسْراء:١٦]، مِنَ الأمْرِ الكوْنِيِّ، وهَذا هُوَ المتعَيِّنُ، فيَأمُرُهُم الله أمرًا كونِيًّا بالفسْقِ فيَفْسُقُونَ، وأمَّا مَن قَالَ: إِنَّ المرادَ بِالأمْر في الآيَة هُو الأمْر الشّرْعِيُّ وأنَّ الله يأمُرُهم بالطّاعَةِ فيَفْسُقونَ ثمَّ يأْخُذُهم بِالعذابِ، فَهذا القوْلُ بَاطِلٌ لأَنَّهُ يقْتَضِي أنْ يكُونَ المعْنَى أنَّ الله يُرْسِلُ الرّسُلَ فيأْمُرونَ النّاسَ بِطَاعَةِ الله؛ لأَجْلِ أنْ يَفْسُقوا فَيحلَّ بِهم العقابُ، وَهَذا يَرْجِعُ إِلَى أنَّ المعْنَى أنَّ الله بعَثَ الرّسُل نِقْمَةً عَلَى العبَادِ، وهُوَ أَمْرٌ لا يُمْكِنُ، ثمَّ إِنَّنا نقُولُ: إنَّ الأمرَ الشّرْعِيَّ لَا يَخْتَصُّ بالمتْرَفِينَ، بَلْ هُوَ عامٌّ لَهُمْ ولِغَيْرِهِمْ.

المُهِمُّ: أنَّ هَذا القوْلَ ضعيفٌ وبَاطِلٌ ويُنافي حكْمةَ الله عَزَّوَجَلَّ بإرسالِ الرّسُلِ.

فقوْلُه تَعالَى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ﴾ يُرادُ به الأمرُ الكوْنِيُّ.

وقوْله تَعالَى: ﴿قَبْلُ﴾: ضُمَّتْ مَع أنَّ قبْلَها حَرْفَ الجرِّ ﴿مِن﴾؛ لأَنَّ ﴿قَبْلُ﴾ و﴿بَعْدُ﴾ إِذَا حُذِف المضَافُ إِلَيْهِ ونُوِي مَعْناهُ بُنِيا عَلَى الضّمِّ، هَذا السّببُ فَإِنْ

وُجِد المضَافُ صَارا مُعْرَبَيْنِ فتقُول: (أَتيتُ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِي زيْدٌ) فتَجُرَّها، وَكَذلِكَ إذا حُذِف المضَافُ إِلَيْهِ ولم يُنْوَ لَا لفظًا ولَا معْنًى، فإنَّها تُعْرَبُ كَقَوْل الشّاعِر[1]:

فَسَاغَ لِي الشّرَابُ وَكُنْتُ قَبْلًا أَكَادُ أَغَصُّ بِالمَاءِ الفُرَاتِ

وَكَذلِكَ إذَا حُذِف المضَافُ إِلَيْهِ وَنُوِي لفْظُهُ فَإِنَّهَا تُعْرَبُ، لكِنَّها لا تُنَوَّنُ فيُقَالُ مَثَلًا: (كُنْتُ حَرِيصًا عَلَى الدّرْسِ، فأَتَيْتُ مِنْ قَبْلِ)، أَي: مِنْ قَبْلِ ابْتِدَاءِ الدّرْس، فهُنا حُذِف المضَافُ ونُوِي لفْظُهُ، وَالَّذي دلَّنا عَلَى أَنَّه نُوِي لفْظُه أَوْ نُوِي مَعْناهُ الإعْرَاب نفْسُه، فَإذا كَانَتْ مبْنِيَّةً عَلَى الضّمِّ عَلِمْنا أَنَّه قَدْ حُذِف وَأُرِيد المعْنَى، وَإذا لَم تَكُنْ كَذَلِكَ عَلِمنا أَنَّهُ قدْ حُذِف وَأُرِيد اللَّفْظُ، فَإِنْ نُوِّنَتْ علِمْنا أَنَّه ما أُرِيد اللَّفْظُ ولَا المعْنَى.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: لَو حُذِف المضاف إِلَيْهِ في كلام الله عَزَّوَجَلَّ فهل يصح أن نقول: أَنَّه منوي؟

قُلْنَا: لا، لا نقول ذَلِك، لكن يصِحُّ أن نقولَ: هو المُراد، أي أَنَّ الله أراد بالنّسبة للمضاف إِلَيْهِ؛ لأَنَّ الإرادَة في جنابِ الله عَزَّوَجَلَّ بمعنى النّية للخَلْق.

---

(١) اخْتُلِفَ في نسبة البيت، كما اخْتُلِفَ في عجزه. فنسبه العيني في المقاصد النّحوية (٣/ ٤٣٥)، إلى عبد الله بن يعرب، وعجزه: (أكاد أغص بالماء الحميم). ووافقه في النّسبة والعجز: الجرجاوي في شرح شواهد ابن عقيل (ص:١٦٦)، والعدوي في فتح الجليل (ص:١٦٦). ووافقه في النّسبة دون العجز: الشّنقيطي في الدّرر اللوامع (٣/ ١١٢)، وعجزه: (أكاد أغص بالماء الفرات)، وابن حمدون في حاشيته على شرح المكودي (١/ ٣٤٥)، وعجزه: (أكاد أغص بالماء الزّلال). ونسبه البغدادي في خزانة الأدب (١/ ٢٠٤) ليزيد بن الصّعق، وعجزه: (أغص بنقطة الماء الحميم). والرّواية المحفوظة: (الحميم)، ولكن رواية: (الفرات) هي المشهورة، كما قال ابن يعيش في شرح المفصل (٤/ ٨٨)، وهي الّتي رجحها العيني، والجرجاوي، والعدوي. ويرى ابن حمدون أن رواية: (بالماء الزّلال) مناسبة لمعناها.

قوْلهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ [بِأَمْرِ الله إرادتـه]: هَذا في الحقيقةِ تحرِيـفٌ، بَلِ الصّوابُ أنَّـه (بأمرِه)، أيْ بقَوْلِه، قَال تَعالَى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، فإنَّ الله تَعالَى لَا يُقَدِّر شَيْئًا إلا بالقوْلِ، و﴿شَيۡـًٔا﴾ نكِرَةٌ في سِيَاق الشّرطِ فتَعُمُّ كُلَّ شَيْءٍ أَرادَهُ الله، فإنما ﴿يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، فالصّوابُ أنَّ المرادَ بالأمْرِ هُنا هُو القوْلُ.

وَالإرَادَةُ ليْسَت هِيَ القوْلُ فإنَّ الإرَادَةَ صِفَةٌ لا تسْتَلْزم القوْلَ إذْ إنَّ المرِيدَ قَدْ يفْعَلُ مَا أَرادَ، أَوْ قَدْ يقُولُهُ، وأمَّا القوْلُ فإنَّهُ أَخصُّ مِنَ الإرَادَةِ، كُلُّ قَوْلٍ فهُوَ متضَمِّنٌ لِلإرَادَةِ، وليْسَت كُلُّ إرادَةٍ متضمِّنَةً للقَوْلِ.

قوْله تَعالَى: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ﴾: (يومَ) ظرفٌ متعلِّقٌ بـ(يفرح)، وهِي مُضافَةٌ إِلَى (إذْ)، ونُوِّنَت (إذْ) تنوِينَ عِوَضٍ عَن جُمْلَةٍ؛ وَلِهَذا قَال: (أَيْ يَوْمَ تَغْلِبُ الرّومُ) فالمحْذُوفُ جُمْلَةٌ، وَالفرَحُ لا يُمكن لِلإنْسَانِ أن يُعَبِّر عنْهُ، لذا قد نقول: الفرح خِفَّةُ النّفْسِ وسُرُورُ النّفسِ، أَوْ نَقُولُ: الفرَحُ معْلُومٌ؛ وَلِهَذا نَجِدُ صاحِبَ القامُوسِ إذا عرَّف مثْلَ هَذِهِ الأشْيَاء قَال: (م)[1]، يعْنِي أنَّه مَعْرُوفٌ وَلا حاجَةَ لأنْ يُبيَّن.

وقوْله تَعالَى: ﴿يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾: المرَادُ بِهِم النّبيّ ﷺ وأصحَابُهُ.

وقوْله تَعالَى: ﴿بِنَصۡرِ ٱللَّهِ﴾: متعلِّقٌ بـ(يفْرَحُ) وهُو مصْدَرٌ مُضَافٌ إِلَى فاعِله، أمَّا مفعولُه فمَحْذوفٌ، وتقْدِيرُه (بِنَصْر الله الرّوم عَلَى الفرْسِ)؛ وَلِهَذا قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِنَصْرِ الله إِيَّاهُمْ عَلَى فَارِسَ]، والنّصْر معْناهُ العوْنُ والظّهورُ، أَيْ أنَّ الله يُعِينُهُم حتَّى يَظْهَرُوا عَلَى أعْدَائِهم.

---

(١) هو الفيروزآبادي في القاموس المحيط، ومن ذلك قوله في (ص:٣٧): «الحدَأَةُ، كَعِنَبَةٍ: طَائِرٌ م، ج: حِدَأٌ وحِدَاءٌ وحِدْآنٌ بالكسْرِ».

وسُمِّي ذَلِك نَصْرًا مَع أنَّه لِكُفَّارٍ عَلَى كُفَّارٍ لأنَّ النّصْر هُو العوْنُ والظّهُورُ، وهُوَ لا فَرْق بَيْن أنْ يكُونَ بَيْن مُؤْمِنٍ وكَافِرٍ، أَوْ بَيْن كافِرٍ وكافِرٍ، ثمَّ إنَّ أهْلَ الكتَابِ أقْرَبُ مِن الفرْسِ؛ وَلِهَذا لَهُمْ أحْكَامٌ خاصَّةٌ تُقرِّبُهم مِنَ المسْلِمِينَ.

قولُه رَحِمَهُ اللَّهُ: [فَرِحُوا بِذَلِكَ وعلِمُوا بِهِ يَوْمَ وُقوعِهِ يَوْمَ بَدْرٍ بِنُزولِ جِبْرِيلَ بِذَلِكَ مَع فَرَحِهم بِنَصْرِهِمْ عَلَى المشْرِكِينَ فِيهِ]، يعْنِي أنَّ الواقِعَة حصَلَتْ بَيْن فارِسَ والرّومِ في الزّمَن الَّذي حَصلَتْ فِيه الواقِعَةُ بيْنَ الكفَّار وَالمؤْمِنِينَ، وَذَلِكَ في بَدْرٍ، وَعَلى هَذا فتَكُونُ هَذِهِ الآيَة نَازِلَةً قبْلَ الهجْرَةِ بخَمْسِ سَنواتٍ؛ لأنَّهُ إذا كانَتِ المدَّةُ التي حصَلتْ فِيها الغلَبَة سبْعَ سنَواتٍ، وبَدْرٌ كانَتْ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ لَزِم أنْ يكُونَ نُزولُ الآيَة وغَلَبَةُ فَارِسَ لِلرُّومِ قبْلَ الهجْرَةِ بخَمْسِ سَنَوَاتٍ.

وقولُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [مَع فَرَحِهِمْ بِنَصْرِهِمْ عَلَى المشْرِكِينَ فِيهِ]، فيَكُونُ فِي هَذا الزّمَنِ اجْتَمعَ نصْرُ أهْلِ الكتابِ عَلَى المجُوسِ ونَصْرُ المسْلِمينَ عَلَى المشْرِكِينَ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل قولُ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ عليْه دَليلٌ نقْلِيٌّ؟

فالظّاهِرُ أنّه تابعٌ للتَّارِيخِ فقَطْ، أمّا عَنِ الرّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَلا يُوجَدُ دَلِيلٌ، لكنَّ التّارِيخَ يقُولُ هَذا.

قوْله تَعالَى: ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾: هَذِهِ عامّةٌ تعُمُّ كلَّ منْصُورٍ، سواءٌ كانَ المنْصُورُ كافِرًا أوْ مؤمِنًا؛ لأنَّ الأمْرَ بيَدِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وكُلُّ شيْءٍ مقيَّدٌ بالمشِيئَةِ فإِنَّهُ يتضَمَّنُ الحكْمَةَ؛ لأنَّ الله تَعالَى لا يَشَاءُ شيْئًا إلا لِحِكْمَةٍ، فينْصُرُ مَنْ يشَاءُ نصْرَه لحكْمَةٍ اقتَضَتْ ذلِكَ.

قوْله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب]: هَذا أحَدُ معَانِي العزَّةِ؛ لأنَّ العزَّةَ

تنْقَسِمُ إِلَى ثَلاثَة أقْسَامٍ: عِزَّةُ القدْر، وعِزَّةُ القهر، وعِزَّةُ الامتِنَاعِ.

عِزَّةُ القدْر: بمعْنَى أنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عظِيمُ القدْر، وكُلَّما كانَ الشّيْءُ عظِيمَ القدْرِ كان عزيزًا، أيْ قَلِيلَ الوُجُودِ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَا مِثْلَ لَهُ، عَظِيمٌ لا نَظِيرَ لَهُ فِي قدْرِه وعظَمَتِهِ.

وعِزَّةُ القهْر: بمعْنَى الغلَبَةِ والظّهُورِ، بمعْنَى أنَّه قاهِرٌ وَغَالب لكُلِّ شيْء.

وعِزَّةُ الامتِنَاعِ: معْنَاها امْتِنَاعُ جَمِيع النّقْصِ علَيْه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أيْ أنَّه يمتَنِعُ عليْه كُلُّ نقْصٍ، ومِنْ هَذا المعْنَى قولُهُم: (أَرْض عَزَازٌ)[1]، أي الصّلْبَةُ التي يمتَنِعُ أن يُؤثِّر فِيها شيْءٌ.

فالله عَزَّوَجَلَّ متَّصِفٌ بالعزَّةِ مِن جَمِيعِ هَذِهِ الوُجُوهِ الثّلَاثَةِ.

وقوْله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بالمؤمنين]: استدلَالٌ بقوْلِه تعالَى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣]، والصّوابُ أنَّ رحمَةَ الله تَعالَى تكُونُ عامَّةً وخاصَّةً، فإنَّ كُلَّ مَن في السّموَات وَالأرْض فَهُم في رَحْمَةِ الله العامَّةِ، ولَوْلا هذِه الرّحْمَةُ العامَّةُ لما بَقِي أحدٌ مِن الكفَّارِ، فكَوْنُ الله يُدِرُّ عليْهِمُ الأرْزَاقَ والعافِيَةَ وَالنّشاطَ والعقْل ومَا أشْبَه ذَلِك لا شَكَّ أنَّه مِن رحْمَةِ الله، ولكِنَّ الرّحْمَةَ التي تكُونُ بِها رَحمَةُ الدّنيا والآخرةِ خَاصَّةٌ بالمؤمِنِينَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: أنَّ كَلامَ الله عَزَّوَجَلَّ بالحروفِ، يَعْني ﴿الٓمٓ﴾ حُرُوفٌ، فَفِيهِ رَدٌّ عَلَى الأشْعَرِيَّةِ الَّذِين يقُولونَ إِنَّ كَلامَ الله هُو المعْنَى القائِمُ بالنّفْسِ ولَيْسَ الحرُوفَ،

(١) تاج العروس من جواهر القاموس (١٥/ ٢٢٢)، و لسان العرب (٥/ ٣٧٤).

وَأنَّ هَذِهِ الحرُوفَ مخلُوقَةٌ لِتعبِّر عَن هَذا المعنى القائِم بنفسِهِ، ثمَّ يقُولونَ أيضًا: إنَّ هَذا المعْنَى القائِمَ بالنّفْسِ لا يتغَيَّرُ ولَا يختَلِفُ، فهُوَ واحِدٌ سوَاءً كانَ اسْتِفْهامًا أوْ خبَرًا أو أمْرًا أو نَهْيًا أو قُرآنًا أوْ زَبُورًا أو تَوْرَاةً أو إِنْجِيلًا، فالتّوْارَةُ هِي الإنْجِيلُ وهِي القرآنُ وهِي الزّبُورُ وهِي صُحُفُ إِبْراهِيمَ وصُحُف مُوسَى، ويقُولونَ أنَّها اخْتَلفَتْ في التّعْبيرِ، فَإِن عبَّر عَن هَذا الكلامِ بالعرَبِيَّةِ صارَ قُرآنًا، أَو بالعبْرِيَّةِ صَار تَوْرَاةً، أوْ بالسُّرْيانِيَّة صارَ إِنجيلًا، أوْ بلُغَةِ داوُدَ صَار زَبُورًا... وهَكذا، وتصُوُّرُ هَذا غيْرُ ممكِنٍ، وَهُو معْنًى غيْرُ معقولٍ، ثمَّ يقُولونَ أيضًا: إنَّ الاسْتِفْهام وَالخبْر معنَاهُما واحِدٌ، فإذا جَاء اسْتِفْهام مِنَ الله عَزَّوَجَلَّ فَهُو كالخبَرِ عنْهُ ومعناهما واحدٌ، وَلا شكَّ أن مجرَّد تصورِ هذَا القولِ كافٍ في رَدِّه وإِبْطَاله.

الفائِدَةُ الثّانِيَةُ: إثْبَات عِلْمِ الله بِالغيْبِ؛ لقوْلِه تعالَى: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾.

الفائِدَةُ الثالِثَةُ: إثْبَات رِسالَةِ النّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ لأَنَّ الإخبارَ عَنِ الغيْبِ لَا يكُونُ إلا بِوَحْيٍ.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كَامِلُ السّلْطانِ والتّدْبيرِ؛ لقوْلِه تعالَى: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُ﴾.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: أنَّ كُلَّ الأشْيَاء لَا تكونُ إلا بِأَمْرِ الله؛ لأَنَّهُ لما قَالَ: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾، قَال: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُ﴾.

إِذَنْ: فكوْنُهُمْ غُلِبوا فَبِأَمْرِ الله، وكَذلِك انْتِصارُهم بِأمْرِ الله، فكُلُّ الأمُورِ بتَقْدِيرِ الله تَعالَى وأمْرِه، فكُلُّ الأشْياء بِأمْرِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: الرّدُّ عَلَى القـدَرِيَّةِ الَّذِين يقُولونَ باسْـتِقْلالِ العبْد بفِعْلِه، فَهُم يقُولونَ: إِنَّ العبْدَ مسْـتَقِلٌّ بفعْلِه ولَيْس للهِ تَعالَى فِيه تقْـدِيرٌ ولَا أَمْرٌ ولَا إِنْشاءٌ ولَا مَشِيئَةٌ.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: جَوازُ التّعْبِيرِ بمَا يُدْخِلُ الخوفَ وَالحزْنَ عَلَى العدُوِّ؛ لأَنَّ قوْله تَعالَى: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ وهِي مِن ثَلاثَةٍ إِلَى عَشْرٍ، أَو إِلَى تِسْعٍ، معْنَاه أَنّه سيَبْقَى هَؤُلاءِ الفرْسُ في ذُعْرٍ وخَوْفٍ، كُلَّ سنَةٍ تَأْتِي يقُولونَ: هَذِهِ سَنَةُ الغلَبَةِ، ولَا شَكَّ أنَّ هَذا مما يَزِيدُهم ذُعرًا وخوفًا؛ لأَنَّهُم لَو غُلِبوا في أوَّلِ سنَةٍ انْتَهى الأمْرُ، لكِنَّ كوْنَهُم يتوَعَّدُون بأَمْرٍ لا يُدْرَى في خِلالِ سَبْعِ سِنِينَ لَا شكَّ أَنَّهُ أَشَدُّ علَيْهِم مِنْ أنْ يَأْتِي الأمْرُ ويَنْتَهِي.

الفائِدَةُ الثّامِنَةُ: أنَّ مِن البلاغَةِ حذْفَ الفاعِلِ إِذْلالًا لَهُ وإِهانَةً؛ لقوْلِه تعالَى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾، فلَمْ يَذْكُر الغالب إذلالًا لَهُم، وَرِفْقًا بِالرّوم.

الفائِدَةُ التّاسِعَةُ: جَوازُ فَرَحِ المؤْمِنينَ بانْتِصارِ بعْضِ الكفَّار بعضِهم عَلَى بعْضٍ، إِذا كَان في ذَلِك مصلَحَةٌ للإِسْلَامِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾، ما انْتَصر مُسلِمُون عَلَى كُفَّار، بَلِ انْتَصر كُفَّار عَلَى كُفَّارٍ، لكنَّ هَذا في مصلحَةِ الإسْلام؛ فلَا بأْسَ أنْ نفْرَح بانْتِصارِ بعضِهم عَلَى بعْضٍ إذا كانَ المنتَصِرُ فِيه نفْعٌ للإِسلامِ، ثـمَّ يُساعِدُون المسْلِمينَ بِالمالِ والسّلاحِ، أَوْ عَلَى الأقَلِّ قدْ كَفَّ شرَّهُ مَع أنَّ الثّانِيَ فيه شرٌّ لكِنَّهُ أَقَلُّ شرًّا مِن هؤُلاءِ.

فعَلى هَذا إذا اقتَتَلَتْ دوْلَتانِ مِنْ دُوَلِ الكفَّار وكانَتْ إِحْداهُما أَقْربَ إِلَى نفْعِ المسْلِمين مِنَ الأخرى، فهلْ فرَحُنا بانتصارِها جَائِزٌ، أم نقولُ: كيفَ نَفْرَح بانْتِصارِ كَافِرٍ عَلَى كَافِرٍ، فهو حرامٌ؟

والجوابُ: هُو جَائِزٌ كَما فَرِح المؤْمِنُون بانْتِصار الرّوم عَلَى فارِسَ، مَع أنَّ كِلَيْهما مِن الكفَّار، لكِنَّ هؤُلاءِ أهلُ كِتَابٍ، فَهُمْ أقْرَبُ مِن المؤْمنينَ، وأقْرَبُ إِلَى الإسْلام ومُرَاعاةِ المسْلِمينَ مِنَ المجُوسِ.

الفائِدَةُ العاشِرَةُ: جَوازُ تَسْمِيةِ غَلَبةِ الكفَّار نَصْرًا؛ لقوْلِه تعالَى: ﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: كيْف تجْمَعُونَ بَيْن هَذِهِ الآيَة وبَيْنَ قوْلِه تَعالَى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [الحج:٤٠-٤١]، مَع أنَّ الرّوم لا يتَّصِفُون بِهَذِه الصِّفَةِ؟

فالجوابُ: أنَّ النّصر نَوْعانِ:

١- **نَصْرٌ مُطْلَقٌ دَائِمٌ:** فَهذَا لا يَكُونُ إلا لَمِنْ يَنْصُر الله.

٢- **نَصْرٌ عارِضٌ مؤقَّتٌ:** فهَذا يَكُونُ لهؤُلاءِ ولِغَيْرِهِمْ.

ونَصْرُ الله لِلرُّومِ عَلَى الفرْسِ لَيْسَ نَصْرًا دائِمًا، والدّلِيلُ أنَّه بعْدَ ذَلِك نَصَرَ الله المؤْمِنينَ عَلَى الفرْسِ وعَلى الرّومِ، فافْتَتَحُوا ممالك كِسْرَى وممالك قَيْصَرَ، فَلَمْ يَكُن هَذا نصْرًا دائِمًا.

الفائِدَةُ الحادِيَةَ عشْرَةَ: إثْبَات المشيئَةِ للهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾.

الفوائِدُ الثّانِيَةَ عشْرَةَ والثالِثَةَ عشْرةَ والرّابعةَ عشْرَةَ: إثْبَات العزَّةِ لله؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾، وإثْبَات الرّحمةِ في قوْله تَعالَى: ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾، وإثْبَات كَمالِ عِزَّته حيْثُ قُرِنَتْ بالرّحمَةِ؛ فإنَّنا ينبَغِي أنْ نعرِفَ أنَّ الأسْماءَ الحسْنَى تدُلّ كُلُّ واحدةٍ منْهَا

عَلَى كمالٍ بانفِرادِه، ثمَّ باجْتماعِ الاسْمَيْن بعضِهما إِلَى بَعْضٍ يدُلَّان عَلَى كَمالٍ مركَّب، فالعزِيزُ يدُلُّ عَلَى الكمالِ، والرّحِيمُ يُدُلُّ عَلَى الكمالِ فإذا اجْتمعَا أُخِذ مِن ذَلِك كمالٌ آخَرُ فوْقَ الكمالِ الَّذي يتضمَّنُه كُلُّ اسْمٍ عَلَى انفرَادِهِ، وهُو أنْ تَكُونَ عِزَّتُه مقرونَةً بالرَّحْمَةِ؛ لأَنَّ عِزَّةَ غيرِه قَدْ تكُونُ خالِيَةً مِنَ الرَّحْمَةِ، فَإذا صَار عزِيزًا أخذ الَّذي هُو ظاهِرٌ علَيْه أَخْذَ عزِيزٍ مُقتَدِرٍ ولم يرْحَمْه، بِخَلافِ عِزَّة الله فَهِي مقرونَةٌ بالرَّحْمَةِ، وهِيَ أيضًا مقرونَةٌ بالحكْمَةِ.

مثالُ ذَلِك: لَوْ أنَّ رجُلًا غلَب عَلَى قوْمٍ وصَار عزِيزًا وهُمْ أَذِلَّاءُ فإِنَّ هَذا الرّجُلَ قدْ تأخُذُه العزَّةُ بالإِثْمِ، فيَبْطِشُ بِهم ولَا يرحمُهُم، لكِنَّ عِزَّةَ الله عَزَّوَجَلَّ ليْسَتْ كَذَلِكَ، بِل أنَّها مقرونَةٌ بالرَّحْمَةِ كَما أَنَّها مقرونَةٌ بالحكْمَةِ؛ وَلِهَذا دائِمًا يَقْرِنُ الله العزَّةَ بالحكْمَةِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: كلُّ اسْمٍ مِنْ أَسْماءِ الله عَزَّوَجَلَّ يتضمَّنُ صِفةً، فهَلْ كُلُّ صِفَةٍ يُشتَقُّ منْهَا اسْمٌ؟

فالجوابُ: لَا يجُوزُ، فمثلًا المَشِيئَةُ لَا نقُولُ إنَّ مِن أسْماءِ الله: (الشّائي)، أَو المرِيد أو المتكَلِّم، فلَا نقُولُ أنَّ هَذه من أَسْماءِ الله، فالصِّفَاتُ أَوْسَعُ بِلا شَكٍّ، فيُخْبَرَ عَنِ الله بأشْياءَ ولَا يُسَمَّى بِها، ولكِنْ لَا يُخْبَرُ عنْهُ بصِفَةٍ إلا حيْثُ ورَدَتْ، فلَيْس كُلُّ صِفةٍ يجُوزُ أن يُخْبَر بِها عَنِ الله، فَلا يجُوزُ أنْ نُسمِّيَ الله مَثَلا بالحزِين، ولا نُسَمِّيه بالعاشِقِ، ولا نُسَمِّيه بالهمَّام، ومَا أشْبَه ذَلِك، فالصِّفَاتُ تَكُون توقِيفِيَّةً، لا نَخْتَرِعُ مِن أنفُسِنا صِفَةً لَهُ، لكِنَّ الصِّفاتِ أوْسَعُ مِن الأسْماءِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل (المنْعِم) مِنْ أسماءِ الله عَزَّوَجَلَّ؟

قُلْنَا: لَيْسَ مِن أَسْمَاءِ الله، لكنَّ الله جَلَّ وَعَلَا يُنْعِـمُ، فَهِي صِـفَةٌ، قَال الله تَعالَى: ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْـمَتَ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:١١]، ولا تَكُونُ نِعْمَةٌ بِدُون مُنْعِمٍ، وَكَذلِكَ قوْله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٧]، يُؤْخَذُ منْهَا (المنْعِم).

أَمَّا (المحْسِنُ) فورَدَ أنَّه مِن أَسْمَاءِ الله عَزَّوَجَلَّ في قَوْلِهِ ﷺ: «إِنَّ الله مُحْسِنٌ، كَتَبَ الإحسَان عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا القتْلَةَ»[١]، وَبِهذَا يَزُولُ الإشْكال الَّذي يَرِدُ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، في التَّسْمِيَةِ بـ(عَبْد المحْسِنِ).

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هَل يجُوز التسمِّي بعبْدِ المنْعِم؟

قُلْنَا: إِنْ ثَبت أنَّه مِن أَسْمَاءِ الله عَزَّوَجَلَّ، وإلا فَقَدْ يقُولُ قَائِلٌ: إِنَّه يجُوزُ؛ لأَنَّ المنْعِم عَلَى الإِطْلَاقِ هُوَ الله عَزَّوَجَلَّ، وكُلُّ إِنْسَانٍ لَهُ نعْمَةٌ فهِي مقيَّدَةٌ، وإلا فقوْلُنا: (أَنْعمْتَ علَيْـهِ) تكُونُ حتَّـى للإنْسَانِ، قَال تعالَى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَـمْتَ عَلَيْـهِ﴾ [الأحزاب:٣٧].

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ابْنُ حزمٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقولُ بجوازِ التَّسمِيَةِ بـ(عبْدِ المطَّلبِ)[٢]؟

قُلْنَا: هَذا غلطٌ مِنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والتَّسمِيَةُ بِهِ لَيْسَتْ سلِيمَةً.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هَل يجُوز التَّسمِّي بـ(حَمِيد) و(مُحْسِن)؟

قُلْنَا: هَذا لَيْس بالأَحْسَنِ، لكِنْ إذا لم تُقْصَد الصِّفةُ فَلا بَأْس، فقَدْ وَردَتِ التَّسمِيَةُ بِـ(حَكِيم) في عهْدِ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ولم يُغيِّرْه، معَ أَنَّ الحكِيمَ مِنْ أَسْمَاءِ الله؛ لأَنَّهُ ما أُرِيد بِه الصِّفَة، فأَسْماء الله عَزَّوَجَلَّ يُرادُ بِها إِثْبَات الصِّفَة مَع الاسْمِ،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصّيد والذّبائح وما يؤكل من الحيوان، باب الأمر بإحسان الذّبح والقتل وتحديد الشّفرة، رقم (١٩٥٥).

(٢) مراتب الإجماع (ص:١٥٤).

وَقَدْ يُسمي أحدُهـم وَلده بـ(حكيم) وهُوَ مِن أَسْـفَهِ النّاس، وَكَذلِكَ قدْ يُسـمِّيه بـ(مُحسن) وهُوَ مِن أَشَدِّ النّاس جَوْرًا فضْلًا عَن الإحسَان، أمَّا (عبْدُ الحكِيم) فيَجُوزُ، ولَيْس فِيه شَيْءٌ، وَكَذلِكَ (عَبْد الحمِيدِ)؛ لأَنَّ الحمِيدَ مِنْ أَسْمَاءِ الله عَزَّوَجَلَّ، قَال تَعالَى: ﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥].

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قوْله تَعالَى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾ إِلَى آخِره، هَل نقِفُ عَلَى الآيَات ولو تعَلَّق بِها ما بَعْدَها، أو نَصِلُ ونُرَاعِي المعْنَى؟

قُلْنَا: فِي هَذا قَوْلانِ لأَهْلِ العلْمِ:

فمِنْهم مَن يَرَى أنْ نَقِف عَلَى الآيَات، ويَقُولُ هَذا هُوَ الوَارِدُ عَنِ النَّبيِّ ﷺ، أَنَّهُ كَان يقْرَأُ القرآنَ آيَةً آيَةً[1]، والدّليلُ عَلَى ذَلِك أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ جعلَها آيَةً فتقِفُ علَيْها ولَوْ تعلَّقَ بِها مَا بعْدَها، وَهَذا كثِيرٌ فِي القرآنِ، كَما فِي قوْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ [الماعون:٤]، هَذِهِ آيَةٌ فيَجوُز أنْ نقِفَ، وقوْلُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ۝٢١٩ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [البقرة:٢١٩]، فيَجُـوزُ أنْ نَقِـفَ عَلى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾، وقوْلُه تَعالَى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ آيَةٌ، وقوْلُه تَعالَى: ﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ.

وبعْضُ أهلِ العلْم يَرى أنْ تراعِي المعْنَى فتقِفَ عنْدَ انتِهاءِ المعْنَى، ولَا تفصِلَ الآيَة عَنْ آيَةٍ تتعلَّقُ بِها.

وَلو قِيل بالتَّفْصِـيل، فَإِذا كانَ يَسْرِدُ وهُوَ يقْـرَأُ فإِنَّهُ يَقِفُ عَلَى كُلِّ آيَةٍ؛ لأَنَّ الكلامَ لَنْ ينْقَطِع بَلْ سيَتَّصِل ويتَّضِحُ المعْنَى، وَإِذا كنْتَ تُريد أنْ تتكَلَّم عَلَى معَانِي

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الحروف والقراءات، رقم (٤٠٠١).

الآيَات فإنَّك تُرَاعِي المعْنَى، لكَانَ لَهُ وجْهٌ، لكنْ لَا أعْلَمُ هَلْ قالَ بِذَلك أحدٌ مِن أهلِ العلْمِ، إنّما القولُ بِه عَلَى حسَبِ قواعَدِ أهْلِ العلْم لَا بأْسَ بِه؛ لأَنَّ إحْدَاثَ قولٍ ثالِث يتكوَّنُ مِن القوْلَيْنِ قبْلَه لَا بَأْسَ بِهِ.

وهَذِه مسـألَةٌ محلُّ بحثِها أصولُ الفقْـهِ، وهِي هَلْ يَجُوزُ إذا أجْمَع العلَماء عَلَى قوْلَيْنِ إحْداثُ قولٍ ثالِث؟

والصّوابُ: أنَّه إذا كانَ القولُ الثالِث لا يخْرُجُ عنْهُما فَغايَةُ مَا هُنالك أنَّه يُفَصَّل فِيه، فهُوَ جائِزٌ لأَنَّهُ لا يَكُونُ قدْ خرَج عنِ الخلَافِ، أمَّا إذا كَانَ يخْرُجُ عنْهُما فَلا يَجُوزُ.

فإذَا قُلْنا بالتَّفْصيل هُنا مَا خرَج عنِ القوْلَيْنِ، لكِنَّهُ يقَفِ فِي شيْءٍ، ولَا يقِفُ فِي شيْءٍ آخَرَ، ومِثْلُ هذَا الوِتْرُ، فمِنَ العلَماء مَنْ قَال بأنَّ الوترَ واجِبٌ، وقالَ آخرُونَ: إنَّ الوِتْرَ ليْسَ بواجِبٍ، فإذا قُلْنا إنَّه واجِبٌ عَلَى مَن كَان كَذا، وغيرُ واجبٍ عَلَى مَن كَان كَذا، كَما اخْتَار شيخُ الإسْلام أنَّه واجِبٌ عَلَى مَن لَهُ وِرْدٌ مِن الليلِ يقُومُ بِهِ، وغَيْرُ واجِبٍ عَلَى مَن سِوَاه[1]، صار هَذا القولُ الثالِث لا يخْرُج عَنِ الإجْمَاعِ؛ لأَنَّهُ يُوافِقُ أحَدَ القوْلَيْنِ في حالٍ، ويُوافِقُ القولَ الآخر في حالٍ أُخْرَى، فيَكُون قولًا ثالِثًا لكِنَّهُ لا يَخْرُج عنْهُما، أمَّا إذا كانَ واحِدٌ يَقُولُ بالتَّحْرِيم وَوَاحِدٌ يقُول بالحِلِّ، ثمَّ جاءَ قولٌ ثالِث يقُولُ بالوُجُوبِ فهَذا لَا يمْكِنُ؛ لأَنَّهُ في هذِهِ الحالِ لَا يُوافِقُ القوْلَيْنِ.



(١) مجموع الفتاوى (٢٣/ ٨٨).

الآيـة (٦)

• ● ◌ ● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الرّوم:٦].

• ● ◌ ● •

قال المُفَسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ: [﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾، مَصْدَرٌ بَدَلٌ مِن اللَّفْظِ بِفِعْلِهِ، والأَصْلُ وَعَدَهُمُ الله النّصْرَ]؛ نعْلَم أَنَّه مصْدَرٌ ولَيْسَ فعْلًا، مصْدَرٌ مضَافٌ إِلَى الفاعِل، يعْنِي وَعَد الله إِيَّاهُم، فالمُفَسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ يقولُ: [إنه بدَلٌ مِن فِعْلِه]، أيْ نَائِبٌ منَابَ الفعْلِ، أيْ وعَدَهُمُ الله وقِيلَ: مصْدَرٌ فعلُهُ محذوفٌ ولَيْسَ نائِبًا عنْهُ، وعَلى هَذا فيكُونُ المقَدَّرُ كالموجُودِ، أيْ وعَدْناهُم وعْدَ الله، وَهَذا أقرَب، والمعْنَى أنَّ الله وعدَهُم وعدًا مُضافًا إِلَيْهِ، والوَعْدُ المضَافُ إِلَيْهِ لا يختَلِفُ؛ وَلِهَذا قَال: ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾، فهذِه الجمْلَةُ كالتّوكِيد لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾؛ لأَنَّ المضاف إِلَيْهِ في ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ لا يُمْكِنُ أن يخلِفَ أبَدًا، إذ إنَّ إخْلَاف الوَعْدِ ناشِئٌ عَن كذِبٍ أوْ عَجْزٍ، فإذا وَعدَكَ أحدٌ فأخْلَفَك فَهُو إمَّا كاذِبٌ وإِمَّا عاجِزٌ، والكذِبُ والعجزُ ممتَنِعانِ عِنِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لكمالِ صِدْقهِ وقُدرَتِه، فعَلى هَذا لا يُخْلِف الله وعدَه، ولَا يُمْكِنُ أن يُخْلِفَه.

وإِخْلَافُ الوَعْدِ أنْ يَأْتِي الوَاعِدُ بخلَافِ ما وَعَد بِه، مثلًا رجُلٌ قَال لَك: سأزُورُك غدًا في السّاعَةِ الثّامنَةِ، ثمَّ تأْتِي الثّامِنةُ ولَا يزُورُكَ، فهذا أخْلَفَ وعْدَه، وسبَبُ إخلَافِه إمَّا أَنَّه عاجِزٌ أوْ هُو كاذِبٌ مِنْ أَوَّلِ الأمْر أوْ نَسِي، والنّسيانُ أيضًا

عَيْبٌ، فعَلى هَذا نقُولُ: إنَّ الله لا يُخْلِفُ وعدَه؛ لِكَمال صِدْقِه في خَبَرِه، وكَمالِ قُدْرَتِه في تنْفِيذِ وعْدِه، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كامِلُ القُدْرَة، وكَلامُهُ كامِلُ الصِّدْقِ؛ ولِهَذا قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ به]، أيْ بالنَّصْر، والنَّصْرُ الَّذي وُعِدوا، ﴿وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾.

وفِي الآيَات التي سبَقَتْ وعْدٌ آخَرُ للمُؤْمِنينَ بالفَرَح؛ لقَوْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، فوَعَدَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بانتصار الرّوم عَلَى الفرْس وبِفَرَح المؤْمِنينَ، ولا شَكَّ أنَّ الفرَحَ فِيه مِن انبِسَاط النَّفْس وسُرورِها وانْشِراحِها مَا هُو نعمَةٌ يُنْعِمُ الله بِه عَلَى الفرِحِ.

قَوْله تَعالَى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ عُطِف علَيْه قولُه: ﴿وَلَٰكِنَّ﴾، أو يحتَمِلُ أنَّه معطُوفٌ عَلَى قوْلِه تَعالَى: ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾، و(لكنَّ) تنصِبُ الاسْم وترْفَعُ الخبَر، واسْمُها ﴿أَكْثَرَ﴾ وخبَرُها جُمْلَةُ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقوْله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ أي كُفَّار مكة]: تخصِيصُ ذَلِك بكُفَّارِ مكَّةَ فِيه نَظَرٌ، والصَّوابُ أنَّه يشْمَلُ كُفَّار مكَّةَ وغيرَهم، وكلُّ مَن ليْسَ عنْدَه إيمانٌ فإنَّهُ لَا يعْلَمُ ما للهِ تَعالَى مِن تنفيذِ الوَعْدِ؛ لأنَّهُ بيْنَ مكذِّبٍ وشَاكٍّ متردِّدٍ فلَا يعْلَمُه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ وعدَه تَعالَى بنصرهم]: والظَّاهرُ أنَّهم لا يعلمُونَ وعدَه تعالَى بنصرِهم، ولا يعلمونَ أنَّ الله تَعالَى لا يُخْلِف الوَعْدَ، أيْ لا يعْلَمُون الأمْرَيْنِ جميعًا، فَلا يعْلَمُون أنَّ الله تَعالَى سيُحقِّق النَّصْرَ لَهُمْ إمَّا لجهلهم بما أخْبَرَ الله به، وإمَّا لشَكِّهم في صدْقِه أو قُدرة الله علَيْه، ولَا يَعْلَمُونَ أيضًا أنَّ الله لا يُخْلِفُ الوَعْدَ فِي هَذا وفِي غيْرِه لشَكِّهم في صِدْقِ الله وفي قُدْرَته تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَى إنْفاذِ موْعُودِه.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾: مقْتَـضاهُ أنَّ أقلَّ النّاس يعْلَمُـونَ، لأنَّهم مُؤمِنُون باللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وبما لَهُ مِن القُدْرَة والصّدْقِ والقوْلِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: أنَّ غلبَـةَ الرّومِ للْفُرسِ وفـرَحَ المؤْمِنينَ بذَلِك خبَـرٌ متَضَمِّنٌ للوَعْدِ.

الفائِدَةُ الثّانيَةُ: امتِـنَاع إخْـلَافِ الله تَعالَى وعْـدَه؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾.

الفائِدَةُ الثالِثَةُ: ثُبـوتُ القُدْرَة والصّدْقِ لله عَزَّوَجَلَّ؛ مأخُـوذَةٌ مِنْ قَوْلِهِ تعالَى: ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾؛ لأنَّهُ متضَمِّنٌ لكمالِ الصّدْقِ والقُدْرَة.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: أنَّ أكْثَر النّاسِ غَيْرُ عَالـمينَ بما يسْتَحِقُّه الله تَعالَى مِن صِفاتِ الكمالِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: أنَّ العلْمَ الحقيقِيَّ هُو العلْمُ باللهِ تَعالَى وأسمـائِهِ وصِفاتِهِ؛ لا العلْمُ بالدّنيا؛ لقوْلِه عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، ثمَّ قالَ في الآيَة التي بعدَهَا ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا﴾، فنَفَى العلْمَ عنْهُم لأنَّ علْمَ الدّنيا في الحقيقةِ ليْسَ بعِلْمٍ، فيُستفَاد منْهَا أنَّ العلْم الحقيقِيَّ الّذي يُمْدَح علَيْه المرْءُ هُو العلْمُ باللهِ وأسمائِه وصِفَاتِه وأحْكَامِه.



الآيـة (٧)

• ● ✿ ● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم:٧].

• ● ✿ ● •

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أَيْ مَعَايِشهَا مِنْ التِّجَارَة وَالزِّرَاعَة وَالبنَاء وَالغرْس وَغَيْر ذَلِك ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ إعَادَة هُمْ تأكِيد] اهـ.

قوْله تعالَى: ﴿ يَعْلَمُونَ﴾ خبَرٌ ثانٍ لـ(لكنَّ)، والخبَر الأوَّلُ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، وقِيل أنّه بدَلٌ مِنْ قوْلِه تعالَى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، ورُدَّ هَذا القوْلُ لأنَّهُ لا يُبْدَلُ المثبتُ مِن المنْفِيِّ للتَّضادِ، فكيْفَ تُبْدِلُ شيْئًا مثبتًا مِن شيْءٍ مضَادٍّ له، وعَلى هَذا فَإِنَّ ﴿ يَعْلَمُونَ﴾ الثّانيَة خبَرٌ ثانٍ لـ(لكنَّ)، وتعَدُّد الخبَر جائِزٌ.

قوْله تعالَى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ سبحانَ الله العظيمِ! أثْبت لَهُمُ العلْمَ لكِنَّهُ علْمٌ قاصِرٌ مِن وجْهَيْنِ:

الوَجْهُ الأوَّلُ: أنَّهم إنَّما يعلَمُونَ ظاهِرًا مِن الحياةِ الدّنْيا، لَا باطِنًا، وكَمْ مِنَ الأمورِ الخفِيَّةِ في هَذِهِ الحيَاةِ لا يعْلَمُها أُولئِكَ الكفَّارُ، فالكفَّارُ لا يعْلَمُونَ كُلَّ خفِيٍّ في هَذِهِ الدّنيا، والدّليلُ عَلَى هَذا تطوُّرُ الصّنائعِ والمختَرعاتِ لأَنَّ هَذا التّطوُّرَ بالنِّسبَةِ للسَّابقِينَ غيْرُ معلومٍ، ثمَّ سيَأْتِي تطوُّرٌ آخرُ يكونُ بالنّسبَةِ للمَوْجُودِينَ غيرَ معلومٍ.

إِذَنْ: هُم إنما ﴿ يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، فلَا يعْلَمُون كُلَّ مَا في الدّنيا مِن ظَاهِرٍ وبَاطِنٍ.

الوَجْهُ الثَّاني: أنّهم يعلَمونَ ﴿ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، وليْسَ كلَّ ظاهِرٍ، وفرْقٌ بينَ أنْ يعْلَمُوا كلَّ ظاهِرٍ مِن الحياةِ الدّنيا وأنْ يعْلَمُوا الظّاهِرَ مِن الحيَاةِ الدّنيا وأنْ يعْلَمُوا ظاهِرًا منهَا، فالتّعبِيرُ يكُونُ عَلَى هَذِهِ الوُجُوهِ، والأخِيرُ يعني أنّهم لَا يَعْلَمُونَ كُلَّ ظاهِرٍ إنما يعْلَمُون ظاهِرًا منْهَا فقَطْ، وأنَّ هناك ظَواهِرَ أخْرَى لَا يعْلَمُونَها أيضًا، فعُلم بِهَذا قُصُورُ عِلْمِ هَؤُلاءِ، فهُمْ فِيما يتعلّقُ باللهِ جَلَّوَعَلَا جُهّالٌ لا يعلمونَ، وفِيما يتعلّق بالدّنْيا إنّما يعْلَمُونَ ظاهِرًا مِنَ الحيَاةِ الدّنيا فقَطْ.

أمَّا فِيما يتعلّقُ بالآخرةِ فيقولُ تعالَى: ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ﴾، وهذِهِ جمْلَةٌ اسْمِيَّةٌ أُكِّد فِيها المبتدأُ (هم) بتكرارِه، فـ(هُم) الثّانية توكِيدٌ للأُوْلى، ولَو حُذِفَت وقِيلَ: (وَهُم عَن الآخرةِ غَافِلُون) كانَ الكلامُ مستقيمًا، لكنَّه كُرِّر للتّوكِيد، يَعْني هُم بالنّسْبَة لأُمُورِ الآخرة غافِلُون مُعْرِضُون عنها لا يُفكِّرونَ فِيها، تَجِد الواحِدَ منْهُم في أُمُور الدّنيا فتَنبَهِرُ مِن علْمِه بِها، ولكن فِي أمورِ الآخرةِ عنْدَه غفْلَةٌ لا يُفكِّر فِيها، ولَا يُحاوِلُ أن يُعمِلَ فِكْرَهُ، ولا أنْ يَنْظُرَ في هَذا الخلْقِ العظِيم، غَافِل عنْ مَاذا يكونُ مآلُه؟ وكَيْف خُلِق؟ وإلى أيْنَ ينْتَهِي؟

وقالَ الله تَعالَى في آيَةٍ أخْرَى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَـٰذَا﴾ [المؤمنون:٦٣]، يعْني مِنْ أَمْر الإِيمَان باللهِ وبِرَسُولِه ﷺ، ﴿وَلَهُمْ أَعْمَـٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ أعمالٌ أخْرَى، ﴿هُمْ لَهَا عَـٰمِلُونَ﴾ [المؤمنون:٦٣]، يُدرِكونَها تمامًا، لكِنْ في أمْرِ الإيمَـان باللهِ واليَوْمِ الآخِـر قلوبُهم في غمْرَةٍ؛ ولِهذا يجِدُ جزاءَ هذهِ الغمرةِ إذا قِيلَ لَهُ: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق:٢٢]، وَهَذا يكُونُ يوْمَ القيامَةِ.

المُهِمُّ: أنَّ هَؤُلاءِ الَّذِين غَفَلُوا عن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وعَنِ الآخرة عنْدَهم عِلْمٌ مِنَ الحياةِ الدّنيا، راجِعِ الآن الصّنائع تجِدْ شيْئًا يُبْهِرُك لكِنْ مِنْ قَوْمٍ هُم في أمْرِ الآخرةِ أُمِّيـونَ لَا يعْلَمُونَ شيْئًا؛ لأنّهُم -والعياذُ باللهِ- عنْدَهم غفْلةٌ وَلِهَذا تتعجَّبُ: كيْـفَ يَصِلُ هـؤُلاءِ إِلَى الأجْواءِ ويصْنَعونَ الطّائراتِ والآلاتِ الغرِيبَةَ، ومَع ذَلِك ليْسَ عنْدَهُم عِلْمٌ بِاللهِ واليَوْمِ الآخر، فلَو سألتَ الطّفل مِن المسْلِمينَ أجابَك، ولو سألت أكبَرَ واحدٍ منْهُم مِن المختَرِعِينَ ما أجَاب، وَذَلِكَ فضْلُ الله يُؤتيهِ مَنْ يشَاءُ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هلِ الضّمِيرُ في قوْله تَعالَى: ﴿ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ يعودُ عَلَى الكفّار أمْ يعُودُ عَلَى غيرِهم مِن المسْلِمينَ الغافِلِينَ؟

قُلْنَا: يَعُود عَلَى الكفّارِ؛ لأَنَّ المقْصُودَ بِهَذا تأْكِيدُ الذّمِّ في حقِّهم، وإلّا فحَتّى المؤمِنُون لا يَعْلَمُونَ إلا ظاهرًا مِنَ الحيَاةِ الدّنيا، بِدَليلِ قوْلِه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [النّحل:٨].

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: بعْضُ المسْلِمينَ غافِلُون عَنْ أكْثَرِ أُمـورِ الدّينِ، ولكنّهُم عالمونَ بأمُور دُنياهُم؟

قُلْنَا: هذَا صحِيحٌ، وَهَذا فِيه شبَهٌ مِنَ الكفّارِ حيْثُ حقّق أمورَ الدّنيا، وأَعْرَضَ عَن أُمورِ الآخرةِ.

الحاصِلُ: أنَّ المقْصُودَ مِن هَذا تأكِيدُ الذّمِّ بِالنّسبَةِ لهُم، هَؤُلاءِ الَّذِين جهِلُوا باللهِ وصِدْقِ وعدِه لا لِقُصورٍ فِيهم أَو في أفْهامِهِمْ، لكِنْ لغَفْلَتِهم، وإلّا فإنَّ المؤمِنِين أيضًا يعْلَمُون ظَاهرًا مِن الحيَاةِ الدّنيا ولَا يعْلَمونَ كُلّ شيْءٍ، لكنَّ المؤمِنِين معَهُم عِلْمٌ باللهِ وأسمائِهِ وصِفَاتِهِ وحِينَئِذٍ لا يكُونُ هَذا نقْصًا فِيهم، إنما محَطُّ النّقْصِ هُو أنَّ هَؤُلاءِ لا يَعْلَمُونَ ما يتعلّقُ بالإيمان باللهِ، ويَعْلَمُون ظاهِرًا مِنَ الحيَاةِ الدّنْيا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هَل الكفَّارُ يُؤمِنُون بوجُودِ الله أمْ يُنْكِرونَ وُجودَه؟

قُلْنَا: يختَلِفُون، فمِنْهم مَن يُنْكِرُ وُجودَ الله، ومِنْهُم مَن لَا يُنْكِرُ، لكِنَّ الَّذي لا يُنْكِرُ وُجُودَ الله ويُؤْمِنُ بِوجُود الله ثمَّ يَعْبُد غيرَهُ ويُشْرِكُ فهَذا مُتَناقِضٌ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: قُصُور عِلْم المرْءِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، ليْسَ كُلَّ الظَّاهِر، وليْسَ الباطِنَ، فالمرْءُ علْمُه قاصِرٌ حتّى في أُمورِ الدّنيَا أيضًا، فَلا يمْكِنُ للمَرْء الإحَاطَةُ بعِلْمِ الدّنْيا.

الفائِدَةُ الثّانيَةُ: ذَمُّ الَّذِين يتكالَبُون عَلَى العلومِ الدّنْيويَّةِ مَع غفْلَتِهم عَن الآخرةِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾.

الفائِدَةُ الثالِثةُ: أنَّها تتضمَّنُ مدْحَ مَنْ يُقْبِلونَ عَلَى الآخرةِ، ويَحْرِصُونَ علَيْها وإِنْ فَاتَهُم شيْءٌ مِنْ أُمورِ الدّنيا؛ لأنَّهُ إذَا ذَمَّ مَن كانَ عَلَى العكْس فذَمُّ الضّدِّ مدْحٌ لضِدِّه، فالَّذِين يُقْبِلُونَ عَلَى الآخرةِ -وإِنْ كانَ ليْسَ عنْدَهُم إلا عُلُومٌ قليلَةٌ مِن الدّنيا- أكْمَلُ بكَثِيرٍ مِنَ الَّذِين يُقبِلُون عَلَى الدّنيا ويَغْفَلُونَ عنِ الآخرةِ، وَهَذا ما تدُلّ علَيْه هَذِهِ الآيات.



الآيــة (٨)

• • ◦ • •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ [الرّوم:٨].

• • ◦ • •

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ لِيَرْجِعُوا عَنْ غَفْلَتِهِمْ ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ لِذَلِكَ تَفْنَى عِنْد انْتِهَائِهِ وَبَعْده البعْث ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أَيْ كُفَّار مَكَّة ﴿بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ أَيْ لَا يؤمنون بالبعث بعد الموت] اهـ.

قَوْله تَعالَى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟﴾: مثْلُ هَذا التّركيبِ فِي إعرابِه للنَّحْويِّينَ قولَان:

أحدُهُما: أنَّ الهمزَةَ مُقَدَّمَةٌ عَلَى مكانِها، وأنَّ أصلَها: (وَأَلم يتفكَّروا)، فتكُونُ الجمْلَةُ معطوفَةً عَلَى مَا سبق.

والوَجْهُ الثَّاني: أن تكُونَ الهمزَةُ داخِلَةً عَلَى محذوفٍ يُقَدَّر بحسب السِّيَاقِ، ويكُونُ ما بعْدَها مِن حرْفِ العطْفِ عاطِفًا عَلَى ذَلِك المحذوفِ، وفِي هَذِهِ الآيَة يَكُون التَّقْدِيرُ: (أَغفَلوا ولم يتفكَّروا)؛ لأنَّهُ لما قال: ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ قالَ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟﴾، والاسْتِفْهام للتَّوبيخِ؛ لأنَّ الإنسان مأْمُورٌ بأَنْ يتفكَّرَ.

قَوْله تَعالَى: ﴿فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ هَل هُو محَلُّ التّفكُّر أو آلَةُ التّفكُّر، بمعْنَى هَلِ المَقْصودُ مِنَ الآيَة الحثُّ عَلَى تفكُّرِهم في أنْفُسِهم كَما في قَوْله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ

أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذّاريات:٢١]، أوِ الحثُّ عَلَى التّفكُّرِ في خلْقِ السّموَات وَالأرْض في أنْفُسِهم؟

نَقُول: يُراد بِه كِلا الأمْرَينِ، لكنَّ الأقربَ الأخيرُ؛ وَلِهَذا قالَ: ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، فالمعْنَى: (أَوَلم يَرْجِعُوا إِلَى أَنْفُسِهم ويتفكَّروا تفكيرًا حقيقيًّا في هَذا الكوْنِ ليَعْرِفُوا بذَلِك حكمَةَ الله عَزَّوَجَلَّ وما يتضَمَّنُه مِن صفَاتِه العظِيمَةِ).

قوْله تَعالَى: ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾: ﴿مَّا﴾ نَافِيَةٌ، والدّليلُ قوْله تَعالَى: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، وَ﴿خَلَقَ﴾ بمعْنَى أوْجَد وأبْدَع، ولا يَكُون غالبًا إلا بتَقْدِيرٍ وتنظيمٍ؛ لأَنَّ أصلَ الخلْقِ التّقْدِيرُ في النّفْسِ، كما قال الشّاعر:

وَلأَنْتَ تَفْرِي ما خَلَقْتَ وَبَعْـ ـضُ النّاس يَخْلُقُ ثمَّ لا يَفْرِي[1]

يَعْني تُمْضِي ما قَدَّرتَ، فالخلْقُ هُو الإبْداعُ بتَقْديرٍ وتنْظِيمٍ.

وقوْله تَعالَى: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: المرَادُ بِها الطّباقُ، وكانَتْ سبْعًا.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾: مفْرَدٌ، والمرَادُ الجِنْس، فيَشْمَلُ جَميعَ الأرْضينَ وهِي سبْعٌ، وعُطِفت عَلَى السّمَوَاتِ وهِي منصُوبَةٌ؛ وَلِهَذا فُتِحَتْ بخلَافِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ لأَنَّهَا جَمْعُ مؤنَّثٍ سالِمٍ.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾: ﴿مَا﴾ اسْمٌ موصُولٌ معطُوفٌ عَلَى السّموات، والعلَماءُ يقُولونَ أَنَّه إذا تعدَّدَتِ المعطُوفَاتُ فالمعطُوفُ عليْه هُو الأوَّل؛ لأَنَّهُ المبَاشِرُ للعامِلِ وما بَعْدَه فرْعٌ عليْهِ، فيكُونُ العطْفُ إِذَنْ عَلَى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، فلَو قُلْتَ: جاءَ زَيْدٌ وعمْرٌو وبَكْرٌ وخالدٌ وسعيدٌ، فسَعِيدٌ معطُوفٌ عَلَى زيدٍ الأوَّلِ؛ لأَنَّهُ المباشِرُ

(١) ذكر الجوهري في الصّحاح (٤/ ١٤٧١)، ونسبه إلى الشّاعر زهير بن أبي سلمى.

ومَا بعْدَه فرْعٌ، والفرْعُ لا يُعْطَفُ عَلَى فرْعٍ، بَل يُعْطَفُ عَلَى أصْلٍ.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ البيْنيَّـةُ لا تقتضِي التماسَّ، فقَدْ يكونُ الشّيْءُ بيْنَ الشّيئَيْـن وهُوَ لا يمسُّ أحدَهما، فهنا الَّذي بيْنَ السّمـاءِ والأرْض لا يلزمُ أنْ يمَسَّ أحدَهما، لكنَّه يمكِـن أن يمسَّ، فعَلى هَذا نقـولُ: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ يشمَلُ السّـحابَ والرّياحَ والنّجـومَ والشّمـسَ والقمرَ وغيـرَ ذَلِك مِنَ المخلوقَـاتِ العظِيمَةِ التـي لا نعلَمُها، وفي التّنْصيصِ عَلَى ذِكْر مَا بيْنَ السّموَاتِ وَالأرْض دلِيلٌ عَلَى أنَّ ما بَيْنَهُما أمْرٌ عظِيمٌ يُقارَنُ بنفْسِ السّموَاتِ وَالأرْض، وَهَذا يعلَمُهُ أهْلُ الفلَكِ الَّذِين يَطَّلِعُونَ عَلَى مَا في الأفُقِ مِنَ الآيَات العظِيمَةِ التي تدُلّ عَلَى مَا تدُلّ علَيْه مِنْ كَمالِ الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوْله تَعالَى: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾: هَذا محطُّ الفائِدَةِ مِنْ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾، فهذَا حصْرٌ، أيْ هَذا الخَلْقُ مُقارَنٌ بالحقِّ، فـ(الباءُ) إِذَنْ للمُصاحَبةِ والملاَبسَةِ، أيْ أنَّ خلْقَهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مصْحُوبٌ بالحقِّ؛ لأَنَّهُ مُتضمِّنٌ لكَمالِ العدْلِ وكَمالِ الصّدْق، فَما قامَتِ السّموَاتُ وَالأرْض إلا بالعدْل، والعدْلُ حقٌّ، وهذَا يشْمَلُ أنْ يكُونَ الغايَةُ منْ خلقِها الحقَّ ابتداءً وانتهاءً، كمَـا قالَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الأنبياء:١٦]، وَلَوْ كانَتْ هَذِهِ السّموَاتُ وَالأرْض خُلِقَـتْ لتَحْيا الخليقَةُ عليْها وتَعِيشَ وتمُـوتَ بِدُونِ جَزاءٍ ولا حِسـابٍ ولا ثَوابٍ ولا عِقابٍ لكَانَ خلْقُها بَاطِلًا ولَيْس بحَقٍّ.

إِذَنْ: لا بُدَّ لهذِهِ المخلُوقاتِ العظِيمَةِ أنْ يكُونَ لها غَايَةٌ، وهَذِه الغايَةُ هِيَ الحقُّ، فعَلى هَذا نَقُولُ: إنَّ قوْله تَعالَى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ يشمْلُ الابْتِداءَ والانْتِهاءَ.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: معطُوفٌ عَلَى قوْلِه تَعالَى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، يعْنِي ما خلَقَهم أيضًا إلا بأَجَلٍ مُسمًّى، أيْ مُعيَّن، والأجَلُ غايَةُ الشّيْءِ، وهُوَ مُسمًّى مِن

قِبَل الله تَعالَى، فهُو الَّذي عيَّنه، وهذَا التَّعْيينُ يشْمَلُ الابتِداءَ والانتِهاءَ، فابتداؤُها بأَجَلٍ وانتِهاؤُها بأَجَلٍ أيضًا، فإِنَّ الله تَعالَى أَوْجَد هَذِهِ السَّموَاتِ وَالأَرْض بَعْدَ أنْ كانَتْ معدُومَةً، وإيجادُهُ لها كَانَ بِالأجَلِ المعَيَّنِ عنْدَه، وَكَذلِكَ سوْفَ يُنْهِي السَّموَاتِ وَالأَرْضَ، وإنْهاؤُه إيَّاها بالأجَلِ.

إِذَنْ: كُلُّ شيءٍ عنْدَ الله عَزَّوَجَلَّ مُقَدَّرٌ، حتَّى الحوادِثُ التي تَحْدُث فِي السَّمواتِ وَفِي الأرْض بعْدَ خلْقِها، وإيجادُها كُلُّه بأَجَلٍ لا يتقَدَّمُ ولا يتأَخَّرُ، وإذا تأمَّلْتَ قلِيلًا عرَفْتَ بذَلِك كمَالَ قُدْرَةِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وكيْفَ أنَّ هَذِهِ الأمُورَ والشُّؤُونَ العظِيمَةَ الكثِيرَةَ كُلَّها تُدَبَّرُ بأَجَلٍ لا يتقَدَّمُ ولا يتأَخَّرُ، فنَحْنُ مثَلًا نُقَرِّرُ أنْ نبْدأَ الدّرْسَ في السّاعَةِ الثّامِنَةِ، ولكِنْ أحيانًا نبْدَأُ السّاعَة الثّامِنَةَ والنّصْفَ، وأحْيانًا السّاعَةَ الثّامِنَة والثّلُثَ، فنتأَخَّرُ وَلا يَنْتَظِمُ أمرُنا مَع أنّه بَسِيطٌ، وهَكذَا كُلُّ شُؤونِ الخلْقِ لا يُمْكِنُ لأحدٍ أن يَضْبِط جَمِيعَ أعمَاله بأَجَلِها المحَدَّدِ مهْما بلَغَ فِي الحرْصِ؛ لأنَّهُ قد يَعْتَرِيه مَا لا طَاقَةَ لهُ بِه؛ فَلا يستَطِيعُ، لكِنَّ الرّبَّ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى حدَّدَ كُلَّ شيْءٍ بأَجَلِه لا يتقَدَّمُ ولا يتأَخَّرُ، ولا شَكَّ أنَّ هذَا مِن كَمالِ الحكْمَةِ والصّنْع، ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النّمل:٨٨].

فإذَا تأَمَّلْنا هَذا الكوْنَ العظِيمَ عَلَى مَا فِيه مِنَ الحوَادِث الفلَكِيَّةِ والأرْضيَّةِ والعامَّةِ والخاصَّةِ فإنَّنا فِي الحقِيقَةِ نسْتَدِلُّ بِه دَلالَةً واضِحَةً عَلَى كَمال قُدْرَةِ المدَبِّرِ لهذَا الكوْن الخالِق لَه، وأنَّ كُلَّ شيْءٍ بأجَلٍ.

وفي آيَةٍ أُخْرَى ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرّعد:٨]، فهُو أيضًا بمِقْدارٍ، فهُوَ بأَجَلِه وبمقْدَارِه، لا يَزِيدُ ولا يَنْقُصُ، سُبْحانَ الله العظِيم.

قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ لِذَلِكَ تَفْنى عِنْدَ انْتِهَائِهِ وبَعْدَهُ البعْثُ]: أي:

تَفْنى السّموَاتُ وَالأَرْض وما بَيْنَهُما عنْدَ انتهاءِ هَذا الأجَلِ، ثمَّ يأْتِي البعثُ.

قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي كُفَّار مكَّة]: خصَّه المُفسِّر بأَهْلِ مكَّةَ، والصّوابُ العُمُوم، فيَشْمَلُ أهْلَ مكَّةَ وغيْرَهم، فَكثِيرٌ مِنَ النّاسِ يُنْكِرُونَ البعْثَ، بلْ يُمْكِنُ أنْ نَجِد في غيرِ أهْلِ مكَّةَ مَنْ هُم أشَدُّ منْهُم إنْكارًا للْبَعْثِ، فتَخْصِيصُ العامِّ في القرآنِ أمْرٌ لا يَنْبَغِي إلا إذَا قَامَ الدّلِيلُ عَلَى هَذا.

وقوْله تَعالَى: ﴿بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾: اللِّقَاءُ بمعْنَى المواجَهَةِ والمقابَلَةِ، وكُلُّ إنْسَانٍ سواءٌ مؤمنًا أو كافِرًا سوْفَ يَلْقى الله عَزَّوَجَلَّ؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦]؛ لأنَّهُ قالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ وَهَذا عَامٌّ، ثمَّ قالَ بعدَ قوْله تَعالَى: ﴿فَمُلَٰقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الانشقاق:٦-٧]، ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ [الانشقاق:١٠]، فدَلَّ هَذا عَلَى أنَّه عامٌّ، فكُلُّ أحدٍ ملاقٍ الله عَزَّوَجَلَّ، وسوْفَ يحاسِبُه، ولكِنَّ حِسابَ الله للنَّاسِ يخْتَلِفُ، فالمؤْمِنُ يُقرِّرُه الله بذُنُوبه، فَإذا أقَرَّ بِها غَفَر لهُ، وأمَّا الكافِرُ -والعياذُ باللهِ- فإنَّهُ يُجْزَى بِها ويُعاقَبُ علَيْها، ويَكُونُ هوانًا لَهُ.

والكفْرُ في اللُّغَة السّتْرُ، ومنْه سُمِّي الكفُرَّى الَّذي هُو كافُورُ النّخْل -غُلاف الطّلْع-؛ لأنَّهُ يسْتُرُهُ والمرَادُ بالكفْر سَتْرُ نعمةِ الله عَزَّوَجَلَّ عَلَى المرْءِ بحَيْثُ يَعْصِيهِ إذا أمَرَه ويجْحَدُه إذا طلَبَ مِنْه الإيمان، وأنْواعُ الكفْر كثِيرَةٌ:

منْهَا: الكفْر المخْرِجُ عَن الملَّةِ.

ومِنْها: الكفر أَي: خِصالُ كَفْرٍ، وليْس الكفْر المطْلَقِ.

وَهَذا يَرْجِعُ إِلَى حَسَبِ النّصُوصِ الشّرْعِيَّةِ.

فَائِدَةٌ: الَّذي لَا يَعْمَلُ بمقْتَضَى إيمانِه فَوُجودُ إِيمانِهِ كالعدَمِ؛ لأَنَّ الكفْرَ نَوْعَانِ:

- كُفْرُ جَحْدٍ.

- وكُفْرُ اسْتِكْبارٍ.

وقوْله تَعالَى: ﴿لَكَٰفِرُونَ﴾: (اللام) للتوكيد، و(كافِرُون) خبَرُ إنَّ، و﴿بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ﴾ متعلِّقٌ بِه، وقُدِّم علَيْه لمِرَاعَاةِ الفواصِلِ، ومُراعَاةُ الفواصِلِ في القرآنِ الكرِيم ظاهِرٌ؛ لأَنَّ القرآنَ -أوْ لأَنَّ الكلامَ عامَّةً- إِذا كانَتْ لَهُ فواصِلُ متَّفِقَةٌ يَكُونُ هَذا أنْشَطَ للنَّفْسِ وأرْغَبَ فِي استِماعِهِ وتِلَاوَتِهِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفوائِدُ الأوْلى والثّانِيَةُ والثالِثَةُ: تَوبِيخُ مَن أعْرَض عَنِ التّفكُّرِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ﴾؛ لأَنَّ الاسْتِفْهام هُنا للتَّوبِيخِ، ويتفَرَّعُ عَلَى هَذِهِ الفائِدَةِ فائِدَةٌ ثانِيَةٌ: وهِي الحثُّ عَلَى التّفكُّرِ، ويتفرَّع علَيْه الفائِدَةُ الثالِثَةُ وهِي أهمِيَّةُ التّفكُّرِ؛ لأَنَّ الله لا يَحُثُّ عَلَى شَيْءٍ ويُوبِّخُ عَلَى ترْكِه إلا لما فِيهِ مِنَ الفائِدَةِ والمصْلَحِة.

الفائِدَتانِ الرّابِعَةُ والخامِسَةُ: أنَّ محَلَّ التّفْكِيرِ هُو العقْلُ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿فِيٓ أَنفُسِهِم﴾، هَذا إِذا قُلْنا: إِنَّ المرَاد كَوْنُ النَّفْسِ آلةَ التّفكُّر وطرِيقَ التّفكُّرِ.

أمَّا إِذا قُلْنَا أنّها محَلُّ التّفكُّر فيُستَفاد منِه فائِدَةٌ وهِي عظِيمُ صُنْعِ الله عَزَّوَجَلَّ في نَفْسِ الإنسان، ومَا أوْدَعهُ فِيه مَنَ العجائِبِ، وإِذا أَرَدْتَ أنْ تعْرِفَ ذَلِك فاذْهَبْ إِلَى أهْلِ العلومِ والطّبِّ تجدْ في جِسْمِك العجَبَ العجابَ، فهَذا الطّعامُ الَّذي تأْكُلُه يتحَوَّلُ إِلَى دَم، ويتَوزَّعُ عَلَى الجسْمِ بحسَبِ أنْسِجَتِه، فتُعطَى الأعْصابُ كمِّيَّةً تلِيقُ بِها، ويُعطَى اللَّحْمُ كمِّيَّةً تلِيقُ بِه، وتُعطَى العظَامُ كميَّةً تلِيقُ بِها، فهَذِه الأنَابِيبُ الدّقِيقَةُ مثْلَ الشّعْرِ توزِّعُ عَلَى هَذا الجسْمِ بقَدْرِ ما يَحْتَاجُ إِلَيْهِ.

وقَدْ ذَكر ابْنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابِ (مِفْتَاحُ دَارِ السّعادَةِ) مِنْ هَذا شيئًا كثيرًا، وهَذا قَبْلَ أنْ يَرْتَقِي الطّبُّ إِلَى ما ارْتَقى إِلَيْهِ اليَوْمَ.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: أنَّ خالق السّمواتِ وَالأرْض هُو الله؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، فلَمْ يخْلُقْهما أحَدٌ؛ وَلهذا قَال في سُورَةِ الطّورِ ﴿أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطّور:٣٦].

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: إثْبَات تعدُّدِ السّمواتِ وهِي سَبْعٌ، وأمَّا الأرْض فَهِي دَائِمًا تُفْرَدُ فِي القرآنِ، ومَا ذُكِرَتْ في القرآنِ مجْموعَةً، لكِنْ أُشِير إِلَى أنّها جَمْعٌ فِي قوْله تعالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطّلاق:١٢].

الفائِدَةُ الثّامِنَةُ: أنَّ بَيْن السّموَاتِ وَالأرْض مِن المخْلُوقاتِ العظِيمَةِ مَا استَحَقَّ أنْ يُجْعَل قَسِيمًا لخَلْقِ السّموَات وَالأرض، لقولِه تعالَى: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾، وهَذِه ثلاثَةُ أشْياءِ: (السّموَاتُ، وَالأرض، ومَا بَيْنَهما)، وكُلُّنا يعْلَم عِظَم الأرْض وعِظَمَ السّماءِ، إِذَنْ: فعِظَمُ مَا بَيْنَهما مُوازٍ لهُما.

الفائِدَتَانِ التّاسِعَةُ والعاشِرَةُ: عِظَم قُدْرَةِ الله عَزَّوَجَلَّ وبَالغ حكْمَته، أمَّا الحكْمَةُ فنَأْخُذُها مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، فهِي ليْسَتْ عبَثًا بل بالحقِّ، أمَّا القُدْرَة فنأْخُذُها مِن عِظَم المقْدُورِ، فعِظَمُ المقْدُورِ يَدُلُّ عَلَى عَظَمَةِ الخلْقِ، وَهَذا مِنَ الدّلالَةِ باللّازِم، وَإِنَّ الله إذا فتَح عَلَى العبْدِ مَعْرِفَةُ لوَازِمِ النّصوصِ اسْتَفادَ بذَلِكَ فوَائِدَ عظِيمَةً، حتَّى أنَّه يأْخُذُ مِنَ النّصِّ الوَاحِدِ مِنَ المسَائِلِ مَا لا يَأْخُذُ غَيْرُه نِصْفَها أوْ أقَلَّ.

الفائِدَةُ الحادِيَةَ عشْرَةَ: أنَّه ينبَغِي لِلإنْسَانِ أنْ لا يُضيِّعَ وقتَهُ سبَهْلَلًا[1] وسُدًى؛

(١) قال الفيروزآبادي في القاموس المحيط (ص:١٣٠٩): «يَمْشِي سَبَهْلَلًا: إذا جاء وذهَبَ في غيرِ شيءٍ».

نأْخُذه مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾؛ لأَنَّ ضِدَّهُ الباطِلُ، والباطِلُ إِمَّا ضارٌّ وإِمَّا غيرُ ضارٍّ ولَا نافِعٍ، وكُلُّ لهوٍ يلْهُو بِه ابْنُ آدم فهُوَ بَاطِلٌ إلا كَذا وكَذا(١).

والمُهِمُّ: أَنَّه ما دَامَتِ السّموَاتُ وَالأَرْض كُلُّها خُلِقَتْ بالحقِّ والجدِّ والصّدْقِ والثّباتِ فيَنْبغِي لكَ أنْ تكُونَ موافِقًا لهِذه الحِكْمَةِ التي مِنْ أجْلِها خُلِقَتِ السّموَاتُ وَالأَرْض.

الفائِدَتانِ الثّانِيَةَ عشْرَةَ والثالِثَةَ عشْرَةَ: أنَّ هَذا الخلْقَ عَلَى عِظَمِه لَه أَجَلٌ محدُودٌ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي مُعيّنٍ، وكلُّ شيْءٍ في السّموَاتِ وَالأَرْض كُلِّيًّا كَان أمْ جُزْئِيًّا فإِنَّهُ مُحَدَّدٌ إِلَى أجَلٍ مُسَمًّى، وسوَاءٌ كانَ ذَلِك عيْنًا أَوْ صِفَةً فإِنَّها محدَّدةٌ إِلَى أجَلٍ مُسَمًّى؛ وَمِن الحكَم المشْهُورَةِ (دوَامُ الحالِ مِنَ المحَالِ)، وَهَذا يتفرَّعُ عليْه فائِدَةٌ أُخْرَى وَهِي أنَّ الخلْقَ ناقِصٌ، حيْثُ لم يُقَدَّر لَهُ الأبدِيَّةُ، فَهُوَ نَاقِصٌ، وَلهَذا تأْتِي الحياةُ الآخرةُ كامِلَةً؛ لأَنَّهَا مؤَبَّدَةٌ.

الفائِدَةُ الرّابعة عشْرَةَ: كمالُ الحِكْمَةِ؛ حيْثُ كانَ كُلُّ شيْءٍ لَهُ أجَلٌ مقدَّرٌ منَظَّمٌ، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرّعد:٨]، والمِقْدَارُ يشْمَلُ مِقْدَارَ الكمِّيَّةِ ومِقْدَارَ الكيْفِيَّةِ ومِقْدَارَ الزّمنِيَّةِ ومِقْدَارَ المكَانِيَّةِ، فكُلُّ هـذِه الأَنْواعِ الأرْبعَـةِ يشْمُلُها قوْلُه تعالَى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرّعد:٨].

الفائِدَةُ الخامِسَة عشْرَةَ: أَنَّه مَع هَذِهِ الآيَات العظْمَى -خَلَقِ السّموَاتِ وَالأَرْض وما بَيْنَهُمـا، وتأجِيلِ ذَلِك بأجَـلٍ مُسَمًّى، وتقْدِيره بتَقْدِيرٍ مُعَيَّـنٍ- كَثِيرٌ مِن النّاسِ يُنْكِرُون لِقاءَ الله.

---

(١) كما ورد في الحديث: «كُلُّ مَا يَلْهُو بِهِ الرّجُلُ المسْلِمُ بَاطِلٌ إلا رَمْيَهُ بِقَوْسِهِ، وَتَأْدِيبَهُ فَرَسَهُ، وَمُلَاعَبَتَهُ أَهْلَهُ، فَإِنَّهُنَّ مِنْ الحقِّ»، أخرجه التّرمذي: كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الرّمي في سبيل الله، رقم (١٦٧٣).

والحقِيقَةُ أنَّ العاقِلَ يَسْتَدِلُّ بِهَذا التَّأجِيلِ عَلَى وُجوبِ لِقَاءِ الله إِذَا رَأَى أَصْحابَهُ وقُرنَاءَه الَّذِين كانُوا بالأمْسِ معَهُ يذْهَبُون واحِدًا فَواحِدًا، فَلا شكَّ أنَّ هذَا يحْمِلُه عَلَى الإِيمَان؛ لأنَّهُ يعْلَمُ أنَّه لَو دامَتِ الدّنيا لأحَدٍ مَا وصَلَتْ إِلَيْهِ، فإنَّها مَا وصلَتْ إِلَيْك إلا بعْدَ أنْ خلَّفَتْ غيرَكَ.

إِذَنْ: يُستَدَلُّ بهذِه الآجالِ المقَدَّرةِ عَلَى أنَّه لا بُدَّ أنْ يكُونَ هُناكَ شيْءٌ وراء هَذا كلِّه، ومِنَ المؤكَّد أنَّه ليْسَ مِن الحكْمَةِ أنْ تُنْشَأَ هَذِهِ الخَلِيقَةُ العظِيمَةُ، وَبِهذَا النِّظَامِ البدِيعِ، ثمَّ تكُونُ النِّهايَةُ أنْ يَمُوتَ الإنسان كَجِيفَةِ حِمارٍ؛ وَلِهَذا قالَ الله تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص:٨٥]، فهَذِه الشَّرائعُ التي نزَلتْ لا بُدَّ أنْ يكُونَ وراءَها شيْءٌ وهُوَ البعْثُ الَّذي بِه لِقَاءُ الله عَزَّوَجَلَّ، لكِنْ مَع هَذا ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾.

الفائِدَةُ السّادسَةَ عشْرَةَ: إثْبَات البعْثِ المفْهُومِ مِنْ قَوْلِهِ تعالَى: ﴿بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾.

الفائِدَةُ السّابعَةَ عشْرَةَ: أنَّ كُلَّ أحدٍ سيُلاقِي الله عَزَّوَجَلَّ؛ نأْخُذُه مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ﴾، وقَال تَعالَى فِي سُورَةِ الانْشِقاق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانْشِقاق:٦].

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: هَل هَذا اللِّقاءُ شامِلٌ للمُؤْمِنِ والكافِر؟

قُلْنَا: نَعَمْ، لكِنْ هُناكَ فَرْقٌ بيْنَ اللِّقائَيْنِ، كَما أنَّ الرّجُلَ يُلاقِي زيْدًا ويُلاقِي عَمْرًا ويَكُونُ بَيْنَ اللِّقائَيْنِ فَرْقٌ عظِيمٌ، فَيُلاقِي هَذا بِوَجْهِ غَضَبٍ، ويُلاقِي هَذا بوَجْهِ رِضًا، وَهَذا بِوَجْهِ انْقباضٍ وَهَذا بِوَجْهِ انْبِساطٍ، ومَا أشْبَهَ ذَلِكَ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هَلِ المرادُ باللِّقاءِ هُنا اللِّقاءُ المجَرَّدُ أَم المرادُ بِه الرُّؤْيَةُ؟

قُلْنَا: المْرَادُ باللِّقاءِ المواجَهَةُ، لكِنَّها بَعْد البعْثِ، فمِنْ لازَمِها البعْثُ، أمَّا مسألَةُ الرُّؤيَةِ فاللهُ أعْلَمُ، لأَنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذَكر فِي الكفَّارِ ﴿إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥].

الفائِدَةُ الثَّامِنَةَ عشْرَةَ: إثْبَات الرُّبُوبِيَّة العامَّةِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿بِلِقَآيِ رَبِّهِمْ﴾، معَ أنَّه يتكَلَّمُ عَن الكافِرينَ، فَهِي الرُّبُوبِيَّة العامَّةُ.

والرُّبُوبِيَّةُ تنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: عامَّةٍ وخَاصَّةٍ، وقَدِ اجْتَمعَا فِي قوْلِه تَعالَى: ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف:١٢١-١٢٢]، فالأُولى عامَّةٌ والثَّانِيَةُ خاصَّةٌ، والفرْقُ بَيْنَهُما أنَّ الرُّبُوبِيَّةَ العامَّةَ تَسْتَلْزِمُ التَّصرُّفَ المطْلَقَ فِي المرْبُوبِ، والخاصَّةُ تسْتَلْزِم مَع التَّصرُّفِ المطْلَقِ العنَايَةَ بِهِ ونصْرَه وتأْيِيدَهُ ومَا أشْبَه ذَلِك، ومِثْلُ هذَا نقُولُه فِي المعِيَّةِ العامَّةِ والخاصَّةِ، ومَسائِلَ كثِيرَةٍ مِن هَذا النَّوْعِ.

الفائِدَةُ التَّاسِعَةَ عشْرَةَ: ذَمُّ مَن كَفَرُوا بِلقاءِ الله عَزَّوَجَلَّ مَع آيَاتِهِ العظِيمَةِ الدَّالَّةِ عَلَى وُجُودِهِ وحِكْمَتِه؛ لقوْلِه عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾، وهَذِه الجمْلَةُ بِلا رَيْبٍ تدُلّ عَلَى الذَّمِّ.



الآيـة (٩)

• ● ● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الرّوم:٩].

• ● ● •

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مِنْ الأمَم وَهِيَ إهْلَاكهمْ بِتَكْذِيبِهِمْ رُسُلهمْ ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ كَعَادٍ وَثَمُود ﴿وَأَثَارُوا الْأَرْضَ﴾ حَرَثُوهَا وَقَلَّبُوهَا لِلزَّرْعِ وَالغرْس ﴿وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أَيْ كُفَّار مَكَّة ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بِالحجَجِ الظَّاهِرَات ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ بِإِهْلَاكِهِمْ بِغَيْر جُرْم ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بِتَكْذِيبِهِمْ رُسُلهمْ] اهـ.

قوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ معْطُوفٌ عَلَى قوْله تَعالَى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾، فالتَّفكُّر في خلْقِ السّموَاتِ وَالأرْض، والسّيرُ في الأرْض فقَط، ثمَّ السّيْرُ في الأرْضِ إمَّا أنْ يكُونَ سيْرًا بالأقْدَام أوْ سَيْرًا بالأفْهَام، فَإنْ كانَ سيْرًا بالأفْهامِ فَهُو داخِلٌ فِيمـا سبَق، وقَدْ نَقُولُ: إنَّ هَذا أخصُّ مما سَبَق؛ لأنَّهُ قَال هُنَا: ﴿فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، فهُوَ نَظَرٌ في حوَادِث لَا في خلْقِ الأرْض؛ فتكُونُ هَذِهِ الآيَة منفصلَةً عَنِ التي قبْلَها مِن حيْثُ المعْنَى، فالأُولى تفْكِيرٌ؛ وَلِهَذا جاءَ متعلِّقُها

عامًّا: (فِي السَّمَوَاتِ والأَرْض ومَا بَيْنَهُما)، وَهَذا السَّيْرُ لأمْرٍ مخصُوصٍ، أي الحوادِثِ، أنْ ينْظُروا كيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذين مِنْ قبْلِهِمْ، فيَشْمَلُ السَّيْرَ بالقدَمِ، والسَّيْرَ بالفكْرِ والفهْمِ، عَلَى القوْلِ بأَنَّه سيْرُ أقْدَامٍ يكُونُ السَّيْرُ حسِّيًّا، وعَلى الثَّاني يكُونُ معنَوِيًّا، فيَشْمَلُ السَّيْرَ الحسِّيَّ والسَّيْرَ المعْنَوِيَّ.

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: كيْفَ تطْلُبونَ مِنَ الإنسان أنْ يسيرَ بقَدَمِه إِلَى مَواقِعِ العذابِ وقَدْ نَهى النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنْ ندْخُلَ مواقِعَ العقَابِ إلا ونحْنُ باكُونَ؟

قُلْنَا: لا تعارُضَ؛ لأَنَّ هَذا هُو المقْصُودُ، فالسَّيْرُ إِلَى مواقِعِ العذابِ المقْصُودُ بِه الاتِّعاظُ والانْزِجارُ، وَهَذا يتحَقَّقُ بالبكاءِ، وَلِهَذا نَهى النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنْ ندْخُلَ دِيَارَ ثَمُودَ إلا ونَحْنُ باكُونَ، وقَالَ: «**إِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوهَا**»(١)، وبعْضُ النَّاسِ يذْهَبُ إِلَى دِيَارِ ثمُودَ عَلَى سبِيلِ النّزْهةِ والطَّرَبِ والتَّمتُّعِ بالـمنَاظِرِ؛ وَلِهَذا يأْخُـذُونَ لها صُوَرًا؛ إعْجابًا بها لا خوفًا، وَهَذا مِنْ قسْـوَةِ القلْبِ -والعياذُ باللهِ-، والجهْلِ بِمَا جاء بِهِ النَّبيّ ﷺ؛ لأَنَّ غالب هَؤُلاءِ الَّذين يذْهَبُون لِهَذا المقْصَدِ يَكُونُونَ جاهِلِينَ، ولَا نَقُولُ: إنَّ كلَّهم عنْدَهم قسْوَةُ قلْبٍ تعمَّدُوا مخالفةَ الحقِّ، لكنَّنا نقُولُ أنَّ عنْدَهم شيْئًا مِنَ الجهْلِ أوِ الغالب عليْهِمُ الجهْلُ، وإلا لا يُمكِنُ أنْ يفرَحَ أحدٌ في مكَانٍ نَهى الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عنْ دُخُولِه إلا في حَالِ البكاءِ، وإلا فَإِنَّ الإنسان الَّذي لا يعْرِفُ مِن نفْسِه أنَّه إذا ذَهَبَ سيتَأَثَّرُ حتّى يَبْكي لا يجُوزُ لَهُ أنْ يدْخُلَ؛ لأَنَّ النَّبيّ ﷺ نَهى عَنْ ذَلِك.

---

(١) في قوله ﷺ: «**لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ المعَذَّبِينَ إلا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ لَا يُصِيبُكُمْ مَا أَصَابَهُمْ**»، أخرجه البخاري: كتاب الصّلاة، باب الصّلاة في مواضع الخسف والعذاب رقم (٤٣٣)، ومسلم: كتاب الزّهد والرّقائق، باب لا تدخلوا مساكن الذّين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين، رقم (٢٩٨٠).

وقوْله تَعالَى: ﴿فِي﴾ معنَاها (عَلى)؛ لأنَّهَا لو أُخِذَتْ بِظاهِرِهَا لكَانَ السَّيْرُ في سرَادِيبَ تحتَ الأرْض؛ لأنَّ ﴿فِي﴾ للظَّرْفِيَّةِ، والظَّرْفُ مُحِيطٌ بِالمظْروفِ مِن جَمِيعِ الجوَانِبِ، ولا يُمْكِنُ أنْ تُحِيطَ بِك الأرْض مِن جَمِيعِ الجوانِبِ إلا إِذَا كُنْتَ دَاخِلَ الأرْض في سرْدَابٍ، ولَيْس هَذا مُرادًا، فَعلَى هَذا تكُونُ ﴿فِي﴾ بِمَعْنَى (عَلَى).

وقِيلَ إنَّ ﴿فِي﴾ للظَّرْفِيَّةِ عَلَى بَابِها ولَا حاجَةَ إِلَى تأْوِيلِها، وأنَّ ظَرْفِيَّةَ كُلِّ شيءٍ بحسَبِه؛ فيَكونَ معنَى قوْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾: فِي ظَهْر الأرْض، وكُلُّ أحدٍ يعْرِفُ أنَّه لا يُرادُ أنْ تخْرِقَ الأرْض وتَمْشِيَ في أسْفَلِها، ولَا أحدَ يفْهَمُ هَذا، وأيًّا كَان فَإِنَّ المرَادَ السَّيْرُ عَلَى ظَهْرِ الأرْضِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إذَا كانَ يسِيرُ عَلَى ظهْرِ الأرْضِ فإِنَّ الأرْضَ تكونُ محيطَةً بِه؟

قُلْنَا: لَا تكونُ محيطَةً بِه مِنْ يمينِه ويَسَارِه، إذْ لَا تُوجَدُ جُدْرانٌ.

وعَلَى كُلِّ حَالٍ: فالمعْنَى واضِحٌ، وحَتّى لَوْ قُلْنا إنّ ﴿فِي﴾ للظَّرْفِيَّةِ، فإنَّ الظَّرْفَ في كُلِّ موْضِعٍ بحسَبِهِ، وليْسَ بِلَازِمٍ أنْ يكُونَ (فِي) بمعنَى جَوْف.

وقوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ﴾: الأرْضُ مفـرَدٌ، والمرادُ بِه الجِـنْس، أي الأراضِي التي وَقَع العذَابُ بأَهْلِها، مثْلَ دِيارِ ثَمُودَ والأحْقَافِ ودِيَارِ قَوْمِ لُوطٍ، كَما قَالَ الله تَعالَى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر:٧٦].

قَوْله تَعالَى: ﴿فَيَنظُرُواْ﴾: هَل نظَرَ بَصَرٍ أوْ نظَرَ بَصِيرَةٍ؟

والجوابُ: إنْ كانَ السَّيْرُ بالقدَمِ فالنَّظَرُ نظَرُ البصَرِ، وإنْ كانَ السَّيْرُ بالفهْمِ فالنَّظَرُ نظَرُ بَصِيرَةٍ، يعْني فينْظُروا بعَيْنِ البصِيرَةِ أوْ بعَيْن البصَر حسَبَ السَّيْرِ كَما سَبَق.

والمرَادُ بعَيْـنِ البصر الَّذي يُؤدِّي إِلَى عيْنِ البصِيرَةِ، وَلَيس المقْصُـود أَنَّك إذا

سِرْتَ بقدَمِك وَوصلْتَ المكانَ تُغْمِضُ، بلْ تنْظُر بعَيْنِك.

وهلْ النّظَرُ بالعيْن يُفيدُ أوْ لا يُفيدُ؟

إن كانَ ليْسَ فِيه بصِيرَةٌ فَلا يُفِيدُ، فالمرَادُ بالسّيْرِ عَلَى القدَمِ النّظَرُ بالعيْنِ لِيُؤدِّيَ ذَلِك إِلَى النّظَرِ بالبصِيرَةِ، وإلّا فالنّظَرُ المبَاشِرُ بالسّيرِ عَلَى القدمِ هُو بِالعيْن.

وقوْله تَعالَى: ﴿فَيَنظُرُواْ﴾: (الفاء) هنَا يَجوز فِيها وجْهَانِ:

الوَجْهُ الأَوَّلُ: أنْ تكُونَ عاطِفَةً، والمعْنَى: أفَلَمْ يَسيرُوا فَلَمْ ينْظُروا.

الوَجْهُ الثَّاني: أنْ تكُونَ سبَبِيَّةً، والمعْنَى: أفَلَمْ يَسيرُوا فَيَنْظُروا، فبِسَبب سيْرِهم ينْظُرون كيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِين مِن قبْلِهم.

وقوْله تَعالَى: ﴿يَسِيرُواْ﴾ و﴿فَيَنظُرُواْ﴾: مجْزومانِ بحذْفِ النّونِ، والوَاوُ فَاعِلٌ؛ لأَنَّهما مِنَ الأفْعَالِ الخمْسَةِ.

وقوْله تَعالَى: ﴿كَيْفَ﴾: اسمُ اسْتِفْهامٍ خبرُ ﴿كَانَ﴾ مقدَّمًا، و﴿عَـٰقِبَةُ﴾ اسْمُها فِي مكانِها، والعاقِبَةُ مصْدَرٌ بمعْنَى العقْبى، وعاقِبَةُ الشّيْءِ ما يتْلُوه ويَأْتِي بعْدَهُ، فقوْلُه تَعالَى: ﴿عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، أيْ مَا تَلا تكْذِيبَهُمْ لِلرُّسُلِ.

قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مِنَ الأمَم، وهِي إهْلاكُهُم بتكْذِيبهم رُسُلَهم]: كانَت عاقِبَةُ ثمودَ الإهلاكَ والدّمارَ، وعادٌ الَّذِين استكْبَرُوا فِي الأرْضِ وقَالُوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ أيْ: لَا يُوجَدُ أحَدٌ أشَدُّ منَّا قُوَّةً، كانَتْ عاقبَتُهم أنْ أُهْلِكُوا بأَمْرٍ مِن ألْطَف الأشْيَاء وهُو الرّيحُ، وَالرّيحُ جسْمٌ لطِيفٌ لَا يُرَى، لكنَّ هَؤُلاءِ كِبارَ الأجسام شدَيدي القوى أُهْلِكُوا بهذِه الرّيحِ اللَّطِيفَةِ التي لا تُرى ليتبَيَّنَ ضعْفُ الإنسان، وأنَّه مهْما كانَ فاللهُ عَزَّوَجَلَّ أقْوَى مِنْهُ، كَما قَال تعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ

أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]، وَكَذلِكَ قُرَى قومِ لوطٍ الَّذِين أُتْرِفُوا فتَلِفُوا -والعياذُ باللهِ-، أُتْرِفُوا ونُعِّمُوا حتَّى كانُوا مِنْ شِدَّةِ التَّرفِ -والعياذُ باللهِ- يعْدِلُونَ عمَّا خلقَ الله لهمْ مِنْ أَزْوَاجِهِمْ إِلَى إِتْيانِ الذّكُورِ، نسْأَلُ الله العافِيَةَ.

قوْله تَعالَى: ﴿كَانُوٓاْ﴾: جملَةٌ استئنَافِيَّةٌ يُراد بِها بَيان حَال هَؤُلاءِ السّابِقِينَ.

قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ كعاد وثمود]: لا أُشُكُّ أنَّهم أشَدُّ مِن قُرَيْشٍ قوَّةً، فعَادٌ معرُوفَةٌ قوَّتُهم ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ [الفجر:٦-٨]، وثمودُ أيضًا الَّذِين ينْحِتُون مِن الجبال بُيوتًا فارِهِين، بُيوتًا آمِنَة عاليَةً شامخةً مِنَ الجبَالِ وَالأحْجَار، وَهَذا يدُلُّ عَلَى القوَّةِ، ومِنَ السّهولِ يتَّخِذُون قصورًا عظِيمةً فخْمَةً، ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ [الأعراف:٧٤]، وهَذا لمْ يحصُلْ لأهْلِ مكَّةَ، ومَع ذَلِك دمَّرهم الله عَزَّوَجَلَّ بكُفْرِهم وتكْذِيبِهِمْ.

قوْله تَعالَى: ﴿وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ﴾: معطُوفٌ عَلَى ﴿كَانَ﴾، وليْسَ معطوفًا عَلَى خَبَرِ كانَ، أيْ عاقبةُ الَّذِين مِنْ قبْلِهم أَثَارُوا الأرْضَ، وليْسَتْ معطُوفةً عَلَى ﴿أَشَدَّ﴾، حتَّى نقُولَ: كانُوا أشَدَّ منْهُم وكانُوا أثَارُوا الأرْض وعَمَرُوها، بَلْ معطُوفَةٌ عَلَى كَانَ.

قوْله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ﴾ حرثـوها وقلبوها للزرع والغرس]: هَـذِهِ إثـارَةُ الأرْض، فالإنسان إذا حرَثَ الأرْضَ لَا شكَّ أنَّه يُثِيـرُهَا، والحرْثُ معرُوفٌ بالمسحاة[1] أوْ بالجرَّاراتِ تُثِيـرُ الأرْض يعْنِي ترفَـعُها، وَكَذلِكَ أيضًا الغـرْس فإِنَّ الإنسان يُثِيرُ الأرْضَ ليَحْفِرَ للشَّجَرةِ حتَّى يثبِّتَها، فهَؤُلاءِ أشَدُّ منْهُم قوَّةً، وأيضًا قَد أثَارُوا الأرَاضِيَ، أمَّا أهْلُ مكَّةَ فلَمْ يُثِيروا الأرْضَ؛ لأنَّهُم فِي وادٍ غيْرِ ذِي زَرْعٍ.

---

(١) المسحاة: كالمجرفة إلا أنها من حديد، الصّحاح للجوهري (٧/ ٢٢٣).

قوْله تَعالَى: ﴿وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾: أي السّابِقُون عمرُوا الأرْضَ بالتّجارَةِ والبنَاءِ والمصانعِ وغيرِها، فسُلَيْمانُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قالَ الله لَهُ: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ [سبأ:١٣]، والجفانُ الصّحَافُ التي فِيها الطّعامُ، ﴿كَٱلْجَوَابِ﴾ والجابِيَةُ هِي بِرْكَة الماءِ، فَالصّحْفَةُ مِثْل بِرْكَةِ الماءِ، هَذا عظِيمٌ ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ لا تُحْمَلُ مِنْ كِبَرِها وكثْرَةِ الطّعامِ فِيها، هَذا كُلُّه ومَا هُو مِثْلُه لمْ يحْصُلْ لِقُرَيْشٍ.

قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالحجَجِ الظّاهِـرَاتِ]: (الباءُ) للمُصَاحَبَةِ أوْ للتَّعْدِيَةِ، والمعْنَى أنَّ الرّسَل -علَيْهِمُ الصّلاةُ والسّلامُ- جاءَتْهُم مِنْ قِبَل الله تعالى ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، أي بالحجَج البيِّنات، أوْ قُل: بِالآيات البيِّنَاتِ التي تشْمَلُ الحجَجَ والأحْكامَ؛ فإِنَّ الحكْمَ إذا كانَ حُكْمًا عادِلًا نافِعًا للعِبادِ فإِنَّهُ بَيِّنَةٌ تدُلّ عَلَى صِـدْق مَن أَتَى بِه، فَالرّسُلُ كُلُّهم جاؤُوا بالبيِّناتِ، ومَا مِنْ رسُـولٍ إلا أَتى بِبيِّنَةٍ، ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الحديد:٢٥].

إِذَنْ: فمَعَ كُلِّ نَبيٍّ كِتابٌ، كُلُّ نبيٍّ لَهُ كِتابٌ، وكُلُّ نَبِيٍّ لَه آياتٌ بيِّناتٌ، ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣].

المُهِمُّ: أنَّه مَا مِن رسُولٍ إلا مَعَه بَيِّنةٌ وكِتابٌ.

قولُه تعالى: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾: (اللّامُ) في قولِه ﴿لِيَظْلِمَهُمْ﴾ تُسَمّى لامَ الجحُودِ، أيْ لامَ النّفْي؛ لملازَمَتِها لَهُ، وهِي التي سبقَها (لم يكن)، أو (ما كان)، وهِيَ تنْصِبُ الفعْلَ المضارِعَ.

وقوْله تَعالَى: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾: إذا قِيلَ: (مَا كانَ الله ليفْعَل كَذا)

ومَا أشْبَه ذَلِك فاعْلَم أنَّه مُمْتَنِعٌ غايةَ الامْتِنَاعِ، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم:٦٤]، أيْ ممتنِعٌ غـايَةَ الامْتِنَـاعِ، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾ [القصص:٥٩]، مُمْتَنِعٌ غايَةَ الامتِنَاعِ، وهَكذا كُلَّما جَاء مثْلُ هَذا التّعبيرِ، فالمرَادُ أنَّه ممتَنِعٌ غايَةَ الامْتِنَاعِ.

والظّلْمُ في أصْلِ اللُّغَة النّقْصُ، ومِنْهُ قولُه تعالَى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف:٣٣]، وهُوَ في الشّرعِ كَذَلِكَ نَقْصٌ فِيما يَجِبُ، فيَشْمَلُ الإهْمالَ في الوَاجِبِ والتّعدِّي في المحَرَّم، فالتّعدِّي في المحَرَّم نقْصٌ؛ لأَنَّك بَخَسْتَ نفْسَك حقَّها؛ حيْثُ لَمْ تجتَنِبِ المحَرَّمَ، وَكَذلِكَ أيضًا التّقْصِيرُ في الوَاجِبِ نقْصٌ، فمَنْ قصَّرَ فِي واجبٍ فقَدْ ظَلَم نفْسَهُ، ومَنْ تعدَّى فِي مُحَرَّمٍ فقَدْ ظلَم نفْسَهُ؛ لأَنَّهُ نَقَصَ مِمَّا يَجِبُ أنْ يُعامِلَ بِه نفْسَهُ، فيَكُونُ الظّلْمُ إمَّا تركًا لوَاجِبٍ، وإمَّا فِعْلًا لمحَرَّمٍ.

وبالنّسبَةِ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فإنَّ نَفْيَ الظّلْمِ صِفَةٌ سلبِيَّةٌ، تتضَمَّنُ كَمالَ العدْلِ، فهُوَ لَا يظْلِمُهُمْ لا لأَنَّهُ عاجِزٌ عنْهُم، ولا لأَنَّهُ غَيْرُ قابِلٍ لَهُ، ولكِنَّهُ لِكَمالِ عدْلِه عَزَّوَجَلَّ لَا يُمْكِنُ أنْ يَظلِم.

ونَفْيُ الظّلْمِ يكُونُ لِثلاثَةِ أسْبَابٍ: إمَّا لِكمال العدْلِ، أَو العجْزِ، أوْ عدَمِ القابِلِيَّةِ.

فَإِذا قُلْت: إنَّ الجدارَ لَا يَظْلِمُ فهُو لِعَدم القابِلِيَّةِ لَا يَقَع منْهُ الظّلْمُ أصْلًا.

وإِذا قُلْتَ: فُلانٌ ضعِيفٌ لَا يظْلِمُ عدُوَّه، فهَذا للْعَجْزِ، قَال الشّاعِرُ[1]:

قَبِيـلَـةٌ لَا يَـغْـدِرُونَ بِـذِمَّــةٍ ... وَلَا يَظْلِـمُونَ النّاسَ حبَّةَ خَرْدَلِ

(١) هو النّجاشي الحارثي واسمه قيس بن عمرو، انظر الحماسة الشّجرية (٤٥٢)، والشّعر والشّعراء (١/ ٢٨٨).

فهُم لا يظْلِمُونَ لِعَجْزِهم.

وإِذَا قُلْتَ: إِنَّ الله لا يَظْلِمُ النّاسَ شيْئًا، فهُوَ لِكَمالِ عدْلِه، فإنَّه قادِرٌ جَلَّوَعَلَا أَنْ يظْلِمَ لكِنَّهُ ممتَنِعٌ علَيْه لكَمالِ صِفاتِه، وقَالت الجبْرِيَّةُ أنَّه لا يَظْلِمُ لعَدَمِ قابلِيَّتِه، واللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى يمْلِكُ جَمِيعَ الخلْقِ فتصَرُّفُه في مُلْكِه ليْسَ بظُلْمٍ، ولا يُتَصَوَّرُ الظّلْمُ في حَقِّ الله لَا لِكَمالِ عدْلِه، ولكِنْ لأَنَّهُ غيْرُ قابِلٍ لَهُ؛ وَلهَذا قَال ابْنُ القيِّم[1]:

وَالظّـلْمُ عِنْدَهُمُ المحَـالُ لِذَاتِـهِ ....

فهُو مُحَال لذَاتِه عنْدَهُمْ، لا يُتَصَوَّرُ الظّلْمُ في حقِّ الله، ولكِنَّ قولَهم هَذا لَا يُعَدُّ مدْحًا لله عَزَّوَجَلَّ ولا ثناءً ولا كمالًا، إِذْ نَفْيُ الظّلمِ لا يكونُ مدْحًا وكمالًا إلا إذا كانَ مَع القُدْرَة علَيْه وإمْكَانِه، لكِنْ منَعَه كمالُ عدلِه منْهُ.

وقوْلُه تَعالَى: ﴿أَنفُسَهُمْ﴾: منصوبةٌ عَلَى أنَّها مفْعُولٌ مُقَدَّمٌ لـ﴿يَظْلِمُونَ﴾، يعْنِي ولَكِنْ كانُوا يظْلِمُونَ أنْفُسَهُم، والمرادُ أنَّهم يظْلِمُونَ أنْفُسَهم بمعصِيَةِ الله، إمَّا بتَرْك واجِبٍ أوْ فِعْلِ مُحَرَّمٍ، وسيأْتِينا إنْ شَاءَ الله في الفوائِدِ مَا تدُلّ علَيْه هَذِهِ الجمْلَةُ.

المُهِمُّ: أنَّ الله تَعالَى مَا ظَلَم هَؤُلاءِ المكَذِّبِينَ الَّذِين أهْلَكُهم، ولَكِنْ هُمُ الَّذِين ظلَمُوا أنْفُسَهم، فالجنَايَةُ منْهُم عَلَى أنْفسِهم، واللهُ عَزَّوَجَلَّ عامَلَهُم بِكَمالِ العدْلِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَتَانِ الأوْلَى والثّانِيَةُ: تَوْبِيخُ مَنْ غَفِلوا عَنِ السّيْرِ في الأرْضِ سواءٌ بأبْدَانِهم أوْ بقُلُوبِهم؛ لأَنَّ الاسْتِفْهام في قوْلِه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ﴾ للتَّوبيخ، ويتفَرَّعُ عَلَى ذَلِك الحثُّ عَلَى السّيْرِ في الأرْضِ، ومِن السّيْرِ في الأرْضِ بالقلوب مراجَعَةُ كُتُبِ

(١) الكافية الشّافية في الانتصار للفرقة النّاجية - القصيدة النّونية (ص:٦٣).

التّارِيخ والأمَم؛ لأنَّ مَن راجَعَها لا سِيَّما التّوارِيخ الحرِيصَة عَلَى الضّبْطِ والمَوْثُوقَةِ، مَن راجَعَها يتبيَّنُ لَه العجَبُ العجَابُ فِي خَلْقِ الله عَزَّوَجَلَّ ومداوَلتِه الأيَّام بَيْنَ النّاسِ، وتغْيِيرِهِ للأُمورِ، وتَزِيدُ الإنسان إيمانًا باللهِ، لكِنْ إنْ كانَتْ هَذِهِ الحوادِثُ مِنَ السّيرَةِ النّبويَّةِ وسِيَرِ الخلَفاءِ الرّاشِدِينَ ازْدَادَ بِها مَع الإيمان باللهِ أنْ يصْطَبِغَ بصِبْغَتِها، ويَحْتَذي حذْوَها في السّيْرِ، وإنْ كانَتْ مِنَ الأمُورِ العامَّةِ العابِرَةِ فإنَّهُ يَسْتدِلُّ بِها عَلَى قُدْرَةِ الله عَزَّوَجَلَّ وكَمالِ سُلطانِهِ وتغْيِيرِ الأمُورِ.

فالمُهِمُّ: أنَّ السّيْرَ في الأرْضِ -بمعْنَى مُراجَعةِ الحوادِثِ والتّوارِيخ- يُفِيدُ المرْءَ، وَيعْتَبِر بِها، ولكِنَّها لا تُفِيد كُلَّ أحدٍ، كَما قَال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧].

الفائِدَةُ الثالِثةُ: أنَّ عاقِبَةَ الكفَّارِ وخِيمَةٌ؛ لقَوْلِه تَعالَى: ﴿فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: أنَّ الإنسان مهْمَا قَوِيَ فهُو ضعِيفٌ بالنّسْبَةِ لِقُوَّةِ الله؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾، ومَعَ ذَلِك لَمْ يتَحَصَّنُوا بِهَذا مِنْ عَذابِ الله، بَلْ إنَّ الله تَعالَى بحكْمَتِه أهْلَك أعْتَى أهْلِ الأرْضِ بأَهْوَنِ الأشْيَاءِ وألطَفِها، وهُمْ عادٌ أُهْلِكُوا بالرّيحِ، ومَنْ كَانَ يفْتَخِرُ بالأنْهارِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِ أهْلَكَهُ بالماءِ الَّذي كانَ يفْتَخِرُ بِه بالأمْسِ، وَهَذا مما يدُلُّ عَلَى كَمالِ سُلطانِ الله تَعالَى وعظَمَتِهِ، وأنَّه مهْمَا قوِيَ الإنسان فهُوَ ضَعِيفٌ بالنّسْبَةِ لقُوَّةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأظُنُّ أنَّهُ فِي حَوالي عَامِ ألف وأرْبَعِمِئَةٍ حصَلتْ هزَّةٌ أرضِيَّةٌ في إيرانَ دمَّرَتْ في لَمحِ البصَرِ خمسًا وعِشرِينَ ألف نَسمَةٍ مِنْ بَني آدم، فضْلًا عَنِ الحيَوانات والمواشِي ومَا إِلَى ذَلِكَ، ودمَّرَتْ مِئَتَيْنِ وثَلاثِينَ قَرْيَةً ومَدِينتَيْنِ كبِيرَتَيْنِ، والهزَّة ليْست

تهُزُّ مثْلَ الأرْجُوحَةِ، إنَّما هِي كلَمْحِ البصرِ مثْلَ ما حكَاهَا إنْسَانٌ كَتَبَ للشَّيخِ عبْدِ العزيزِ بْنِ بَازٍ في الهزَّةِ التي أصَابَتِ اليَمَنَ، فصوَّرَها تصْوِيرًا عجِيبًا في سُرْعَتِها، وأصواتِ صَحِبَتْهَا وحالِ النّاسِ والرّعْبِ الَّذي أصَابَهُم حتَّى أنَّها، ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ [الحج:٢].

فهَذِه القُدْرَة العظِيمَةُ لَا يُمْكِنُ لأحَدٍ أنْ ينْجُو منْهَا إذا شاءَها الله عَزَّوَجَلَّ أبدًا، ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام:٦٥].

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: أنَّ التّأمُّلَ في حَال الكفَّارِ للاعْتِبَارِ، يعْنِي أنْ يعْتَبِر به الإنسان أمْرًا مطلوبًا لَوْ جَاء إنْسَانٌ وَأرَادَ أنْ يدْرُسَ تارِيخَ أمَّةٍ كافِرَةٍ ماذَا حصَل لَها ومَا الَّذي جاءَها، فإنَّنا لا نَنْهاه عنْ ذَلك ما دامَ يُريدُ أنْ ينْتَفِع بِهَذا، ويَعْرِفَ مَاذا كانَتْ عاقِبَةُ المجْرِمينَ، فإنَّهُ مأمُورٌ به، أمَّا إذا كَانَ يُريدُ أن يتَعَجَّبَ مِنْ قُوَّتِهم وصنْعَتِهم ومَا إلَى ذَلِك فإنَّهُ يُنْهَى عنْهُ، مِثْل مَا قُلْنا في الَّذِين يذْهَبُونَ إلَى دِيَارِ ثَمُودَ قصْدُهُمُ التّفْرُّج والنّزْهَةُ، فهَذا حرَامٌ والَّذِين قصْدُهُم الاعْتِبار فهَذا جَائِزٌ بالشّرْطِ الَّذي ذَكَرَهُ النّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهُوَ ألَّا يدْخُلوها إلا وهُم بَاكُون[1].

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: أنَّ إثارَةَ الأرْضِ مِنْ أسْبَابِ القوَّةِ، أي الاشْتِغَالُ بِالزّراعَةِ مِنْ أسْبَابِ القوَّةِ بِلا شَكٍّ؛ لأنَّهَا يَحْصُل بها الاكْتِفاءُ الذّاتِيُّ عَنِ الغيْرِ، فإذا كَانَتْ بِلادُنا -مثَلًا- تُنْتِجُ الثّمارَ والزّروعَ استَغْنَيْنَا بذَلِك عنْ غيرِنا، ورُبَّما يكُونُ لدَيْنا فائِضٌ

(١) في قوله ﷺ: «لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ المعَذَّبِينَ إلا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ لَا يُصِيبُكُمْ مَا أَصَابَهُمْ»، أخرجه البخاري: كتاب الصّلاة، باب الصّلاة في مواضع الخسف والعذاب رقم (٤٣٣)، ومسلم: كتاب الزّهد والرّقائق، باب لا تدخلوا مساكن الذّين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين، رقم (٢٩٨٠).

نُصدِّرُه لغَيْرِنا فنكْسبُ، فإِثَارَة الأَرْضِ مِنْ أَسْبَابِ القوَّةِ، وَكَذلِكَ عُمْرَانُ الأَرْضِ بِغَيْرِ الإثَارةِ بالبنَاءِ والتّجَارَةِ وما أَشْبَهَ ذَلِك مِنْ أَسْبابِ القوَّةِ.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما تَرك أحدًا بدُونِ رُسُلٍ؛ لقوْله تَعالَى: ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾.

الفائِدَةُ الثّامِنَةُ: أنَّ كلَّ رسولٍ معَه بيِّنَةٌ تُؤَيِّدُهُ؛ لقوْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

الفائِدَتانِ التّاسِعَةُ والعاشِرَةُ: نسْتَفِيدُ مِن إِرْسالِ الرّسُلِ وإيتَائِهِمُ البيِّناتِ فائِدَتَيْن وهُمَا:

أولًا: رحْمَةُ الله عَزَّوَجَلَّ وحِكْمَتُه، أمّا الرّحمَةُ فلأنَّ العقُولَ لا يُمْكِنُ أن تهتَدِيَ لما يُرِيدُهُ الله منْهَا إلا بالوَحْي، فَلا يُمْكِنُ لِلإِنْسَانِ بعقْلِه أنْ يعْرِفَ كيْفَ يتوضَّأُ، وكَيْف يُصلِّي، وكَيْفَ يصُومُ، وكَيْفَ يَحُجُّ.

إِذَنْ: لا بُدَّ مِن أنْ يكُونَ هناكَ رسُولٌ يَأتِيهِ الوَحْيُ مِنَ الله عَزَّوَجَلَّ ليبيِّنَ لنا مَا يرْضَاهُ الله ومَا لا يَرْضَاهُ.

ثانيًا: كونُ هَؤُلاءِ الرّسُل يأتُونَ بالبيِّناتِ مِن الرّحمَةِ لَوْ أَرسَل الله الرّسُلَ بدُونِ بيِّنَاتٍ وألزَم العبَادَ أنْ يَخْضَعُوا لهُمْ بِدُون أنْ يكُونَ هُناكَ بيِّنَةٌ يطْمَئنُّونَ إِلَيْها يكُون في هَذا مِن العنَتِ والمشَقَّةِ مَا لا يعْلَمُه إلا الله، ولكِنْ مِن رَحْمَةِ الله جَلَّوَعَلَا أنْ جعَلَ مَعَ كُلِّ نبيٍّ بيِّنَةً، ولاَحِظ أنَّ الأنْبياءَ الَّذِين تُقيَّدُ نُبوَّتُهم ورسالَتُهم بزمَنٍ أوْ مكانٍ وهُمْ جَمِيعُ الأنبياءِ مَا عَدا محَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تَجِدُ آياتِهِمْ غالبًا آياتٍ حِسيَّةً تنْتَهي بانْتِهائِهِمْ، وتكُونُ بعْدَ موْتِهم خبَرًا يُنْقَلُ ويُؤثَر، أمّا النّبيّ ﷺ فآيَاتُه اشتَمَلَتْ عَلَى

الأمْرَيْنِ: عَلَى أُمورٍ حِسِّيَّةٍ نُقِلَتْ بعْدَه وأُثِرَتْ، وعَلى أُمورٍ معْنَوِيَّةٍ بقِيَتْ بعْدَه مثْلَ القرآنِ العظِيم، ومِثْلَ إخْبَارِه ببَعْض الأمُورِ الغيْبِيَّةِ التي وقعَتْ كَما أخْبَر؛ لأَنَّ رسالَةَ النّبيّ ﷺ دائِمَةٌ ومستَمِرَّةٌ وثابِتَةٌ، فلا بُدَّ أن تكُونَ الآيَات المؤيِّدةُ للرَّسُولِ ﷺ باقيَةً حتَّى تقُومَ بها الحجَّةُ عَلَى الباقِينَ مِنَ النّاس لأَنَّ الباقِينَ مِنَ النّاسِ لم يشْهَدُوا الشّيْءَ بأيْدِيهِم، وإنما هِي أخْبَارٌ تُؤْثَرُ، فإنَّهُ كَما جاءَ في الحدِيث: «لَيْسَ الخَبَرُ كَالمعَايَنَةِ»(١).

الفائِدَةُ الحادِيَةَ عَشرَةَ: انتِفَاءُ الظّلْمِ عنِ الله؛ لكَمالِ عدْلِهِ؛ لقوْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾.

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: انتْفَاءُ الظّلْمِ عنِ الله نُوافِقُكُمْ علَيْه؛ لأَنَّ الله نفَاهُ عَنْ نفْسِه ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾، لكنْ مِن أيْنَ لكُم قولَكُمْ: (لكَمالِ عدْلِه)؟

فالجوابُ: لأنَّ النّفيَ يدُلُّ عَلَى انْتِفَاءِ المنْفَي، والانْتِفاءُ يُساوِي العدَمَ، والعدَمُ نفْسُه ليْسَ بشَيْءٍ، العدَمُ عدَمٌ عَلَى اسْمِهِ، فإذا كَانَ ليْسَ بشَيْءٍ فلَا يكُونُ صفَةَ كَمالٍ يُثْنِي الله بِها عَلَى نفْسِه لأَنَّهُ ليْسَ بشَيْءٍ.

إِذَنْ: لا بُدَّ مِن أنْ يكُونَ متضَمِّنًا لشَيْءٍ وهُو الإثْبَات، هَذا الإثْبَات إمَّا أنْ يكُونَ للعَجْزِ، وإمَّا أنْ يكُونَ لعدَمِ القابليَّةِ، وإمَّا أنْ يكُونَ لكَمَالِ العدْلِ، والاحْتِمال اللائِقُ بالله عَزَّوَجَلَّ هوَ كَمَالُ العدْلِ، وَبِهذَا عرَفْنَا أنَّ التِزام نفْيِ الظّلْمِ لكَمَالِ العدْلِ لازِمٌ عقْلِيٌّ لا بُدَّ منْهُ بالنّسْبَةِ للهِ عَزَّوَجَلَّ ليْسَ بالنّسْبةِ لكُلِّ مَن يُنْفَى عنْه الظّلْمُ، وحِينَئِذٍ يُسْتَفَادُ منْهَا انتِفَاءُ الظّلْمِ لِكَمالِ عدْلِ الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢١٥، رقم ١٨٤٢).

الفائِدَةُ الثّانِيةَ عَشْرَةَ: أنَّ نفسَ الإنسان عنْدَه أمانَةٌ؛ تُؤخَذُ مِنْ قَوْلِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، فأثْبَتَ الله تَعالَى ظُلْمَ الإنسان نفسَه، ولو كانَتْ غيْرَ أمانَةٍ لكَان غيرَ ظالم؛ لأَنَّهُ يتصرَّفُ ويتحَكَّمُ، لكنَّها أمانَةٌ عنْدَهُ يَجِبُ علَيْه أن يَرْعاهَا حقَّ رعايَتِها؛ وَلِهَذا قَالَ النّبيُّ ﷺ: «**إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا**»(١)، وَهَذا كَما يشْمَلُ إعْطَاءَ النَّفْسِ راحَتَها يشْمَلُ إعْطَاءَ النَّفْسِ حقَّها مِنَ العبادَةِ فَلا تُهْمِلْها، والإنسان فِيه ثلاثَةُ أنْفُسٍ: أمَّارَةٌ، ومطمَئِنَّةٌ، ولوَّامَةٌ.

أمَّا المطْمَئِنَّةُ: فهِيَ التي تأمُرُه بِرِضَى الله.

وأمَّا الأمَّارَةُ بالسّوءِ: فهِيَ التي تأمُرُه بمعْصِيَةِ الله.

وأمَّا اللَّوَّامَةُ: فَهِي التي تلُومُه، سواءٌ لامَتْه عَلَى ترْكِ الشّرِّ فهذِه مِنَ النّفْسِ الأمَّارَةِ التي تقولُ لَهُ: لماذا لَمْ تذْهَبْ مَع هَؤُلاءِ تشْرَبُ الخمْرَ وتَزْنِي وتُقامِرُ إِلَى آخرِه، فتَلُومُه عَلَى ما تَركَ من فِعْل السّوءِ، فهذِه تكونُ مِن الأمَّارَةِ بالسّوءِ، وكذَلِك تُوجَدُ نفْسٌ لوَّامَةٌ تلُومُهُ عَلَى فِعْل الشّرِّ وتَرْكِ الخيْرِ، وهَذِه هِي النّفْسُ المطْمَئِنَّةُ.

فَفِي الإنسان ثَلاثُ أنْفُسٍ، كَما ذكرَ الله تَعالَى، وكُلُّ إنْسَانٍ لا بُدَّ أنْ يكُونَ لَدَيْهِ هَذِهِ الأنْفُسُ، وهِي فِي الحقِيقَةِ أوْصَافٌ وإلَّا فنَفْس العقْل أوِ التّفكِيرُ واحِدٌ، الإنسان يُوجَدُ فِيه الجميعُ، يُحِسُّ مِن نفسِه أحْيانًا بما يأْمُرُه بالمعْصِيَةِ، ويُحِسُّ أحْيانًا بما يَعْمَلُ مِنَ الخيْر، ويُحِسُّ أحيانًا بما يَلُومُهُ.

ويُنْظَرُ أيُّها التي تغْلِبُ، فَمِن النّاس مَن تغْلِبُه نفْسُهُ الأمَّارَةُ، وَمِنَ النّاسِ مَنْ تغْلِبُه المطْمَئِنَّةُ، لكِنِ ابْتداءً خَلَق الله فِيه هَذِهِ القوى، فهَذِه القوَى النّفسِيَّةُ مخْلُوقَةٌ في الإنسان.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب صنع الطّعام والتّكلف له، رقم (٦١٣٩).

الفائِدَةُ الثالِثةَ عَشْرَةَ: أنَّ الإنسان بمعصِيَتِه لا يضُرُّ إلا نفسَهُ، ويدُلُّ لهذا قوْلُ الله عَزَّوَجَلَّ في الحدِيثِ القدسِيِّ: «يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِك فِي مُلْكِي شَيْئًا»[1]، يعْنِي لا يضُرُّه، فحتَّى لوْ خَرَجْتُم عنْ عِبادِتي والتَّعبُّدِ لي فإِنَّ ذَلِك لا يَضُرُّني.

الفائِدَةُ الرَّابِعَةَ عشْرَةَ: أنَّ العبْدَ فاعِلٌ مختَارٌ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾، فأثْبَتَ الظّلْمَ منْهُم لأنْفُسِهِمْ، ومِنْ وجْهٍ آخَر يُؤْخَذُ أيضًا مِن نفْسِ الآيَة ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾؛ لأنَّهُ لَو كانَ يُجْبِرُهم عَلَى ذَلِك لكانَتْ عُقوبَتُهم ظُلْمًا، لو اعْتَقَدَ الإنسان أنَّ الله يُجْبِرُ الإنسان عَلَى فِعْلِ المعْصِيَةِ ثمَّ يُعاقِبُهُ علَيْها فإنَّ هَذا ظلمٌ، فَفِيها دَلِيلٌ عَلَى الأفْعَالِ الاخْتِياريَّةِ مِن جِهَتَيْنِ:

- مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾.
- ومِنْ قوْلِه تعالَى: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾.

الفائِدَةُ الخامِسَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الظّلْمَ في حَقِّ الله مِنْ حيْثُ هُو مُمكِنٌ يعْني مِن حيْثُ القُدْرَةُ علَيْه فهُو ممكِنٌ؛ وَلِهَذا أثْنَى الله عَلَى نفْسِه بانْتِفَاءِ الظّلمِ عنْهُ، أوْ أَثْنَى عَلَى نفْسِه بنَفْيِهِ ظُلْمَه للعِبادِ، وَهَذا أحْسَنُ، ولَوْ كَان هَذا مِنَ الأمورِ المستَحِيلَةِ مَا كانَ هُناكَ محَلٌّ للثَّناءِ، فهُوَ قَادِرٌ عَزَّوَجَلَّ عَلَى أَنْ يظْلِمَ لَوْ شَاء، لكِنَّهُ لا يَشَاءُ ذَلِك لكَمالِ عدْلِه.

إِذَنْ: فالظّلْمُ ممتَنِعٌ عَنِ الله لكَمَالِ عدْلِهِ خِلافًا للجَهْمِيَّةِ الَّذِين يقُولُونَ إِنَّ الظّلْمَ ممتَنِعٌ لاستحالته بذَاتِهِ عَلَى الله، قَالُوا هَذا شيْءٌ مستَحِيلٌ فجَعلُوا محَلَّ الثّناءِ أمْرًا مستَحِيلًا عقْلًا.



(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصّلة والآداب، باب تحريم الظّلم، رقم (٢٥٧٧).

الآية (١٠)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الروم:١٠].

• • • •

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ تَأْنِيث الأَسْوَأ الأَقْبَح خَبَر كَانَ عَلَى رَفْع عَاقِبَة وَاسْم كَانَ عَلَى نَصْب عَاقِبَة وَالمرَاد بِهَا جَهَنَّم وَإِسَاءَتهمْ ﴿أَن﴾ أَيْ بِأَنْ ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ القرآن ﴿وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾] اهـ.

قَوْله تعالَى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ﴾ العاقِبَةُ مصْدَرٌ بمَعْنى العقْبَى، وفِيها قِراءَتَانِ سبْعِيَّتَانِ[1]: النّصبُ ﴿عَٰقِبَةَ﴾، والثّانِيَةُ الرّفْعُ «عاقبةُ»، أمَّا عَلَى قِرَاءَةِ الرَّفْعِ فإنَّها اسْمُ ﴿كَانَ﴾، وأمَّا عَلَى قِراءَةِ النّصْبِ فإنَّها خبَرُ ﴿كَانَ﴾ مُقَدَّمًا، يَبْقَى النَّظَرُ: أيْنَ اسْمُ ﴿كَانَ﴾ عَلَى قِراءَةِ النّصْبِ، أوْ خبَرُها عَلَى قراءَةِ الرّفْعِ، سيَذْكُره المُفَسِّر.

قَوْله تَعالَى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ﴾: أيْ عَمِلُوا العملَ السّيِّئَ مِن الكفَّارِ المكذِّبِينَ للرُّسُلِ كَما قَصَّ الله عَزَّوَجَلَّ، و﴿أَسَٰٓـُٔواْ﴾ ضِدُّها أحْسَنُوا. فالَّذِين أَحْسَنوا قالَ الله فِيهِمْ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [يونس:٢٦]، والَّذِين أسَاؤُوا كَان عاقِبتَهُم مَا ذَكرَهُ الله هُنَا.

قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ تأنيث الأسوأ الأقبح]، قَوْله تَعالَى: ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ اسْمُ

---

(١) التيسير في القراءات السّبع (ص:١١٥).

تفضِيلٍ مثْـلِ ما نَقُولُ الفضْلَى اسْمَ تفضِيلٍ، والعظْمَى اسْمَ تفْضِيلٍ، ومُذَكَّرُ الفضْلَى الأفْضَلُ، ومُذَكَّرُ العظْمى الأعْظَم، ومُذَكَّر الأُولى الأوَّلُ، ومُذَكَّرُ ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ الأسْوَأُ.

إِذَنْ: فـ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ اسْمُ تفضِيلٍ مؤَنَّثِ (الأسْوَإِ)، ومعْنَى الأسْوَإِ: الأقْبَحُ، يعْنِي عمَلُهم السّيِّئ كانَتْ نَتِيجَتُه أسْوأَ، وَهَذا أسْوَأُ بالنّسْبَةِ لما هُمْ علَيْه مِنَ النّعِيمِ فِي الدّنْيَا فلَاقَوْا بعْدَ ذَلِك الجحِيمَ، ولا تَظُنَّ أنَّ هَذِهِ الآيَة تدُلّ عَلَى أن السّيِّئَةَ تُجزَى بأسْوأَ منْهَا؛ لأَنَّ الله يقُولُ: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام:١٦٠]، لكِنَّ الأسْوَأ باعْتِبَارِ حالهم لَا باعْتِبَارِ الجزاءِ عَلَى سُوئِهِمْ، فهُمْ كانُوا في الدّنيا مُنَعَّمِينَ وكانَتِ الدّنيا بالنّسْبَةِ للْكَافِرِ جنَّةً فلَمَّا ماتُوا عَلَى الكفْر انتقَلُوا إِلَى أسْوَأَ وأسْوَأَ بكَثِيرٍ، ولا يُنْسَبُ إِلَى حالهم فِي الدّنْيَا.

قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾: خبَـرُ ﴿كَانَ﴾ عَلَى رَفْعِ (عَاقِبَةُ)، واسْمُ كَـان عَلَى نَصْبِ ﴿عَـٰقِبَةَ﴾]، أفَادَنا المُفَسِّـر أنَّ في ﴿عَـٰقِبَةَ﴾ قراءَتَيْن: النّصْبُ والرّفْعُ، فعَلى قِراءَةِ الرّفْـع نعْرِب ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ اسمَ ﴿كَانَ﴾ و﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ خبـرُهَا منْصُوبٌ بفَتْحَةٍ مُقَدَّرَةٍ عَلَى الأَلِف منَع مِنْ ظُهورِها التّعَذُّرُ، وعَلى قِراءَةِ النّصْبِ نعْرِبُ ﴿عَـٰقِبَةَ﴾ خبَرَ ﴿كَانَ﴾ مُقدَّمًا، و﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ اسمُها مؤخَّرٌ، وهَذا أحَدُ الأوْجُه فِي الأعْرَابِ.

وقِيل إِنَّ ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ مفعُـولٌ مُطْلَقٌ يعْنِي أسَاؤُوا السّيِّـئَة السّوأَى، فيَكُـونُ مفْعُـولًا مُطْلَقًا ويَكُونُ الخبَـرُ أَو الاسْم هُو المصْدَرُ المؤَوَّلُ مِـنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿أَن كَذَّبُواْ﴾، أيْ صَار عاقِبَتُهم حِين أَسَاؤُوا أنْ كَذَّبُوا؛ لأَنَّ الأعْمَالَ السّيِّئَةَ -والعياذُ باللهِ- تَجُرُّ إِلَى السّيِّئَةِ كَما أَنَّ الحسَنَاتِ يَجْرُرْن إِلَى الحسَنَاتِ.

ولكِنْ مَا ذَهبَ إِلَيْهِ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَوْلى، فنَجْعَلُ السّوأَى إمَّا خبَرَ ﴿كَانَ﴾ عَلَى قِراءَةِ الرّفْعِ، وإِمَّا اسمَها عَلَى قِراءَةِ النّصْبِ.

قولُهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَالمرَادُ بِها جهَنَّم وَإِسَاءَتِهم ﴿أَن﴾ أَيْ بِأَنْ ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ القرْآنِ ﴿وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾]: بَيَّنَ لنا المُفَسِّر أنَّ العاقِبَةَ أنَّهُم عُذِّبُوا بالنَّارِ، وأنَّ المصْدَر في قوْلِه تَعالَى: ﴿أَن كَذَّبُوا۟﴾ عِلَّـةٌ لكَوْنِ عاقِبَتِهم السّوءَ، أيْ لأنَّهم كذَّبُوا بآيَاتِنا، لكِنَّ المُفَسِّر أَتى بـ(الباءِ)، والباءُ تكُونُ للسَّببِيَّةِ ولِلتَّعْلِيل، والمعْنَى واحِدٌ، أيْ كانَتْ عاقِبَتُهم السّوأَى لأنَّهم كذَّبُوا بآيَاتِ الله، هَذا بِالنِّسْبَةِ لأخْبَار الآيات كذَّبُوا بِها، وقَالُوا ليْسَتْ بِصَحِيحَةٍ، وبِالنّسْبَةِ للْعَمَل ﴿وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾، فجَمَعُوا بيْـنَ الاسْتِهْزَاءِ بالأحْكَام والتّكْذِيـبِ بالأخْبَارِ وَهَذا الَّذي ذَهَب إِلَيْهِ فِي إِعْرَابِ ﴿أَن كَذَّبُوا۟﴾ أحـدُ الأوْجُهِ أَيْضًا؛ لأَنَّ هناكَ وجهًا آخَـرَ يقُولُ: إِنَّ قوْلَه تَعالَى: ﴿أَن كَذَّبُوا۟﴾ بَدَلٌ مِنَ السّوأَى، أوْ بَيان لَهَا، ويَكُونُ المعْنَى أَسَاؤُوا السّوأَى، وهُوَ تَكْذِيبُهم فيَكُون عاقِبَتَهم إِذَن التّكْذيب والاستهزاءُ.

وعَلَى كُلِّ حَالٍ: سواءً قُلْنا أنَّها بدَلٌ أو عطْفُ بَيان مِنَ السّوأَى، أَوْ: أنَّها لِلتَّعْلِيلِ في ثُبوتِ السّوأَى لَهُم فإِنَّهُ يدُلُّ عَلَى أنَّ هَؤُلاءِ كانُوا مُكَذِّبينَ ومُسْتهزِئِينَ مُكَذِّبِينَ بالخَبَرِ ومُسْتهزِئِينَ بالحكْمِ، يتَّخذُونَ آياتِ الله هُزُوًا فِي الأحْكام وكَذِبًا بالأخْبارِ، فتَجِدُهم مَثَلًا في صَلاتِهم عنْدَ البيْتِ يُصَلُّون مُكَاءً وتَصْدِيَةً، ويسْخَرُونَ مِن الَّذِين آمَنُوا، ومَا إِلَى ذَلِك فيتَّخِذُونَه هُزُوًا.

قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ القرآن]: فِيه نَظَرٌ ظَاهِرٌ؛ لأَنَّ الآيَة عامَّةٌ، فتَشْمَلُ مَن كذَّبَ بآيَاتِ الله بالقرآنِ بعْدَ بعْثَةِ الرّسُولِ ﷺ، ومَنْ كذَّب بالتّوراة فِي زَمَن مُوسَى، وبالإنْجيلِ فِي زَمن عِيسَى، فالصّوابُ في الآيَة العُمُوم.

بَل لَوْ قِيلَ: لا يَدْخُل فِيها مَنْ كَذَّب بالقرآنِ لكَانَ لَهُ وجْهٌ، يعْنِي لَوْ قِيلَ: إِنَّ الأمْر عَكْسُ مَا قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قَالَ: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟

كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾، فالسّياقُ في قومٍ سَبقُوا لا في قومٍ حَاضِرينَ، فكَوْنُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يجْعَلُ الآيات هُنا بمَعْنَى القرآنِ بَعِيدٌ جدًّا، بَلْ إمَّا أنْ نَجْعَلَها للعُمُوم، وإمَّا أنْ نجعَلها للأُمَم السّابِقِينَ، أمَّا أنْ نَخُصَّها بالقرآنِ فهَذا فِيه نَظَرٌ ظَاهِرٌ.

وقوْله تَعالَى: ﴿أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ المرادُ بالآيات هُنا الآيَات الشَّرْعِيَّةُ لأنَّهَا محَلُّ التّكذِيبِ، وقَدْ يَكُونُ التّكْذِيبُ أيْضًا بالآيَات الكوْنِيَّةِ.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾: الاسْتِهزَاءُ يشْمَلُ الاسْتِهزاءَ القوْليَّ، والاسْتِهزاءَ الفعْلِيَّ، فالاسْتِهزاءُ القوْليُّ أنْ يسْخَر بها، مثْلَ مَا وَردَ فِي المنَافِقِينَ، قَالُوا: مَا رَأَيْنا مِثْلَ قُرَّائِنا هؤُلاءِ أَرْغبَ بُطونًا، ولَا أَكْذَبَ ألسُنًا، ولَا أَجْبنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ[1]، والاستِهْزاءُ الفعْلِيُّ كأَنْ يَحُجَّ ساخِرًا، أوْ يفْعَلَ شيْئًا مِن العبادَاتِ عَلَى وَجْهِ السّخرِيَةِ والاسْتِهزَاءِ والتّحْقِيرِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدتَانِ الأوْلى والثّانِيَةُ: سُوءُ العاقِبَةِ للمُسيئِينَ؛ لأَنَّ عاقِبَةَ هؤُلاءِ الّذِين أسَاؤُوا عاقِبَتُهم السّوأَى؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾، وهَذا عَلَى رأْيِ المُفَسِّر ظَاهِرٌ؛ لأَنَّهُ جَعَل ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ هِي خبَرَ ﴿كَانَ﴾ أوِ اسْمَها عَلَى اخْتِلَافِ القِرَاءَةِ فِي ﴿عَٰقِبَةُ﴾، ويتَفَرَّعُ عَلَى هَذِهِ الفائِدَةِ أنَّ عاقِبَةَ المحْسِن الحسْنَى لأنَّ الحكْم يدُورُ مَع علَّتِه، فإذا كانَتْ عاقِبَةُ المسيئِينَ السّوأَى، كَانتْ عاقِبَةُ المحسِنِينَ الحسْنَى، ويُؤَيِّدُ ذَلِك قوْله تَعالَى:

(١) تفسير الطّبري (١٤/ ٣٣٣).

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦].

الفائِدَةُ الثالِثَةُ: أنَّ الإساءَة هُنا هِي التّكذِيبُ بآيَاتِ الله، والاسْتِهـزاءُ بِها عَلَى تقْدِيرِ المُفَسِّر؛ لأَنَّهُ قَال بأنْ كَذَّبُوا، وعَلى الرّأْيِ الثّاني يكُونُ قوْلُه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿أَن كَذَّبُواْ﴾ هِي العاقِبَةُ فيُستَفادُ منْهَا أنَّ عاقِبَةَ المَعاصِي تكُون الكفَّر والتّكذيبَ بآيَاتِ الله والاسْتهزَاءَ بِها، لقَوْلِه تَعالَى: ﴿وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾، إذا قلْنَا إنَّ قوْلَه تَعالَى: ﴿أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ أيْ عَمِلُوا السّيِّئاتِ فكان عاقِبتُهُم التكذِيبَ والاستِهْزاءَ، ويكُونُ معْنَى ذَلِك أنَّ المعَاصِي تكُونُ سببًا للْكُفْرِ، وهُو كَذَلِكَ، وقَدْ قَال أهْلُ العلْم: إنَّ المعَاصِيَ بَرِيدُ الكفْرِ.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: أنَّ الوَحْي الَّذي أنْزَلَهُ الله عَلَى الرّسُلِ مِن آيَاتِه لقوْلِه تَعالَى: ﴿أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، وإنَّما كانَ مِن آيَاتِه لمَا يشْتَمِلُ علَيْه مِنَ الصّدْقِ في الأخْبَارِ والنّفْعِ فِي القصَصِ والعدْلِ في الأحْكامِ والإصْلاحِ، فكُلُّ الكتُبِ النّازِلَةِ متضمِّنَةٌ لهذِه الأمورِ: صِدْقٌ في الخبَرِ، نفْعُ القصَصِ، عدْلٌ في الأحْكَامِ، مصْلَحَةٌ للعِبَادِ؛ فلِهَذا كانَتْ هَذِهِ الكتُبُ مِن آيَاتِ الله؛ لأَنَّهُ لا يُمْكِنُ للْبَشَرِ أنْ يضَعُوا مثْلَها.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: الفرْقُ بيْنَ التّكذِيـبِ والاستِهْزَاءِ، فالتّكذِيـبُ ردُّ الخبَـرِ، والاستِهْزاءُ السّخرِيَةُ بالأعْمالِ الظّاهرَةِ أوِ الباطِنَةِ، والاستِهْزَاءُ أشَدُّ؛ لأَنَّهُ جامِعٌ بيْنَ التّكذِيبِ والسّخرِيَةِ.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: التّحذِيرُ مِنْ أعْمالِ السّيِّئاتِ حيْثُ كانَتْ هَذِهِ عاقبَتَها، سواء قلْنَا إنَّ السّوأَى هِي العاقِبَةُ، أوْ أنَّ العاقِبَةَ هِي التّكْذيبُ، فإِنَّهُ يتضَمَّنُ التّحذِيرَ مِنَ الأعْمالِ السّيِّئَةِ.



الآيــة (١١)

• ● ●

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [الروم:١١].

• ● ●

هَذا لتَأْكِيدِ الإِيمان بِاليْومِ الآخر، ذَكَّر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى عباده بأَمْرٍ يعْترِفُون بِه، وهُو أَنَّه بدَأَ الخلْقَ ولَا أَحَدَ يُنْكِرُ ذَلِك، لا أَحَدَ يدَّعِي أَنَّه خلَقَ نفْسَه، فَكُلُّ إِنْسَانٍ يعْرِف أَنَّه مخلُوقٌ مِن عدَم، ومِنَ المعْلُومِ أَنَّه لو ادَّعى أَنَّه خُلِق مِنْ غير خالق فإِنَّ كُلَّ أحدٍ يُكذِّبُه، وإِذَا أقرَّ بأَنَّه لَا بُدَّ مِن خالق فنَقُول لَهُ: مَنْ، عَيِّنْهُ لنا؟ وحِينَئِذٍ لَا يستَطِيعُ أن يعيِّنَ، فنَقُولُ: إِنَّ الَّذي خلَقَكَ هُوَ الله.

قوْله تعالَى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾ أيْ يُنْشِئُه أوَّلَ مرَّةٍ، كَما قالَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ [يس:٧٩]، وتطْوِيرُ الخلْقِ وجعْلُه أطوارًا أمْرٌ معلُومٌ؛ لأَنَّ هَذا هُو مقْتَضَى الحكْمَةِ، فمُقْتَضى حِكْمَةِ الله تَعالَى أنَّ الأَشْياءَ تَتطَوَّرُ شيْئًا فشيْئًا حتَّى تَصِل إِلَى حَدِّ الكمالِ.

وقوْله تَعالَى: ﴿ثُمَّ﴾ للترتيب بمهلَةٍ؛ لأَنَّ الإعادَةَ لا تَكُونُ إلا عنْدَ قِيامِ السّاعَةِ، فقِيامُ السّاعَة يتأَخَّرُ كَثِيرًا عَنِ ابْتِداءِ الخلْقِ، ﴿يُعِيدُهُۥ﴾ أيْ يُرْجِعُه مرَّةً ثانِيَةً، وليْسَ يَبْتَدِئ خلْقًا جديدًا، وَإِنما يُعِيدُ المخْلُوقَ الأوَّلَ، فلَيْس إِنْشَاءَ خلْقٍ جدِيدٍ، بَلْ إعادَةُ مَا سبَقَ، وفرْقٌ بَيْن الأمْرَيْن؛ لأَنَّنا إِذا قُلْنا أَنَّه ابْتِدَاءُ خلْقٍ جدِيدٍ فمَعْنى ذَلِكَ أنْ يُعَـذِّبَ مَنْ لم يَعْمَل، وأنْ يُنْعِّمَ مَنْ لم يعْمَل، وأيْضًا فإِنَّ كوْنَه يَبْتَدِئ خلقًا جديـدًا

لا ينْكِرُه المكذِّبونَ بالبعْثِ؛ لأنَّهم يُقرُّونَ بالابْتِدَاءِ، إنما هُمْ يُنْكِرُون الإعادَةَ، ﴿مَن يُحۡىِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٨]، وعَلَى هَذا فالبعْثُ إعَادَةُ وجمْعُ مَا تفرَّقَ، ولَيْس ابتدَاءَ خلْقٍ جدِيدٍ.

وَإِذا قِيلَ: هَذا المتفَرِّقُ صَار رَمِيمًا، ثمَّ تُرابًا وتَلاشَى، أوْ أنَّ الإنسان أكلَتْه السّباعُ أوْ الحيتَانُ، أَوْ مَا أشْبَهَ ذَلِك.

قُلْنَا: مَهما كَانَ، فاللهُ تَعالَى قادِرٌ عَلَى أنْ يجْمَعَهُ ثمَّ يُعيدَه، وَلِهَذا قَالَ: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾.

قوْله تَعالَى: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ﴾ لَا إِلَى غيْره، ﴿تُرۡجَعُونَ﴾ فِيها قراءَتَانِ «يُرْجَعُونَ» و﴿تُرۡجَعُونَ﴾[1]، فعَلى قراءَةِ التاء تكونُ الجمْلَةُ للخِطَابِ، وعَلى قِراءَةِ اليَاءِ تَكونُ الجمْلَةُ للغَيْبَةِ.

ويُشْكِلُ عَلَى هَذا أنَّه قَال: «يُرْجَعُونَ» مَع أنَّ الخلْق في قوْلِه تَعالَى: ﴿يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾ مفْرَدٌ، ﴿يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، ومقْتَضى السّياقِ أنْ يقُولَ: «ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُ»، لكنَّه قال: «يُرْجَعُونَ».

والجوابُ عَلَى ذَلِكَ: أنَّ (الخلْقَ) مصْدَرٌ بمعْنَى اسْمِ مفْعُولٍ، فمَعْنَى يبْدَأُ الخلْق يعْنِي يبْدَأُ المخْلُوقِينَ، ولكنْ لَّما كَان مصْدَرًا فإِنَّ المصْدَر لا يُثَنَّى ولَا يُجْمَعُ، قَال ابْنُ مَالك في الألفيَّةِ[2]:

ونَعتُوا بِمَصْدَرٍ كَثِيرَا فالتزَمُوا الإفْرَادَ وَالتّذْكِيرَا

---

(١) الحجة للقراء السّبعة (٥/ ٤٤٤).

(٢) البيت رقم (٥١٣) من ألفيته.

وعَلى هَذا فنَقُول: إنَّ الخلْقَ بمعْنَى المخْلُوقِين، يَعْنِي ثمَّ إِلَى الله يَرْجِعُ هَؤُلاءِ المخلُوقُونَ بَعْدَ الإعادَةِ، وَهَذا الرَّدُّ إِلَى الله والإرْجاعُ مِنْ أَجْلِ الجزاءِ والحسَابِ، ثمَّ المآلُ إِلَى دَار النَّعِيمِ أوْ إِلَى دَارِ الجحِيم.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: قدْرَةُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، حيْثُ ابْتَدَأ الخلْقَ.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: ثُبوتُ حُدوثِ العالَمِ، وأنَّهُ ليْسَ قَدِيمًا لَا أوَّلَ لَه كَما زعَمَتِ الفلاسفَةُ أنَّ الله ابْتدأَهُ، والمبْتَدَأُ معْنَاه كَان بالأوَّلِ عدمًا.

الفائِدَةُ الثالِثَةُ: ثُبُوت البعْثِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾.

الفائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ البعْثَ ليْسَ ابْتِداءَ خلْقٍ، ولكنَّه إعادَةٌ، خِلافًا لمَنْ قَال: إنَّ البعْثَ ابتِدَاءُ خلْقٍ؛ نأخُذُها مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، والضَّمِيرُ يعُودُ إِلَى الخلْق المبْتَدَأِ، وقَد سبَق فِي كلامِنا عَلَى هَذِهِ الآيَة أنَّه لوْ كانَتِ الإعادَةُ ابتداءَ خلْقٍ جدِيدٍ لكانَ يُعَذَّبُ مَنْ لم يَعْمَلْ، ويُنَعَّمُ مَنْ لم يَعْمَلْ، ولكِنَّ البعْثَ إعادَةٌ لما سَبَق.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هلِ المرَادُ إعادَةُ نفْسِ الأجْسَام أمْ تنْبُتُ نَباتًا جديدًا؟

قُلْنَا: نفْسُ الأعْيَانِ التي تفتَّت وذَهبَتْ يُعِيدُها الله، فإذَا تحوَّلَ إِلَى تُرابٍ يُعادُ، وَهَذا الجسْمُ المخْلُوقُ هُو نفْسُ الأوَّل، يجْمَعُ الله تَعالَى ما تفرَّقَ منْهُ ثمَّ يُحْيِيهِ.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: الاسْتِدلال بالمبْدَأ عَلَى المعَادِ، تُؤْخَذُ مِنْ قوْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَبْدَؤُا۟﴾، و﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، فإنَّ هَذا استِدْلالٌ بالمبْدَأِ عَلَى المعَادِ، والاسْتِدلال بالمبْدَأِ عَلَى المعَادِ استِدْلَالٌ حقِيقِيٌّ ومنْطِقِيٌّ ومعقُولٌ، فالمبْدَأُ أَشَدُّ وأصْعَبُ، فالقادِرُ عَلَى الابتِداءِ قادِرٌ عَلَى الإعادَةِ؛ وَلِهَذا قالَ الله تَعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ

﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الروم:٢٧]، الكلُّ هيِّنٌ لكِنَّ هَذا أهْوَنُ؛ لأَنَّ هَذا إعَادَةٌ.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: أنَّ مرجِعَ الخلائِق إِلَى الله عَزَّوَجَلَّ في الدّنْيا وفِي الآخرةِ، أمَّا فِي الآخرةِ فيَرْجِعُونَ إِلَى الله ليحْكُم بينَهُم بالجزاءِ، وأمَّا فِي الدّنيا فيَرْجِعُونَ إِلَى الله عَزَّوَجَلَّ ليحْكُمَ بيْنَهُم بالعمَلِ، ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى:١٠]، هَذا خَبَرٌ، وقالَ ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء:٥٩].

فالمُهِمُّ: أنَّ المرْجِعَ إِلَى الله في الدّنْيا والآخرةِ، فالمرْجِعُ إِلَى الله تَعالَى فِي أُمُورِ دُنْيانا وفِي أُمورِ دِينِنا، وَكَذلِكَ فِي أمْرِ الآخرةِ نُرجَع إِلَى الله ويُجازِينا بِمَا نستَحِقُّ، وإِنْ كانَتْ تَعْني الآخرةُ بالأوْلَويَّةِ فقَطْ؛ لأنَّهَا في سِيَاقِ هَذا، لكِنْ لَا مانِعَ مِنْ أنْ تُحْمَل عَلَى العُمُوم، لا سِيَّما أنَّه ذَكَر ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ﴾.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: أنّه لا يَجوزُ التّحاكُمُ إِلَى غيرِ الله؛ تُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ﴾، وجهُه الحصْرُ فِي قوْلِه تَعالَى: ﴿إِلَيْهِ﴾، يعْنِي لَا إِلَى غيْرِه.



الآيــة (١٢)

• ● ● •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [الروم:١٢].

• ● ● •

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ يَسْكُت المشْرِكُون لانقطاع حجتهم] اهـ.

قَوْله تَعالَى: ﴿ وَيَوْمَ ﴾: ظَرْفٌ متعلِّقٌ بقوْلِه سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿يُبْلِسُ﴾، وهِي مُضافَةٌ إِلَى الجمْلَةِ بعْدَها، والجمْلَةُ بعْدَها ﴿تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾، فالجمْلَةُ إِذَنْ في محَلِّ جَرٍّ بالإضافَةِ.

وقوْله تَعالَى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ ﴾: أيْ تأْتِي، كَما قَالَ الله تَعالَى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾، والسّاعةُ المرادُ بِها ساعَةُ البعْثِ، فـ(أل) فِيها للْعَهْدِ الذّهْنِيِّ، يعْنِي السّاعَةَ المعهُودَةَ العظِيمةَ التي فِيها قِيَامُ الخلْقِ مِنْ قُبورِهِم إِلَى الله عَزَّوَجَلَّ.

قوْله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ يسكت]: فالإبْلاس بمعْنَى السّكوتِ، وقِيلَ الإبْلاس بمَعْنَى اليَأْسِ؛ لقوْلِه سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴾ [الروم:٤٩]، أي لآيِسِينَ، ومِنْه (إِبْلِيسُ)؛ لأَنَّهُ أَيِس مِن رحْمَةِ الله، وعَلى هَذا فيكُونُ (يُبلِسُ) بمعْنَى يَيأَسُ، ولا يَبْعُدُ أَنْ تَكُونَ الآيَة جامِعَةً للمَعْنَييْنِ أيْ يَيْأَسُونَ فيَسْكُتُونَ؛ لأَنَّهُ إِذا أَيِس سكَتَ ولَمْ يتكَلَّمْ بشَيْءٍ، إِذ إِنَّ الكلامَ لَا ينْفعُهُ، وعَلى هَذا فنَقُولُ: إِنَّ مَعْنى (يُبْلِسُ) يَيأَسُ مَع السّكوتِ.

وقوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾: اسْمُ فاعِلٍ مِنْ (أَجْرَمَ)، أيْ فَعَل الجرْمَ، وهُو الذّنْبُ العظِيم؛ وَلِهَذا فسَّرها المُفَسِّر بقَوْلِه: (المشْرِكُونَ)، ويُسْتَدَلُّ عَلَى أنَّ المرَادَ بِه المشْرِكُونَ بقوْلِه تَعالَى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُاْ﴾، فهُمْ يَوْمَ القيامَةِ يَيْأَسُونَ ويَسْكُتونَ ولَا يجِدُونَ لهُمْ حُجَّةً.



الآيــة (١٣)

• ● ● •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴾ [الروم:١٣].

• ● ● •

قال المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَلَمْ يَكُن ﴾ أَيْ لَا يَكُـون ﴿لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ﴾ مِمَّنْ أَشْرَكُـوهُمْ بِالله وَهُمْ الأَصْنَام لِيَشْفَعُـوا لَهُمْ ﴿شُفَعَـٰٓؤُاْ وَكَانُواْ﴾ أَيْ يَكُونُـونَ ﴿بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴾ أَيْ مُتَبَرِّئِينَ مِنْهُمْ] اهـ.

قوْله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَلَمْ يَكُن ﴾ أي لا يكون]: فسَّر (لم) بـ(لا)؛ لأَنَّ (لم) في قوْلِه تَعالَى: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ ﴾ للْمَاضِي، فتَقْتَضِي أن يكونَ هَذا الأَمْرُ قدْ وَقَع وهُوَ لم يأتِ لأَنَّهُ يَوْمَ القيامَةِ، فعلَى هَذا يكُونُ الماضِي بمَعْنى المسْتَقْبَلِ، أيْ: ولَمْ يَكُنْ لَهُم حِينَئِذٍ، وعِنْدِي أَنَّه لَا حاجَةَ إِلَى هَذا التَّأْويلِ، أيْ لَا حاجَةَ إِلَى أنْ نَجْعَلَ (لم) بمعْنَى (لا)؛ لأَنَّ قوْلَه تَعالَى: ﴿ وَلَمْ يَكُن ﴾ مقيَّدَةٌ بِكلِمَةِ (يُبْلِس)، يعْنِي ولَمْ يكُنْ لَهُم فِي حالِ الإِبْلاس، وحَالُ الإِبْلاس يكُونُ يوْمَ القيامَةِ، لكِنَّ المُفَسِّر أَخذ الآيَة عَلَى أَنَّها مُطْلَقَةٌ بدُونِ أنْ تُقَيَّدَ بقَوْلِهِ: (يُبْلِسُ)، وعَلى هَذا لا بُدَّ أنْ نَقُولَ: إنَّ (لم) بمَعْنَى (لا).

قوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿شُفَعَـٰٓؤُاْ﴾ اسْمُ ﴿يَكُن﴾، ﴿مِّن شُرَكَآئِهِمْ﴾ خبرُها مقدَّمٌ، و﴿شُرَكَآئِهِمْ﴾ جمْعُ شَريكٍ، وهُو بمَعْنى اسْمِ مفْعُولٍ، مثْلُ قَتِيل بمَعْنى مقْتُول، أيْ مشْرُوك بِه، والمعْنى مَن جَعلُوهم شُركَاءَ مَع الله كَمـا قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ مَنْ

أَشْرَكُوهُمْ بِاللهِ]، فصَارَتِ الإضافَةُ هُنا مِنْ بَابِ إِضافَةِ الشَّيْءِ إِلَى مفْعُولِهِ، أي الَّذِين جَعلُوهُمْ شُركَاءَ لَهُمْ.

وقوْله تَعالَى: ﴿شُفَعَـٰٓؤُاْ﴾ جَمْعُ (شَفِيع) بمعْنَى شَافِع، وَالشّافِعُ هُو مَن يتوسَّطُ للغَيْرِ إمَّا لجَلْبِ منفَعَةٍ، وإمَّا لدَفْع مضَرَّةٍ، وسُمِّي شافِعًا لأَنَّك بِه كُنْتَ شِفْعًا بعْدَما كنْتَ قبْلَه منْفَرِدًا؛ وَلِهَذا سُمِّي الشَّفِيع شافِعًا لهذا الوَجْهِ، أما الشَّفاعةُ لجلْبِ المنْفَعة فكأَنْ يَكُونَ فَقِيرًا فيتوسَّطُ لَه عنْدَ الملِكِ ليُعْطِيَه مالًا. وأمَّا دفْعُ المضَرَّة فكَأَنْ يتوسَّطَ لَهُ ليُخْرِجَهُ مِن السِّجْنِ، ومثاله أيْضًا في الشَّرْعِ شفاعَةُ النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في أهْلِ النَّارِ أنْ لَا يدْخُلوهَا، فهَذِهِ شفاعَةٌ لدَفْعِ مضَرَّةٍ، وشفاعَتُه لأَهْلِ الجنَّة أنْ يدْخلُوهَا جلْبٌ لمنْفَعَةٍ، فهَؤُلاءِ لم يَكُنْ لهم مِنْ شُركائِهم شُفَعَاءُ.

قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَكَانُواْ﴾ أي يكونونِ]: مثْلُ مَا قَال فِي: ﴿وَلَمْ يَكُن﴾.

قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾ أي متبرِّئِيـنَ منهم]: نَعَمْ، فِي يوْمِ القيامَةِ هؤُلاءِ الشّـركَاءُ الَّذِين كانُوا يَرْجُونَ منْفَعَتَهُم فِي يوْمِ القيامَةِ يَكْفُرونَ بِهِم ويتبرَّؤُونَ منْهُم، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا﴾ [البقرة:١٦٧]، فهُمْ يكْفُرونَ بِهم يوْمَ القيامَةِ لَا هَؤُلَاءِ ولَا هَؤُلاءِ المعبُودُونَ يكْفُرونَ والعابِدُون أيضًا يكْفُرونُ، كُلٌّ منْهُم يكْفُرُ ببَعْضٍ -والعياذُ باللهِ-، بيْنَما كانُوا فِي الدّنيا يَرْجُونَ شفَاعَتَهُم وخيْرَهُم، قَال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، لكِنَّهُم فِي يَوْمِ القيامَةِ -والعياذُ باللهِ- يتبرَّأُ بعضُهُمْ مِن بعضٍ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: قِيامُ السّاعَة وأَنَّه كائِنٌ لَا محالَةَ؛ لقوْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾.

الفائِدَةُ الثّانيَةُ: أنَّ أهْلَ الشّرْكِ إذا قامَتِ القيامَةُ سكَتُوا وأَيِسُوا مِن الرّحْمَةِ؛ لقوْلِه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ بخِلَافِهم فِي الدّنْيا، فإنَّهم فِي الدّنيا يُعانِدُونَ ويسْتَعْلُونَ بآلهتِهم كَما قَال أَبُو سُفْيانَ: أُعْلُ هُبَل، ولكِنْ فِي الآخرةِ لَا حِراكَ لَهُمْ ولَا قولَ، ﴿يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

الفائِدَةُ الثالِثةُ: أنَّ هَذِهِ المعبُوداتِ لا تنْفَعُ أصحابَها فِي أَحْوَجِ ما يَكُونُونَ إليْها؛ وجْهُ ذَلِك من الآيَة ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُا۟﴾، فذَلِك اليوْم هُو محلُّ الشّفاعَةِ لكِنَّهُم لَا يسْتَفِيدُونَ مِن هَذِهِ الأَصْنَامِ، بَلْ أَكْثَرُ مِن هَذا أَنَّهُم يَكْفُرون بهَذا، ﴿وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾، يكْفُرون بِهم كَما أنَّ الأَصْنَامَ تَكْفُر بِهم أيضًا، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف:٥-٦]، فيتبَرَّأُ كُلٌّ مِن الآخر مَع أنَّ ذَلِك هُو محلُّ الأزْمَةِ ومحلُّ الفرَج.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: الإِشارة إِلَى أنَّ هَؤُلاءِ المشْرِكينَ إنَّما أشْركُوا لطلَبِ أنْ يكُونَ هَؤُلاءِ المشْـرَك بِهم شُفعاءَ، وَهَذا ما صـرَّح الله بِه فِي قوْلِه تَعالَى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، فإذا قَال هَؤُلاءِ الَّذِين يعْبُدونَ القبـورَ: نَحْن مَـا نعْبُدهُمْ لأنَّنا نرْجو منْهُم نفعًا مباشِرًا لكِن نعْبُدهم ليَشْفَعُوا لنَا إِلَى الله.

قُلْنَا: هَذا شِرْكُ الأوَّلِين، وَهَذا مَا حَكاهُ الله عَن المشْرِكِينَ أنَّهم لَا يُريدُونَ النّفْع المبَاشِرَ لكنَّهُم يُريدُونَ أنْ تَكُونَ شفِيعَةً لهُمْ عِنْدَ الله عَزَّوَجَلَّ.



الآيتان (١٤، ١٥)

• ● ● •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ [الرّوم:١٤-١٥].

• ● ● •

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ ﴾ تأْكِيد ﴿يَتَفَرَّقُونَ ﴾ المؤْمِنُونَ والكافرون، ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ ﴾ جَنَّة ﴿يُحْبَرُونَ ﴾ يَسُرُّونَ، ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ القرْآن ﴿وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ البعث وغيره ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾] اهـ.

نقُولُ فِيها كَما قُلْنا فِيما سبَقَ أَنَّ المَرادَ بالسّاعَةِ ساعَةُ البعْثِ المعْهُودَةِ المعْلُومَةِ.

قوْله تَعالَى: ﴿يَتَفَرَّقُونَ ﴾: مُتَعلِّقٌ ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ ﴾ يعْنَي أنَّ قوْله تعالَى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ ﴾ مُتَعلِّقٌ بـ﴿يَتَفَرَّقُونَ ﴾، و﴿يَوْمَئِذٍ ﴾ تأكيدٌ للأُوْلَى، والدّلِيلُ عَلَى أنَّها تأكِيدٌ أنَّها لَوْ حُذِفَتْ وقِيلَ: (ويَوْم تَقُومُ السّاعَةُ يتفرَّقُون) اسْتَقامَ الكلامُ لكِنْ يفُوتُ التّوْكِيدُ الّذي أرادَهُ الله عَزَّوَجَلَّ، يعْنِي فِي ذَلِك اليَوْمِ بالتّأكِيدِ.

والتّنوين في ﴿يَوْمَئِذٍ ﴾ -وفي كُلِّ موارِدِها- عِوَضٌ عنْ جُمْلَةٍ، أيْ (يَوْمَ إذْ تَقُومُ السّاعَةُ) وَكَذلِكَ يُقَالُ في (حينَئِذٍ) و(وقتِئِذٍ)، التّنوينُ فِيها عِوَضٌ عنْ جُمْلَةٍ.

وقوْله تَعالَى: ﴿يَتَفَرَّقُونَ ﴾: الضّميرُ يعُودُ عَلَى الخَلْقِ فيشْمَلُ المؤْمنَ والكافِرَ حَتَّى لَو كانُوا أقَارِبَ لوْ كَان أبٌ مسْلِمٌ وابْنٌ كافِرٌ أوْ بالعكْسِ تفرَّقُوا لأنَّها دارُ

الجزاءِ وكلٌّ يُجْزَى بعمَلِه.

قولُه تعالَى: ﴿ فَأَمَّا ﴾: حرْفُ شَرْطٍ وتفْصِيلٍ؛ ولذَلِك يُؤْتَى بِها دَائِمًا في مَواضِعِ التَّفْصيل، كَما فِي قوْلِه تَعالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ [الليل:٥]، ثمَّ قالَ في ضِدِّه: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ﴾ [الليل:٨]، وهِي أيْضًا حرْفُ شرْطٍ؛ ولِذَلِك تَحْتاجُ إِلَى جَوابٍ، ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ﴾ [الليل:٥-٧]، وهنَا قالَ تعالَى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ ﴾ فتكُونُ إِذَنْ حرْفَ شرْطٍ وتفْصيلٍ، وهِي أيْضًا متضَمِّنَةٌ لمعْنَى التّوكِيدِ، فإِنَّها تُؤكِّدُ لأَنَّ قولَك: (أمَّا مَن فعلَ كَذا فَلَهُ كذا) أقْوَى مِنْ قَولِكَ: (مَن فعَلَ كذا فلَهُ كَذا)، فهِيَ عَلَى هَذا تفِيدُ الشّرْطِيَّةَ وَالتَّفْصيل والتّوكِيدَ، وهُوَ تقْوِيةُ الكلامِ، وأيْضًا تُفيدُ حصْرَ التّفرُّق عَلَى هذَيْنِ الفريقَيْنِ.

قوْله تَعالَى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مبْتَدأٌ، والخبَرُ ﴿فَهُمْ﴾ مِنْ جُملَة ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾.

وقوْله تَعالَى: ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ يعْنِي جَمَعُوا بيْنَ الإِيمان وَالعمَلِ، واعْلَمْ أنَّ الإِيمان إِذا أُفْرِد شَمِلَ العمَل كَما أنَّ عمَلَ الصّالحاتِ إِذا أُفْرِد يشْمَلُ الإِيمان، فَإِذا قُرِن أَحَدُهما بالآخر صَار الإِيمان يعْني الأعمالَ الباطِنَةَ، وعَملُ الصّالحاتِ للأَعْمالِ الظّاهِرة أيْ عَمل الجوارِحِ، والإِيمان يَشْمَلُ الإِيمان باللهِ وملائِكَتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ والْيَومِ الآخر والقدَرِ خيْرِه وشَرِّه، هكَذا فسَّرهُ النّبيُّ ﷺ لجبْرِيلَ حينَ سأله مَا الإِيمان؟ قَال: «أنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَوْمِ الآخر وَتُؤْمِنَ بِالقدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»[1].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإِيمان، باب بيان الإِيمان والإسلام والإحسان، رقم (٨).

قَوْله تَعالَى: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: ﴿عَمِلُوا﴾ تشمَلُ الفعْلَ والقوْلَ، والعمَلُ الصّالح يشْمَل قوْلَ اللّسانِ وعمَلَ الجوارِحِ، والعمَلُ الصّالح هُو ما جَمعَ بَيْنَ أمْرَينِ:

- الإِخْلاص للهِ عَزَّوَجَلَّ.
- والمتَابعَة لرَسُولِه ﷺ.

فقوْلُه تعالَى: ﴿ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ مِن هَذيْن الأمْرَيْنِ إيمانٌ وعمَلٌ، ومجردُ الإِيمَان لا ينْفَعُ بدُونِ عمَلٍ، وَالعمَلُ بدُونِ إيمانٍ أيْضًا لا ينْفَعُ، بلْ لا بُدَّ مِن إيمانٍ وعمَلٍ، وَبِهذَا نعْرِفُ أنَّ بعْضَ النّصوصِ المطْلَقَةِ التي فيها الوَعْدُ بالجنَّةِ لمنْ كَانَ فِي قلْبِهِ أدْنَى حَبَّةِ خرْدَلٍ مِنْ إيمانٍ ومَا أشْبَهَ ذَلِك أنَّ المرادَ الإِيمان المتضمِّنُ للعَملِ تحقِيقًا أو تقْديرًا، تحقِيقًا بأنْ يكُونَ عامِلًا فعْلًا، وتقْدِيرًا بأنْ يكُونَ لم يتمَكَّنْ مِن العمَلِ، ولكِن مَعه الإِيمَان، كَما لَوْ آمَن عنْدَ قُربِ وفَاتِهِ مثْل الأصَيْرِم مِن بَنِي عبْدِ الأشْهَل قصَّتُه معروفَةٌ في أُحُدٍ[1].

وقوْله تَعالَى: ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾: جمْلَةٌ اسْميَّةٌ، للدّلالَةِ عَلَى الثّبوتِ

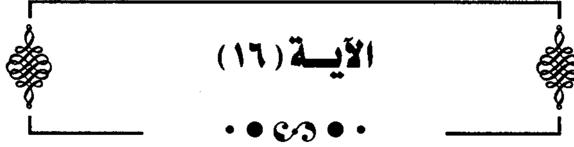
---

(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: حَدِّثُونِي عَنْ رَجُلٍ دَخَلَ الجَنَّةَ لَمْ يُصَلِّ قَطُّ؟، فَلَمَّا لَمْ يَعْرِفْهُ النَّاسُ سَأَلُوهُ مَنْ هو؟ فَقَالَ: أُصَيْرِمُ بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ، عَمْرُو بْنُ ثَابِتِ بْنِ وَقْشٍ، قَالَ الحُصَيْنُ: فَقُلْتُ لِمَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ: كَيْفَ كَانَ شَأْنُ الأُصَيْرِمِ؟، قَالَ: كَانَ يَأْبَى الإِسْلَامَ عَلَى قَوْمِهِ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ وَخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى أُحُدٍ، بَدَا لَهُ الإِسْلَامُ فَأَسْلَمَ، فَأَخَذَ سَيْفَهُ فَغَدَا حَتَّى أَتَى القَوْمَ، فَدَخَلَ فِي عُرْضِ النَّاسِ فَقَاتَلَ حَتَّى أَثْبَتَتْهُ الجِرَاحَةُ، فَبَيْنَمَا رِجَالُ بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ يَلْتَمِسُونَ قَتْلَاهُمْ فِي المَعْرَكَةِ إِذَا هُمْ بِهِ، فَقَالُوا: وَالله إِنَّ هَذَا لَلْأُصَيْرِمُ وَمَا جَاءَ، لَقَدْ تَرَكْنَاهُ وَإِنَّهُ لَمُنْكِرٌ هَذَا الحَدِيثَ، فَسَأَلُوهُ فَقَالُوا: مَا جَاءَ بِكَ يَا عَمْرُو؟، أَحَرْبًا عَلَى قَوْمِكَ أَوْ رَغْبَةً فِي الإِسْلَامِ؟، فَقَالَ: بَلْ رَغْبَةً فِي الإِسْلَامِ، آمَنْتُ بِالله وَرَسُولِهِ وَأَسْلَمْتُ، ثُمَّ أَخَذْتُ سَيْفِي فَغَدَوْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فَقَاتَلْتُ حَتَّى أَصَابَنِي مَا أَصَابَنِي، ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ مَاتَ فِي أَيْدِيهِمْ، فَذَكَرُوهُ لِرَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ: «إِنَّهُ لَمِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ»، أخرجه أحمد (٣٩/ ٤١، رقم ٢٣٦٣٤) طبعة الرّسالة.

والاسْتِمرارِ ﴿فِي رَوْضَةٍ﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [جنَّة] وهِي كذَلِك، فالرَّوْضَةُ عبَارَةٌ عَنِ البساتِينِ المشْتَمِلَةِ عَلَى الأزْهارِ وَالأشْجارِ وَالرّوائِح الطّيِّبَةِ وَالمَناظِرِ البهِيجَةِ؛ وَلِهَذا قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يُحْبَرُونَ﴾: أيْ يُسَرُّون]، وقِيلَ: ﴿يُحْبَرُونَ﴾ يُنَعَّمُون، وهُمَا متَلازِمَانِ؛ لأَنَّ النّعِيمَ يحْصُلُ بِهِ السّرورُ، هَؤُلاءِ الَّذِين آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالحاتِ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُون.

قوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يُحْبَرُونَ﴾: الماضِي منْهُ (حُبِرَ)، وهُوَ فِعْلٌ مضَارِعٌ مبْنِيٌّ للمَجْهُولِ والماضِي منْهُ إذا كَان فِيه الفاعِلُ الظّاهِرُ بالكسْرِ (حَبِرَ)، فتكُونُ مثْلَ (فَرِح يَفْرَح، حَبِرَ يَحْبَرُ).





الآية (١٦)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾ [الروم:١٦].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ القرْآن ﴿وَلِقَآيِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ البعث وغيره ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾] اهـ.

فِي هذِهِ الآيَة بَيان للْقِسْمِ الثّانِي، وَهُمُ الَّذِين كفرُوا بتَرْك العمل الصّالح، ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ فلَمْ يُؤْمِنُوا.

وقولُه رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ القرْآن]، غيرُ صحِيحٍ، بَل قطْعًا يشْمَلُ القرآنَ وغَيْرَ القرآنِ؛ لأَنَّ الَّذِين آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالحاتِ والَّذِين كَفَرُوا وكذَّبُوا بِآيَاتِ الله ولِقَائِهِ هؤُلاءِ يَكُونُونَ في هَذِهِ الأمَّةِ ويَكُونُونَ فِي غيْرِها.

وقوْلهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَلِقَآيِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ البعْثِ وغَيْرِه]، البعْثُ الإخراج مِنَ القبورِ وغَيْرُه مِن الحسَابِ والجزاءِ وَالجنَّةِ والنّار، فيُكَذِّبُونَ بِها فيقُولونَ لَا تُوجَدُ جَنَّةٌ ولا نَارٌ ولا حِسابٌ ولَا عَذابٌ، والعجِيبُ أنَّ هَذا القوْلَ الباطِلَ الفاسِدَ نَحا إِلَيْهِ مَنْ يُسمُّونَ أنْفُسَهُم بِالحكَماءِ وهُمُ الفلاسِفَةُ، يقُولونَ أنَّه لا تُوجَدُ جنَّةٌ ولا نارٌ ولا بَعْثٌ، ولَكِنَّ الرّسلَ قَالوا لِلنَّاسِ هَذا مِن أجْلِ إقامَتِهم عَلَى الطّريق التي اختَرعُوها لَهُم، ويَزْعُمونَ -وَالعياذُ بِاللهِ- أنَّ الرّسُلَ رجَالٌ عباقِرَةٌ عنْدَهُم ذكاءٌ وحُسْنُ سِيرَةٍ وتنْظِيمٌ، لكِنَّهم

لَو قَالُوا لِلنَّاس: افْعَلُوا كَذا أَوْ لَا تفْعَلُوا كَذا بدُونِ ترْهِيبٍ ولَا ترْغِيبٍ مَا أطَاعَهُم النّاسُ، فكَانُوا يقُولونَ لِلنَّاسِ: إنَّ لكُم ربًّا عظِيمًا وإلهًا قادِرًا، وإنَّ لكُم معادًا يَكُونُ فِيه الجنَّةُ أوِ النّارُ، والأمْرُ ليْسَ كَذَلِكَ عنْدَهُم، يعْنِي إنَّما ذَكَرُوا ذَلِك مِنْ أجْلِ إقَامَةِ النّاسِ عَلَى الطّـريقِ التي سَنُّوها لهُم، وَهَذا معْنَاهُ الكفْر بالبعْـثِ وَبِالرّسالَةِ وحتَّى بأنْفُسِهم؛ لأَنَّ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ باللهِ عَزَّوَجَلَّ فقَدْ كَفَر أوَّلَ مَا كَفَر بنَفْسِه؛ لأَنَّهُ أنْكرُ أنْ يكُونَ لَه خالقٌ.

قَوْله تَعالَى: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾: أعُوذُ باللهِ، المرَادُ بِالعذَابِ هُنَا العقوبَةُ، وجَعل العذابَ ظرْفًا لهُم لأنَّهُ محِيطٌ بِهِمْ مِن كُلِّ جانِبٍ، كَما قَالَ الله تَعالَى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت:٥٥].

وقَوْله تَعالَى: ﴿مُحْضَرُونَ﴾ مِن الإحْضَارِ أحْضَرْتُه، بمَعْنى: جعلْتُه يحْضُر هَذا الشّيْءَ، فهَؤُلاءِ محُضَرُونَ فِي العذابِ بدُونِ اخْتِيارِهِمْ، لَوْ رَجع الأمْرُ إلَى أنْفُسِهم مَا حَضَرُوا، لكِنَّهم يحُضَرونَ فِيه كَرْهًا.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الفَائِدَةُ الأولَى: إثْبَات القِيَامَةِ؛ لقَوْلِه تَعالَى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾.

الفَائِدَةُ الثّانِيَةُ: أنَّه في ذَلِك اليَومِ يتفَرَّقُ النّاسُ إلَى فَريقَيْنِ: فَريقٌ في الجنَّةِ، وفَريقٌ في السّعِيرِ.

الفَائِدَةُ الثالِثَةُ: أنَّ الآباءَ مَع أوْلادِهِم والأمَّهاتِ مَع أوْلَادِهم إذا كانَ أحَدُهم كافِرًا والثّاني مُؤْمِنًا يتفرَّقونَ، ولَا يُمْكِنُ أنْ يُنْقِذَ أحدٌ أحدًا فِي ذَلِك اليَوْمِ لِعُمُوم قَوْله تَعالَى: ﴿يَتَفَرَّقُونَ ١٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، ولم يَسْتَثْنِ الأَوْلادَ مَع والدِيهم

أَوْ بالعكْس فَفي ذَلِكَ اليَوم لَا يُوجَدُ اجتِماعٌ إلا إِذا كَانُوا عَلَى الحقِّ، وَهَذا لا يَشْمَلُ المؤْمِنيـنَ؛ لأَنَّ المؤْمِنيـنَ تَفرُّقُهم إِلَى جِهَةٍ واحِدَةٍ؛ وَلِهَذا قَال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فجَعلَهُم قِسْمَيْنِ: إمَّا في منَازِلِهم فِي الجنَّةِ، كُلٌّ في منْزِلَتِه لكِنْ فِي عَرُصاتِ القيَامَةِ يَكُونُ فَرِيقُ المؤْمِنينَ جَمِيعًا، وفَرِيقُ الكفَّارِ جَمِيعًا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل كُلُّ إِنْسَانٍ مستقِلٌّ بنفْسِه حتَّى ولَوْ كانَ مُؤْمِنًا؟

قُلْنا: هَذا لَيْسَ بظَاهِرٍ؛ لأَنَّ قوْلَه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾، وقولَه: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يقْتَضِي أنَّ المقْصُودَ تفرُّقُ الجِنْس ينْقَسِمُونَ مثْلَ مَا قَالَ الله تَعالَى: ﴿فَرِيقٌ فِي الجنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى:٧].

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: إثْبَات الجزَاءِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ﴾، وقوْلِه تعالَى: ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾.

الفائِدتَانِ الخامِسَةُ والسّادِسَةُ: فضِيلَةُ الإِيمَـان والعمَلِ الصّالح؛ حيْثُ كانَ جَزاؤُه مَا ذَكر والتّحْذِيرُ مِنَ الكفْر، حيْثُ كَان جَزاؤُه مَا ذَكر أَيْضًا.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: أنَّ الإِيمان والعمل يتَّفِقانِ إذا افْتَرَقَا ويَخْتلِفانِ إِذا اجتَمَعا، فعَلَى هَذا يكُونُ كُلٌّ منْهُما بمَعْنَى الآخر عنْدَ الانْفِرادِ، ويَخْتَلِفُ كلٌّ منْهُما عَنِ الآخر عنْدَ الاجْتِماعِ.

الفائِدتَانِ الثّامِنةُ والتّاسِعةُ: أَنَّ العمَل لا ينْفَعُ إلا إِذا كَان صَالحًا؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾، وحيْثُ إِنَّنا فسَّرْنا الصّالح بأَنَّه مَا اجْتَمع فِيه الإِخْلاص والمتابَعَةُ يُسْتَفادُ مِنْهُ أَنَّ العمَل الَّذي فِيه الشّرْكُ لَا ينْفَعُ صاحِبَهُ، وَهَذا واضِحٌ، وفِي

الصّحيح مِن حَدِيثِ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ عَنِ النّبيِّ عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ أنَّ الله قَال: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُه وَشِرْكَهُ»[1]، وهَل هَذا يشْمَلُ الشّركَ في الصّفَةِ، وفِي أصْلِ العمَلِ، أوْ نَقُولُ: إذا كَانَ أصْلُ العملِ لَا شِرْكَ فِيه والصّفَةُ فِيها شِرْكٌ قُبِل أصْلُ العمَل دُونَ صِفَتِه، مثَلًا رجُلٌ أرَادَ أنْ يُصلِّي الرّاتِبةَ لكِنَّهُ أحَسنَها وأتْقَنَها واطمَأَنَّ فِيها رياءً، فإنَّ هَذا لا ينْفَعُه، فَمَنْ ذَكَر الله: يُسَبِّحُ مرَّةً واحِدَةً، ولكنَّه من باب الرّياءِ يُسَبِّحُ ثلاثًا، فَتسبِيحُه الثّلاثُ لَا ينْفَعُه، لكِنْ لا نقُولُ أنّه يحْبَطُ عَملُه، بَل يأْثَمُ عَلَى ذَلِك؛ لقَوْلِه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النّساء:٤٨]، فالشّركُ مِن خصائِصِه ولَوْ كانَ أصْغَر ألا يُغفر إلا بتَوْبَةٍ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هَل يُفرِّقُ بيْنَ الاسْتمرارِ عَلَى الشّرْك الأصْغَرِ وعَدمِ الاسْتمرارِ؟

قُلْنَا: لا يُفرَّق بَيْنَهُما، مَا دامَ أنّه لَا يصِلُ إلَى حدِّ الأكْبَر فهُوَ أصْغرُ، لكِنْ يُفرَّقُ بيْنَهم مِن جِهَةِ الإصْرارِ علَيْه، فيكُون أعْظَم مِن فِعْلِه مرَّةً ثمَّ ترْكِه.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: الرّياءُ إذا طرَأَ فِي أثْناءِ العبادَةِ، هلْ يَكُون مُبْطِلًا للعِبادَةِ؟

قُلْنَا: الرّياءُ إِذا طَرأَ فِي أثْناءِ العبادَةِ فإِنْ كافَحه ودَافَعه مَا ضَرَّه، وإِنِ اسْتَرْسَل معَه واطمأَنَّ إِلَيْهِ فإِنَّهُ يضُرُّه، أمَّا هَل يكُونُ مُبْطِلًا للعِبادَةِ أوْ غيْرَ مُبْطِلٍ فإِنْ كانَتِ العبادَةُ تتجزَّأُ، كَما لَو أرَادَ أنْ يتَصدَّقَ بصَاعَيْنِ فأخْرَج صاعًا بدُونِ رِياءٍ، ثمَّ أخْرَجَ الثّانِي برِياءٍ فإِنَّ البطْلانَ يخْتَصُّ بِما حصَل بِه الرّياءُ فقَطْ، يعْنِي الأوَّلُ يكُونُ صحِيحًا، وَإِنْ كانَتِ العبادةُ لا تتجزَّأُ -كَما فِي الصّلاةِ- فإِنَّ مِن أهْلِ العلْمِ مَن يَرى أنَّ الصّلاةَ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزّهد والرّقائق، باب من اشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥).

تبطُل لأَنَّ الرّياءَ طَرَأَ عليْهَا وهِي لا تتجَزَّأُ، فَلا يُمْكِنُ أَنْ يَصِحَّ أَوَّلُها دُونَ آخِرِها ومِنْهُم مَن يقُولُ: لَا تَبْطُل لأَنَّ أَصْلَ هَذا العمَلِ خَالصٌ للهِ عَزَّوَجَلَّ، فَلا يُبْطِلُه الرّياءُ.

الفائِدَةُ العاشِرَةُ: أَنَّ الجنَّة روْضَةٌ لقوْلِه تعالَى: ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾، ويُرْوَى أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قَال لِلنَّبيِّ ﷺ ليْلَة عُرِج بِه: «**أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الجنَّةَ قِيعَانٌ، وَأَنَّ غِرَاسَها: سُبْحَانَ الله، وَالحمْدُ لله، وَلَا إِله إلا الله، وَاللهُ أَكْبَرُ**»(١).

الفائِدَةُ الحادِيَةَ عشْرَةَ: أَنَّ هَذِهِ الجنَّةَ مملُوءَةٌ بالسّرورِ؛ لقوْلِه تعالَى: ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾؛ لأَنَّ الحبورَ معْنَاه التّنَعُّمُ والسّرور الَّذي لا شيْءَ فوْقَهُ.

الفائِدَةُ الثّانِيةَ عَشْرَةَ: أَنَّ الكفْر أعَمُّ مِن التّكذِيبِ؛ لأَنَّ العطْفَ يقْتَضِي المغايَرَةَ، كَفَرُوا وكَذَّبُوا لأَنَّ الكفْر ينْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: إمَّا جحْدٌ وإِمَّا اسْتِكْبَارٌ، وَلِهَذا كَان أَعَمَّ مِنَ التّكْذِيبِ.

الفائِدَةُ الثالِثَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ الكتُبَ المنَزَّلَةَ مِن آيَاتِ الله، وسبَقَ قبْلَ قلِيلٍ وجْهُ كونِها مِنْ آيَاتِ الله؛ لقوْلِه تعالَى: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾.

الفائِدَةُ الرّابِعةَ عشْرَةَ: إثْبَات البعْثِ، وأَنَّ مُنْكِرَه كافِرٌ؛ لقوْلِه تعالَى: ﴿وَلِقَآيِٕ ٱلْأٓخِرَةِ﴾، هَذا اللِّقَاءُ العظِيمُ الَّذي يتلاقَى فِيه كُلُّ المخْلُوقاتِ، ويُلاقُونَ الله تعالَى.

الفائِدَةُ الخامِسَةَ عشْرَةَ: أَنَّ هَؤُلاءِ المكذِّبِينَ الكافِرِينَ يُحْضَرونَ إِلَى العذَابِ قصْرًا وقهْرًا؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾، وهُوَ كقوْلِه تَعالَى:

(١) أخرجه التّرمذي: كتاب الدّعوات، باب ما جاء في فضل التّسبيح والتّكبير والتّهليل والتّحميد، رقم (٣٤٦٢).

﴿ يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ [الطّور:١٣]، يعْنِي يُدْفَعُونَ بعُنْفٍ وشِدَّةٍ -والعياذُ باللهِ-، ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ [الطّور:١٤]، ومعْلُومٌ أنَّهم لوْ رجَعَ الأَمْرُ لاخْتِيارِهِم لَا يدْخُلونَ، لكنَّهم يُدْفَعُونَ بعُنْفٍ وشِدَّةٍ حتَّى يدْخُلُوها.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: مَا الصَّحِيحُ فيمَنْ تُوفِّي قبْلَ البلُوغِ؟

قُلْنَا: الصَّحِيحُ فيمَنْ تُوفِّي دُونَ البلوغِ ومَنْ لَمْ تبلُغْه الدَّعوَةُ أيْضًا، إنْ كانَ مَن تُوفِّي قبْلَ البلوغ مِن أوْلادِ المؤْمِنينَ فهُو مؤْمِنٌ مطلقًا؛ تبعًا لأَبَوَيْه أوْ للمُؤْمِن منْهُما، ولَا يُشْهَدُ لهُم بالجنَّةِ كَما لَا يُشْهَد لآبَائِهم، لكِنْ يُشْهَد بالعُمُوم والجِنْس، فنَشْهَدُ لكلِّ مُؤمِنٍ بأنَّه في الجنَّةِ، وأَمَّا التَّعيينُ فيَحْتَاجُ إِلَى نَصٍّ، وأمَّا مَن تُوفِّي وهُو لَمْ يُميِّزْ، يعْنِي قبْلَ البلُـوغِ، وهُو مِن الكفَّارِ فالمنَاطُ التَّمْييزُ لَا البلـوغُ، فإنَّ أصَحَّ الأقْوالِ فِيه أنَّه يُمْتَحَنُ يومَ القيامَةِ بما يشَاءُ الله عَزَّوَجَلَّ، ثمَّ تَكونُ النَّتيجَةُ إمَّا إِلَى الجنَّةِ وإمَّا إِلَى النَّارِ، والامْتِحانُ ورَد فِيه آثَارٌ: أحادِيثُ ضعيفَةٌ وآثَارٌ عنِ الصَّحابَةِ.

وقَدْ وَرَد حدِيثَانِ فِي أوْلادِ المشْرِكينَ، قَال ﷺ: «**هُمْ مِنْهُمْ**»[١]، وقال: «**الله أعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ**»[٢]، أمَّا قولُه: «**هُمْ مِنْهُمْ**» فالمرادُ بِه أحكامُ الدّنْيا، فوَلَدُ المشْرِكِ الَّذي أبواهُ كافِرَانِ يُحْكَمُ بأنَّه كافِرٌ فَلا يُغسَّلُ، ولَا يُكفَّنُ، ولَا يُصَلَّى علَيْهِ، ولَا يُدْفَنُ مِع المسْلِمينَ، ولكِنْ فِي الآخرةِ يكونُ الجوَابُ الثّاني، حِينَ قالَ الرّسولُ ﷺ لِعَائِشَةَ: «**الله أعْلَمُ بِما كَانُوا عَامِلِينَ**».

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسّير، باب أهل الدّار يبيتون فيصاب الولدان والذّراري، رقم (٣٠١٣)، ومسلم: كتاب الجهاد والسّير، باب جواز قتل النّساء والصّبيان في البيات، رقم (١٧٤٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، رقم (١٣٨٣)، ومسلم: كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، رقم (٢٦٥٨).

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: لو امتُحِنَ لآمَنَ؛ لأَنَّ الله هُو المْتَحِنُ، وكُلُّ شَيْءٍ مِن أهْـوالِ القيَامَةِ أمَامَه؟

فالجوابُ: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يقُـولُ: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١]، فالآيَات التي جاءَتْ بِها الرّسلُ واضِحَةٌ، ومَعَ ذَلِك كفَرُوا وأيْضًا قدْ لَا يُمْتَحن بأنْ يُقالَ لَهُ: هَل تُصدِّقُ بِهَذا اليْومِ أوْ لَا؟ وقَدْ يُمْتَحَن في أُمورٍ أُخْرَى؛ وَلِهَذا قُلنَا: الله أعْلَمُ فِيما يمتَحِنُه بِه، قَدْ يمتَحِنُه بأمْرٍ يُمْكِنُ أنْ يَقع فِيه اشْتِبَاهٌ.



الآيتان (١٧، ١٨)

•●●•

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم:١٧-١٨].

•●●•

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أَيْ سَبِّحُوا الله بِمَعْنَى صَلُّوا ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ أَيْ تَدْخُلُونَ فِي المسَاء وَفِيهِ صَلَاتَانِ المغْرِب وَالعشَاء ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ تَدْخُلُونَ فِي الصّبَاح وَفِيهِ صَلَاة الصّبْح، ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ اعْتِرَاض ومَعْنَاهُ يَحْمَدهُ أَهْلهمَا ﴿وَعَشِيًّا﴾ عَطْف عَلَى حِين وَفِيهِ صَلَاة العصْر ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ تَدْخُلُونَ فِي الظّهِيرَة وَفِيهِ صَلَاة الظّهْر] اهـ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أيْ سَبِّحُوا الله]، (سبحان) منصُوبَةٌ عَلَى المفْعُولِيَّةِ المطْلَقَةِ، وعامِلُها محذُوفٌ، والمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ جَعلَ المفْعُولَ المطْلَق بمَعْنى فِعل الأمْر، لَا عَلَى أَنَّ عامِلَه محذُوفٌ بَلْ جعَلَه نائبًا عَن فِعلِه.

وتَسْبِيحُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ معْنَاه تنْزِيهُ عمَّا لا يَلِيقُ به، والتّنزيهُ يتضمَّنُ أمْرَيْن:

أَحدُهما: تَنزيهُ الله عَنْ كُلِّ نَقْصٍ في صِفات كمَاله.

وثَانِيهما: تَنْزِيهُ الله عَنْ مُشابَهَةِ المخْلُوقِين.

أَمَّا الأَوَّلُ: فإِنَّنا نَرى كَثيرًا مَا يَذْكُر الله عَزَّوَجَلَّ أَنَّه لا يَتْعَبُ ولَا يظْلِمُ ولَا يَغْفُل ومَا أَشْبَه ذَلِك؛ لِكمَالِ صِفاتِه.

وأمَّا مشابَهةُ المخلُوقِين: فقَدْ قَال الله تَعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشّورى:١١]، وتَنْزِيهُ الله عَنْ مُشابَهَةِ المخْلُوقِينَ هُو فِي الحقِيقَةِ تنْزِيهٌ لهُ عَنِ النّقْص؛ لأَنَّ المخلُوقَ ناقِصٌ، وتشْبِيهُ الكامِل بالنّاقِص يجْعَلُه ناقِصًا، بل إنَّ المقَارنَةَ بينَهما تحُطُّ مِن رُتبَة الكامِل، كَما قِيلَ:

ألم تَـرَ أنَّ السّـيْـفَ يَنْـقُـصُ قَـدْرُهُ إِذَا قِيلَ إِنَّ السّيْفَ أَمْضَى مِنَ العصَا

قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [سبحوا الله بمعنى صلوا]: أفادَنا المُفَسِّر بهذَا أنَّ المرادَ بتَسْبِيحِ الله تَعالَى هنَا تَسبِيحٌ خاصٌّ وهُوَ الصّلاة، فلَمْ يجْعل التّسبيحَ عامًّا يشْمَلُ الصّلاةَ وغيْرَها، لتَقْييدِه بهَذِه الأوقاتِ، فإِنَّ تقْييدَه بهَذِه الأوْقَاتِ يدُلُّ عَلَى أنَّ المرَادَ الصّلاةُ وأُطْلِق علَى الصّلاةِ تَسْبِيحٌ لأَنَّ التّسبِيحَ مِن واجِباتِها كَما قَال الله تَعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة:٧٤]، قَالَ النّبيُّ ﷺ: «اجْعَلُوها فِي رُكوعِكُمْ»، و﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى:١]، قَالَ: «اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ»(١)، وعَلى هَذا فتكُونُ الصّلاةُ هِي المرَادُ بالتّسبِيحِ، ويَدُلُّ عَلَى التّخصِيصِ تقْييدُها بأوْقَاتِ الصّلاةِ، وأيْضًا التّسبيحُ المطْلَقُ خصّهُ الله بوَقْتَيْـنِ ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق:٣٩]، ولَمَّا جعَل هَذا خمْسَةَ أوْقَاتٍ عُلِم مِنْ قَرينَةِ التّقْسِيمِ فِي الوَقْتِ أنَّ المرادَ بِذَلِكَ الصّلواتُ الخمْسُ.

قوْله تَعالَى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ مبْتَدأٌ وخَبَرٌ، والخبَرُ مُقدَّمٌ لإِفادَةِ الحصْرِ، فَلَهُ وحْدَه الحمْدُ، وحَمْدُ الله تَعالَى يخْتَصُّ بأَنَّه حمْدٌ يستَحِقُّه المحمودُ؛ ولِهَذا نقُولُ: إِنَّ (اللامَ)

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٥٥، رقم ١٧٤٥٠)، وأبو داود: كتاب الصّلاة، باب ما يقول الرّجل في ركوعه وسجوده، رقم (٨٦٩)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصّلاة والسّنة فيها، باب التّسبيح في الرّكوع والسّجود، رقم (٨٨٧).

هُنا للاستِحْقاقِ والاخْتِصَاصِ، وقولُه (أَل) فِي (الحَمْد) للعُمُوم، يعْنِي جميعُ المحامِدِ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِي السّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ، وهُو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ محْمُودٌ عَلَى كُلِّ حَـالٍ، وَكانَ النّبيّ ﷺ إِذا أَصابَه ما يَسرُّه قَال: «الحمْدُ للهِ الَّذي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصّالحاتُ»، وَإِذا كَان الأَمْرُ عَلَى خِلافِ ذَلِك قَالَ: «الحمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ»[1]، وأَمَّا مَا يقُولُه بعْضُ العامَّةِ: (الحمد لله الَّذي لا يُحمَدُ عَلَى مكروهٍ سواه) فهَذا وِإن كانَ حقًّا لكِنَّهُ لا ينْبَغِي التّعبيرُ بِهَذا الشّيْءِ؛ لأَنَّ فِيه شيئًا مِن العتب عَلَى الله عَزَّوَجَلَّ في قولِهِ: (الَّذي لا يُحْمَد عَلَى مكروهٍ سواه)، وإِنَّما يُقالُ كَما قالَ النّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «الحمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ».

قوْله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ اعْتِرَاضٌ، ومَعْنَاهُ يَحْمَدُهُ أَهْلُهُمَا]: لا شَكَّ أَنَّه داخِلٌ في الآيةِ، وأَنَّ قوْله تَعالَى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ يَعْني أَنَّه يُحْمَدُ، ولكِنْ ينْبَغِي أنْ يُقالَ بما هُو أعَمُّ، أيْ أَنَّ مَا خَلَقَهُ في السّمواتِ والأرْضِ فإِنَّهُ مُستَحِقٌّ لِلْحَمْدِ علَيْه، سواءً حُمِدَ أَمْ لم يُحْمَدْ، فكُلُّ مَا في السّموَات وَالأَرْضِ فإِنَّهُ شيْءٌ يُحْمَدُ الله علَيْه، أَمَّا في أمُورِ الخيرِ فظَاهِرٌ، وأَمَّا في أُمُورِ الشّرِّ فيَظْهَرُ ذَلِك؛ لأَنَّ الشّرَّ بالنّسبةِ لِفعْلِ الله وإيجَادِه لَه ليْسَ بِشَرٍّ، بَل قالَ النّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَالشّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»[2]، فلا يُنْسَب إِلَيْهِ الشّرُّ.

مثَالُ ذَلِكَ: الجدْبُ والمرضُ والفقرُ والجهْلُ والاقْتِتالُ بينَ النّاسِ والخسوفاتُ في الأَرْضِ، هَذِهِ كلُّها بالنّسبَةِ لِلإِنْسَانِ شَرٌّ، لكِنَّها بالنّسبَةِ لقَضاءِ الله خيْرٌ لأَنَّ الله ما قَضاهَا إلا لِحِكْمَةٍ، وحِينَئِذٍ يكونُ محْمُودًا علَيْها، والشّر في المَقْضِيِّ لا فِي القضاءِ؛

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الأدب، باب فضل الحامدين، رقم (٣٨٠٣).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدّعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (٧٧١).

وَلِهَذا فِي حَدِيث الحسَنِ بْنِ عَلِيٍّ قَال: «وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ»(١)، أيْ شَرَّ الَّذي قضَيْت، فأَضافَ الشَّرَّ إِلَى المقْضِيِّ لَا إِلَى القضاءِ.

واعْلَم أيْضًا أنَّ المقْضِيَّ نفسَه ليْسَ شَرًّا محْضًا، بَل هُو شَرٌّ مِنْ وَجْهٍ، خَيْرٌ مِنْ وجْهٍ آخَر، أوْ شَرٌّ فِي محلٍّ، خيْرٌ فِي محلٍّ آخَر، مثَلًا الفسادُ في البرِّ والبحْرِ شَرٌّ، لكِنَّهُ خيْرٌ مِن جِهَة عاقِبَتِه؛ لأَنَّ الله قالَ: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

إِذَنْ: هَذا خَيْرٌ، كَذَلِكَ أَيْضًا قدْ يَكُون شَرًّا في مكَانٍ لكِنَّهُ خيْرٌ في مَكَانٍ آخَر، فإِهْلَاكُ الأُمَمِ السَّابِقِينَ بذُنُوبِهم شَرٌّ بالنِّسْبَةِ لهُمْ، فقدْ أُهْلكوا ولم يَرْجِعُوا ولَم يَسْتَفِيدُوا، لكِنْ بالنِّسْبَةِ لغَيْرِهم ممَّن يَعْتَبِرُ بحالهم خيْرٌ، فيَكُونُ هَذا شرًّا في محلِّه خيرًا فِي محلٍّ آخَر.

والمُهِمُّ: أنَّ قضَاء الله نفسَه ليْسَ فِيه شَرٌّ أبدًا، بَل هُو خَيْرٌ؛ وَلِهَذا قالَ: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ في جَمِيعِ الأَحْوالِ، المقْضِيُّ يَكُون فِيه الشَّرُّ، ومَع ذَلِك فإِنَّنا نَقُولُ أيْ مَع إِثْبَاتنا أَنَّ الشَّرَّ في المفْعُولاتِ لَا في الفعْل، نَقُول أَيْضًا إِنَّ هَذا الشَّرَّ في المفْعُولاتِ ليْسَ شرًّا محْضًا لَا خَيْرَ فِيه، بَلْ قَدْ يَكُونُ شرًّا مِن وَجْهٍ وخيرًا مِنْ وَجْهٍ فِي نفْسِ المحَلِّ، كقوْلِه تَعالَى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١]، وقدْ يَكُون شرًّا في محلِّه خيرًا في محلٍّ آخر.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الصّلاة، باب القنوت في الوتر، رقم (١٤٢٥)، والتّرمذي: كتاب الصّلاة، باب ما جاء في القنوت في الوتر، رقم (٤٦٤)، والنّسائي: كتاب قيام الليل وتطوع النّهار، باب الدّعاء في الوتر، رقم (١٧٤٥)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصّلاة والسّنة فيها، باب ما جاء في القنوت في الوتر، رقم (١١٧٨).

وقوْلُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خصَّهُما بِالذِّكْر لأنَّهُما محَلُّ نُفوذِ فعْلِه، فإنَّ الَّذي في السّموَات وَالأرْض مِن الملائِكَةِ والبشر والجنِّ وغيرِها كلُّها تَحْمَدُ الله، وكلُّها محَلُّ حمْدِه.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: هلِ الكافِرُ يحْمَدُ الله؟

فالجوابُ: بِلِسانِ المقَالِ لَا، أمّا بِلِسَانِ الحالِ فنَعم، بمَعْنى أنَّ حاله تسْتَوْجِبُ لَمَنْ تأمَّلَها أنْ يَحْمَدَ الله، هَذا معْنَى قوْلِهم: إنَّ هَذا يحْمَدُ بِلِسَانِ الحالِ، أوْ يُسَبِّحُ بِلسانِ الحالِ، يَعْنِي أنَّ حاله مَن تأمَّلَها عرَفَ بِها مَا يسْتَحِقُّه الله تَعالَى مِنَ الحمْدِ والتّنْزِيه.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَعَشِيًّا﴾: معْطوفٌ عَلَى قوْلِه تعالَى: ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾، يعْنِي وسَبِّحُوا الله عَشِيًّا، والعشِيُّ مِنَ الزّوالِ إِلَى غُروبِ الشّمْسِ، وَفي حدِيثِ أَبي هُرَيْرَةَ فِي المسِيءِ فِي صَلاتِه قَالَ: «صَلَّى بِنَا رَسُولُ الله ﷺ إِحْدَى صَلَاتَي العشِيِّ»(١).

قوْله تَعالَى: ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾: معْطوفٌ عَلَى قوْلِه تَعالَى: ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾، والقاعِدَةُ في المعطُوفاتِ أنْ يكُونَ العطْفُ عَلَى أوَّلِ واحِدٍ لأنَّهُ هُو المحَلُّ الَّذي وَقع علَيْه عمَلُ العامِلِ، فيَكُونُ العطْفُ عَلَى الأوَّلِ، فإذا قُلْتَ: (قامَ زيْدٌ وبَكْرٌ وعمْرٌو) فإن عمرًا معْطُوفٌ عَلَى زيدٍ، فهَذِهِ الأوْقاتُ الخمْسَةُ هِي أبْسَطُ مَا ذكَرهُ الله تعالَى في القرآنِ مِن أوْقَاتِ الصّلَواتِ وذَكَرها مُجْمَلَةً في قوْلِه تعالَى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ [الإسْراء:٧٨]، ففِي هَذِهِ الآيَة ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾، يَعْنِي وقْتَ دُلُوكِ الشّمْسِ؛ لأَنَّ (اللامَ) للتَّوْقِيتِ مثْلَ ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطّلاق:١]، أيْ وقْتَ اسْتِقبَالِ عِدَّتِهِنَّ، فـ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ لِزَوالها

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصّلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، رقم (٤٨٢)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصّلاة، باب السّهو في الصّلاة والسّجود له، رقم (٥٧٣).

﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾، أي نصْفِه، وهُو شِدَّةُ ظلْمَتِه، وَذَلِكَ عنْدَ انتِصافِه؛ لأَنَّ أشدَّ ما يَكُون اللَّيلُ ظلْمَةً إذا انْتصفَ؛ لأَنَّ نصْفَ اللَّيْل هُو أبْعَدُ مَا تكُون الشّمْسُ عَن سطْحِ الأرْضِ، ويدْخُل في هَذا -مِن زَوالِ الشّمْسِ إِلَى نصْفِ اللّيلِ- أَرْبَعُ صلَواتٍ: الظّهرُ والعصْرُ والمغْربُ والعشاءُ ثمَّ قالَ: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ فَفَصَلَه والمَرادُ بِه صلاةُ الصّبحِ، وفَصْلُه عمّا قبْلَه يدُلُّ عَلَى أنَّ وقْتَ العشاءِ ينْتَهي بنِصْفِ اللّيْلِ، وَهَذا هُو الَّذي دلَّتْ علَيْهِ السّنَّةُ أيْضًا، ومَنْ قَال أَنَّه ينْتَهي بِطُلوعِ الفجْر فلَا دَلِيلَ لَه، وهَذِه المسألَةُ ينْبَنِي علَيْها مَا لو طَهُرت المرْأَةُ في نصْفِ اللَّيلِ الثّاني هَلْ يلْزَمُها صلَاةُ العشَاءِ؟ فعَلى قَوْل مَن يقُولُ إنَّ وقْتَ العشَاءِ يمتَدُّ إِلَى طُلوعِ الفجْر يلْزَمُها العشَاءُ، وَكَذلِكَ المغْرِبُ أيْضًا، وعَلى القوْل الرّاجِح لَا تلْزَمُها صَلاةُ العشَاءِ لأَنَّ صلاةَ العشَاءِ إِلَى مُنْتَصَفِ اللَّيلِ.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الفائِدَةُ الأولَى: رحْمَةُ الله تَعالَى بعِبَادِه؛ حيْثُ علَّمَهُم مَا فِيه مصْلَحَتُهم.

الفائِدَةُ الثّانيَةُ: أنَّ الصّلاةَ تسْبِيحٌ وتنْزِيهٌ لله؛ لأَنَّ الله أطْلَقَ علَيْها اسْمَ التّسْبيحِ.

الفائِدَةُ الثالِثةُ: وُجوبُ التّسبيحِ فِي الصّلاةِ؛ لأنَّ القاعِدة أنّه إذا أُطْلِق عَلَى العبادَةِ جُزْءٌ منْهَا دَلَّ ذَلِك عَلَى أنَّ هَذا الجزْء مِن وَاجباتِها، وأنَّه لا بُدَّ منْهُ فِيها.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: بَيان الأوْقَاتِ الخمْسَةِ مفصَّلَةً؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ﴾.

الفائِدَتانِ الخامِسَةُ والسّادِسَةُ: أنَّ المسَاء يُطلَقُ عَلَى أوّلِ اللَّيلِ، فإنَّ قوْله تعالَى: ﴿حِينَ تُمۡسُونَ﴾ يدْخُل فِيه المغْرِبُ والعشَاءُ، وقَدْ يُؤْخَذُ مِن هَذا جوازُ رَمْي الجمَراتِ

ليْلًا؛ لأنَّ رجُلًا قَال: يَا رسُولَ الله! رَمَيْتُ بعْدَ مَا أمْسَيْتُ؟ فقَالَ: «لَا حَرَجَ»[١]، فإذا كَان المسَاءُ يُطْلقُ عَلَى أوَّلِ اللَّيْل، وأطْلَق النّبيُّ ﷺ نَفْيَ الحرَجِ، عُلِمَ أنَّه جَائِزٌ.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: حِكْمَةُ الله عَزَّوَجَلَّ في تَوْزِيع الصّلوَاتِ عَلَى هَذِهِ الأوْقَاتِ، ووَجْهُ الحكْمَةِ أمْرَانِ:

الأمْرُ الأوَّلُ: أنّها لَو جُمِعَت في وقْتٍ واحِدٍ لخلَتْ بقيَّةُ الأوْقَاتِ عَن الاتِّصال باللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، يعْنِي لَو جَعَل الإنسان يُصلِّي في الفجْرِ كُلَّ الصّلواتِ الخمْسِ جميعًا فسَيَبْقى بقيَّةَ النّهارِ واللَّيْل بِلا صَلواتٍ مفْروضَةٍ.

الأمْرُ الثّانِي: أنَّه لو جُعِلت هَذِهِ في وقْتٍ واحدٍ لكَان فِي ذَلِك نَوعٌ مِن المَشَقَّةِ، يعْنِي يُوجِبُ عَلَى الإنسان أنْ يُصَلِّي سبْعَ عشْرَةَ ركْعَةً في آنٍ واحِدٍ، فَهَذا فِيه مشقَّةٌ عَلَى الأقْوِياءِ الأصحَّاءِ، فكَيْف بِالضّعفَاءِ والمرْضَى؟!

الفائِدَةُ الثّامِنَةُ: كَمالُ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

الفائِدَةُ التّاسِعَةُ: أنَّه وحْدَه المستَحِقُّ لأنْ يُحمَد عَلَى وَجْهِ الإطْلاقِ؛ نأْخُذه مِن تقْدِيم الخبَرِ فِي ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾.

الفائِدَةُ العاشِرَةُ: أنَّ كُلَّ ما يحْدُث في السّموَات وَالأرْضِ مِن خيْرٍ أوْ شَرٍّ فإنَّ الله تَعالَى يستَحِقُّ علَيْه الحمْدَ؛ تُؤْخَذُ مِن الإطْلاقِ فِي قوْله تَعالَى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾، ولم يَقُلْ: عَلَى الخيْرِ أوْ عَلَى مَا يَنْفَعُ، بَلْ أطْلَق، فيُسْتفادُ مِنْه أنَّ الله تَعالَى محْمُودٌ عَلَى كُلِّ حَالٍ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب الذّبح قبل الحلق، رقم (١٧٢٣).

الآيـة (١٩)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم:١٩].

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ كالإنسانِ مِنَ النُّطفَةِ، والطَّيرِ مِن البَيْضةِ]: أما البيضَةُ فليس عنْدِي فيها عِلْمٌ فلا نَقْدِرُ أن ننْفِي إنْ كانَ فِيها حياةٌ في بعْضِ الأجْزاءِ التي يتكون منْهَا الطَّائِرُ أم لا، والنُّطفَةُ باعْتبارِ مَا يظْهَرُ لنا ميِّتَةٌ، وَكَذلِكَ البَيْضةُ، لكِنْ في الواقِعِ إنَّ النّطفَة ليْسَتْ ميِّتَةً، فلقَدْ سُئِل النَّبيّ ﷺ عَن العَزْل فقَالَ: «هُوَ الوَأْدُ الخَفِيُّ»(١)، فجَعَله وأدًا، والوَأْدُ لا يكُونُ إِلَّا لحَيٍّ، فالحيَوانَاتُ المنوِيَّةُ حيَّةٌ، لكِنَّها لَا تُرى، وهَذِهِ النّطْفَةُ البَسيطَةُ التي ليْسَتْ بشَيْءٍ يقُولونَ -والله أعلمُ إنْ كانَ هـذَا مبالغـةً أو لا- فِيها حوالَي خَمْسَةِ مَلايِيـنَ أَوْ أكْثَر مِن الحيَوانَاتِ المنَوِيَّةِ، وهِي التي تُرى بَسِيطَةً.

إِذَنْ: فباعْتِبارِ مَا يُرى ويَظْهَر أن النُّطفةَ ميِّتَةٌ جَمادٌ، لكِنْ باعتِبارِ الحقِيقَةِ ليْسَتْ كَذلِكَ، وإِخْراجُ الميِّتِ مِن الحيِّ ليْسَ مشْكِلَةً، لكِنَّ المشْكِلَةَ إخْرَاجُ الحيِّ مِن الميِّت.

وقوْله تَعالَى: ﴿ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾، هَل المُرادُ الحياةُ الحسيَّة أوِ المعنَوِيَّة؟

والحقِيقَةُ أنَّ المُرادَ الأمْـرانِ، فإنَّ الكافر ميِّتٌ معنًـى، ويُخْرُج منْه المسْلِـمُ

(١) أخرجه مسلم: كتاب النكاح، باب جواز الغيلة... وكراهة العزل، رقم (١٤٤٢).

أوِ بالعَكْسِ، قَال الله تَعَالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، يعْنِـي أنَّ هَؤُلاءِ الكفَّارَ بمنْزلِةِ الأمْواتِ، والمُؤمِنُ حيٌّ ولا سيِّمـا العالِمِ، قالَ الله تَعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢]، وسمَّى الله القرآنَ رُوحًا فدَلَّ هَذا عَلَى أنَّ مَن عَمِل بِه فهُوَ حَي فالآيَة أعمُّ مما قاله المُفَسِّر، وَإِن كَان سياقُها يقْتَضِي أنَّ المرادَ بِها بالأَوْلى الحياةُ الحسِّيَّةُ.

قوْله تَعالَى: ﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾: بِما أنْزَل الله علَيْها مِن المَطَرِ، ولَا أحَدَ يسْتَطِيعُ أنْ يفْعَل ذَلِك إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ، هَذِهِ الأرْضُ الهامِدَةُ اليَابسَةُ التي ليْس فِيها خُضْرَةٌ يُنزِلُ الله عليْها الماءَ فتُصْبِح الأرْضُ مخضَرَّةً بأمْرِ الله تَعَالى، ولَوِ اجْتَمعَ الخلائِقُ كلُّهُم عَلَى أنْ يفْعَلُـوا ذَلِك لَما استْطَاعُوا، ولَنْ يُخْرِجُوا ولَا أدْنـى حشِيشَةٍ مِن هَذِهِ الحشائِشِ، ولكِنَّ الله تَعالَى بقُدْرَتِه يفْعَلُ ذَلِكَ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: بعْضُ الحشراتِ تتولَّدُ وتَخْرُجُ مِنْ طَعامٍ أوْ غيرِه، ونُواةُ التَّمر يخْرُج منْهَا نباتٌ؟

قُلْنَا: هَذِهِ حياةٌ بِلا إدْراكٍ، والمتَوَلِّدُ واضِحٌ أيضًا أنَّه حَيٌّ مِن ميِّتٍ؛ لأنَّ المتولِّد يخْرُج مِن العفونات والقاذورات وهو حيٌّ يتحرك.

قوْله تَعالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: الكافُ اسْمٌ بمَعْنى مثْل، يعْنِي ومِثْلُ ذَلِك الإخراج تخْرُجونَ، فتكونُ مفعُولًا مطْلَقًا، ويَجُوزُ أنْ تكُونَ هُنا حرْفَ جَرٍّ، و(ذَا) اسْمُ إشارَةٍ مبْنِيٌّ عَلَى السُّكونِ في محَلِّ جرٍّ، يعْنِي وكَهذا الإخراجِ تخْرُجونَ، ولَا تكُونُ مفعولًا مُطْلَقًا.

وقوْلهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تَخْرُجُونَ مِنَ القُبُورِ]: ظاهِرُ الآيَات الكَريمَـاتِ أنَّ خُروجَ النّاسِ مِنَ القُبورِ يُشْبِهُ خُروجَ النّباتِ مِنَ الأرْضِ، وخُروجُ النّباتِ مِنَ الأرْضِ

يكُون بِنُزولِ المَطرِ علَيْها، فيَكُونُ فِي هَذِهِ الآيَة إشَارَةٌ إِلَى مَا ورَد في الحديثِ مِنْ أنَّ الله تَعالَى يُمْطِرُ عَلَى القُبورِ مَطرًا غَلِيظًا كَمَنِيِّ الرّجالِ أرْبَعِينَ يوْمًا تنبتُ مِنْهُ الأجسادُ فِي القُبـورِ[1]، ثمَّ بعْدَ ذَلِك تخْرُج إذا نُفِخ فِي الصّـور، وَهَذا ورَدَتْ بِه أحادِيث في إسْنَادِها مقَالٌ، لكِنَّ مجمُوعَها يقْضِي بأنّها أحادِيثُ حسَنَةٌ، وظَاهِرُ القرآنِ أيضًا يُشيرُ إلَيْه.

وقوْلهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [بالبِنَاءِ للْفَاعِلِ والمْفُعولِ]: البَناءُ للفاعل «تَخْرُجون»، وللمَفْعول «تُخْرجُون»، قراءَتَانِ سبْعِيَّتانِ[2]؛ لأَنَّ مِن عادَةِ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّه إِذا أتَى بِقِرَاءَةٍ شاذَّةٍ يقولُ: (وَقُرِئ).

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: بَيانُ قُدْرَةِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ حيْثُ يُخرِجُ الحيَّ مِن المَيِّتِ وبالعَكْس، وَهَذا مِن تَمامِ القُدْرَة أنَّه يُخرِج الشّيْءَ مِن ضِدِّه.

الفائِدَةُ الثّانيَةُ: قُدْرَتُه عَلَى إحْياءِ الأرْض مِنْ بعْدِ موْتِها؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾.

الفائِدَةُ الثالِثَةُ: ثُبوتُ قِيامِ الأفْعَالِ الاخْتِيارِيَّةِ باللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَالأفْعالُ الاخْتِيارِيَّةُ هِي التي يفْعَلُها بمشِيئَتِه، إنْ شَاء فَعَلَ وإِنْ شاءَ لَـمْ يفْعَلْ؛ تُؤخَذُ مِنْ قَوْلِهِ تعالَى:

---

(١) أخرج الحاكم في المستدرك (٤/ ٤٩٧) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ثُمَّ يَكُونُ بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ مَا شَاءَ الله أَنْ يَكُونَ، فَلَيْسَ مِنْ بَنِي آدَمَ خَلْقٌ إِلاَّ مِنْهُ شَيْءٌ، قَالَ: فَيُرْسِلُ الله مَاءً مِنْ تَحْتِ العَرْشِ كَمَنِيِّ الرِّجَالِ، فَتَنْبُتُ لُحَمانُهُمْ وَجُثْمَانُهُمْ مِنْ ذَلِكَ المَاءِ، كَمَا يُنْبِتُ الأَرْضُ مِنَ الثَّرَى»، ثُمَّ قَرَأَ عَبْدُ الله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ [فاطر:٩].

(٢) إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر (ص:٣٩٥).

﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾، وقوْلِه تَعالَى: ﴿وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ والبَعْدِيَّةُ تقْتَضِي حُدوثَ هَذَا الشَّيْءِ، وقِيامُ الأفْعالِ الاخْتِياريَّةِ باللهِ عَزَّوَجَلَّ هُو الَّذي عليْهِ أهْلُ السّنَّةِ والجماعةِ قاطِبَةً، ولَا أحَدَ منْهُمْ أنْكر ذَلِك، فيُثْبِتُونَ الاسْتِواءَ عَلَى العرْشِ فعْلًا لله، والنّزُولَ إلَى السَّماءِ الدّنْيا فعْلًا لله، والمَجِيءَ للفَصْل بيْنَ العِبادِ فعْلًا لله، والعجَبَ فعْلًا لله، والضَّحِكَ فعْلًا لله، والخلْقَ فِعْلًا لله، ويَقُولونَ إنَّ الله تَعالَى يفْعَلُ مَا يشَاءُ، كيْفَ شَاءَ، متَى شَاءَ.

ولكِنَّ أهْلَ البدَعِ مِن المُعْتـزِلة والأشعَـرِيَّة وغيرِهم يُنْكِـرُون قِيامَ الأفْعالِ الاخْتِيارِيَّةِ بِه، ويَقُولونَ لَو قامَتْ بِه الحوادِثُ لكَان حادِثًا، واللهُ تَعالَى لَمْ ولا يَزالُ، فنَقُولُ: هَذا قولٌ بَاطِلٌ؛ أوَّلًا لأنَّهُ قِياسٌ فِي مُقابَلَةِ النّصِّ، فإنَّ النُّصوصَ متكاثِرَةٌ في إثْبَات الأفْعالِ الاخْتِيارِيَّةِ للهِ عَزَّوَجَلَّ التي تتعلَّقُ بمشِيئَتِه، وثَانِيًا قوْلُكُم إنَّ الحوادِثَ لَا تَقُوم إلا بحَادِثٍ ليْسَ بصَحِيحٍ فإنَّ الحوادِثَ لَا تَقُومُ إلَّا بِكامِلٍ قَادِرٍ عَلَى مَا يَشَاءُ، أمَّا كوْنُها لَا تقُومُ إلا بحَادِثٍ فما هُو العَقْلُ الَّذي يُوجِبُ هَذا.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: قِياسُ الغائِبِ عَلَى الشّاهِدِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾، فإنَّ قِياسَ الغائِب عَلَى الشّاهِد ليَحْمِلُ عَلَى الإقرار بِه طريقَةً مُتَّبَعَةً.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: إثْبَاتُ البَعْثِ لقوْلِه تعالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: إثْبَاتُ القِياسِ مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾، وإثْبَاتُ القِياسِ لَه أدِلَّةٌ كثِيرَةٌ في القُرآنِ منْهَا عَلَى سَبِيل التّعْمِيم والحدِّ كُلُّ مَثَلٍ ضَربَه الله في القُرْآنِ فَهُو دالٌّ عَلَى ثُبُوتِ القِيَاسِ، ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [يونس:٢٤]، و﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة:١٧]، ومَا أشْبَه ذَلِك، فإنَّ الأمْثَالَ ضَرْبُها تشْبِيهُ حالٍ بحالٍ، أوْ فَرْدٍ بفَرْدٍ، فتكُونُ دالَّةً عَلَى ثُبُوتِ القِياسِ، وَكَذَلِكَ القَصَصُ التي قَال الله

تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف:١١١]، وفي السُّنَّة أيْضًا كثِيرٌ مِن ذَلِك، مثْلَ قوْلِه ﷺ: «هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟» قال: نعم، قال: «فَمَا لَوْنُهَا» قال: حمر[1]، الحديث، وقوْلُه: «أَرَأَيْتِ لَوْ كَانَ عَلَى أُمِّكِ دَيْنٌ أَكُنْتِ قَاضِيَتَهُ»[2].

وَكَذلِكَ العَقْلُ يقْتَضِي ثُبوتَ القِيَاسِ، فإِنَّ العَقْلَ السّلِيمَ الصَّرِيحَ لَا يُمْكِنُ أنْ يُفَرِّقَ بيْنَ مُتماثِلَيْنِ أبدًا، ودائِمًا حتَّى الصّبيُّ إِذا منعْتَه مِن شَيْءٍ وأَبحْتَ لَهُ نَظِيرَه، قَال: لماذا؟ أَلَيْسَ هَذا مثْلَ هَذَا؟! فهَذا مِمَّا تشْهَدُ العُقولُ وَالنّصوصُ والفِطَرُ بثُبوتِه، لكنَّ القِياسَ الباطِلَ الَّذي يتوَسَّعُ فِيه بعضُ النّاسِ حتَّى يُعطِّلُوا دِلالَةَ الكِتَابِ والسُّنَّةِ لا شَكَّ أنَّه بَاطِلٌ، أمَّا القِيَاسُ الصَّحِيحُ فإِنَّهُ لَا رَيْبَ فِي ثُبوتِهِ، والَّذِين أنْكَرُوا القِيَاسَ هُمْ فِي الحقِيقَةِ مُضطَّرِبُونَ، فأَحْيَانًا يقُولُونَ بالقِياسِ مِن حيْثُ لا يَشْعُرونَ وَلا يُمْكِنُهم إِلَّا أنْ يَقِيسُوا لأَنَّنا لَو أَرَدْنا أنْ نَحْصُرَ دَلالةَ الكِتابِ والسُّنَّةِ عَلَى الأحْكامِ عَلَى سَبِيلِ العُمُوم والقَواعِدِ والضَّوابِطِ فهِي وَافِيةٌ، لكِنَّ الأفْرادَ والجزْئِيَّاتِ لَا مُنْتَهى لَها وَلا حصْرَ لَهَا، وهُمْ لا بُدَّ أنْ يُضطَّرُّوا إِلَى إِثْبَاتِ ذَلِك.

يَدْخُلُ فِي العُمُومِ مِن حيْثُ الشُّمولُ اللَّفْظِي إِنْ كَان داخِلًا فِي اللَّفْظِ أحْيانًا لَا يدْخُلُ فِي اللَّفْظ لكِنْ يشْمَلُه العُمُومُ المعنَوِيُّ وهُوَ القِيَاسُ؛ لأَنَّ العُمُومَ المعْنَوِيَّ هُو القِيَاسُ.



(١) أخرجه البخاري: كتاب الطلاق، باب إذا عرض بنفي الولد، رقم (٥٣٠٥)، ومسلم: كتاب اللعان، رقم (١٥٠٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب من شبه أصلًا معلومًا بأصل مبين قد بين الله حكمهما ليفهم السائل، رقم (٧٣١٥).

الآيــة (٢٠)

• ● ۞ ● •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الرّوم:٢٠].

• ● ۞ ● •

قال المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ ﴾ تَعَالَى الدَّالَّةِ عَلَى قُـدْرَتِهِ ﴿أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ أَيْ أَصْلكُـمْ آدَمُ، ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ ﴾ مِنْ دَمٍ وَلَحْـمٍ ﴿تَنتَشِرُونَ ﴾ فِي الأَرْضِ] اهـ.

قوْله تَعالَى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ ﴾: (من) للتَّبعِيضِ، يعْنِي بعْضُ آيَاتِه، و(مِنَ) التَّبْعِيضِيَّةِ قالَ العلَماءُ: هِيَ التي يصِحُّ أنْ يَحِلَّ محلَّها بعْضٌ، وَ(آيَاتِهِ) جَمْعُ آيَةٍ، وهِي العَلامَةُ، أي العَلامَةُ البَيِّنَةُ الواضِحَةُ الدّالَّةُ عَلَى مَا تَخْتَصُّ بِهِ مِنْ صِفاتِ الله حسَبَ مَا سِيقَتْ لَهُ، وكُلُّ شيْءٍ مِن آيَاتِ الله عَزَّوَجَلَّ فإِنَّهُ يدُلُّ عَلَى كَثيرٍ مِن صِفَاتِ الله تَعالَى دلالَةً مطَابِقَةً باعْتِبَارِ مَا ذكَر فِيها أوْ مَا ذكَر مِنْ هَذِهِ الآيَات، ودَلالَةُ التِزامٍ بِما يلْزَمُ مِنْ وُجودِ هَذِهِ الصِّفَةِ، مَثلًا قوْلُه تَعالَى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾، فخَلْقُنا مِن تُرابٍ إِلَى أنْ نَكُونَ بَشرًا، هَذا مِن الآيَات إِذْ إِنَّ قلْبَ الجمادِ إِلَى حيَوانٍ لَا شَكَّ أَنّه مِنَ الآيَات، ولكِنَّ كوْنَهُ دالًّا مثلًا عَلَى القُدْرَة والعِلْم والحكْمَةِ ومَا أشْبَه ذَلِك، هَذِهِ دلَالَةُ التِزامٍ، ودلالة الالتِزام مِن أفْيَدِ مَا يَكُون لِطالب العِلْم إِذا وُفِّق للْفَهْم الصَّحيحِ فِيما يَلْزَمُ مِن كَلامٍ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: كيفَ تكُونُ الأشْيَاءُ عَلامَةً عَلَى الله عَزَّوَجَلَّ وهُوَ أبْيَنُ وأظْهَرُ؛ لأَنَّ معرِفَتَهُ مرْكُوزَةٌ في الفِطَرِ والعُقولِ؟

فالجوابُ: أوَّلًا: أنَّ بعْضَ الفِطَرِ قَدْ يَعْتَرِيها مَا يصْرِفُها عَن الصِّراطِ المُسْتَقِيم فتَحْتَاجُ إِلَى دَعْمٍ لِبَيانِ الآيَات.

ثانيًا: أنَّ هَذِهِ الآيَات كُلُّ آيَةٍ تدُلّ عَلَى نوعٍ خَاصٍّ مِن صِفَاتِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى بِخِلافِ العَقْلِ والفِطْرَةِ، فإِنَّهُ يهْتَدِي إِلَى وُجودِ الخالِق عَزَّوَجَلَّ، مِنْ حيْثُ الجمْلَةُ أمَّا التَّفْصيلُ فَلا يُمْكِنُ إلا بِذِكْرِ هَذِهِ الأجْنَاس والأَنْوَاعِ؛ وَلِهَذا لَا يُمْكِنُ الوُصولُ إِلَى الإِحاطَةِ بِذَاتِ الله عَزَّوَجَلَّ، نُحِيطُ بِالآيَات الدَّالَّةِ عَلَى صِفَاتِه، أمَّا أنْ تُحِيطَ بِذَاتِ الله فَهذَا أمْرٌ لَا يُمْكِنُ؛ وَلِهَذا يُرْوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَاللَّهُعَنْهُمَا أنَّه قَال: «تَفكَّرُوا فِي آيَاتِ الله، وَلَا تَفكَّرُوا فِي ذَاتِ الله»[1].

قوْله تعالَى: ﴿أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾: ﴿أَنْ﴾ مَصْدَرِيَّةٌ لأَنَّ المخَفَّفَةَ هِي التي تَكُونُ بَعْدَ عِلْمٍ أوْ ظَنٍّ، مثْلُ قوْلِه تَعالَى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ [المزمل:٢٠]، ومِثْلُ قوْلِه تَعالَى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء:٨٧]، وأَمَّا هَذِهِ فليْسَتْ كَذَلِكَ، وَعَلى هَذا فتَكُونُ مصْدَرِيَّةً، ﴿أَنْ خَلَقَكُم﴾ فتكُونُ هِي ومَا بعْدَها فِي تأْوِيلِ مصْدَرٍ مبْتَدأٌ مؤَخَّرٌ يعْنِي خلَقَكُم والخَبَرُ قوْلُه تَعالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾.

قوله رَحِمَهُٱللَّهُ: [﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ تعالَى الدّالة عَلَى قدرته]: قيَّدها بالدَّالَّةِ عَلَى قُدْرَته لأنَّهَا أبْرَزُ شَيْءٍ فِي الآيَات فِي هَذا الخَلْقِ، وَإِلَّا فَهُو دَالٌّ عَلَى الحكْمَةِ العَظِيمَةِ إِذْ لَا خلْقَ إِلَّا بعْدَ عِلْمٍ، كَما قَالَ تَعالَى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤].

---

(١) أخرجه أبو الشيخ (١/ ٢٤١، رقم ٢٢) عن ابن عباس موقوفًا عليه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أي: أصلكم آدم]: (أصلكم) تفسيرٌ للكَاف في قوْلِه: ﴿خَلَقَكُم﴾، يعْني باعْتِبَارِ أصْلِنا بالاعْتِبار المُباشِرِ فإنَّ الإنْسانَ خُلِق مِنْ نُطْفَةٍ كَما قالَ تَعالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون:١٢-١٣]، والسُّلالَةُ خالصُ كُلِّ شيْءٍ علَى حَسَبِ مَا يَبِينُ، فقوْلُه تَعالَى: ﴿مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ آدَم، وقوْلُه تعالَى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ هَؤُلاءِ بَنُو آدَمَ، وقَوْلُه: ﴿جَعَلْنَـٰهُ﴾ أيِ الإنسانُ بِاعْتِبَارِ جِنْسِه.

قوْله تَعالَى: ﴿مِّن تُرَابٍ﴾: (مِنْ) لابْتِدَاءِ الغايَةِ، وَالمَعْنى أنَّ ابْتِدَاءَ الخلْقِ مِن التُّرابِ.

قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ﴾ مِنْ دَمٍ وَلَحْمٍ ﴿تَنتَشِرُونَ﴾ فِي الأرْضِ]: كُنْتُم تُرابًا والتُّرابُ لا يتحَرَّكُ مِن مَكانِهِ ولَا يَنْتَشِرُ ولَيْس فِيه حرَكَةٌ، ثمَّ بعْدَ ذَلِك إِذَا أنْتُم بَشَرٌ تنْتَشِرُونَ، (ثُمَّ) دالَّةٌ عَلَى المُهْلَةِ؛ لأنَّهُ بعْدَ خلْقِ آدم لَمْ يأْتِ الأوْلَادُ مباشَرَةً بَلْ خُلِق لَهُ زوْجَةٌ ثمَّ جَاء مِنْ هَذِهِ الزَّوْجَةِ.

قوْله تَعالَى: ﴿إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ﴾: ﴿إِذَآ﴾ فُجائِيَّةٌ، يعْنِي ثمَّ صَارَتِ المُفاجَأَةُ عَلَى هَذا الوَجْه.

قوْله تَعالَى: ﴿ثُمَّ إِذَآ﴾: قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: إنَّ في هَذا ما ظَاهِرُه التَّناقُضُ لأَنَّ (إذا) هُنا فُجائِيَّةٌ، وَ(ثُمَّ) للمُهْلَةِ، والمُفاجَأَةُ والمُهْلَةُ متناقِضَانِ، إذ إنَّ المُفاجَأَةَ تدُلّ عَلَى المُبادَرَةِ فيُجَابُ عَنْ ذَلِك بأنَّ المفاجَأَةَ بعْدَ المُهْلَةِ؛ لأَنَّ التُّرابَ لَا يَكُونُ بَشرًا في الحالِ، وإِنَّما تطوَّر لمدَّةٍ حتَّى وَصَلَ إِلَى البَشرِيَّةِ، هَذا إِذا قُلْنا: إنَّ المُرادَ بالبَشَر خُصوصُ آدم، أَمَّا إِذا قُلْنَا: المُرادُ بِهِ ذُرِّيَّته، فالمُهْلَةُ ظَاهِرَةٌ؛ لأَنَّ هَذا يشْمَلُ الذُّرِّيَّةَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَة فالمُهلَةُ ظاهِرَةٌ، لكِنَّ المفاجَأةَ فِي قوْلِه تعالَى: ﴿إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ﴾، قدْ تُوحِي إِلَى أنَّ المُرادَ

بِه آدَمُ، فإِنَّ آدَم بَشَرٌ وذُرِّيَّتُه انْتَشرَتْ فِي الأَرْضِ.

وقوْله تَعالَى: ﴿إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ﴾ مبْتَدَأٌ وخبَرٌ، وجُمْلَةُ ﴿تَنتَشِرُونَ﴾ في محَلِّ رفْعٍ صفَةٍ لـ(بَشَرٌ)، وإذا جعَلْناها صِفَةً لِـ(بَشَرٌ) صَار فِيها إشْكَالٌ مِنْ جِهة أنَّ (بَشَرٌ) مفْرَدٌ و(تنتشرون) جمْعٌ، لكن المُفْرد المُرادَ بِه الجِنْس يكُونُ لِلْجَمْعِ.

وسُمِي الإنْسانُ بَشرًا قِيلَ لأَنَّ بشْرَتَه بَادِيَةٌ، إذْ إنَّ الحيوانَاتِ الأخرى عَلَى أَبْشَارِها مَا يسترُها لحكْمَةٍ، وأَمَّا الآدَمِيّ فإنَّ بشْرَتَهُ بَارِزَةٌ ظَاهِرَةٌ، وقِيلَ: لأَنَّهُ تبْدُو عَلَى بشْرَتِه انفعالاتُه النّفسيَّةُ، مثْلُ الغَضبِ والفَرَحِ ومَا أَشْبَهَ ذَلِك، فإِنَّها تبْدُو ظَاهِرَةً عَلَى وجْهِه.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿تَنتَشِرُونَ﴾ في الأرْض]، قيَّدَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الانْتِشارَ بأَنَّه فِي الأَرْضِ، لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الجمعة:١٠]، فالانتِشارُ والتّوسُّع فِي الأرْضِ، فقوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تَنتَشِرُونَ﴾ أيْ تذْهَبُون يَمِينًا وَشِمالًا؛ وَلِهَذا لا شَكَّ أنَّ بَنِي آدَم كانُوا فِي أَوَّلِ أمْرِهمْ فِي مكَانٍ واحِدٍ، ثمَّ انْتَشرُوا فِي جَمِيعِ القارَّاتِ عَلَى تباعُدِ مَا بيْنَها، وانْظُرِ الآن البَشر منتَشِرٌ في جَمِيع أَقْطَارِ الدّنيا، وسُبْحانَ الله العظِيمِ، فمَنِ الَّذي أوْصَل أهلَ أمَرِيكا إِلَى أمِرِيكا، ومَنِ الَّذي أوْصَلَهُم إِلَى البِلادِ الأخرى مَع هَذِهِ المحِيطاتِ العَظِيمَةِ؛ لأَنَّ آدم لا شَكَّ كانَ فِي إحْدَى القارَّاتِ، لكنْ مَنِ الَّذي أوْصَل بَنِيه إِلَى القارَّاتِ الأخرى؟ الله أعلَمُ، وقدْ يَكُونُ الله يسَّر لَهُم فِي ذَلِك الوَقْتِ مِنَ الأسْبَابِ مَا قدْ زَالَ الآنَ ولَا نعْرِفُه حتَّى وصَلُوا إِلَى هَذِهِ البِلَادِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما صِحَّةُ مَا ساقَهُ القُرطُبِيُّ في تفسِيرِ آيَةِ الحَجِّ مَن أنَّ المَنِيَّ فِيه تُرابٌ؟

قُلْنَا: لا نستَطِيعُ أنْ نَجْزِمَ بنفي هذَا أوْ إثْبَاتِه؛ لأَنَّهُ يجُوزُ أنَّ نَفْسَ الإنْسَانِ فِيه مادَّةٌ تُرابِيَّةٌ، والآنَ هُمْ يقُولونَ: إنَّ الإنْسانَ فِيه مِنْ جَمِيعِ مَعادِنِ الأرْضِ، فِيه رَصاصٌ ونُحَاسٌ وجِيرٌ وحَدِيدٌ وتُرَابٌ وكُلُّ شَيْءٍ، فنَفْسُ الجِسْم مُكَوَّنٌ مِن هَذِهِ الأشْيَاءِ، فلَا يبْعُدُ أن تكونَ هَذِهِ السّلالة التي تخْرُج منهُ فِيهَا هَذِهِ المَوادُّ، والحقِيقَةُ ليْسَ عنْدَنا عِلْمٌ عمِيقٌ فِي هَذِهِ المسْأَلةِ، لكِنَّ الله عَلَى كُلِّ شيْءٍ قَديرٌ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: بعْضُ النّاسِ يقُولونَ إنَّ آدَم أوَّلَ مَا خَرَجَ مِنَ الجنَّةِ ونَزل إِلَى الأرْضِ نَزل بسِيلَانٍ؟

قُلْنَا: الله أعْلَمُ، لَا يُوجَدُ حَديثٌ صَحِيحٌ عنِ النّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، إنَّما كُلُّها آثَارٌ إسْرَائِيلِيَّةٌ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدَةُ الأولَى: إثْبَات الآيَاتِ لله عَزَّوَجَلَّ، أي العَلامَاتِ الدّالَّةِ عَلَى مَا تدُلّ عليْهِ مِن صِفاتِهِ لأنَّ كُلَّ فعْلٍ يدُلُّ عَلَى نوْعٍ مِنَ الآيَاتِ لكِنْ هِي عَلَى سَبيلِ العُمُوم تدُلّ عَلَى القُدْرَة فجَمِيعُ الآيَاتِ تدُلّ عَلَى القُدْرَة والحكْمَة، لكِنْ لكُلِّ نوْعٍ منْهَا آيَةٌ خاصَّةٌ: الحكْمَةُ، القُدْرَة، العِزَّةُ، ومَا أشْبَه ذَلِكَ.

الفَائِدَةُ الثّانيَةُ: أنَّ أصْلَ بَني آدَمَ مِنْ تُرابٍ؛ لقوْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾.

الفَائِدَةُ الثالِثَةُ: أنَّ ابْتِداءَ خلْقِ الإنْسَانِ مِن تُرابٍ؛ لقوْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ﴾.

الفَائِدَةُ الرّابِعَةُ: إبْطَالُ النّظرِيَّة الملْحِدَة الخاطِئَةِ، وهِي نظريَّةُ النّشوءِ والتّطَوُّر

التي ذَهب إليْها أوْ كَان قائِدَها (دَارُون)، فهِي نظرِيَّةٌ خاطِئَةٌ وباطِلَةٌ بِلا شَكٍّ، وجْهُ ذَلِك مِنَ الآيَة أنَّ الله يقُولُ: ﴿أَنْ خَلَقَكُم﴾ فيُخاطِبُ البَشَرَ باعْتِبَارِه بَشَرًا.

إذَنْ: فهُو بشَرٌ منْذُ أنْشِئ مِنَ التُّرابِ إلَى اليَوْم، أمَّا أُولئِكَ فيَقُولُونَ: إنَّ أصْلَ الإنْسَانِ ليْسَ بشَرًا، بَلْ أصْلُ الإنْسَانِ قِرْدٌ ثمَّ تطَوَّر فصَار بَشَرًا، ويُمكِنُ أنْ يتطَوَّر بعْدَ ذَلِك ويَصِير مَلَكًا، ولَا أَدْرِي مَاذا يقُولُ فِي أصْلِ الحَمِيرِ وَالبِغَالِ والخَيْلِ والدَّجاجِ مَا أصلُها وتطَوَّرَتْ إلَى مَاذا؟ ثمَّ لا نَدْري مَا هو التّطوُّرُ الآخَرُ، هَل نحْنُ نكُونُ ملائِكَةً؟

وعَلَى كُلِّ حَالٍ: إنَّ هَذِهِ النظرِيَّةَ -الحمْدُ لله- حتَّى فَلاسِفَةُ الغرْبِ وعُلَماءُ الطّبيعَةِ مِنَ الكفَّار الآن أبْطَلُوها، وتبيَّن لَهُمْ أنَّها نظَرِيَّةٌ باطِلَةٌ خاطِئَةٌ، ثمَّ نَحْنُ نَعْلَمُ عِلْمَ اليَقِين بِدُونِ أيِّ نَظَرٍ أنَّها باطِلَةٌ، وَأنَّ اعتِقَادَها كُفْرٌ لأنَّهَا تكْذِيبٌ للْقُرآنِ والسُّنَّةِ وَإجْماعِ المُسلِمِينَ، فكُلُّ هَذا لا شَكَّ أنَّه كَذِبٌ ولَا أصْلَ لَهُ، فالإنسانُ خُلِقَ مِنْ تُرابٍ كَما قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ، تُرابٌ جعلَهُ الله طِينًا، ثمَّ فَخَّارًا حتَّى كانَ صَلْصالًا لَهُ صَلْصَلَةٌ إذا ضرَبْتَ علَيْهِ فهُو كالفَخَّارِ، كَما قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ ثمَّ تكَوَّنَ الإنسَانُ، واللهُ عَلَى كُلِّ شيْءٍ قَدِيرٌ، فهَذا وغَيْرُه تكْذِيبٌ لصَرِيحِ القُرآنِ.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: حكْمَةُ الله عَزَّوَجَلَّ في كَوْن الآدَمِيّ بَشَرًا، أَيْ بَادِي البَشْرَةِ؛ لأنَّكَ إذا علِمْتَ أنَّك مُفتقِرٌ إلَى اللِّبَاس الحسِّيِّ علِمْتَ أنَّك مُفتقِرٌ إلَى اللِّبَاس المعْنَوِيِّ: لِباسِ التّقْوَى كَما قَال الله تَعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ [الأعراف:٢٦].

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: أنَّ هَذا البَشَر الَّذي خُلِق مِن أصْلٍ واحِدٍ انْتَشر ومَلأَ الأرْضَ، فَهَذا البَشَرُ مِن طَبيعَتِه الانْتِشارُ والذّهَابُ والمَجِيءُ وطَلَبُ الرِّزقِ وطلَبُ الصَّنائِع

وطلَبُ الأعْمالِ، وَهَذا هُو الوَاقِع؛ وَلِهَذا قَالَ: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾، وَهَذا مِن آيَاتِ الله: كيْفَ مِن أصْلٍ واحِدٍ مِنْ رَجُلٍ وَاحِدٍ انْتَشَرَتْ هَذِهِ الخَلِيقَةُ فِي جَميعِ أنْحَاءِ الأرْضِ؟

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: أنَّ الإنْسَانَ متَحَرِّكٌ بالطَّبعِ لا بُدَّ أنْ يتَحَرَّكَ وينْتَشِر ويَذْهَب ويَجِيء؛ وَلِهَذا قَال النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَصْدَقُ الأَسْمَاءِ حَارِثٌ وَهَمَّامٌ**»[1]، لأَنَّ الإنسان دَائِمًا يهتَمُّ ويحرث ويطْلُب رزقه.

الفائِدَةُ الثَّامِنَةُ: مِنْ فَوائِد الآيَةِ ومَا بعْدَها مِنَ الآيات مِنَّةُ الله عَزَّوَجَلَّ عَلَى عِبادِهِ بتَنْبِيهِهِمْ إِلَى آيَاتِه، يعْنِي أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ مَنَّ عَلَى العِبَادِ بتَنْبِيهِهِمْ إِلَى الآيَاتِ، ولَمْ يَكِلْهُمْ إِلَى مَا فِي فِطَرِهم مِن الاعتَرافِ بالخَالِق، بَل أعَانَهُم عَلَى ذَلِك وأمَدَّهُم بالتَّنبيهِ عَلَى مَا فِي هَذا الكَوْنِ مِنْ آيَاتِه فَفِيها مِنَّةٌ عظِيمَةٌ لأَنَّ الإنْسَانَ كَما قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ بَشَرٌ يَغْفُل ويَنْسَى فيُنَبِّهُه الله عَزَّوَجَلَّ.



(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣٤٥، رقم ١٩٠٥٤)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب في تغيير الأسماء، رقم (٤٩٥٠)، والنسائي في الكبرى (٣/ ٣٧، رقم ٤٤٠٦).

الآيـة (٢١)

• • ◆ • •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرّوم:٢١].

• • ◆ • •

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ فَخُلِقَتْ حَوَّاءُ مِنْ ضِلْعِ آدَمَ، وَسَائِرُ النَّاسِ مِنْ نُطَفِ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، ﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ وَتَأْلَفُوهَا ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم﴾ جَمِيعًا ﴿مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المَذْكُورِ ﴿لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فِي صُنْعِ الله تَعَالَى] اهـ.

بَدأ أوّلًا بخلْقِ النّفْسِ، ثمَّ بخَلْق الزَّوْجِ؛ لأنَّهُ لَا يَتِمُّ التّناسُلُ إلا بالأَزْوَاجِ، ونَقُولُ فِي قوْلِه تَعالَى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم ﴾، كَما قُلْنَا فِي قوْلِه: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم ﴾ أنَّ معْنَى قوْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ أيْ مِنْ ذَوَاتِكُم، فعَلَى رأْيِ المُفَسِّر المُرادُ بالنّفْسِ هُنَا الذّاتُ.

وقوْله تعالَى: ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم﴾: (اللامُ) للاخْتِصاصِ وليْسَت للمُلْكِ؛ لأنَّ الإنْسَانَ لَا يملِكُ زوْجَتَه، ويُحْتَملُ أنْ تكونَ للتَّعْليل كَما فِي قوْلِه تَعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩]، أيْ خَلَق لأجْلِكُم، لكِنَّ المَعْنى أبْلَغُ فِي الإنْعَامِ، حيْثُ إنَّ كُلَّ إنْسَانٍ زوْجَتُه تختَصُّ بِه؛ وَلهَذا لَا يجُوزُ للْمَرْأَةِ أنْ تتزَوَّجَ أكْثَر مِنْ رَجُلٍ فِي آنٍ واحِدٍ.

قوْله تَعالَى: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾: مشَى المُفَسِّر عَلَى أنَّ المُرادَ بالنّفْسِ الذّاتُ، وأنَّ (مِن) للتّبْعِيضِ، يعْنِي أنَّ نَفْسَ هَذِهِ الزّوجَةِ مِن نَفْسِ الإنْسَانِ، جُزْءٌ منْهُ؛ وَلِهَذا فسَّرهُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بخَلْق حوَّاءَ مِنْ ضِلْع آدَمَ وسَائِرَ النّساءِ مِن نُطَفِ الرّجال والنّساءِ.

ويُحْتَملُ أنَّ المُرادَ بالنّفْس الجِنسُ، كَما قالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التّوبة:٢٨]، يعْنِي مِن جنْسِكُم ولَيْس المُرادُ مِن أنْفُسكُم، أيْ مِن نَفْسِ الإنْسَانِ إلّا باعْتِبارِ حوَّاءَ؛ فإنّها خُلِقَتْ مِن ضِلْع آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فالمُرادُ بالنّفْسِ الجِنْس، ويُؤَيِّدُ هَذا المَعْنى قوْلُه تَعالَى: ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾؛ فإنَّ الإنسانَ يسْكُن إلَى بَني جنْسِه دُونَ غيْرِهم، فلَو كانَتِ المرأةُ تخالِفُ الرّجلَ وليْسَت مِن جنِسِه لَكانَ في ذَلِك مشْكِلَةٌ ولَا يُمْكِنُه أنْ يسْكُنَ إلَيْها، ومَا حصَل بَيْنَهُما ائْتِلافٌ ومودَّةٌ لبُعْدِ الفَرْقِ بيْنَهُما؛ لهذا جعلَها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مِنْ جنْسِه؛ لأجْلِ أنْ يسْكُن إلَيْها، لكِنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُريدُ أنَّ المرادَ بالنّفْس في ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ الذّات، أيْ مِن ذَواتِكُم، بدَلِيل أنّه فسَّرها بآدَم، خُلِقَت منْهُ حوّاءُ، وبَقِيَّةُ النّاسِ خُلِقوا مِنَ النُّطَفِ التي مِن الإنْسَانِ الذّكر والأُنْثى، ولكِنَّ الّذي ذكَرْناهُ أوْجَهُ؛ بدَلِيلِ قوْلِه تعالَى: ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾، إذ إنَّ هَذا التّعْلِيلَ يُناسِبُ أنْ يكُونَ المُراد بالنّفس أيْ الجِنْس، عَلَى أنّه لا يَمْنَعُ أنْ تكُونَ النّساءُ مخلوقَةً مِن ذَواتِ الرِّجالِ؛ لأَنَّ مَا ذَكَرَهُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ صحِيحٌ، لكِنَّ التّعْليلَ يُؤَيِّدُ القَوْلَ الأوّلَ.

قوْله تَعالَى: ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾: اللّامُ للتّعْليلِ، أي لأَجْلِ أنْ تسْكُنوا، وهِي مُعلِّلَةٌ لقوْلِه تعالَى: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، والسّكُونُ معْناهُ الاستِقْرارُ، ومنْه السُّكْنى في البَلدِ اسْتِقْرارُه فِيها، فقوْلُه تَعالَى: ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ مِن السُّكونِ، وهُوَ عدَمُ النُّفورِ

مَنَ الشّيْءِ؛ لأَنَّ السّاكِنَ هُو المسْتَقِرُّ؛ وَلِهَذا نقُول لمن فِي البيْتِ أنّه ساكِنٌ مِن السُّكْنى، فالمَعْنى: لتستَقِرُوا وتطْمَئِنُّوا لها وتألَفُوها كَما قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قوْله تَعالَى: ﴿لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا﴾: ضَمَّن السّكونَ معْنَى المَيْل؛ فعَدَّاه بـ(إلى)، إذْ لم يقُلْ لتسْكُنوا منْهَا ولَا عنْدَها، ولكِنْ ﴿لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا﴾، وَلِهَذا كَان الرّجُل ميّالًا بطبْعِه إِلَى المَرْأَةِ وسَاكِنًا إِلَيْها، وَلا سيَّما إِذا وُفِّق لامْرَأةٍ تكُونُ مُلائِمَةً لَهُ، فَإِنَّ هَذا يبْدُو ظاهِرًا جِدًّا مِنَ التَّعلِيل.

قوْلهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَجَعَلَ بَيۡنَكُم﴾ جميعًا]: هل المُراد بيْن الزّوج وزوجَتِه، أوْ بيْنَ النّاس جميعًا؟ كلامُ المُفَسِّر يقْتَضِي العُمُومَ، لكِنَّ ظاهِرَ السِّياقِ يختَصُّ بالمَرْأَةِ وزَوْجِها، فإنَّ هَذِهِ المرأةَ الأجْنبِيَّةَ التي لا تعْرِفُها ولَا تعْرِفُك مِنْ قَبْلُ إِذا تَمَّ العَقْدُ بيْنكُما ألقَى الله تَعالَى فِي قُلوبِكُما المودَّةَ والرّحمَةَ.

قوْله تَعالَى: ﴿مَّوَدَّةً وَرَحۡمَةً﴾: المَودَّةُ: خالصُ الحبِّ. والرّحمةُ: الرّأفَةُ والحُنُوُّ والعَطْفُ، وهَل هَذا عَلَى سَبيلِ التّوزِيعِ أوْ عَلَى سَبيلِ الجَمْعِ، بِمَعْنى: هَلِ المودَّةُ مِنَ المَرْأَةِ للرَّجُل والرّحمةُ منْهُ لَها، أوْ أنّه عَلَى سَبيلِ الجمْعِ أيْ كُلٌّ واحِدٍ منْهُم يَودُّ الآخَرَ ويَرْحَمُه؟ والظّاهِرُ أنَّهُ عَلَى سبيلِ الجمْعِ، فالمودَّةُ فِي قلْبِ المَرْأَةِ، والرّحْمَةُ فِي قلْبِ الرّجُل؛ لأَنَّهُ هُو الَّذي لَهُ السُّلْطانُ عليْها، وهِي التي تَمِيلُ إِلَيْهِ، فتكُونُ المودَّةُ منْهَا والرّحْمَةُ منْهُ، فيَكُون الوَصْفانِ مُوزَّعَيْنِ عَلَى الزّوْجِ والزّوجَةِ.

والأقْربُ أنَّ الوَصْفَيْنِ لكُلٍّ مِن الزّوْجَيْنِ يعْنِي أنَّ المودَّةَ تكُونُ بَيْنَ الزّوجِ وزوْجَتِه، وَكَذلِكَ الرّحمَةُ تكُونُ بيْنَ الزّوْجِ وزوْجَتِه، هَذا هُو الأقْربُ وهُوَ الَّذي يُؤيِّدُه الوَاقِعُ أيْضًا، فإِنَّ المَرْأةَ إِذا ودَّتْ زوْجَها يكُونُ فِيها رحْمَةٌ لوْلَا أنَّ الأمَّ أرْحَمُ النِّساءِ، لقُلْنا أنَّها مثْلُ رحْمَةِ الأمِّ؛ وَلِهَذا تجِدُها تتْبَعُ زوْجَها وتدَعُ أُمَّها وأَبَاها وأهْلَها

ووَطَنَها؛ وَلِهَذا تجِدُها تُلاحِظُه إذا مَرِضَ، وتجِدُ أَنَّه يجِدُ مِن عِنايَتِها أكْثَر مِمَّا يَجِدُ مِن عِنَايَةِ أَبِيهِ وأُمِّهِ به، وتَحْزَنُ إذا حَزِن وتُسَرُّ إذا سُرَّ، وإذا كانَتِ الحالُ بَيْنَهُما جيِّدَةً يُمْكِنُ أنْ تَبِيعَ كُلَّ مَا تمْلِكُ مْن أجْلِ راحَتِه وإسْعَادِهِ، حتَّى إنَّ بعْضَ النّساءِ تَبِيعُ حُلِيَّها ومَا زَاد عَنْ ضَرورَتِها مِن الثّيَابِ مِنْ أجْلِ الرَّحمَةِ بزَوْجِها، هَذا لا شَكَّ أَنَّه رحْمَةٌ.

وبالنِّسبة للرَّجُل كَذَلِكَ ظاهِرٌ، فإنَّ مودَّةَ الرَّجلِ لزَوْجَتِه أمْرٌ لا يُنْكَرُ، وَكَذلِكَ رحْمَتُه إيَّاها أمْرٌ لا يُنْكَرُ، وأمَّا المودَّةُ فظَاهِرَةٌ ولَوْلا قُوَّةُ المودَّةِ بيْنَ الزَّوْجَيْنِ مَا حصَل الاتِّصالُ بَيْنَهُما الَّذي أرادَهُ الله عَزَّوَجَلَّ لأجْلِ أنْ تكْمُل هَذِهِ الخليقَةُ وتنْمُو، فمِنْ أجْلِ هَذا جعَلَ الله تَعالَى المودَّةَ والرَّحْمَةَ.

وَقالَ ابْنُ الجوْزِيِّ فِي (صَيْد الخاطِرِ) قَالَ: لوْلَا أنَّ الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ بحكْمَتِه قَضَى أنْ تَبْقَى هَذِهِ الخَلِيقَةُ لكَانَ الاتِّصَالُ بَيْن الزَّوْجِ وزَوْجَتِه مِنْ أقْبَح الأُمورِ، فكُلُّ واحِدٍ منْهُما يكْشِفُ عورَتَهُ للآخَرِ، ثمَّ يحْصُل هَذا الشَّيءُ الَّذي قدْ يكُونُ مسْتَكْرهًا في أذْوَاقِ بعْضِ النّاسِ، لكنْ جَعل الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ هَذِهِ المودَّةَ بَيْنَهُما لأَجْلِ أنْ تَسْتَقِيمَ الأُمورُ وتَنْمُوَ الخليقَةُ، وَهَذا صحِيحٌ، وَهَذا حقٌّ فلوْلَا أنَّ الله جعَل هَذا الأمْرَ مودَّةً مَا حصَلَ الاتِّصالُ بيْنَ الزَّوْجَيْنِ؛ وَلِهَذا كلَّما كانَ الزَّوْجُ أوِ الزّوْجَة بعضُهم لبعْضٍ كارِهًا قَلَّ الاتِّصالُ بَيْنَهُما.

والجَمْعُ بيْنَ المودَّةِ والرّحْمَةِ مِنْ أبْلَغ مَا يكُونُ لأَنَّهُ إذا كانَ أحدُهما مُحتاجًا إلَى الرَّحمَةِ حلَّتِ الرّحمَةُ وزادَتْ عَلَى المودَّةِ، والعَكْسُ بالعَكْسِ، وإذا اجْتَمع مودَّةٌ ورحْمَةٌ فإنَّهُ يَنْشَأُ مِن هاتَيْنِ الصِّفتَيْنِ صفَةٌ أقْوَى مِمَّا لوِ انْفردَتْ إحدَاهُما؛ وَلِهَذا تجِدُ الإنْسانَ ينْظُر إلَى الفقِيرِ نظرَةَ رحْمَةٍ لَا مودَّةٍ، لكِنْ إذا اجْتمَعَتِ الرَّحمةُ مَع المودَّةِ تولَّدَ مِن هَذا صفَةٌ أعْلَى مِنَ انْفِرَادِ كُلِّ واحِدَةٍ بنَفْسِها.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المَذْكُورِ ﴿لَآيَٰتٍ﴾]: (اللام) للتَّوْكيدِ، والآيَاتُ جَمْعُ آيَةٍ، وتأمَّل قوْلَه تَعالَى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾، ثمَّ قالَ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ﴾.

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: مَا هَذا التّنافُر، حيْثُ قالَ فِي أوّلِ الآيَة ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾؟

قُلْنَا: لا تنافُـرَ في الواقِعِ، أوّلًا لأنَّ قوْلَه تَعالَى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ للتَّبْعيـضِ، وبَعْضُ الآيَاتِ قدْ يَكونُ آيَةً واحِدَةً، وقدْ يَكُونُ أكْثَر مِنْ آيَةٍ، ثمَّ إِنَّ قوْلَه تَعالَى: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ هَذِهِ أَرْبَعُ آيَاتٍ، فيَكُونُ في أصْلِ الخلْقِ آيَةٌ واحِدَةٌ، لكِن فِي أوْصَافِ هَذا الخَلْقِ المتطوِّر آيَاتٌ، والمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ بيَّن أنَّ اسْم الإشارَةِ وإِنْ كَان مُفْردًا لكِنَّهُ عائِدٌ إِلَى متعَدِّدٍ. فقولُه: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ هَذِهِ آيَـةٌ، وكوْنُها مِن النَّفْسِ آيَـةٌ أخْرَى، و ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ هَاتَان آيَتانِ، فالجَمِيعُ أرْبَعُ آياتٍ كَمـا تقدَّمَ، والتَّعبيرُ بكَلِمَةِ (ذلك) بيَّن المُفَسِّر أن السَّببَ فِيه أنَّ اسْمَ الإِشَارةِ يعُودُ إِلَى المذْكُورِ وإِنْ كَان أكْثَرَ مِنْ وَاحِدٍ أي: متعدِّدًا، وَهَذا كَثِيرٌ في اللُّغَةِ العرَبيَّةِ وَفِي القُرآنِ أيْضًا.

وقوْله تَعالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ﴾: نصبت (آيات) لأنَّهَا اسْمُ (إِنَّ) مؤخَّرًا.

واعْلَمْ أنَّ هَذِهِ الآيَاتِ تكُونُ مِن كُلِّ صفَةٍ مِن هَذِهِ المذكورَاتِ الأَرْبَعِ، وتكُونُ فِي اجتماعِها، ولكنَّها تحْتاجُ إِلَى تأَمُّلٍ وإِلى تفكُّرٍ؛ ولهَذا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ في صُنْعِ الله تعالَى]؛ أيْ فِي خَلْقِه، ولكِنَّ المَعْنى أعَمُّ مِن ذَلِك، أيْ: يتفَكَّرونَ فِي صُنْعِه وهُوَ الخَلْقُ وفي حِكْمَتِه وفي رَحْمَتِه وفي غَيْرِ ذَلِك مِمَّا يتعَلَّق بِهَذا المَعْنى.

وهَلِ المودَّةُ فِي أوَّلِ الحياةِ الزَّوجِيَّةِ والرَّحمةُ بعْدَ الأوْلادِ؟

هَذَا خِلافُ الظَّاهِرِ؛ لأَنَّ الظَّاهِرَ أنَّ المودةَّ والرّحمَةَ مُقتَرِنَانِ.

وهَلْ يُتبادَلانِ بَعْد العَقْدِ أوْ بعْدَ الاتِّصالِ أوْ بعْدَ المعامَلَةِ؟

الجوابُ: هَذا يَرْجِعُ إِلَى ما يَجْرِي بيْنَ الزَّوْجَيْنِ، أمَّا المودَّةُ فالظَّاهِرُ أنَّها تكُونُ مِنْ قبْلُ، مِنْ حِينِ أنْ يَخْطُبَ المَرْأَةَ وتُوافِقَ، لا تنْشَأُ هَذِهِ الخطْبَةُ والموافَقَةُ إِلَّا عنْ مودَّةٍ، لكنَّها تنْمُو وتَزِيدُ بحسَبِ الاتِّصالِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: رحْمَةُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِنا حيْثُ جعَل أزْوَاجَنا مِنْ أنْفُسِنا، أيْ مِنْ جِنْسِنا، فَفِيها نعْمَةُ الله عَزَّوَجَلَّ لكَوْنِ الأزْوَاجِ مِنَ الأنْفُسِ، أيْ مِنَ الجِنْس ليتَحقَّق بذَلِك أغراضُ النّكاحِ ومقاصِدُه.

الفائِدَةُ الثّانيَةُ: أنَّ مِن أهَمِّ أغْرَاضِ النِّكاح ومقاصِدِه السُّكُونَ إِلَى الزّوجَةِ، والاطْمِئْنانَ إِلَيْها والحياةَ مَعها حيَاةً سَعِيدَةً، فالحِكْمَةُ مِن الزَّوجيَّةِ هِي السُّكونُ، أيْ سُكُونُ أحدِ الزَّوْجَيْنِ إِلَى الآخَرِ، ويتفرَّعُ عَلَى ذَلِك أنَّه لَوْ حَصَلَ التَّنافُرُ فإِنَّ مِن الحِكْمَةِ التَّفريقَ بيْنَهُما؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾، فإذا فاتَتْ هَذِهِ الحكْمَةُ فإِنَّهُ لا زَواجَ؛ وَلِهَذا لما فاتَتِ الحكْمَةُ بيْنَ ثابِتِ بْن قيْسٍ وزوجَتِه قالَ الرّسولُ ﷺ: «خُذِ الحَدِيقَةَ وَطَلِّقْهَا»[١]، وكيْفَ يُمْكِنُ أنْ تسْتَمِرَّ الزَّوجِيَّةُ بينَ زوجَيْنِ يتباغَضَان ويتنَافرانِ وكُلُّ واحِدٍ منْهُما يُحِبُّ أنْ يَرى المَوْتَ ولَا يَرَى صاحِبَه؟! فالإِنْسَانُ إِذا رأَى عدَم السُّكونِ ولَمْ تلْتَئِمِ الحالُ يَنْبَغِي لهُ أنْ يُفارِقَ؛ وَلِهَذا قالَ أهْلُ العِلْمِ إِنَّ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطلاق، باب الخلع وكيف الطلاق فيه، رقم (٥٢٧٣).

الطَّلَاقَ يُستَحَبُّ لتَضَرُّر المرأةِ بالبَقاءِ مَع الزَّوجِ، فلَو كانَتْ تتضَرَّرُ ولا تسْتَأْنِسُ معَ الزَّوج لَا ينْبَغِـي أنْ يُكْرِهَها عَلَى أنْ تَبْقـى مَعَهُ، فإِنَّ بعْضَ النّاسِ -والعياذُ باللهِ- يُكْرِهُونَهنَّ عَلَى البقَاءِ أو يَعْضِلُونَهُنَّ لأجْلِ أنْ يفْتَدِينَ ويُسَلِّمْنَ مبالِغَ مِن المالِ مِنْ أجْلِ أنْ يُطلِّقَها، كُلُّ هَذا حرامٌ، والَّذي ينْبَغي إِذا رَأَيْتَ مِن الزّوْجَةِ أنَّها لا تسْتَطِيعُ أنْ تعِيشَ معَك عِيشَةً سَعِيدَةً فيَنْبَغي لكَ أنْ تُطلِّقَها، والنّبيُّ ﷺ يقولُ: «**مَنْ فَرَّجَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا فَرَّجَ الله عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ القِيَامَةِ**»[(١)]، ويقولُ ﷺ: «**وَاللهُ فِي عَوْنِ العَبْدِ مَا كَانَ العَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ**»[(٢)]، وَفي القُرْآنِ ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [النّساء:١٣٠]، فأَنْتَ إِذا نَوَيْتَ الخيْرَ بالتّوْسِعَةِ عَلَى هَذِهِ المَرْأَةِ وفارَقْتها فلعَلَّ الله تَعالَى أنْ يُيسِّرَ لكَ الأمْرَ بِحُصولِ زوْجَةٍ تالفُها وتالفُك.

المُهِمُّ: أنَّ مِن أهَمِّ أغْراضِ النّكاحِ السّكونَ والطُّمأنينَةَ إِلَى الزَّوجَةِ والحياةَ حياةً سعِيدةً.

الفائِدَةُ الثالِثةُ: ما القَى الله تَعالَى في قُلوبِ الزَّوجَيْنِ مِن المودَّةِ والرَّحمَةِ، هَذَا مِنَ الآيَاتِ العظِيمَةِ، امْرأةٌ لَا تعْرِفُها إِلَّا بالذِّكر عنْدَ خِطْبَتِها وليْس بيْنك وبيْنَها قَرابَةٌ ثمَّ يَجْعَلُ الله بيْنَ قُلوبِكُما مِنَ المودَّةِ والرَّحْمةِ مَا يرْبُو أحْيانًا عَلَى مودَّةِ الأُمِّ والأَبِ، وَهَذا لا شَكَّ أنَّه مِنْ آيَاتِ اللهِ؛ وَلِهَذا قَالَ الله تَعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ [الفرقان:٥٤]، جعَلَ الله في هَذِهِ الآيَةِ الصِّهر قَسِيمًا لِلنَّسبِ، يَعْني كأنَّ البشَرِيَّةَ إمَّا مُصاهَرَةٌ وإمَّا قرابَةُ نَسَبٍ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨٠).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، رقم (٢٦٩٩).

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: أنَّ المودَّةَ لا تُنالُ بالكَسْبِ، يعْنِي أنَّ الله قَدْ يجْعَلُها فِي قلْبِ الإنسانِ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾، يعْني أنْتَ لوْ أرَدْتَ أن تُجْبِر نفسَكَ عَلَى محبَّةِ شَيْءٍ واللهُ عَزَّوَجَلَّ لم يجْعَلْ في قلبِكَ مودتَه فلَنْ تحبَّه؛ وَلِهَذا مَنَّ الله عَلَى المؤْمِنينَ بقوْلِه تَعالَى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [الحجرات:٧]، وأنْتَ تقُولُ فِي الدُّعاءِ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ وَحُبَّ العَمَلِ الَّذِي يُقَرِّبُ إِلَى حُبِّكَ**»(١).

إِذَنْ: فالمودَّةُ يُلقِيها الله عَزَّوَجَلَّ فِي القَلْبِ، فأَنْتَ ينْبَغِي لَك أن تَسْأَل الله دَائِمًا أنْ تَكُونَ محبَّتُك للهِ وفِي الله لِتكُونَ المحبَّةُ بِاللهِ.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: أنَّ مُا ذُكِر ليْسَ آيَةً واحِدَةً؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾، ثمَّ قَالَ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾: أولًا: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، ثانيًا: ﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ فتكونُ آياتٍ متعدِّدَةً.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: وُجوبُ التّراحُمِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَرَحْمَةً﴾.

وهَلْ يُؤخَذُ منْهَا وُجوبُ معالَجَةِ الزَّوجَةِ إِذا مَرِضَتْ لأنَّهَا مِنَ الرَّحمَةِ؟

الفقهاءُ يقُولونَ: لَا يَجِبُ أنْ تُعالِجَها، ولَا يَجِبُ أنْ تُعطِيها قِيمَةَ الدَّواءِ؛ لأَنَّ هَذا ليْسَ مِن النَّفَقَةِ، وكَوْنُ الله يجْعَلُ بيْنكُم رحمَةً ليْسَ معْنَاهُ أنْ يُلْزِمَك بِشَيْءٍ لَا يلْزَمُكَ، إِنَّما هَذا بَيَانٌ للوَاقِعِ وَهَذا صَحِيحٌ، فالرَّحمَةُ تُوجَدُ لكِنْ هَل تلْزَمُه؟ هَذا محَلُّ نظَرٍ؛ وَلِهَذا قالَ الفُقهاءُ أَنَّه لا يَلْزَمُ الدَّواءُ وأُجْرَةُ الطَّبيبِ، وبعْضُ العُلَماءِ يقُولُ: يَلْزَمُ إِلَّا إِذا كانَ الشَّيْءُ كثِيرًا يجْحَفُ بِمالِه فإِنَّهُ لَا يلْزَمُه.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة ﴿صٓ﴾، رقم (٣٢٣٥).

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: إثْبَاتُ حِكْمَةِ الله وقدُرَتِه ورحمَتِه أيْضًا، حيثُ جعَل بيْنَ الزَّوجَيْن مودَّةً ورحْمَةً.

الفائِدَةُ الثّامِنَةُ: الرَّدُّ عَلَى الجهْمِيَّةِ وَكَذلِكَ الأشَاعِرَةِ الَّذِين ينْفُونَ حكْمَةَ الله عَزَّوَجَلَّ، وأمَّا المُعتَزِلَةُ فإنَّهم يغْلُونَ فِي إثْبَاتِ الحكْمَةِ؛ وَلِهَذا يرَوْن أنَّه يجِبُ عَلَى الله فِعْلُ الأصْلَحِ أوِ الصَّلاحِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: المُبتَدِعَةُ في ردِّهم للصِّفاتِ هَلْ هُمْ يبْنُونَ عَلَى مقدِّماتٍ عقْلِيَّةٍ متَّفَقٍ عليْهَا بيْنَهُم، أمْ أنَّ كُلَّ واحِدٍ منْهُم يُعَلِّلُ بعقْلِه؟

قُلْنَا: بِعقْلِه، كُلُّ واحِدٍ منْهُم يُعَلِّلُ فيخْتَلِفُونَ في تعْلِيلِ هَذا الرَّدِّ، أحْيَانًا يقُولُونَ أنَّه يستَلْزِمُ الجسْمِيَّةَ، ولكنَّ غالِبَ ما يدُورُونَ أنَّها مستَلْزِمَةٌ للتَّمْثِيلِ، فيَخْتَلِفُونَ فِي الطُّرُقِ الموَصِّلة إلَيْه.

الفائِدَةُ التّاسِعَةُ: الثَّناءُ عَلَى التَّفْكِيرِ؛ لقوْلِه تعالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، فإِنَّ هَذا واضِحٌ أنَّه محَلُّ ثناءٍ لَهُم.

الفائِدَةُ العاشِرَةُ: الحثُّ عَلَى التّفكُّرِ؛ تُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ لأَنَّ التّفكُّرَ مِفْتَاحُ العِلْمِ، ولَا يُمْكِنُ عِلْمٌ بلا تفكُّرٍ أبدًا، تفكَّرْ أولَا لتَعْلَمَ، فالتّفْكِيرُ ينْفتِحُ بِه أبوابٌ كثِيرةٌ يعْرِفُ الإنسانُ بِها مْن أحكَامِ الله وحِكَمِهِ ما لا يَحْصُل لَهُ لَوْ لم يُفكِّرْ؛ لأَنَّهُ خصَّ الآياتِ بالقَوْمِ الَّذِين يتفكَّرُون، فدَلَّ هَذا عَلَى أنَّه يَحْصُل بالتّفكُّرِ مِن الاطِّلاعِ عَلَى أحكَامِ الله وحِكَمِه ما لا يَحْصُل بالغفْلَةِ.

التّفكُّر يكُونُ في آياتِ الله، أيْ مخلُوقاتِه ومشْرُوعاتِه؛ لأَنَّ الآياتِ كَما سبَق إمَّا كَونيَّةٌ، وإمَّا شرعِيَّةٌ، يحْصُل التّفكُّرُ فِي صفاتِ الله مِن وَجْه المَعْنى، أمَّا مِن حيْثُ

الكيْفِيَّةُ فَلا يَجُوزُ التّفكُّرُ في الصِّفاتِ؛ لأَنَّ ذَلِك محاوَلَةٌ لما لَا يُمْكِنُ الحصولُ علَيْهِ؛ وَلِهَذا قَال الإِمَامُ مالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: «السُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ»، فَلا يجُوزُ أنْ نتفكّر في كيْفِيَّةِ صفةٍ مِن صفاتِ الله، بلْ نتفكَّرُ في المَعْنى دُونَ الصِّفَة.

ومثْلُه التّفكُّر في ذَاتِ الله عَزَّوَجَلَّ، فلا يجُوزُ؛ لأَنَّهُ مُحاوَلةٌ لما لَا يُمْكِنُ الوُصولُ إِلَيْهِ، ثمَّ التّفْكيرُ في هَذِهِ الأمُورِ يجُرُّ إِلَى بَلايَا ومهَالِكَ، والَّذي ضَرَّ مَنْ ضُرَّ مِن أهْلِ التّعْطِيل وأهْلِ التَّشبيهِ هُو محاوَلَتُهم الوصولَ إِلَى الكَيفيَّة؛ فلِهَذا آلَ بِهِمُ الأَمْرُ إِلَى التَّعْطِيلِ أو التَّمْثيلِ.

والمُهِمُّ: أنَّ التّفَكُّرَ يكُونُ في مخلُوقاتِ الله وفِي مشْرُوعاتِهِ وفِي معَانِي أسمَـائِه وصِفَاتِهِ، أمَّا في ذَاتِه وكيْفِيَّةِ صفَاتِه فإِنَّهُ لا تفكُّر، وَذَلِكَ لأَنَّهُ مهْما بلَغ الإِنسانُ فإِنَّ الفِكْر سيَرْجِعُ خاسِئًا وهُو حَسيرٌ، والإعْراضُ عنْ هَذا هُو الوَاجِبُ، كَما قَال الإِمَامُ مالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ.



الآية (٢٢)

••○••

﴿ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ [الروم:٢٢].

••○••

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ ﴾ أَيْ لُغَاتكُمْ مِنْ عَرَبِيَّة وَعَجَمِيَّة وَغَيْرهَا ﴿وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ مِنْ بَيَاض وَسَوَاد وَغَيْرهمَا وَأَنْتُمْ أَوْلَاد رَجُل وَاحِد وَامْرَأَة وَاحِدَة ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ دَلَالَات عَلَى قُدْرَته تَعَالَى ﴿لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ بِفَتْحِ اللَّام وَكَسْرهَا أَيْ ذَوِي العُقُول وأولي العلم] اهـ.

اعلَمْ أنني راجَعْتُ الكثير من التَّفاسِير فَما وجَدْتُ الحِكمَة في أَنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقُولُ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾، ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾، ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم ﴾، ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم ﴾، يعْنِي ما رأَيْت أحدًا بَيَّن الحِكْمَة فِي كونِه يأْتِي مرَّةً بالمَصْدَرِ، ومرَّةً بِـ(أَنْ) الدَّاخلَةِ عَلَى الفِعْل، هِي تُؤَوَّلُ بمصْدرٍ، لكِنْ هَل نقُول إِنَّ هَذا مِنْ بَابِ الاخْتِلاف في التَّعْبير المُراعَى بِه جانِبُ اللَّفْظ، أَوْ أَنَّه مِن بابِ التَّعبيرِ المُراعَى بِه جانِبُ المَعْنى؟ فَإِنْ قُلنا أَنَّه مِن بَابِ التَّعبير المُراعى بِه جَانِبُ اللَّفْظُ فالأَمْر بَسِيطٌ، ونَقُول إِنَّ الله تَعالَى غايَرَ بَيْن العِباراتِ لأَجْلِ أَنْ لَا يَمَلَّ السَّامِعُ إذا كَان الكَلامُ عَلَى وَتِيرَةٍ واحِدَةٍ؛ لأَنَّ الاخْتِلافَ فِي التَّعبِيرِ ممَّا يَزِيدُ الإنسانَ نَشاطًا وتَجَدُّدًا، أَمَّا إِذا قُلْنا إِنَّ هناكَ أَمْرًا معنَوِيًّا فأَنَا إِلَى الآنَ مَا عرَفْتُه، ولا ذَكَره الزَّمخشَرِيُّ ولَا أَبُو السُّعودِ، ولَا هَؤُلاءِ الَّذِينَ يتكلَّمُونَ عَلَى مثْلِ هَذِهِ الأُمُورِ.

قَوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ خبرٌ مقدَّمٌ، و﴿خَلْقُ﴾ مبْتَدأٌ مؤَخَّرٌ، وخلْقُ السَّمواتِ: أيْ إيجادُهَا بتَقْدِيرٍ ونظامٍ بدِيعٍ، وَهَذا يشْمَلُ خلْق هَذِهِ السّموات باعْتِبارِ كَوْنِها أجْرَامًا عَظِيمَةً وباعْتِبارِها مصْلَحةً للعْبَادِ، فهَذا مِن آيَاتِ الله، فمِنْ آيَـاتِه العَظِيمَـةِ الدَّالَّةِ عَلَى كَمَـالِ قُدْرَته ورَحْمَتِه وحِكْمَتِه خَلْقُ السّمـوَاتِ وَالأَرْضِ، والسَّمواتُ جَمْعٌ وجَمْعُها ظَاهِرٌ لأنّهَا سبْعُ سمَواتٍ، والأرْضُ مُفْرَدٌ، ولكِنَّ المُرادَ بِه الجِنْس؛ لأَنَّهُ لا شَكَّ أنَّ الأرَضِينَ سبْعٌ، والدَّلِيلُ قوْله تَعالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطّلاق:١٢]، والمِثْلِيَّةُ هُنا لَا يُمْكِنُ أنْ تكُونَ فِي الصِّفَةِ أبدًا، إذْ لا يُمْكِنُ أنْ تكونَ الأرَضونَ مثْلَ السّموَاتِ فِي الصّفةِ لِظُهورِ الفَرْقِ التَّامِّ بيْنَهُما، فإِذا تعذَّرَتِ الصِّفَةُ رجَعْنا إِلَى العَدَدِ، أيْ ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ فِي العَدَدِ، ثمَّ جَاءَتِ السُّنَّةُ مُبيِّنَةً ذَلِك صَرِيحًا، مثْلَ قولِه ﷺ في الحديث الصَّحِيح المُتَّفق علَيْهِ: «طَوَّقَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»(١).

وقوْلُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾: أيْ لُغَاتِكُمْ مِـنْ عَرَبِيَّـةٍ وَعَجَمِيَّةٍ وَغَيْـرِهَا]: اختلاف معطُوفَةٌ عَلَى (خلْق) يعْنِي ومِنْ آيَاتِه أيْضًا اختِلافُ ألسِنَتِكُم، وصَحِيحٌ أنَّ اختِلافَ الألسِنَةِ مِن آيَاتِ الله بحسَبِ اللُّغاتِ عربِيَّةً وعجَمِيَّةً وغيْرَها، إِنْ أرَدْنا بَالعَجَم اسْم القَوْمِ الخاصِّ، فكَلِمَةُ (غيْرَها) صحِيحَةٌ، وإذا أرَدْنا بِالعَجَم مَنْ سِوى العَرَبِ فإنَّ قوْلَه: (وَغَيْرَهَا) ليْسَ بِصَحِيحٍ، وَهَذا هُو الأَفْضَلُ أنّه يُقَال: (عَرَبٌ وَعَجَمٌ) ويُراد بالعَجَم مَا سِـوى العَربِ، فيَشْمَلُ جَمِيعَ لُغاتِ العالَمِ، ثمَّ إنَّ اختِلافَ الألسِنَة أيْضًا قَدْ نُنْزِلُه عَلَى اختِلَافِ اللُّغَة نفسِها، واخْتِلافِ النُّطقِ نفْسِه، فأَنْتَ تَرى الإنْسَانَ ينْطِقُ بخُروجِ الهَواءِ مِنَ الرِّئَتَيْنِ، ثمَّ مُرورِهِ عَلَى

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، رقم (١٦١٠).

مخارجِ الحُروفِ، كُلَّما مَرَّ عَلَى مخرَجٍ تغيَّر والهَواءُ واحِدٌ، فإذَا مَرَّ عَلَى مخْرَجِ الصَّادِ صَار صَادًا، وإذَا مرَّ عَلَى مخْرَجِ الجِيمِ صَار جِيمًا، وَإذا مَرَّ عَلَى مخْرَجِ الدَّالِ صارَ دالًا، مَع أنَّ الهواءَ واحِدٌ، ثمَّ إنَّه أيْضًا لَا يحْتَاجُ إلَى عملِيَّةٍ؟ فهَل نَجِدُ تَعبًا بنَقْلِ البَاء إلَى النُّونِ إلَى القَافِ إلَى اللَّام، فَهُو شَيْءٌ واحِدٌ ومَع ذَلِك تجِدُ الحُروفَ تتَنوَّعُ بمُرورِها عَلَى هَذِهِ المخَارِج، فَهذا أيْضًا مِنْ آيَاتِ الله العظيمَةِ، وهُوَ دَاخِلٌ في قوْلِه تَعالَى: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾.

فاخْتِلافُ الألسِنَة أيْضًا مِن آيَاتِ الله ووجْهُ ذَلِك أنَّ هَذِهِ الألسُنَ مِن نوعٍ واحِدٍ، أوْ مِن جنْسٍ واحِدٍ، كلُّنا بشَرٌ، وكلُّنا مِن أَبٍ واحِدٍ، ومَع ذَلِك تخْتَلِفُ الألسُن اختِلَافًا عظِيمًا، كَذَلِكَ أيْضًا هُوَ مِنْ آيَاتِ الله لأَنَّ كلَّ إنْسَانٍ يعرِفُ جنسَه بلُغَتِه، أنا أعْرِفُ مثَلًا أنَّ هَذا هنْدِيٌّ، وَهَذا تُرْكِيٌّ، وَهَذا إنجْلِيزِيٌّ، وَهَذا ألمانِيٌّ، وَهَذا رُوسِيٌّ، بسَبَب لُغَتِه، وَهَذا أيْضًا مِن آيَاتِ الله أنْ جعَلَها دَلِيلًا عَلَى جِنْسِ الإنْسَانِ.

وقوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ يشْمَلُ أصْلَ اللُّغَة، ويَشْمَلُ اللَّهَجاتِ، ويشْمَلُ السَّلامةَ مِن العُيوبِ، ويشْمَلُ العُيوبَ أيْضًا، ويشْمَلُ الفصاحَةَ، ويشْمَلُ العِيَّ؛ لأَنَّ بعضَ النَّاس يُعَبِّر عنِ المَعْنى تعْبِيرًا يسْتَطِيعُ الإقْنَاع إذا أَرَاد أنْ يُقْنِع، ويسْتَطِيعُ التَّنْفِيرَ إذا أرَادَ أنْ يُنفِّرَ، وبعْضُ النَّاس عنْدَه عِيٌّ بحيْثُ أنَّه لا يسْتَطِيعُ أنْ يُعَبِّرَ حتَّى عنِ المَعْنى الصَّحيحِ حتَّى أنَّه إذَا عبَّر عن المعَانِي الَّتي يُريدُها، رُبما لا تُقبَلُ منْهُ لضعف تعْبيرِه، يعْنِي لا تَظُنَّ أنَّ اخْتِلافَ الألسِنَة فقَط في جِنْس اللُّغَةِ، لا بَلْ بِكُلِّ هذَا، فأجْنَاسُ اللُّغاتِ مِن آيَاتِ الله عَزَّوَجَلَّ، وكوْنُ هَذا الإنسانِ ينطِقُ بالحُروفِ نُطْقًا تَامًّا، هَذا مِنْ آيَاتِ الله، والثَّاني بالعَكْس ينْطِقُ بِها عَلَى وجْهِ اللَّثْغَةِ أوْ يتثَاقَلُ أوْ مَا أشْبَه ذَلِك، كَذَلِكَ أيْضًا قدْ نَقُولُ: إنَّ مِن اخْتِلافِ اللِّسانِ اختلافَ

الأَصْوَاتِ، فهَذا صوْتُه جَيِّدٌ، وَهَذا حسَنٌ، والآخَرُ بالعَكْسِ، كَذَلِكَ مِن اخْتِلافِ الألسُـن الفصاحَةَ وعدَمَها، فإنَّ مِن النَّاسِ مَن يُعطِيهُ الله تَعالَى بلَاغَةً فِي الكَـلامِ وحُسْنَ أداءٍ حتَّى أنَّه يؤدِّي إلَيْك المَعْنَى بعِبارةٍ واضحَةٍ تفْهَمُها مِن أوَّلِ مرَّةٍ ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ بالعَكْسِ فجَمِيعُ مَا يمْكِنُ أنْ يَرد عَلَى اخْتِلَافِ اللِّسانِ فإنَّهُ داخِلٌ في كوْنِه مِنْ آيَاتِ الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوْلُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ مِنْ بَيَاضٍ وَسَـوَادٍ وغَيْرِهِمَا]: هَذا صحِيـحٌ، اخْتِلافُ الألوانِ مِن بَياضٍ وسَوَادٍ وغَيْرِهما، أيْ مَا بيْنَ السَّوادِ والبَياضِ يعْنِي أسْودُ خالصٌ، وأَبْيضُ خالصٌ، ومَا بيْنَهُمـا هُو غيْرُهما، وَهَذا أيْضًا مِن آياتِ الله؛ وَلِهَـذا لا تَكادُ تَجِدُ اثْنَيْنِ متَّفِقَيْنِ فِي اللَّوْنِ أبَدًا حتَّى لَوْ كَانا توْأَمَيْنِ لا بُدَّ أنْ يكُونَ هناكَ اختْلافٌ، لكِنْ منْهُ ما يكُونُ ظاهِرًا، ومنْهُ مَا يكُونُ غَيْرَ ظاهِرٍ، إمَّا بمَيْلِه إلَى الحُمْرَةِ أو إلَى السَّوادِ أوْ إلَى البَياضِ، أوْ يكُونُ الجِلْدُ ليْسَ عَلَى وتيـرَةٍ واحَدَةٍ، وَهَذا شيْءٌ مُشاهَدٌ، فالرَّجُل الأبْيَضُ الأُوربِّي بيْنَه وبَيْن الرَّجُل الأسْوَد الَّذي عَلَى خطِّ الاسْتِواءِ فرْقٌ شاسِعٌ، ومَا بَيْن ذَلِك درَجاتٌ متفاوِتَةٌ، لكِنْ لَا تكَادُ تَجِدُ اثْنَيْن عَلَى لوْنٍ واحِدٍ، هَذا مِنَ الحِكْمَةِ؛ لأَنَّهُ لوْلَا هَذا لَكَانَ النَّاسُ يَخْتَلِفُ بعْضُهم عَلَى بعْضٍ، وربَّما طَالبُوا بحقُوقِهم مَنْ ليْسَ لَهُمْ عنْدَه حقٌّ لمجرَّدِ الشَّبَهِ.

ويُقالُ أنَّ الله جعَل لكُلِّ إنْسَانٍ أرْبَعِينَ شَبِيهًا، ولَكِنْ لَا أظُنُّ أنَّ هَذا يَصِحُّ، بَلْ إنَّهُم يقُولونَ إنَّ البَصماتِ الَّتي في الأَنَامِلِ تَخْتَلِفُ، كُلُّ واحِدٍ لَهُ بصَماتٌ عَلَى شكْلٍ لَا يُوافِقُ الآخَرَ وَهَذا هُوَ الظَّاهِرُ، وَلِهَذا تُعْتَبَرُ البَصماتُ فِي التَّحْقِيقاتِ الجنَائِيَّةِ، ممَّا يدُلُّ عَلَى أنَّها تَخْتَلِفُ قطْعًا، وَهَذا ممَّا يدُلُّ عَلَى قدْرَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هَذا الاخْتِلافَ العظِيمَ، ملَايِينُ المَلَايينِ مِنَ البَشَرِ، ومَع ذَلِك كُلُّ إنْسَانٍ لَا يُمْكِنُ أنْ يُطابِقَ الآخر

مِنْ كُلِّ وجْهٍ، لَا بُدَّ أنْ تَكُونَ هُناكَ علامَةٌ فارِقَةٌ.

قولُه رَحِمَهُ اللَّهُ: [وَأَنْتُمْ أَوْلَادُ رَجُلٍ وَاحِدٍ وامْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ]: صحِيحٌ، نحْنُ أَوَّل مَا نشَأْنا مِن آدَم وحواء، ومَع ذَلِك نخْتَلِفُ هَذا الاخْتِلافَ العظِيمَ في الألوانِ، ولَمْ يذْكُرِ الله عَزَّوَجَلَّ الاخْتِلافَ في الأَجْسامِ مَا بَيْنَ صَغيرٍ وكَبيرٍ ومتَوسِّطٍ؛ لأَنَّ القُدْرَة عَلَى خَلْقِهم باخْتِلافِ ألوَانِهم أبْلَغَ مِنَ القُدْرَة باخْتلَافِ خلْقِهم عَلَى كِبَرِ أجْسَامِهِم وصِغَرِها؛ وَلِهَذا ذَكر الألسِنَةَ والألوانَ.

قولُه رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ﴾ دَلَالَاتٍ عَلَى قُدْرَتِه تَعالَى ﴿لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ بِفَتْحِ اللَّامِ وكَسْرِها، أَيْ ذَوِي العُقُولِ وأُولِي العِلْمِ]: بفَتْح اللَّام وكسْرِها، يعْنِي يَجُوزُ أنْ تَكونَ (لِلْعَالَمِينَ) و(لِلْعَالِمِينَ)، والقِراءتَانِ سبْعِيَّتانِ[1]؛ لأَنَّ قاعِدَةَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ إذا ذَكَر الوَجْهَيْن فهُما قِراءَتانِ سبْعِيَّتَانِ، أمَّا إِذا قَال: (وقُرِئ) فالقِراءَةُ شاذَّةٌ.

وقوْله تَعالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ أو «للعالَمين»، العالِمون ذوُو العِلْم، والعالَمون جمعُ عَالَمٍ، يعْنِي الخلْقَ، وهَلْ نأخُذُ مِنَ اخْتِلافِ القِراءَتَيْن أنَّ المرادَ بالعالَمِين ذوي العلْم؛ لأَنَّ العالَمِين أعمُّ مِن العالِمِين؛ لأَنَّ العالِمِين تختَصُّ بذَوي العِلْم، والعالَمِين عامَّةٌ لَهُم ولغَيْرِهم، فهَل نقُولُ: إنَّ الآيَة تدُلُّ عَلَى أنَّ هَذا فِيه آيَاتٌ للعالِمين، أوْ نقُولُ إِنَّ الآيَاتِ للعالَمِين كلِّهم العالِمِ وغَيْرِ العالِمِ، ولكنَّ العالِمِ لَهُ مزيَّةٌ، فتكُونُ دالَّةً عَلَى أنَّ اخْتِلافَ الألسُنِ والألوانِ أمْرٌ معْلُومٌ لكُلِّ أحَدٍ، لكنَّ مَا وراء ذَلِك الظَّاهِرِ أمرٌ لا يعْلَمُه إِلَّا أهْلُ العِلْمِ، ويكُونُ فِي الآيَةِ إشَارَةٌ إِلَى أنَّه ينْبَغي لنَا أن نتَعَمَّقَ فِي هَذا الأمرِ حتَّى يتبَيَّنَ لنا بعلْمِنا ما ليْسَ بائِنًا لغيْرِنا، وَهَذا هُو الأحْسَنُ.

---

(١) إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر (ص:٦١٩).

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: أنَّ خلْقَ السَّمـوَاتِ وَالأرْضِ مِن آيَاتِ الله، ووَجْهُ كَوْنِه مِـن آيَاتِ الله عِظَمُهما واتِّساعُهما ومَا فِيهما مِنَ الكَواكِبِ والنُّجومِ والأَشْجارِ والبِحارِ والأَنْهارِ وغَيْرِ ذَلِكَ، كُلُّه مِنْ آيَاتِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الدَّالَّةِ عَلَى عَظَمَتِه وقُدْرَتِه.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: أنَّ السَّمواتِ جَمْعٌ والأرْضَ كَذَلِكَ، لكِنْ ليْسَ فِي الآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى هَذَا، إِنَّما يُسْتَفادُ كَوْنُ الأرْضِ جَمْعًا مِن أدِلَّةٍ أُخْرَى.

الفائِدَةُ الثالِثَةُ: أنَّ اختِلافَ الألسُنِ والألوانِ مِن آيَاتِ الله أيْضًا، وهلِ اختِلافُ الألسُنِ والألوانِ هُو بطُولِ اللِّسَانِ وقِصَرِه، أوِ المُرادُ اختِلافُ اللُّغَة؟ المُرادُ اختِلافُ اللُّغاتِ واخْتِلافُ الفَصاحَةِ والبَيانِ؛ فإِنَّ النَّاسَ يَخْتَلِفُون فِي هَذا اختِلافًا عظِيمًا، تَجِدُ المَعْنى الوَاحِدَ يتكَلَّمُ به إِنْسَانٌ فيَقْتَنِعُ الحاضِرونَ لقُوَّةِ بَيانِهِ وفَصاحَتِهِ، ويتكَلَّمُ فِيه آخَرُ لَا يلْتَفِتُونَ إِلَيْهِ ولا يُقْنِعُهم، وتَجِدُ رَجُلَيْنِ يتكَلَّمانِ، أحَدُهُما يشُدُّ النَّاسَ إلَى نفْسِه، والآخَرُ يتكلَّمُ ولَا يُسْتَمَعُ إِلَيْهِ، مَع أنَّ الكَلامَ واحِدٌ والمَوْضوعَ واحِدٌ، لكِنَّ اخْتِلافَ الإلقاءِ والفصَاحَةِ هُو الَّذي جعَلَ النَّاسَ يتأثَّرُونَ.

الفائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الألوانَ لا تتَّفِقُ، نأْخُذه مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾، وَلِهَذا يقُولُ العُلَمـاءُ أنَّه لَا يُمْكِنُ أن يُوجد شخصَانِ متَّفِقانِ مِنْ كُلِّ وجْهٍ أبَدًا عَلَى كثْرَةِ النَّاسِ، حتَّى التَّوْأمانِ لا يتَّفقانِ مِنْ كُلِّ وجْهٍ، صحيحٌ أنَّ بعْضَ النَّاسِ يتقَارَبُـونَ وَلا تعْرِفُ بعْضَهُم مِن بعْضٍ، لا سِيَّما إذَا كُنْتَ لَا تَراهُما إِلَّا نادِرًا، لكِنْ عنْدَ التَّأَمُّلِ لَا بُدَّ أنْ يكُونَ هُناكَ علَامَةٌ فارِقَةٌ، ولا تأْخُذْ بالمَلامِحِ الظَّاهِرَةِ، وَهَذا مِنْ آيَاتِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حتَّى الأَعْضاء الآنَ لَا تظُنَّ أنَّ أعضاءكَ متَّفِقَةٌ، فأعْضاؤُك تخْتَلِفُ، فَكِّرْ في العُروقِ: عُروقُ اليَدَيْنِ تجِدُها مختَلِفَةً، عروقُ الرِّجْليْنِ تجِدُها مخْتَلِفَةً، البَنانُ الَّتي

يُسمُّونَها بصَماتٍ تجِدُها مختَلِفَةً عَلَى كثْرَة النَّاسِ، لا يُمْكِنُ أنْ يتَّفِقُوا أبدا وَهَذا دليل واضح عَلَى عظِيمِ قُدْرَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وبَالِغْ حِكْمتَه.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: مدْحُ أُولي العِلْم؛ تُؤخَذُ مِن قَوْلِه: (العالِمين) بِكَسْر اللَّامِ، فإِنَّهُ يدُلُّ عَلَى فضِيلَةِ أهْلِ العِلْمِ، ولَا شَكَّ أنَّ أهْلَ العِلْمِ لَهُمْ فَضْلٌ. فالعالِمُون باللهِ وآيَاتِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَهُم مِن الفَضائِلِ بِحَسَبِ عِلْمِهِمْ.



الآيــة (٢٣)

• • ⁂ • •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [الروم:٢٣].

• • ⁂ • •

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ بِإِرَادَتِه رَاحَةً لَكُمْ]؛ مِن آيَاتـه أيْضًا منامُكُم بِاللَّيْـلِ والنَّهارِ -وَ(الباءُ) هُنا بمَعْنى (فِي)- فَهِي للظَّرْفِيَّـةِ -و(الباءُ) تأتي للظَّرفِيَّةِ كَثِيرًا- ومِنْهُ قوْلُه تَعالَى:﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصّافات:١٣٧-١٣٨]، أيْ وفِي اللَّيْلِ، فالباءُ فِي قَوْلِه ﴿وَبِٱلَّيْلِ﴾ ظَرْفِيَّةٌ.

وقوْله تَعالَى: ﴿بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ لَمْ يذْكُرِ الله وقتًا مُعَيَّنًا مِن اللَّيْلِ، ولا وَقْتًا مُعيَّنًا مِن النَّهارِ؛ لأنَّ النَّومَ فِي أيِّ ساعَةٍ مِن اللَّيْل أوِ النَّهارِ هُوَ مِن آيَاتِ الله، أمَّا كوْنُك يُكْرَهُ لَك أنْ تَنامَ فِي هَذا الوَقْتِ أوْ لا تَنامُ فهَذا موْكُولٌ إِلَى الشَّرعِ، وهُو مِنَ الآيَاتِ الشَّرْعيَّةِ ولَيْس مِنَ الآيَاتِ الكَوْنِيَّةِ.

وقوْلهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [رَاحَةً] هَلْ هِي مفْعُولٌ مِن أجْلِه أوْ مفْعُولٌ لـ(إِرَادَة)، أيْ أنَّه يُرِيدُ الرّاحةَ لكُمْ؟ يحْتَملُ كلامُ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ وجْهَيْن: إمَّا المَعْنى بِإِرَادَتِه أنْ تَسْتَرِيحُوا، أو المَعْنى أنَّ نوْمَكُم بِإِرَادَتِه راحَةٌ لكُمْ، فيُفِيدُ أنَّ النَّوْمَ لَيْس باخْتِيارِ الإِنْسانِ، الإِنْسَانُ غايَةُ مَا يفْعَلُ أنَّه يفْعَلُ الأَسْبابَ الَّتي يكُونُ بِها النَّوْمُ، أمَّا أنْ يُخْرِجَ رُوحَهُ مِنْ جَسَدِه

حتَّى ينامَ أوْ يرُدَّ رُوحَهُ إِلَى جسَدِه حتَّى يسْتَيْقِظَ فهَذا ليْس إِلَيْهِ، بَلْ هُو إِلَى الله، وَلِهَذا أحْيَانًا الإِنسَانُ يُرِيدُ النّومَ ويَكُون عَلَى الفِراشِ ويُحاوِلُ بقَدْرِ ما يَسْتطِيعُ أنْ ينَامَ، ثمَّ لَا ينامُ، وأحْيَانًا يغْلِبه النَّومُ ولَوْ لَمْ يتهَيَّأْ له.

إِذَنْ: النّومُ بإِرَادَةِ الله، وهُوَ وفَاةٌ صُغْرَى، فكَما أنَّ الوفَاةَ الكُبْرى إِنَّما تَكُونُ بأَمْرِ الله وبإِرَادَتِه فكَذَلِكَ الوَفاةُ الصُّغْرَى.

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَٱبۡتِغَآؤُكُم﴾ بِالنَّهارِ ﴿مِّن فَضۡلِهِۦٓ﴾ أيْ: تَصرُّفُكُمْ فِي طَلَبِ المَعِيشَةِ بِإِرَادَتِهِ]: (ابتغاؤُكم) معْطُوفَةٌ عَلَى (منامِكم)، ومعْنَى (ابتغاؤُكم) أيْ طلبُكم ﴿مِّن فَضۡلِهِۦٓ﴾، (مِن) لِبيان الجِنْس، أيْ مِن عطَائِه ورِزْقِه، والمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ خصَّ الابْتِغاءَ بالنَّهارِ، ﴿مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓ﴾، والأَحْسَنُ أنْ نجْعَلَها مُطْلَقَةً كَما أطلَقَها الله؛ لأَنَّ مِن النَّاس مَنْ يبْتَغِي مِنْ فَضْل الله بالنَّهارِ، ومِنْهُم مَن يبْتَغِي مِنْ فضْلِ الله بِاللَّيْل، فكَوْنُها تبْقَى عَلَى مَا هِي علَيْهِ بدُونِ تقْيِيدٍ هَذا هُوَ الأَوْلى؛ لأَنَّ التَّقْيِيدَ يُضَيِّقُ المَعْنى فيَجعلُ الابْتِغاءَ بالنَّهارِ مَع أنَّه يُوجَدُ أنَاسٌ لا يطْلُبونَ الرِّزْق إلا فِي اللَّيْل، مثْلُ الحرَّاس وأصْحَابِ الأَمْن، ومَا أَشْبَه ذَلِك.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: تقْيِيدُ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ النَّوْمَ باللَّيْلِ وابْتِغاءَ الفَضلِ بالنَّهارِ مع أن النَّومَ يَكُونُ بالنَّهار وابْتِغاءِ الفَضْل باللَّيْل، هلْ هَذا باعْتِبار الأَغْلَبِ؟

قُلْنَا: لَو قُيِّدَتْ لقُلْنا هَذا باعْتِبارِ الأَغْلب، يعْنِي لَوْ قَال: (مِنْ آيَاتِه منامُكُم باللَّيل وابْتِغَاؤُكم مِنْ فضْلهِ بالنَّهار)، أمَّا أنْ تأْتِي عامَّةً ثمَّ نُقَيِّدُها فَلا وجْهَ لَهُ، وأيْضًا لا تُفَسَّرُ بِالآيَاتِ المقَيَّدَةِ؛ لأَنَّ الآيَاتِ المقَيَّدة لا تُنافِي هَذِه.

قوْله تَعالَى: ﴿وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓ﴾: الفَضْل بمَعْنى العَطاءِ، وقوْلُ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أيْ تصرُّفُكُمْ فِي طَلَبِ المَعِيشَةِ بِإِرَادَتِهِ]، والإِرادَةُ هُنا إِرادَةُ الله عَزَّوَجَلَّ،

والمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يُرِيدُ أنْ يُثْبِتَ مذْهَب الجبْرِيَّة، ولكِنْ يُرِيدُ أنْ يُبيِّنَ أنَّ تصرُّفَنا وإنْ كُنَّا مستَقِلِّينَ بِه مِن وَجْهٍ، فإنَّنا لسْنَا مستَقِلِّينَ بِه مِن وجْهٍ، وابْتِغاءُ الفضْلِ بإرَادَةِ الله والمَنامُ بإرادةِ الله، وبيْنَهُما فرْقٌ لأَنَّ المَنام ليْسَ لنا فِيه حُرِّيَّةٌ إطْلاقًا، ولَا إرادَةَ بِخلَافِ الابْتِغاءِ مِن فضْلِه، فإنَّ لنَا فِيه إرادَةً، ولكِنَّها تابِعَةٌ لإرادةِ الله، ثمَّ قَال تَعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٨-٢٩].

قوْلُه تَعالَى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾: إنَّ في ذَلِك المَذْكُورِ، كَما قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أولًا: [﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سَماعَ تَدبُّرٍ واعْتِبارٍ]: وأَتى بقوْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾؛ لأَنَّهُ بدَأ بالنَّوْمِ وبدَأ باللَّيْلِ، واللَّيْلُ وَظِيفَةُ الإنْسَانِ فِيه السَّمْعُ؛ لأَنَّهُ لَا يَرى باللَّيْل، فالَّذِي يُناسِبُه السَّمعُ.

ولكِن مَا المُرادُ بالسَّمْعِ هُنا، هَل المُرادُ مطْلَقُه؟

لَا، بَل المُرادُ سَماعُ التَّدبُّر والاعْتِبَارُ؛ لأَنَّ السَّمْع كَما سبَق يُطْلَقُ عَلَى سمْعِ الإدْرَاكِ المُجَرَّدِ، وعلَى سمْعِ الإدْرَاك المُنْتَفَعِ بِه، ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال:٢١]، يعْنِي لا يسْمَعُون سَماعَ تدَبُّرٍ واتِّعاظٍ وانْقِيادٍ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: أنَّ النَّومَ مِن آيَاتِ الله؛ وجْهُ ذَلِك أَنَّ هَذا الإنْسانَ ذَا الشُّعورِ إِذا نَام فقَدَ شُعُورَه، والرُّوحُ متَّصِلةٌ بالبَدن تَمامَ الاتِّصالِ، فإِذا نامَ حصَل منْهَا نوْعُ انفِصَالٍ؛ وَلِهَذا سَمَّى الله تَعالَى النَّوْمَ وفَاةً لكِنْ ليْسَتِ الوفاةَ الكامِلَةَ التي تُقْبَضُ فِيها الرُّوحُ مِن البَدنِ وتنْفَصِل عنْه انفصالًا كامِلًا، لكنَّها تنْفَصِلُ عنْه انفِصالًا جُزْئِيًّا،

هَذا الانْفصَالُ الجزْئِيُّ الَّذِي تبْقَى معَهُ الحَياةُ دُونَ الوَعْي مِن آيَاتِ الله، فلا أَحَدَ يسْتَطِيعُ أنْ يفْعَل هَذا إِلا الله، وَكَذلِكَ أيْضًا لَا أَحَد يسْتَطِيعُ أَنْ يرُدَّها إِلا بإِذْنِ الله عَزَّوَجَلَّ.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: مَاذا تقُولونَ فِي النَّوم بالتّنويم، الَّذي يسُمُّونه التّنويمَ المغناطِيسيَّ، حيث يُنوِّم شخْصٌ آخَرَ؟

قُلْنَا: هُو لا يُنَوِّمُه، وإِذا ادَّعى مُدَّعٍ أنَّ النَّوْمَ المغَناطِيسِيَّ تنْوِيمٌ بِغَيْر الله، فهُو كادِّعَاءِ الَّذي يقولُ: (أَنا أُحْيِي وَأُميتُ)، وهُو يُحْيِي ويُمْيتُ حيْثُ يَقْتُل ويُبْقِي، لكِنْ ليْسَ صحِيحًا أَنَّه أحْيَا، بَلْ فَعلَ سببَ الحيَاةِ أوْ سببَ المَوْتِ فقَطْ، كَذَلِكَ المُنوِّم مَا جلَب النَّوْمَ، لكِنْ فعَل سببَه، والتّنْويمُ المغناطِيسيُّ معْناه اسْتِسْلامُ النَّفْس البَاطِنة لهذَا المنوِّم ثمَّ ينامُ، يسْتَرْخِي ويَفْقِدُ الوَعْيَ إِلَّا الذّاكِرةَ؛ وَلِهَذا تجِدُ المنوِّمَ المَغناطِيسيَّ عَلَى مَا يقُولُونَ إِذا اسْتَجابَ لَه المنَوَّم بدَأَ يُخاطِبُه فِي العَقْل البَاطِن، وذَاك يتكَلَّمُ بِدُون شُعورٍ ويُخْبِرُه بِكُلِّ الَّذِي في دِماغِه، أيُّ شيْءٍ يسأَلُه عنْه يُعَلِّمُه بِه حتَّى الأُمورُ الَّتي لم يَطِّلعْ علَيْها أحَدٌ مِن النَّاسِ يُعلِّمُه بِها، لكِنْ بِشَرْط أنَّ المنَوَّم يسْتَسْلِمُ استِسْلامًا كامِلًا وعِنْدَهُم حرَكَاتٌ معيَّنَةٌ، يقُولُ لَك: لا تتعَدَّاها ويَبْدَأُ يتحَرَّكُ ويتحَرَّكُ ويَرْفَعُ ويَخْفِضُ.

عَلَى كُلِّ حَالٍ: عنْدَهُم طُرُقٌ فِي هَذا، وعنْدَهُم وسَائِلُ إِلَى أنْ يسْتَرْخِي الإنْسانُ وأعْظَمُ مِن هَذا القَتْلُ الَّذي يُسمِّيهُ الفُقهاءُ (القَتْل بالحال) أنَّه يسلط نفسه عَلَى نفس هَذا الرّجل ويخنق نفسه ويموت وَلِهَذا ذَكَرُوا فِي بَابِ القصاصِ هَل القتْلُ بالحالِ عَمْدٌ يُقتَلُ بِه القاتِلُ أَو خطأً أو شبْهَ عمْدٍ.

وإذا قُلنا أَنَّه يُقْتَل فهَلْ يُقْتَلُ بالحالِ أو يُقْتَلُ بالسَّيف؟

والصّوابُ: أنَّ القاتِل بالحَالِ يُقتَلُ، سَواءٌ قلْنَا أَنَّه قصاصٌ أَوْ قُلنا أَنَّه مِنْ بَابِ دفْعِ الفَسادِ فِي الأرْض، لكِنَّ بعْضَ الفُقهاءِ يقُولُ: إذا أرَدْنا المُقاصَّةَ تمامًا نأْتِي بِواحِدٍ آخَر يَقْتُل بالحالِ ونَجْعَلُه يقْتُلُ هَذا الرّجُلَ، فيُقْتَلُ بما قَتَل بِهِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة:١٩٤]، إنَّما لا شَكَّ أنَّ القَتْل بالحالِ يَجِبُ فيه قتْلُ القاتِل بكُلِّ حالٍ، سواءً قُلنا أَنَّه قصاصٌ، أو قُلْنا أَنَّه مِن بَاب دفْعِ الفَسادِ؛ لأَنَّ هَذا أَشَدُّ مِن السَّيفِ -والعياذُ باللهِ-، فالَّذِي يقْتُل بالسَّيف يسْتَطِيعُ الإنسانُ أن يَهْربَ منْه، لكن هَذا مُشْكِلةٌ.

وقَد ذكروا هَذا وتكلَّمُوا علَيْه في باب القصاصِ، وَهَذَا غيْرُ العَيْن.

والعيَّانُ أيْضًا -الَّذِي يقْتُل بعَيْنِه- اختلَفُوا فِيه: هَلْ هُو عمْدٌ أوْ شبْهُ عمْدٍ، وإذا قُلْنا أَنَّه عمْدٌ فهَل نقْتُله بالسَّيْف، أوْ نقْتُلُه بعَائِنٍ نأْتِي بوَاحِدٍ يُعِينُه إِلَى أنْ يقْتُلَه؟

الفائِدَةُ الثّانيةُ: ذِكْر المتقَابِلَاتِ ﴿مَنَامُكُم﴾، ﴿وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓ﴾، وابْتِغَاءُ الفَضْل يكُون فِي اليَقْظةِ، فهَذا جمْعٌ بيْن الشّيْءِ ومقابِلِه، فالمَنام آيَةٌ، وابْتِغَاءُ الإِنْسانِ مِن فضْلِ الله أيْضًا آيَةٌ.

الفائِدَةُ الثالِثةُ: جوَازُ النَّوْمِ ليْلًا ونهارًا؛ لأَنَّ الله تَعالَى جعلَهُ مِنْ آيَاتِه الَّتي امتَنَّ بِها عَلَى العِبادِ، ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، لكِنْ أَصَحُّهما نومُ اللَّيل بالاتِّفاقِ.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: أَنَّه ينْبَغِي لِلإِنْسَانِ أنْ يطْلُب رِزْقَ الله؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓ﴾.

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: الرِّزْقُ مكْتُوبٌ كالأَجلِ، فهُو محتُومُ الوُجودِ.

قُلْنَا: ولكِنَّه مكْتُوبٌ بسببٍ، ولَا يُمْكِنُ لأيِّ إِنْسَانٍ أنْ يَقُول: المَكْتُوبُ لي سيأْتِي ولَنْ أتحَرَّكَ أبدًا، إلا رجُلًا جاهِلًا أحْمَق، ولِهذا لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إذا كانَ الله كتَبَ لِي ذُرِّيَّةً ستأْتِي بدُونِ زوَاجٍ، فهَذا لَا يُعْقَل أبدًا، فنَقُول: قوْلَه تعالَى: ﴿وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ يدُلُّ عَلَى أنَّه ينْبَغي لِلإِنْسَانِ أنْ يطْلُب الرِّزْقَ.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: كرَاهَةُ سُؤالِ النَّاسِ، أوْ أنَّه مِن الأُمُورِ الَّتي لا تنْبَغِي؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾، وأَنْت إِذا طلَبْت الرِّزْقَ مِن الله عَزَّوَجَلَّ فقَدْ طلبْتَه مِن أهْلِه، ممَّنْ لَه المِنَّة عليْكَ.



الآيــة (٢٤)

• ● ◌ ● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرّوم:٢٤].

• ● ◌ ● •

قالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ﴾ أيْ إِرَاءَتُكُمْ ﴿ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾].

قَوْله تَعالَى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ ﴾ جارٌّ ومجْرورٌ، ﴿يُرِيكُمُ ﴾ فعْلٌ مضارعٌ.

وهَل ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ ﴾ متعلِّقَةٌ بـ﴿يُرِيكُمُ ﴾، أوْ متعلِّقَةٌ بمحذُوفٍ ويكُونُ تأْوِيلُ قوْلِه تعالَى: ﴿يُرِيكُمُ ﴾ مبْتَدأٌ مؤخَّرٌ؟

ظاهِرُ كلامِ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أيْ: إِرَاءَتُكُم] يقْتَضِي أنَّ قوْلَه تعالَى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ ﴾ خبَرٌ مقَدَّمٌ، و﴿يُرِيكُمُ ﴾ مبتدأٌ مؤخَّرٌ؛ لأنَّهُ أَوَّلَها إِلَى مصْدَرٍ، يعْني ولَيْس المَعْنى ويُرِيكُم مِن آيَاتِه كَذا وكَذا، ويُرِيكُم مِن آيَاتِه البَرْقَ خوْفًا وطَمَعًا، ففي إعْرَاب هَذِهِ الآيَة وجْهَانِ:

الوَجْهُ الأَوَّلُ: مَا مشَى عليْه الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: بأن نجعَل ﴿يُرِيكُمُ ﴾ فعلًا مضارِعًا مُؤَوَّلًا بمَصْدَرٍ تقْدِيرُه (إِراءَتُكم)، مع أنَّه ليْسَ فيه حرْفٌ مصْدَرِيٌّ، وَهَذا موْجودٌ فِي اللُّغَةِ العربِيَّةِ، ومنْهُ قولُهم: (تَسْمَع بالمُعِيدِيِّ خيْرٌ مِنْ أنْ تَراهُ)، فـ(تَسْمَعُ)

هَذِهِ مبتَدَأٌ بدَلِيل قولِه: (خَيْرٌ مِنْ أنْ تَراهُ)، معَ أنَّه ليْس فِيها حرْفٌ مصْدَرِيٌّ تنْسَبِكُ بِه.

والوَجْهُ الثَّاني: أنْ نقُولَ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ متعلِّقةٌ بـ﴿يُرِيكُمُ﴾، يعْنِي يُريكُم مِن آيَاتِه البَرْق خوْفًا وطمَعًا.

ويُرجِّحُ الوجْهَ الأوَّلَ سِياقُ الآيَاتِ، سِياقُ الآيَاتِ كُلِّها يدُلُّ عَلَى أنَّ هَذا الفعْلَ مُنْسَبِكٌ بمَصْدَرٍ، والتَّقدِيرِ: (ومِنْ آيَاتِه إراءَتُكم)، كالآيَات الَّتي قبْلَها، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ﴾، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، ويُرجِّحُ الوجْهَ الثَّانِيَ أنَّنا نتَحاشَى انْسِبَاكَ المَصْدَرِ بدُونِ حرْفٍ مصْدَرِيٍّ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا﴾ لِلْمُسَافِرِ مَنَ الصَّواعِقِ، ﴿وَطَمَعًا﴾ لِلْمُقِيمِ فِي المَطَرِ].

قوْلُه تعالَى: ﴿خَوْفًا﴾ مفعولٌ لأجْلِه، وهذا مُشْكِلٌ لأَنَّ ابنَ مالكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقولُ[1]:

وَهْـو بِمَـا يَعْـمَلُ فِيـهِ مُتَّـحِـدْ وَقْـتـاً وَفَـاعِـلاً..............

وهُنا ﴿يُرِيكُمُ﴾ الفاعِل الله، والخائِف الطَّامِعُ: بَنُو آدَمَ، فاختَلَف الفَاعِلُ، فالوَقْت متَّحِدٌ ولكنَّ الفاعِلَ لم يتَّحِدْ، وعلَيْه فيَكُون ﴿خَوْفًا﴾ مصدَرًا في موْضِع الحَالِ، أي: يُريكُم البَرْق خائِفِينَ وطَامِعينَ، أمَّا إذا أسْقَطْنا اشْتِراطَ ابْنِ مالكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ اتِّحادَ الفاعِلِ فتكُون ﴿خَوْفًا﴾ مفعولًا لأجْلِه.

---

(١) البيت رقم (٢٩٩) من الألفية.

ولكِنْ عنْـدِي أنَّ هُناكَ وجْهًا آخَـر، أنْ نجْعَل ﴿خَوْفًا﴾ بمَعْنى تَخْوِيفًا، فإِذا جعَلْنا خوْفًا بمعْنَى تخْوِيفًا زَال الإِشْكالُ؛ لأنَّ التّخْوِيفَ يكُونُ مِن الله وهُو المُرِي، والإِطْماعُ أيْضًا مِن الله، وهُو المُرِي، وحِينَئِذٍ نسْلَمُ مِن مخالَفَةِ شرْطِ ابْنِ مالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، لكِنْ لا بُدَّ مِنْ تأْوِيلٍ، حيْثُ حوَّلْنا ﴿خَوْفًا﴾ إِلَى إِخافَةٍ، ﴿وَطَمَعًا﴾ إِلَى إِطْماعٍ.

فالوُجُوهُ إِذَنْ ثلاثَةٌ:

- إمَّا أنْ نجْعَل ﴿خَوْفًا﴾ ﴿وَطَمَعًا﴾ مصْدَرَيْنِ في موْضِع الحَالِ.

- أوْ نجْعَلَهُما مصْدَرَيْن عَلَى أنَّهُما مفْعُولٌ مِن أجْلِه، ولا نَعْتَبِر اشْتِراطَ اتِّحادِ الفاعِلِ.

- أوْ نجْعَلَهُما مصْدَرَيْن، لكِنْ بمَعْنى التّخويفِ والإِطْماعِ، وحِينَئِذٍ نكُونُ قد اعتَبَرْنا اتِّحادَ الفاعِلِ ولم نُؤَوِّلْهما إِلَى الحالِ.

وقولُ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿خَوْفًا﴾ لِلْمُسَافِرِ مِنَ الصَّواعِقِ، ﴿وَطَمَعًا﴾ لِلْمُقِيمِ فِي المَطَرِ]: ظَاهِرُ كَلامِ المُفَسِّر أنَّ هَذا عَلَى سَبيلِ التَّوزِيعِ خوْفًا لأُناسٍ، وطمَعا لأُناسٍ، والصَّوابُ خِلافُ كلامِه رَحِمَهُ اللَّهُ، فإِنَّ البرْقَ خوْفٌ وطمَعٌ للجَميعِ، فالمُسافِرُ يخَافُ ويطْمَعُ، والمُقِيمُ أيْضًا يخَافُ ويطْمَعُ، ومَنْ ذَا الَّذي سَلِم مِن الصَّواعِق بسبَبِ كوْنِه فِي البِنَاءِ؟ فالصَّاعِقَة إِذَا نزَلَتْ نزَلَتْ حتَّى عَلَى البِنَاءِ وهدَمَتْه، وقتَلَتْ مَنْ فِيه، وَكَذلِكَ المُسَافِـرُ أيْضًا مَا أكْثَر المُسافِـرينَ الَّذِين نَجَوْا مِن الصَّواعِـقِ وهِي تصْعَقُ حوْلَهم.

فالصّوابُ أنَّه عائِدٌ عَلَى الجَمِيعِ، لكِنَّ تقْدِيمَ الخَوْف عَلَى الطَّمَعِ يدُلُّ عَلى أنَّ خوْفَ النَّاسِ بالبرِّ أكْثَرُ مِن طَمَعِهم، وَهَذا -واللهُ أعْلَمُ- بناءٌ عَلَى الغالِبِ؛ لأَنَّ أكْثَر

النَّاسِ لَا سِيَّما فِي الرُّعودِ الثَّقِيلَةِ والبَرْقِ العَظِيم يخَافُونَ أَكْثَر مِمَّا يطْمَعُون، ويُوجَدُ أُناسٌ لا يهْتَمُّونَ بِهَذا الأَمْر، مهْمَا قَوِي البَرْقُ ومهْمَا قَوِي الرَّعْدُ، لا يهْتَمُّون فَهُم دَائِمًا في طَمَعٍ.

قوْله تعالَى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أيْ شَيْئًا فَشَيْئًا، مَا ظَنُّك لَوْ كَان هَذا المَطَرُ ينْزِلُ دُفعَةً واحِدةً مِن السَّماءِ فلَن يُبْقي مبانِيَ، بَل لا يُبْقِي الآدَمِيِّينَ ولا ينْفَعُ شيْئًا، يُتْلِفُ ولَا ينْفَعُ، ومِنْه أيْضًا -أيْ كونِه مِن آيَاتِ الله- أنَّ هَذا الماءَ ينْزِلُ مِن السَّماءِ، فلَو كانَ ينْزِلُ مِن شيْءٍ طامن لكَان يُغرِقُ الأسْفَل قبْلَ أنْ يَصِلَ إِلَى الأَعْلَى، ولكِنَّ الله عَزَّوَجَلَّ جعلَه مِن فَوْقَ؛ حتَّى يَسْقِي بِه الأعْلى والأسْفَل.

وقوْلُه تَعالَى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾: ﴿فَيُحْيِۦ﴾ أيْ الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿بِهِ﴾: البَاءُ للسَّببيَّةِ، وهِي تُفِيد -كَما سيأْتِي إِنْ شَاء الله تَعالَى- إثْبَاتَ العِلَل في أفْعَالِ الله، فأفْعَالُ الله وشرْعُه كلُّه مقْرُونٌ بالحكْمَةِ والتَّعْليلِ، ومنْهُ مَا سبَق في قوْلِه تَعالَى: ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾، مِن أنَّ اللامَ للتَّعْليل، فتُفِيدُ ثُبوتَ الحكْمَةِ فِي أفْعَالِ الله، ومِن أهْل البِدَعِ مَن يُنْكِرُ الحكْمَةَ، فَالجهمِيَّةُ يُنْكِرُونَ الحكْمَة، أمَّا المُعتَزِلة فعلَى العَكْس يُوجبونها؛ وَلهَذا قالُوا: أنَّه يَجِبُ عَلَى الله فعْلُ الأصْلَحِ.

وقوْلُه تَعالَى: ﴿فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ هَل المرادُ بـ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ ذاتُ الأرْضِ تَحيا، أوِ المُرادُ النَّباتُ الَّذِي في الأرْضِ يَحْيا؟ المُرادُ النَّباتُ الَّذِي في الأرْضِ، وحِينَئِذٍ قدْ يعْتَرِضُ علَيْنا معتَرِضٌ ويقُولُ: إنَّكُم تقُولونَ أنَّه لَا مجازَ فِي القُرْآنِ، وهنَا إِذا حمَلْتُم الأرْضَ عَلَى نباتِها فقَدْ قُلْتُم بالمَجازِ؟

والجوابُ عَلَى هَذا: أنَّ الكلِمَةَ فِي حدِّ ذاتِها لا يُفْهَمُ معْنَاها إِلَّا بسِيَاقِها فقوْلُه تَعالَى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ لا شكَّ أنَّ المُرادَ ذاتُ الأرْضِ، لكِنَّ

قوْلَه تَعالَى: ﴿فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ يُخاطِبُ أُناسًا يعْرِفُون الَّذي يَحْيا، والَّذي يَمُوتُ، يعْرِفُونَ الَّذِي يَحْيا بالمَطر والَّذِي يمُوتُ بفَقْدِ المَطرِ، فهَلْ أحَدٌ ممَّن يُخاطَبُ بهذِه الآيَةِ يقُولُ: إنَّ هَذا الطِّينَ وَهَذا الرَّمْلَ وَهَذا الحجَر يمُوتُ بفَقْدِ المَطَرِ، ويَحْيا بوُجودِه؟! الكلِمَةُ يُعيِّن معنَاها السّياقُ، وَبِهذَا نسْلَمُ مِنَ القَوْلِ بالمَجازِ؛ لأَنَّ مِنْ أبْرَزِ عَلامَاتِ المجَازِ أنَّه يصِحُّ نفْيُه، والقُرْآنُ لَا يُوجَدُ فِيه شيْءٌ يصِحُّ نفْيُه؛ لأنَّهُ لَوْ صَحَّ نفْيُ شيْءٍ في القُرآنِ لكَان معْنَاه التّكْذِيبَ، مِثَالُ ذَلِك قوْلُه تَعالَى: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف:٧٧].

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: الجِدارُ لا يُرِيدُ فَما معْنَى هَذا؟

قُلْنَا: معْنَى هَذا نفْيُ مَا أثْبَتَ الله عَزَّوَجَلَّ، وَهَذا هُو الَّذي جعَل بعْضَ أهْل العِلم يُنْكِرُ المَجازَ فِي القُرآنِ، وَيُثْبِتُه في غيْرِه مِنَ اللُّغَةِ العرَبِيَّة، يقُولُ: لأَنَّهُ ليْسَ في القُرآنِ شيْءٌ يصِحُّ نفْيُه، وأبْرزُ علاماتِ المَجازِ أنَّه يصِحُّ نفْيُه، ولكنَّ الصّوابَ مَا اختَارَهُ شيْخُ الإسْلام ابْنُ تيْمِيةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه لا مجَازَ لَا في القُرآنِ ولَا فِي اللُّغَة العرَبِيَّة؛ لأَنَّنا نقُول: إنَّ الَّذي يُعَيِّنُ المَعْنى هُو السِّياقُ، وعلَيْه فَإِذا تعيَّنَ معْنَى الكلِمَةِ فهُو حقِيقَتُها فِي كُلِّ سِيَاقٍ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المَذْكُورِ]؛ المُشارُ إلَيْهم كُلُّ مَا سبَق ﴿يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، ﴿فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ هَذِهِ ثلاثَةٌ، هَذا المذْكُور فِيه آياتٌ لقَوْمٍ يعْقِلُون.

يقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يتَدَبَّرُون]، وهُنَا قَال: ﴿لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أيْ لِذَوي عقْلٍ، والعَقْلُ ينْقَسِم إلَى قِسْمَيْنِ: عقلِ إدْراكٍ، وعقْلِ رَشْدٍ.

عقْلُ الإدْراكِ الَّذي هُو مناطُ التّكْلِيفِ، الَّذِي يقُولُ فِيه العلَماءُ: يُشْتَرطُ لوُجوبِ الصَّلاةِ أنْ يَكُونَ عاقلًا، فهَذا نُسمِّيه عقْلَ إدْرَاكٍ؛ لأَنَّ الإنْسانَ بِه يُدْرِكُ الأُمورَ، فيُمَيِّز بيْن النّافِعِ والضّارِ وغَيْرِه.

العَقْل الثّاني: عقْلُ الرّشَدِ الَّذي هو مناطُ الثّناءِ والمَدْحِ، وعقْلُ الرّشَد هُو الَّذي يُوجَدُ فِي القرْآنِ كَثيرًا، مثَلًا نفَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ العَقْل عَن الكُفّار معَ أَنَّهم أذْكِياءُ عنْدَهُم عقْلُ إدْرَاكٍ، لكِنَّهم ليْسَ عنْدَهم عقْلُ رَشَدٍ يتصَرَّفُونَ فِيه تصرُّف العَاقِل.

وسُمِّي العقْلُ عقْلًا لأنَّهُ يعْقِلُ صاحِبَهُ عمّا يضُرُّه، وَهَذا هُو الَّذي جعَله يُسمَّى عقْلًا، أو يُسمَّى حِجْرًا ﴿هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ﴾ [الفجر:٥]، لأَنَّهُ يَحْجر صاحِبَه ويحْجِزُه عمّا لا ينْبَغِي.

وقوْلُه تعالَى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، أَتَى بالعَقْل هُنا إشَارَةً لما سيُذْكَرُ فِيها بعْدُ؛ لأَنَّ الآياتِ -كَما نُشاهِدُ- كلُّها في تقْريرِ إعادَةِ المَوْتَى، وانتِقالِ العقْل مِن هَذِهِ الأشْياءِ المحسُوسَةِ إِلَى أشياءَ منْظُورةٍ موعُودَةٍ، إنَّما يكُونُ عَنْ طَرِيقِ العَقْل؛ وَلِهَذا قَال هُنَا: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: أنَّ البَرْق مِن آيَاتِ الله؛ لقوْلِه تعالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾.

الفائِدَةُ الثّانيَةُ: أنَّ البَرْق يشْتَمِلُ عَلَى الخَوْفِ وَالرَّجاءِ؛ لقوْلِه تعالَى: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، والصَّحِيحُ أنَّها ليْسَتْ موزَّعَةً كما ذَهب إِلَيْهِ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بَلْ هِي صِفَةٌ مجْتَمِعَةٌ.

الفائِدَةُ الثالِثَةُ: عظِيمُ قُدْرَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بِإنْزالِ المَاءِ مِنَ السَّماءِ.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: رحْمَتُه بالخَلْق حيْثُ كانَ إنْزالُ هَذا المَطَر مِنَ السَّماءِ، هَذا واحِدٌ، وحيْثُ كانَ ينْزِلُ شيْئًا فشَيْئًا؛ لأَنَّهُ لَو كَان يَنْزِل دُفعةً واحِدةً لأهْلَك النَّاسَ.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: بَيانُ قُدْرَةِ الله تَعالَى؛ حيْثُ يُحْيِي الأرْضَ بعْدَ موتِها، تَجِدُ الأرْضَ يابِسَةً ليْسَ فِيها عُودٌ أخْضَرُ، ثمَّ بعْدَ نُزولِ المَطَرِ تصْبِحُ مخْضَرَّةً تهتَزُّ.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: رحمَتُه بالخَلْقِ أيْضًا؛ فإنَّ إحْياءَ الأرْضِ نافِعٌ لِلإنْسَانِ والحيَوانِ.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: أنَّه لَا ينْتَفِعُ بالآياتِ إلَّا ذَوُو العُقولِ؛ تُؤخَذُ مِنْ قَوْلِهِ تعالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

الفائِدَةُ الثّامِنَةُ: استِعْمالُ العَقْل فِي القِيَاسِ: في قِيَاسِ الأشْياءِ المتشَابِهَةِ، والنّظيرِ عَلَى نَظِيرِهِ.

الفائِدَةُ التّاسِعَةُ: أنَّ القِياسَ مِن الأدِلَّةِ العقْلِيَّةِ، وإنْ كَان ثابِتًا بالشَّرْعِ لكِنَّ طرِيقَهُ هُو العَقْل؛ لأَنَّ العَقْل يهْتَدِي بِهَذا عَلَى هَذا، وينْتَقِلُ مِن هَذا إلَى هَذَا.



الآيــة (٢٥)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم:٢٥].

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾.

قَوْله تَعالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ﴾ نقولُ فِيها كُما قُلْنا فِيما سبَق: أيْ مِن آياتِه قِيامُ السَّمواتِ والأرْضِ بأَمْرِه.

وقَوْلُهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ بِإِرَادَتِه مِنْ غَيْرِ عَمَدٍ]: أفادَنا المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ المُرادَ بالأمْرِ هُنا هو الأَمْر الكَوْنِيُّ؛ لأنَّهُ قَالَ: [بإِرَادَتِه]، وإِنْ كانَ في تفْسِيرِ الأمْرِ بالإِرادَةِ شيْءٌ مِنَ الشَّكِّ إِذْ إِنَّني أخْشَى أنَّه فسَّر الأَمْر بالإِرَادةِ فِرارًا مِنْ إثْبَات الكلامِ للهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ الأَمْرَ ولَوْ كانَ كوْنِيًّا يكُونُ بالكلامِ ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، فأخْشَى أنَّ المُفَسِّر -غفَر الله له- أرادَ بتَفْسِيرِ الأَمْرِ بالإِرادَةِ الفرارَ مِن إثْبَاتِ الكَلامِ، ومعرُوفٌ أنَّ الأشاعِرةَ لا يُثْبِتونَ الكلامَ بالحَرْفِ والصَّوتِ، وإِنما يُثْبِتونَ الكلَامَ عَلَى أنَّه المَعْنى القائِمَ بالنَّفْسِ، أمَّا الحرفُ المكتوبُ والصَّوتُ المسْموعُ يقُولونَ أنَّه عِبارَةٌ عَنْ كَلامِ الله، وَليْس هُو كلامَ الله.

وقَوْله تَعالَى: ﴿أَن تَقُومَ﴾: فسَّره رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقَوْلِه: [مِنْ غَيْرِ عَمَدٍ]، وَهَذا يدُلُّ عَلَى أنَّه ذَهب إِلَى أنَّ المُرادَ بالقِيَامِ هُنا القِيامُ الحسِّيُّ، يعْنِي أنْ تَبْقَى غيْرَ واقِعَةٍ عَلَى

الأرْضِ، بَل هِي مُمْسَكَةٌ بأمْرِ الله عَزَّوَجَلَّ بِغَيْر عَمَدٍ، وهَذا تفْسِيرٌ قاصِرٌ، والصّوابُ أنَّ قِيام السّموَاتِ وَالأرْضِ أعمُّ مِن كوْنِه قِيامًا حِسيًّا أو قِيامًا معنوِيًّا، بمَعْنى أنَّه يشْمَل القِيامَ الحِسِّي والقيامَ المَعنويَّ، فالسَّمواتُ قائِمةٌ بأمْر الله قِيامًا حِسِّيًّا بما فِيها من الانْتِظام فِيما خَلق الله عَزَّوَجَلَّ مِن الأَجرامِ، وبما فِيها مِن الأفْلاك المتضَمِّنة الشّمسَ والقَمرَ والنُّجومَ وغيْرَ ذَلِك، وكَذَلِكَ الأرْضُ قَائِمةٌ قِيامًا حِسِّيًّا بما أوْدَع الله تَعالَى فِيها مِنْ مصالِحِ الخَلْقِ مِنْ أشجارٍ وَنباتٍ وأنْهارٍ وبحارٍ وغَيْر ذَلِك، هَذا قيامٌ حِسِّيٌّ، ويُوجَد أيْضًا قِيامٌ معنَوِيٌّ وهُوَ قِيامُ هَذِهِ بطَاعَةِ الله، فإنَّ المَعاصِيَ إفْسَادٌ في الأرْضِ، كَما قَال الله تَعالَى: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ [الأعراف:٥٦]، فالسَّمواتُ أيْضًا والأرْضُ تَقُومُ بأَمْرِ الله الشَّرعِيِّ كَما تقُومُ بأَمْرِه الكَوْنِيِّ، ولَا قِيامَ للأَرْض ولَا لِلسَّمواتِ إلَّا بالتِزامِ أمْرِ الله الشّرعيِّ، فتَصلُحُ وتبْقَى بطَاعَةِ الله، فحِينَئِذٍ نُفسِّرُ القِيامَ بأنَّه القِيامُ الحسِّيُّ والقِيامُ المعنوِيُّ، فالآية شامِلَةٌ للمَعْنَيينْ، وعَلى هَذا يكُونُ المُرادُ بالأَمْرِ الأمرَ الكوْنِيَّ والأَمْر الشّرعِيَّ.

قوْله تَعالَى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ﴾: أَتى بِـ(ثُمّ) بعْدَ ذِكر قِيامِ السَّمواتِ والأَرْضِ؛ لأَنَّ البعْثَ متأَخِّرٌ لا يَكُونُ إلا بعْدَ قِيامِ السّاعَةِ، يقُولُ: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ﴾، الفاعِلُ هُو الله عَزَّوَجَلَّ ﴿دَعۡوَةٗ﴾ أيْ واحِدَةً ﴿مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ﴾.

قوْله تَعالَى: ﴿مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾، يقولُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بأَنْ ينْفُخَ إسْرَافِيلُ فِي الصُّورِ، فيُبْعَثُ مَنْ فِي القُبُورِ، ﴿إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ﴾ مِنْهَا أحْياءً، فَخُرُوجُكُمْ مِنْهَا بِدَعْوَةٍ مِنْ آيَاتِهِ تَعالَى].

قوْله تَعالَى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾، قوْله تعالَى: ﴿مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾،

هَل تتعَلَّقُ بـ﴿ تَخۡرُجُونَ ﴾، يعْنِي إذَا دعاكُم دعْـوَةً تخْرُجـونَ مِن الأرْضِ، أو متعَلِّقٌ بِـ(دعا)؟ نقُول هُو متعلِّقٌ بـ(دَعا) إِذا دعَاكُم دعْـوةً مِن الأَرْضِ، ولَيْس متعلِّقًا بـ﴿ تَخۡرُجُونَ ﴾؛ لأَنَّهُ لا يتعَلَّقُ مَا قبْلَ (إِذا) الفُجائِيَّةِ بما بعْدَها.

قوْله تَعالَى: ﴿إِذَا دَعَاكُمۡ﴾: ﴿إِذَا﴾ شرْطِيَّةٌ، وقوْلُه تَعالَى: ﴿إِذَآ أَنتُمۡ﴾: ﴿إِذَآ﴾ فُجائِيَّةٌ، فهِي نائِبَةٌ منَابَ الفاءِ الوَاقِعَةِ فِي جَوابِ الشَّرْط.

وقوْله تَعالَى: ﴿إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾: يعْنِي دعَاكُم منْهَا.

وهَلْ دَعوَةُ الله تكُونُ مِن الأرْضِ أَمِ المرادُ أَنَّكُم أَنْتُم فِي الأرْضِ؟

الجوابُ: المُرادَ (إِذا دَعاكُم مِن الأرْضِ)، مثْلَما تقُولُ دعَوْتُه مِن بيْتِه، فليْسَ المُراد: (أَنِّي في البَيْتِ)، لكنَّه هُو في البَيْت فدَعَوْتُه منْه ليحْضُر، وهذِه الآيَةُ كقوْله تَعالَى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النّازعات:١٣-١٤]، يعْنِي عَلَى وجْهِ الأرْضِ.

قوْله تَعالَى: ﴿إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ﴾: هَذا مِنْ آيَاتِ الله أَيْضًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأُولَى: أنَّ قيامَ السَّمـواتِ والأرْضِ بأمْرِ الله ليْسَ للمَخْلُوقِيـن فِيه تعلُّقٌ إطْلاقًا، فاللهُ تَعالَى هُو الَّذي يُقِيم السَّمـواتِ والأرْض، سواءٌ القيامُ الحسِّيُّ أو المعنَوِيُّ.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: إِثْبَاتُ الكلامِ لله؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿بِأَمۡرِهِۦ﴾، والمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: [بإِرادَتِه]، وتقدَّم التَّنبيهُ عَلَى هَذَا، وأَنَّ المُرادَ بقوْلِه تَعالَى: ﴿بِأَمۡرِهِۦ﴾ الكلامُ، فالأَمْرُ الكَلامُ.

الفائِدَةُ الثالِثةُ: تمامُ قدْرَة الله تَعالَى ببَعْث المَوْتى بكَلِمَةٍ واحِدَةٍ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾، ولاحِظْ أنَّ المسألَةَ ليْسَتْ هِي بخلْقِ واحِدٍ أوِ اثْنَيْن أوْ ثلاثَةٍ أوْ عشَرَةٍ، بَلْ هِي مَا لا يُحصِيه إلّا الله عَزَّوَجَلَّ، دعْوَةٌ واحِدَةٌ يكُون بِها جميعُ الخلْق خَارجِينَ، وهَذا لا شَكَّ أنَّ فِيه ما هُو مِنْ أبْلَغِ القدَرِ، وأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلَى كُلِّ شيْءٍ قدِيرٌ.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: أنَّ مقرَّ بَني آدَم الأرْضُ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾، ويُؤَيِّـدُ ذَلِك قوْلُه تَعالَى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه:٥٥]، فالمَعْمُولُ فِي هَذِهِ الآيَةِ مُقَدَّمٌ (فِيها) و(مِنْها) وتقْدِيمُ المعمولِ يدُلُّ عَلَى الحصْرِ مِن هَذا الشّيْءِ لَا مِن غَيْـرِه إِذَنْ، فالحيَاةُ عَلَى الكَواكِـب متعذِّرَةٌ بالنِّسبة لبَنِي آدَم، فظَاهِرُ الآيَاتِ أنَّ بَني آدَم خُلِقوا مِن الأرْضِ ويَرْجِعونَ إِلَى الأرْضِ ويُدْعَوْن يَوْم القيامَةِ مِنَ الأرْضِ.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: إثْبَـاتُ الكـلامِ للهِ في قوْلِه تَعالَى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾.



الآيـة (٢٦)

• • ◌ • •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [الرّوم:٢٦].

• • ◌ • •

قوْله تَعالَى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: الضَّمِيرُ في قولِه: (لَه) يَعودُ عَلَى الله، وهُو خبرٌ مقدَّمٌ، وتقْدِيمُ الخبَر -كَما هُو معْروفٌ في عِلْمِ البَلاغةِ- يُفيدُ الحَصْرَ، يعْنِي: فاللهُ وحْدَه لَه مَنْ في السَّموَاتِ وَالأرْضِ.

وقوْله تَعالَى: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقٌ بمحْذُوفٍ تقْدِيرُه: (استَقرَّ)؛ لأَنَّ الجارَّ والمجْرورَ الواقِعَ صِلةً للمَوْصولِ يُقدَّرُ بفِعْلٍ، بخِلَافِ الواقِعِ خبرًا لمبتَدَأٍ، فإِنَّهُ يُقدَّر باسْمٍ، ولْيُنْتبَهْ للْفَرْق بيْنَهُما، الجارُّ والمجْرورُ أوِ الظَّرفُ إذا وقَع صِلَةً لمَوْصُولٍ فَقَدِّرْ متعلِّقَه فعلًا؛ لأَنَّ الأصْلَ في صِلَةِ المَوْصولِ أنْ يكُونَ جُمْلَةً، لكِنْ إِذا وقَع الجارُّ والمجْرُورُ أوِ الظَّرْفُ خبرًا لمُبْتَدَأٍ فقَدِّرْه باسْمٍ؛ لأَنَّ الأصْلَ فِي الخَبَرِ أنْ يكُونَ مفْرَدًا لا جُمْلَةً، تقولُ: (زَيدٌ في البَيْتِ) فقدِّرْه (كَائِنٌ في البيْتِ)؛ لأجْل أنْ يكُونَ (زَيْدٌ) مبتدَأً، و(كَائِنٌ) خَبَرٌ، لكِنْ لوْ قُلْتَ: (زَيْدٌ فِي البَيْتِ) أيْ زيْدٌ استقرَّ في البيْتِ، صَار الخَبَرُ جملَةً والأصْلُ فِي الخبَرِ أنْ يكُونَ مُفرَدًا، أمَّا إذا قُلْت: (يُعْجِبُنِي الَّذِي فِي المَسْجِدِ)، لا تقُلِ: (الَّذي كائِنٌ في المسْجِد)؛ لأنَّك إذَا قدَّرْت (الَّذِي كائِنٌ في المسْجِد) لَزِم أن تُقدِّر مبتدَأً أيْضًا، أيْ: (الَّذي هُو كَائِنٌ فِي المسْجِد)؛ لأَنَّ صلَةَ المُوصولِ لَا بُدَّ

أنْ تكُونَ جمْلَةً، بخِلافِ خَبَرِ المُبْتَدأ، فإِنَّهُ يكُونُ مُفردًا.

إذَنْ: عنْدَما نُقدِّر المتعلِّقَ للجَارِّ والمَجْرورِ الوَاقِعِ صلَةً نُقدِّره فِعْلًا؛ ليَكُون ذَلِك جمْلَةً، وعنْدَما نُقدِّر متعلِّقَ الجارِّ والمجْرورِ أو الظَّرفِ بالمُبتدَأِ نُقدِّره اسمًا.

قوْله تَعالَى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: أيْ مَنِ استَقرَّ في السّموَاتِ وَالأرْضِ، مَن في السّمواتِ مِنَ الملائِكةِ، ومَن في الأرْض مِنَ البَشرِ والحيَوانِ، وهُنا قَال: ﴿مَن﴾ تغْلِيبًا للعاقِلِ، وَإِلَّا فإِنَّ الأرْضَ فِيها العاقِلُ وغيرُ العاقِل.

قوْله تَعالَى: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُلْكًا وخَلْقًا وعَبِيدًا].

كَان الأَوْلى أنْ يُقَدِّم الخَلْق ثمَّ المُلْك ثمَّ العَبِيدَ، فلَهُ مَن فِي السَّمواتِ هُو الَّذي يمْلِكُهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهُوَ الَّذي خلَقَهم، وهُوَ رَبُّهم وهُم عَبِيدُه، فلَهُ مَن فِي السَّمواتِ وَالأرْضِ وَلا أحدَ يُعارِضُ في ذَلِك، كُلُّ مَن فِي السَّموَاتِ وَالأرْضِ كَما قالَ الله تَعالَى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣].

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ مُطِيعُونَ]، ﴿كُلٌّ﴾ مبتَدأٌ، و﴿قَٰنِتُونَ﴾ خبَرُه، والجارُّ والمجْرورُ ﴿لَّهُۥ﴾ متعلِّقٌ بـ﴿قَٰنِتُونَ﴾، لكِنَّهُ قُدِّم علَيْه للاخْتِصاصِ والحَصْر.

وقوْلُه تَعالَى: ﴿كُلٌّ﴾ التَّنْوِينُ عِوَضٌ عن مفرَدٍ، وكلَّما جاءَتْ ﴿كُلٌّ﴾ أوْ (بعْض) منوَّنَةً فإِنَّها عوَضٌ عنْ مُفْرَدٍ، والتَّقْدِيرُ: كُلُّ مَنْ فِي السَّموَاتِ وَالأرْضِ.

وقوْلُه تَعالَى: ﴿لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾، يقُولُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُطِيعُون]، والطَّاعة هُنا طاعَةٌ وخُضوعٌ للأَمْرِ الكَوْنيِّ، وهَذا شامِلٌ للمُؤْمِن وغَيْرِ المُؤْمِن، والثّاني طاعَةٌ

وقُنوتٌ للأَمْر الشّرْعِيِّ، وهَذا خاصٌّ بالمُؤْمِن وعَلى هَذا يكونُ المرادُ بالقُنوتِ هُنا الكونيَّ، لأَنَّهُ قالَ: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ﴾، ولَا يُتصوَّرُ هَذا إلا فِي الكوْنِيِّ، فالكُلُّ خاضِعٌ لأَمْرِ الله، قانِتٌ باعْتِبَارِ أَمْرِه الكوْنِيِّ، إِذا أَرَاد شيْئًا عَلَى مَن فِي السَّمواتِ وَالأَرْضِ قَال لَهُ: (كُنْ) فيكُونُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: عُمُـومُ مُلْكِ الله؛ يُؤْخَذُ العُمُـوم مِنْ قَوْلِهِ تعالَى: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ لأَنَّ (مَنْ) اسْم موصُول، والمَوصولاتُ كلُّها تُفِيدُ العُمُومَ.

الفائِدَةُ الثّانيَةُ: انْفِرادُ الله عَزَّوَجَلَّ بالمُلْك، واخْتِصاصُهُ بِه؛ يُؤخَذُ مِن تقْدِيم الخبَرِ، ﴿وَلَهُۥ مَن فِي﴾، يَعْني لَا لِغَيْرِه، وَهُنا يَرِد علَيْنا إِشْكَالٌ في قوْلِه تَعالَى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، هَذا العُمُوم نجِدُ أَنَّ بَني آدَم يمْلِكُونَ أَشْيَاءَ مِن هَذا، فمَـا الجوَابُ عَنْ ذَلِك؟

الجوابُ عَن هَذا: أَنَّ مُلْك بَني آدَم مُلْكٌ مقيَّدٌ بتمْلِيكِ مَنْ لَه المُلْكُ؛ ولِذَلك أَنْتَ لا تسْتَطِيعُ أن تتصَرَّفَ بمالِكَ كَما تشَاءُ، فأَنْتَ لا تَمْلِكُ أن تُحرِقَ مَالَك، ولا أَنْ تُتْلِفَه، صحيحٌ أَنَّك تمْلِكُه بالنِّسبةِ لغَيْرِك مِن الآدَمِيِّينَ، فَلا يقْدِرونَ أَنْ يَمْنَعُوك، لكِن بالنِّسبَةِ للخالِق الَّذي لَهُ المُلك يمْنَعُك مِن هَذا، فصَار مُلْكُنا لما نَمْلِكُ لَيْس مُلكًا تامًّا، دَلِيلُه أَوْ وَجْهُه أَنَّنا لَا نسْتَطِيعُ ولَا نملِكُ أَنْ نتصَرَّف فِيما بَيْن أَيْدِينا كَما نَشاءُ.

الفائِدَةُ الثالِثَةُ: خُضـوعُ الكائِنَاتِ لرَبِّها سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾، وأَنَّ جَمِيعَ الكَائنَاتِ خاضِعَةٌ لله.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: أنَّ القُنُوتَ لَا يَخْتَصُّ بالقُنوتِ الشَّرعيِّ، وَأَكْثَرُ النَّاس يظُنُّون أنَّ القُنوتَ يَخْتَصُّ بالقُنوتِ الشَّرعِيِّ، ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة:٢٣٨]، هَذا قُنوتٌ شرْعِيٌّ لا شَكَّ، ولكِنَّ هذه الآيَةَ ومَا أَشْبَهها تدُلُّ عَلَى أنَّ القُنوتَ هُو الخُضوعُ للهِ عَزَّوَجَلَّ، سواءٌ كَان ذَلِك خُضوعًا شَرعيًّا أمْ كونيًّا.



الآية (٢٧)

• • ✿ • •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الرّوم:٢٧].

• • ✿ • •

قالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ للنَّاسِ ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بَعْدَ هَلَاكِهِمْ، ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ مِنَ البَدْءِ].

قوْله تَعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾: أيْ يبْتدِئه، وأَتى بكَلِمَةِ ﴿يَبْدَؤُا۟﴾ لأَنَّ الخلْقَ مستَمِرٌّ، كلَّ يوْمٍ يكُونُ فِيه ابْتِداءُ خلْقٍ، الأجِنَّةُ فِي بُطونِ الأمَّهاتِ تنْشَأُ كلَّ يوْمٍ، وكَم في الدُّنيا فِي اليَوْم الواحِدِ مِن جَنينٍ يُكَوَّنُ؟ كَثيرًا جِدًّا وَلِهَذا أَتى بالفِعْلِ المُضارعِ الدَّالِّ عَلَى الاسْتِمرارِ ولَمْ يقُلْ (بَدَأَ).

وقوْله تَعالَى: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾: يَعْنـي ثمَّ هُو -أيْ الله عَزَّوَجَلَّ- يُعِيدُه، ومَعْنـى الإِعادَةِ ردُّه عَلَى مَا كانَ أوَّلًا، كَما فِي قوْلِه تَعالَى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء:١٠٤]، وأَخْبَرَ النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أَنَّ النَّاس يُحشَرُون يَوْم القِيامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا كَما بُدِئُوا[1].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾، رقم (٣٣٤٩)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، رقم (٢٨٦٠).

قَوْله تَعالَى: ﴿وَهُوَ﴾: الضَّميرُ يعودُ عَلَى الإعادَةِ المَفْهومَةِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿يُعِيدُهُۥ﴾، فمَرْجِعُ الضَّميرِ إِذَنْ المَصدَرُ المَفْهومُ مِن الفِعْل، وَمرْجِعُ الضَّميرِ قَدْ لا يُذْكَرُ بلفْظِه، ولكِنْ يُذْكَرُ مَا يدُلُّ عليْه، انظُرْ إِلَى قوْلِه تَعالَى: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [المائدة:٨]، ومرْجِعُ الضَّمير في قوْلِه تَعالَى: ﴿هُوَ﴾ العدْلُ المَفْهومُ مِن كلِمَةِ ﴿ٱعۡدِلُواْ﴾.

إِذَنْ: قوْله تَعالَى: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ﴾، أي الإِعادَةُ، والإِعادَةُ مصْدَرٌ، فَصَحَّ أن يعُودَ الضَّمِيرُ علَيْها مُذَكَّرًا.

قَوْله تَعالَى: ﴿أَهۡوَنُ﴾: اسْمُ تفْضيلٍ مِنْ (هَانَ يَهُونُ)، واسْمُ التَّفضيلِ يدُلُّ عَلَى أنَّ الهَوْنَ دَرجاتٌ، هَيِّنٌ وأَهْوَنُ، ودَرجاتُ الهَوْنِ قَد تُوحِي بأنَّ هُناك مشَقَّةً لأَنَّهُ لَوْلا أنَّ فِي بعْضِها مشَقَّةً مَا صارَ بعضُها أهْوَنَ مِن بعْضٍ؛ ولِذَلِكَ اخْتلَفَ المُفسِّرُون فِي اسْمِ التّفضِيل هُنا، ﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ﴾، فَقِيل أَنَّه بِمَعْنى هَيِّن، ﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾ أيْ وهُو هَيِّنٌ عليْه، وقالَ بعْضُ المُفسِّرينَ مَا ذَهَب إِلَيْهِ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ، وهُو أَنّه أهْوَنُ علَيْه مِن البَدْء بالنّظر إِلَى ما عِنْدَ المُخاطَبِينَ مِن أنَّ إِعادَةَ الشَّيْءِ أسْهَلُ مِن ابتدائِه وإِلَّا فهُمَا عنْدَ الله تَعالَى سوَاءٌ فِي السُّهولَةِ.

وهلْ قولُه: ﴿أَهۡوَنُ﴾ عَلَى بابِها؟

المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ مشَى عَلَى أَنَّها عَلَى بابِها، لكِنَّها باعْتِبَارِ المُخاطَبِين؛ لأَنَّ المُخاطَب يعْرِف أنَّ إعادَةَ الشّيْءِ أهْوَنُ مِنَ ابْتِدائِه، وسبَبُ ذَلِك أن إِعادَتَهُ لا تَحْتَاجُ إِلَى تفْكِيرٍ جَديدٍ؛ لأَنَّهُ قَد سبَق فِيها التّفْكِيرُ، ثانيًا: لأَنَّ موادَّ التّكْوينِ موْجُودَةٌ، افرِضْ مثَلًا أَنّني صنَعْتُ سيارةً، فعنْدما أُرِيدُ صُنْعها أوَّلًا تحتاجُ إِلَى تفْكِيرٍ وموادَّ، فإِذَا أَرَدْتُ أنْ أُعِيدَها مرَّةً ثانِيَةً مثْلَ أنْ تكُونَ قدْ تفَكَّكتْ هَذِهِ السّيارةُ، وَأَرَدْتُ أنْ أُعيدَها فستَكونُ الإعادَةُ أهْونَ؛ لأَنَّ التَّفكِيرَ قَدْ فرَغْتُ مِنه، والموادُّ موجُودةٌ مُحْضَرةٌ فتكُونُ الإِعادَةُ

أهوَنَ باعْتِبارِ المُخاطَبِ، أمَّا بالنِّسبَةِ للهِ عَزَّوَجَلَّ فَلا نَقُولُ: إنَّ فِي حقِّه مَا هُو أهْوَنُ، ومَا هُو هيِّنٌ، بَلِ الكلُّ عنْدَ الله تَعالَى هيِّنٌ سهْلٌ.

وقالَ بعْضُ المُفسِّرينَ: إنَّ (أهْون) بمَعْنى هَيِّن، فَعلى هَذا يكُونُ الهَوْن بالنِّسبَةِ إِلَى الله عَزَّوَجَلَّ، لَا بالنِّسبَةِ لما عنْدَنا نَحْن، وَفِي الحدِيثِ عَنِ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنَّ الله تَعالَى قالَ: «كَذَّبَنِي ابْنُ آدمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ»[1]، فهُو مفُسِّرٌ للآيَة، فهُو يُفسِّر أنَّ كُلَّ ذَلِك هيِّنٌ علَيْه، ولكِنْ لا شَكَّ أنَّ الإِعادَةَ أهْوَنُ باعْتِبارِ المَفْهومِ عنْدَ المُخاطَبِينَ، فَما مشَى علَيْه المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ هُنا جيِّدٌ.

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أيْ الصِّفَةُ العُلْيَا وَهِي أنَّه لَا إلَه إلَّا الله]: (له) خَبرٌ مقدَّمٌ، و(المَثَلُ) مُبتَدأٌ مؤخَّرٌ، والمَثَل والمِثْل معناهُما واحِدٌ، ويُطْلَق عَلَى عدَّةِ معانٍ:

فيُطْلَقُ عَلَى الشَّبه؛ كقوْلِه تَعالَى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة:١٧]، يعْنِي شَبَهُهم كشَبَه الَّذي اسْتوْقَد نَارًا.

ويُطْلَق المَثَل عَلَى الصِّفة؛ كقوْلِه تَعالَى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ [محمد:١٥].

ويُطلَقُ المَثَل عَلَى الذَّاتِ؛ قالُوا كقوْلِه تَعالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشّورى:١١]، يعْنِي لَيْسَ كذَاتِه، وقالُوا مِنْه قولُ الشَّاعِرِ[2]:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب يقال: لا ينون (أحد) أي واحد، رقم (٤٩٧٤).

(٢) البيت في البحر المحيط (٧/ ٤٨٨)، والدر المصون (٩/ ٥٤٥) منسوبًا لأوس بن حجر، لكن لم أقف على البيت في ديوانه المطبوع.

لَيْـسَ كَمِـثْـلِ الفَـتَـى زُهَـيْرٍ ....

والمُرادُ هُنا بالمَثَل فِي قوْلِه تَعالَى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ الصِّفةُ، أيْ لَهُ الصِّفةُ العُلْيا فِي السَّمواتِ وَالأرْضِ، كُلُّ صِفَةٍ كَامِلَةٍ فلِله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى أكمَلُها، وكُلُّ صفَةِ نقْصٍ فإِنَّهُ مُنَزَّهٌ عنْهَا؛ لأَنَّهُ مَا دَام قَد ثَبَت لَهُ الصِّفَةُ الكَامِلَةُ العُلْيا، فإِنَّهُ بالضَّرورةِ العَقْلِيَّةِ ينْتَفِي عنْهُ النَّقْص؛ لأَنَّهُ لَو اتَّصَف بنَقْصٍ ما اسْتَحقَّ أنْ يَكُونَ لَهُ المَثَلُ الأَعْلى.

إِذَنْ: هَذِهِ الآيَةُ الكَريمَةُ تدُلُّ عَلَى صِفَاتِ الكَمال للهِ عَزَّوَجَلَّ، الكَمالُ المُطْلَقُ؛ لأَنَّهُ قَال: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، وعَلى انْتِفاء النَّقْـص مِن جَمِيع الوُجوهِ إِذْ أنَّه لوِ اتَّصـفَ بنَقْصٍ مَا اسْتَحَقَّ أنْ يكُونَ لَه المَثَلُ الأَعْلى، ونَأْخُذُ مِن هَذا أنَّ كُلَّ مَا وَصَفَ الله بِه نفسَهُ فهُو صفَةُ كَمالٍ، وَلَيْس فِيه نقْصٌ، وكُلُّ كَمالٍ فإِنَّ الله تَعالَى مستَحِقٌّ لَه، فهَذان شيْئَانِ:

الأولُ: أنْ نَعْلم عِلْمَ اليَقِينِ أنَّ كُلَّ مَا وَصَفَ الله بِه نفسَهُ فهُوَ صِفةُ كَمالٍ.

الثَّاني: أنْ نَعْلم أنَّ كُلَّ صِفَةِ كَمالٍ فاللهُ تَعالَى مستَحِقٌّ لَها، فَهُو أهْلٌ لَها، كَما قَالَ الرَّسولُ عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ: «**أهْلَ الثَّنَاءِ وَالمَجْدِ**»[1]، وسيَأْتي -إنْ شاءَ الله- فِي الفوائِد مَا يُسْتَدلُّ بِه عَلَى الرّدِّ عَلَى الَّذِين يُنكِرونَ صِفاتِ الله بحُجَّةِ أنَّها تسْتَلْزِمُ النَّقصَ وهُو التَّشبيهُ.

وقوْله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: معْنى المَثل الأَعْلى فِي السَّموَاتِ وَالأرْضِ يعْنِي عنْدَ أهْلِ السَّمواتِ مَن المَلائِكَةِ، وعِنْدَ أهْلِ الأرْضِ، فكُلُّ الفِطَر السَّليمة تعْتَرِفُ بأنَّ المَثل الأَعْلَى والصِّفةَ العُليا للهِ وحْدَه.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب اعتدال أركان الصلاة وتخفيفها في تمام، رقم (٤٧١).

وأمَّا قولُ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَهِيَ أنَّه لَا إِلَهَ إِلَّا الله]، فهَذا فرْدٌ مِن أفْرَادِ المَثل الأعْلَى، وليْسَ هُو المَثل الأعْلى كُلَّه، فإِنَّ لَا إِلَه إِلَّا الله تدُلُّ عَلَى تفـرُّدِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالأُلوهِيَّةِ، وَهَذا مِن المَثلِ الأعْلى، لكِنَّ المَثلَ الأعْلى أعَمُّ مِن ذَلِك، فلَهُ مثلًا القُدْرَةُ الكامِلَةُ والعِلْم الكامِلُ والحيَاةُ الكاملَةُ والسَّمْعُ الكامِلُ والبَصر الكامِلُ والحكْمَةُ البالِغةُ، وَهكَذا فَهِي أعَمُّ مِن تفرُّدِه بالأُلوهِيَّةِ.

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ فِي مُلْكِهِ، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فِي خَلْقِه]: تفْسِيرُه هَذَا فِيه قُصورٌ، فـ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ يعْنِي: ذُو العِزَّة، وَهِي الغَلبَةُ والقَهْر والقَدْرُ، فلَه عزَّةُ القهْرِ والقَدْرِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والامتناعِ، فالعزة إِذَنْ ثلاثَةُ معَانٍ:

المَعْنى الأوَّلُ: عزَّةُ القَهْرِ، بمَعْنى أنَّه القاهِرُ لكُلِّ شيْءٍ، فلَا يغْلِبُه أحَدٌ، قالَ الله تَعالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون:٨].

المَعْنى الثَّاني: عِزَّةُ القَـدْرِ، ومعْنى عِزَّة القَـدْر أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا نظِيـر لَه، ولَا شبَه له؛ لكمَال قدْرِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وعظَمَتِه، ومنْهُ قوْلُهم: (هَذا الشَّيْءُ عزِيزٌ)، أيْ نادِرُ الوُجودِ لَا نظِيرَ لَهُ.

المَعْنى الثَّالث: عِزَّةُ الامتِناعِ، بمَعْنى أنَّه يمتَنِع علَيْه النَّقْص لِكمَالِ قُوَّتِه، ومنْهُ قوْلُهم: هَذِهِ الأرْضَ عزازٌ[1]، يعْنِي شَديـدَةٌ قويَّةٌ لا يُمْكِنُ أنْ ينْفـذَ إليها شيْءٌ، والأرْضُ الرَّخوَةُ بالعَكْس، كُلُّ شيْءٍ يؤَثِّرُ فِيها حتَّى الرَّجُل إِذا مشَى علَيْها يُؤثِّرُ، بخلَافِ الأَرْض الصّلْبة التي تُسمَّى العزَاز.

فصارَتِ العزَّةُ الآن عزَّة القدْرِ وعِزَّةَ القهْرِ وعِزَّةَ الامتَناع.

---

(١) تاج العروس من جواهر القاموس (١٥/ ٢٢٢)، و لسان العرب (٥/ ٣٧٤).

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قوْلُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ [إبراهيم:٢٠]، مِن أَيِّ المَعاني؟

قُلْنَا: ﴿بِعَزِيزٍ﴾ أيْ بمُمْتنعٍ، فهُو مِن عِزَّةِ الامْتِنَاعِ.

وأمَّا قولُه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فالمُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقولُ: هو [الحَكِيمُ فِي خَلْقِهِ] وأحيانًا يقُول: (فِي صُنْعِه)، ومعْنَاهُما واحِدٌ، لكِنَّ هَذا قاصِرٌ أيْضًا؛ لأَنَّ الحكِيمَ مشْتَقٌّ مِن الحُكْم والحِكْمة، فعَلى قولِنا أنَّه مُشتَقٌّ مِن الحُكم يَكُون (حَكِيمٌ) بمَعْنى حَاكِم، مثْلُ رَحِيمٍ بمَعْنى رَاحِم، وَعَلَى قوْلِنا أنَّه مِن الحكْمَة يكُونُ (حَكِيمٌ) بمَعْنى مُتْقِن، فهُو مِن أَحْكَمَ يُحْكِمُ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: وهل يَأْتي (فَعيل) بمعنى (مُفْعِل) في اللُّغَة العربية؟

فالجوابُ: نَعم، وَمِنْه قوْلُه تَعالَى: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة:١٠]، بمعْنى (مُؤْلِم)، ومِنْه قولُ الشّاعر[1]:

أَمِـنْ رَيْحَـانَة الدَّاعِـي السَّـمِـيعُ يُؤَرِّقُـنِي وَأَصْـحَـابِي هُـجُـوعُ

السَّميعُ أي: المُسْمِع؛ لأَنَّ الدّاعِي يُسْمِعُ غيرَه، ولَيْس هُو نفسُه سَمِيعًا.

إِذَنْ: نقُولُ: (حِكيم) مأخُوذَةٌ مِن الحُكم والحِكْمة، فعَلى أنَّه مأخُوذٌ مِن الحُكْم يكُونُ بمَعْنى (حَاكِم) مثْلُ (رَحيم) بمَعْنى (رَاحم)، و(سَمِيع) بمَعْنى (سَامِع)، وإِذا قُلنا أنَّها مِن الحكْمَة فهُو مِن أحْكَمَ فَهُو حَكِيمٌ، بمَعنى مُحْكِم، أيْ اسمُ فاعِلٍ مِنَ الرُّباعِيِّ.

---

(١) البيت لعمرِو بنِ معدِ يكربَ الزبيديِّ في مطلعِ عَيْنِيَّتِهِ المشهورةِ، في الأصمعيات (ص:١٧٢)، الشعر والشعراء لابن قتيبة (ص:٢٤٠)، شرح الكافية الشافية لابن مالك (٢/ ١٠٣٤).

وحُكْمُ الله عَزَّوَجَلَّ ينْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: كَوْنِيٍّ وشرْعِيٍّ، فالكوْنِيُّ نافِذٌ فِي جَمِيع الخلْق شاؤُوا أمْ أَبَوْا، والشَّرعِيُّ نافِذٌ فِيمَن أطَاعَ الله عَزَّوَجَلَّ، أمَّا مَنْ لَمْ يُطِعْه فإِنَّهُ لا يُنْفِذُ حُكْمُه.

وهَل هُناك أمْثِلَةٌ مِن القُرآنِ تدُلُّ عَلَى هَذا التّقسيمِ مِن أنَّ الحُكْم كوْنِيٌّ وشَرْعِيٌّ؟

الجوابُ: نعم، قالَ أحَدُ إخوَةِ يُوسُفَ: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يوسف:٨٠]، المُراد بالحُكم هُنا الحكمُ الكَوْنِيُّ القَدَرِيُّ، يَعْنِي: أوْ يُقَدِّرُ الله ذَلِك، أمَّا الحُكْم الشّرعِيُّ فإِنَّ الله لما ذَكر مَا يَجِبُ فِي النِّساءِ المُهاجِراتِ فِي سُورةِ المُمْتَحِنة قَال: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة:١٠]، والمُراد بالحُكْم هُنا الحُكْمُ الشّرْعِيُّ؛ لأَنَّ مَا ذُكِرَ مِن الأُمُورِ كُلُّه أمُورٌ شرْعِيَّةٌ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما تقُولونَ فِي قوْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص:٧٠]، أيُّ الحُكْمَين؟

قُلْنَا: هذَا شَامِلٌ، وَكَذلِكَ قوْلُه تَعالَى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠]، الظَّاهِر أنَّه شامِلٌ، وإِنْ كَان فِي الشَّرع فِي هَذِهِ الآيَةِ أظْهَرَ؛ لأَنَّ الله قال: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠].

إِذَن: الحكِيمُ مِن الحُكْم تنْقِسمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: حُكْمٌ شرْعِيٌّ، وحُكْمٌ كوْنِيٌّ، والحُكْمُ الكونِيُّ هُو قَضاؤُه وقدَرُه، وكُلُّ أحَدٍ خاضِعٌ لَهُ، والحُكْمُ الشَّرْعِيُّ مَا حَكَمَ بِه شرْعًا، ولا يَخْضَعُ لَهُ كلُّ أحدٍ.

أمَّا إذا قُلنا أنَّه مِن (أحْكَمَ) فحَكِيمٌ مِن الحكْمَة بمَعْنى مُحْكِم، فإِنَّ الحِكْمة تنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْن: حكْمَةٌ غائِيَّةٌ، وحِكْمةٌ صُورِيَّةٌ، يعْنِي صورَةُ الشَّيْء كَذا وكَذا،

فكَوْن الشَّيْء عَلَى صُورَةٍ معيَّنَةٍ نَجِد أنَّ جَمِيعَ مَا خلقَه الله فِي صِفَاتِه كُلُّه عَلَى صِفَةٍ مُوافِقَةٍ للحكِمة، تدَبَّرِ المخْلوقاتِ تجِدْ أنَّ المخْلوقاتِ في ذَواتِها وحَركاتِها وهَيْئاتِها وصِفاتِها كُلُّها مُوافِقَةٌ للحِكْمة، الحكْمَةُ الغائِيَّةُ هِي الغايَاتُ المحمُودَةُ فِي أفْعَالِه وأحْكامِه الشَّرْعِيَّةِ كُل مَا خَلق الله تَعالَى، فإنَّهُ لغايَةٍ محمُودةٍ ليْس عبثًا ولا سُدىً ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدّخان:٣٨-٣٩]، ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص:٢٧]، حتَّى مَا يُقدِّرُه الله مِن الأُمورِ المُؤلِمَةِ فإنَّهُ حكْمَةٌ، فهَزِيمَةُ المُؤْمنِينَ يومَ أُحُدٍ حكْمَةٌ لَا شكَّ، ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ [آل عمران:١٦٦-١٦٧]، وقَال: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤١].

إِذَنْ: كُلُّ أفعالِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حكْمَةٌ، ولَها غايَةٌ محمُودَةٌ، كَذَلِكَ أيضًا أحْكَامُه الشَّرْعِيَّةُ مثْلُ الأحْكَام الكوْنِيَّة، هِي عَلَى وضْعِها عَلَى صِفَةٍ معيَّنَةٍ موافِقَةٍ للحِكْمَةِ، ثمَّ غايَاتُها الحمِيدَةُ التي بِها صَلاحُ القُلوبِ والبِلادِ والعِبَادِ أيْضًا حِكْمَةٌ.

فصَارتِ الحكمَةُ نوْعَين: حكْمَةٌ فِي الشّيْءِ عَلَى صِفَته المعيَّنَةِ، وحكْمَةٌ فِي غايَتِه الحمِيدَةِ، ثمَّ إنَّ هَذِهِ الحِكْمَةَ تكونُ فِي الشَّرع، وتَكُونُ في القَدَر أي: فِي الكَوْن، إنَّنا إذا عَلِمْنا أنَّ الله تَعالَى حكِيمٌ فإنَّنا نطْمَئِنُّ غايَةَ الاطْمِئْنان لما قَضاه وقدَّرَهُ ولما شَرَعَه وحَكَم بِه، نطْمَئِنُّ أنَّه موافِقٌ للحِكْمَةِ، وحِينَئِذٍ لا يُمْكِنُ أنْ نُورِد ولَا أنْ يَرِد عَلَى قُلوبِنا: لماذَا جَاء كَذا؟ ومِن أَيْن شَرَع كَذا؟ إلا عَلَى سبيل الاسْتِرشَادِ، فالإنسانُ الَّذِي يسْأَلُ عَن الحِكْمَةِ مُسترْشِدًا فَلا بَأْس، أمَّا الَّذِي يسْأَلُ عَن الحِكْمَةِ مُعتَرِضًا فإِنَّهُ قَاصِرٌ، ولَم يُقدِّرِ الله حقَّ قدْرِه.

ولنَنْتَبه إِلَى كلِمة ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾، وَبِهذَا التَّفسيرِ الَّذي فسَّرناهَا بِهِ يتبيَّنُ أنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قدْ قصَّر فِي تفسِيرِه.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَتانِ الأُولَى والثَّانيةُ: أنَّ الخَلْق حادِثٌ بعْدَ أنْ لم يَكُن يُؤْخَذُ مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾، فيَكُون فِي الآيَةِ ردٌّ لقولِ الفَلاسِفَةِ القَائِلينَ بقِدَمِ العالَمِ، والصَّوابُ أنَّ العالَمَ حادِثٌ بعْدَ أنْ لَم يكُنْ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾.

الفائِدَةُ الثالِثَةُ: إثْبَاتُ إعادَةِ الخلْقِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾.

الفائِدَةُ الرَّابِعَةُ: استِعْمالُ قياسِ الأَوْلى، وقِياسَ الأَوْلى معرُوفٌ فِي أُصولِ الفِقْه، فالاسْتِدلال بالنَّظيرِ عَلَى نظيرِه يُسمَّى قِياس مساوَاةٍ، والاسْتِدلال عَلَى الشَّيْءِ بِما هُو أَوْلى -يَعْني نسْتَدِلُّ عَلَى الشّيءِ الَّذِي يكُونُ أَوْلى مِن المَقِيس علَيْه- هَذا يُسمُّونَه قِياس الأَوْلى، فهُنَا فِي الآيَةِ استِعْمـالُ قياسِ الأَوْلى؛ يُؤْخذُ مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾، أيْ إعادَتُه، فإِنَّهُ إِذا كَان قادِرًا عَلَى الابْتِداءِ فَهُو عَلَى الإعادَةِ مِن بَابِ أَوْلى عَلَى ما مَشَى علَيْه المُفَسِّر.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: إثْبَاتُ كمالِ الصِّفات لله؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: الرّدُّ عَلَى أهْلِ التّعطيلِ الَّذِين يُنْكِرُون صِفاتِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإِنَّ الَّذِين يُنْكِرونَ صِفاتِ الله مَا جعَلُوا لَهُ المَثَل الأَعْلى، بَلْ جَعلُوه موْصُوفًا بالنّقائِص -والعياذُ باللهِ-، سواء كَان هَذا التّعْطِيلُ كُليًّا أو جُزئيًّا؛ لأَنَّهُ إِنْ كانَ كُلِّيًّا كَمـا فَعل

الجَهْمِيَّةُ وسلَبُوه جَمِيعَ الصِّفاتِ، وَكَذلِكَ المعتزلِةُ قَالُوا: لَه أسْمَاءٌ بِدونِ صِفاتٍ، فظَاهِرٌ أَنَّهم سلَبُوا الكَمالَ عَنِ الله، أَمَّا إذا كانَ جُزئيًّا كَما فعَلَ الأَشَاعِرةُ والماتُرِيديَّةُ ونحْوُهم فَإِنَّ هَذا فِيه سلْبُ الكَمالِ عَنِ الله فِيما وَصفَ بِه نفْسَهُ، فقوْلُه تَعالَى: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]، الاسْتِواءُ صِفةُ كَمال وهُمْ يقُولونَ: (اسْتوى بمَعْنى اسْتَوْلَى)، فلَم يجْعَلُوا للْعَرش خَصِيصةً بالاسْتِواءِ علَيْه؛ لأَنَّ الله تَعالَى مستولٍ عَلَى كُلِّ شيْءٍ، وَكَذلِكَ أيْضًا إذا قالُوا إِنَّ المُرادَ بالآيَاتِ خِلافُ الظَّاهِر، فإِنَّهم وصَفُوا الله تَعالَى بالنَّقْص؛ لأَنَّ إرادَة المتكَلِّم بكَلامِه خِلافَ الظَّاهِر بدُونِ بيانٍ يُعتبَرُ تدْلِيسًا وتَمْويهًا، والله عَزَّوَجَلَّ مَا أَنْزَل القرآنَ إِلَّا لِلْبيانِ، قَال تَعالَى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النساء:٢٦]، وقَال تَعالَى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النّساء:١٧٦]، وقَال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ [النّحل:٤٤]، والآيَاتُ في هَذا كثِيرَةٌ.

فإِذَا قُلْنَا: إنَّ الله أرادَ بِهَذا خِلافَ الظَّاهِر، فهَذا وصْفٌ لَه بالتَّعْميةِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأَنَّه لا يُرِيدُ البيانَ، وهَذا لا شَكَّ أَنَّه نقْصٌ، وَلِهَذا نقُولُ: إِنَّ جَمِيعَ مَنْ أَنْكَرُوا صِفَاتِ الله عَزَّوَجَلَّ كُلِّيَّةً أَوْ جُزْئيَّةً فإِنَّهم قدْ وَصَفُوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالنَّقْص.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: أنَّ كُلَّ صِفَةٍ وُصَف الله بِها نفْسَهُ فَهِي صِفَةُ كَمالٍ؛ تُؤخَذ مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ﴾، فإذا أثْبَتَ لنفْسِه صِفةً علِمْنا أنَّها صِفة كَمالٍ، الرّحمَةُ أَثْبَتها الله لنفْسِه صفَةَ كَمالٍ لا نقْصٍ، لكنَّها عنْد أهْل التَّعطِيل المُحَرِّفِينَ هِي صِفةُ نقْصٍ، يقُولونَ: إِنَّ الرّحمَةَ تدُلُّ عَلَى الخَوَرِ والضَّعْفِ؛ فلِهَذا قالوا أَنَّ رَحمَةَ الله لَا يُرادُ بِها الرَّحمَةُ، وإِنَّما يُرادُ بِها الإحسَان، أَوْ إرادَةُ الإحسَان، يُفسِّرونها إمَّا بالجَزاءِ المفْعُولِ المخْلُوقِ وإِمَّا بإِرَادَتِه.

وهَلْ يُستَفادُ مِن هَذِهِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ اسْتِعْمالُ قِياسِ الأَوْلى فِي حَقِّ الله، فنَقولُ: كُلُّ صَفَةِ كَمالٍ فِي المخْلُوقِ فالخالِقُ أَوْلى بِهَا؟

نَعم، شيْخُ الإسْلام رَحِمَهُ اللَّهُ يُقرِّرُ هَذا، بأنَّ استِعْمالَ قِيَاسِ الأَوْلى فِي حَقِّ الله جَائِزٌ، أمَّا قِياسُ التَّمْثيلِ وقِياسُ الشُّمولِ فهذَا مُمْتَنِعٌ؛ لأَنَّهُ هُو التَّشْبِيهُ، فإذا قُلْنا: كُلُّ صفَةِ كَمالٍ فِي المخْلُوق فالخالِقُ أَوْلى بِها صَحَّ، لكِنْ يَجِبُ أنْ نعلَمَ أنَّ صِفَاتِ المخْلُوقِ الكامِلَةَ التي تُكَمِّلُ نقْصَهُ فَهِي كامِلَةٌ في حقِّه، لكِنْ لتَكْمِيلِ نقْصِه، فَهَذِهِ لا يُوصَفُ الله بِها، يَعْني هِي كامِلَةٌ فِي حقِّ المَخْلوقِ، لكِنْ لتكْمِيلِ نقْصِه؛ فإِنَّ الخالِق لا يُوصَفُ بِها؛ لأنَّهَا وإِنْ كَانت كامِلَةً فَهِي فِي الوَاقِع نقْصٌ، مِثْلُ الأَكْل والنَّوم والنِّكَاحِ، ومَا أشْبَه ذَلِك، فهَذِهِ الصِّفاتُ فِي حقِّ المخلُوقِ صفَةُ كَمالٍ؛ لأَنَّ الَّذِي لا يأْكُل معْنَاه أنَّه مرِيضٌ، والَّذِي لا ينَامُ معْنَاه أنَّه مرِيضٌ، والَّذي لا يتزَوَّجُ معْنَاه أنَّه مرِيضٌ، ففَواتُ هَذِهِ الصِّفاتِ نقْصٌ فِي المخْلُوقِ، لكِنَّها لما كانَتْ تَكْمِيلًا لنقْصِه صارَتْ لا يُوصَفُ بِها الخالِقُ لحاجَةِ الإنْسانِ إِلَى الأَكْل صَار يأْكُل، والَّذِي لَا يشْتَهِي ولَا يأْكُل آخِرُه المَوْت، وَكَذلِكَ لَمَّا كانَ الإنسانُ يتْعَبُ ويحْتَاجُ إِلَى صِفَةٍ تقْطَعُ هَذا التّعبَ ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ [النبأ:٩]، صَار النَّوْم فِي حقِّه كَمالًا، وَكَذلِكَ لَمَّا كانَ الإِنْسانُ مُحْتَاجًا إِلَى بقَاءِ النَّسْل والنَّوْع صارَ النِّكَاحُ فِي حقِّه كَمالًا، فَهُو في الحَقِيقَةِ تكْمِيلٌ لنَقْصٍ، لكِنْ لَا يُوصَفُ الله بِه عَزَّوَجَلَّ؛ لأَنَّ الله كامِلٌ مِن جَمِيع الصِّفاتِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إنَّ الصِّفاتِ توْقِيفيَّـةٌ، ولوْ فتَحْنا هَذا البابَ -كَمـا قَالَ شيـخُ الإسْلام رَحِمَهُ اللَّهُ- باسْتِعمال قِياسِ الأَوْلى فِي حَقِّ الله لكَانَ كُلُّ إِنْسَانٍ يَقِيسُ بعقْلِه ويُخْطِئُ؛ لأَنَّهُ قدْ يظُنُّ أنَّ هَذا كمالٌ، وهُو ليْسَ بِكَمالٍ؟

قُلْنا: يَرِد علَيْنا هَذَا، لكِنْ نقُولُ: كُلُّ صفَةِ كَمالٍ مِن حيْثُ العُمُومُ والجِنْس

إِمَّا أَنْ نقُولَ: كلُّ صفةٍ تَثْبُت للمَخْلوقِ نُثْبِتُها للخالِق، وهَذا لا يُمْكِنُ ولَا يسْتَقِيمُ، إنَّما مِن حيْثُ الجِنْس كُلُّ صفةٍ كمَالٍ فِي المَخْلُوقِ فاللهُ أَوْلى بِها، والسَّمع مُؤَيِّدٌ، قَالَ تعالَى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ فِيما ورَد مِنَ الصِّفاتِ؟

قُلْنَا: لَا، بَلْ مُطْلَقًا، حتَّى الأَشْياءُ الَّتي قَدْ لَا تَكُونُ موْجُودةً فِي النَّصِّ وهِيَ مِن صِفَاتِ الله، قصْدِي أَنَّها مِنَ الكَمالِ، فاللهُ تَعالَى مُتَّصِفٌ بِها، لكِنْ فِي الصِّفاتِ الخبَرِيَّةِ قدْ نَقُولُ أَنَّه يَمْتَنِعُ أنْ يُقاسَ الله بِالخلْقِ حتَّى قِياسَ الأَوْلى كَالعَيْن وَاليَدِ ومَا أَشْبَهَها، فهَذِه قَدْ نقُولُ: لَا يُمْكِنُ أنْ نَقِيسَ فِيها قِيَاسَ الأَوْلى، فالأُذُن فِي المَخْلُوقِ كَمالٌ لكِنَّها فِي الخالِق لا تثْبُتُ لَهُ؛ لأَنَّها لمْ يَرِدْ بِها الشَّرعُ.

الفوَائِدُ الثَّامِنَةُ والتَّاسِعةُ والعَاشِرَةُ: إثْبَاتُ العِزَّةِ؛ لقوْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ وإثْبَاتُ الحِكْمةِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾، وإثْبَاتُ الحُكْمِ أيْضًا مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾.

الفائِدَةُ الحادِيَةَ عشْرَةَ: يتفرَّع عَلَى إثْبَاتِ الحِكْمَةِ قطْعُ الاعْتِراضِ عَلَى الخَلْق والشَّرع، بمَعْنى أنَّك لا تعْتَرِضُ عَلَى خَلْقِ الله أوْ عَلَى شرْعِه، وإنَّما تُسَلِّم؛ لأنَّك إذا آمَنْت بالحِكْمَةِ وأنَّ الله تَعالَى حَكِيمٌ فحِينَئِذٍ ينْقَطِعُ الاعْتِراضُ نِهائِيًّا، فلا تَقُلْ لمَ؟ ولَا مِن أيْنَ؟ إلا عَلَى سَبِيل الاسْتِرْشادِ.

الفائِدَةُ الثَّانِيةَ عَشْرَةَ: اطْمِئنانُ الإنْسانِ التَّامِّ بما قَدَّرَ الله تَعالَى وشَرَعَهُ، حيْثُ أَنَّه صادِرٌ عَنِ الحِكْمَةِ.

•●۞●•

الآية (٢٨)

• • ● • •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم:٢٨].

• • ● • •

قوْله تَعالَى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا﴾: المَثل بمَعْنى الشَّبَه والنَّظير، يعْنِي: ضَرب لكُمْ أمْرًا نَظِيرًا لما فعلْتُم أنْتم فِي جَانِب الله عَزَّوَجَلَّ، وهَذا المثل: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾.

يقُولُ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [وَهُوَ ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ﴾]، (مِمَّا) أيْ مِنَ الَّذي ﴿مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾، يقُولُ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَيْ مِن مَمَالِيكِكُم ﴿مِّن شُرَكَآءَ﴾ لَكُمْ].

قوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ﴾: أيْ مِن الَّذِي ملكَتْ أيمانُكم ﴿مَلَكَتْ﴾، هَذِهِ هِي صِلَةُ المَوْصولِ، والعَائِدُ مَحْذُوفٌ، والتَّقْديرُ ملكَتْه أيْمانُكُم.

وقوْله تَعالَى: ﴿مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾: الإِيمان جَمْعُ يَمِينٍ، وهِي اليَدُ، وأُضِيفَ المُلْكُ إِلَى اليَدِ؛ لأَنَّ غالِب تصرُّفاتِ الإِنسانِ بِيدِه، وأُضِيف إِلَى اليَمِينِ لأَنَّهُ أشْرَفُ مِن اليَسَارِ.

وقوْله تعالَى: ﴿مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾: المُرادُ مَا ملكَتِ الإِيمان مِن الإِنسانِ؛ وَلِهَذا قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَيْ مِنْ مَمَالِيكِكُمْ].

وقولُه ﴿مِّن شُرَكَآءَ﴾: مبْتَدأٌ، و﴿لَّكُم﴾ خَبرُها مُقدَّمٌ، ولكِنَّ المُبتدَأ دخَلت علَيْهِ ﴿مِّن﴾ لأَجْلِ العُمُومِ أوْ للتَّنْصِيصِ عَلَى العُمُومِ؛ لأَنَّ ﴿مِّن﴾ الزَّائدة تُفيدُ التَّنصيصَ عَلَى العُمُومِ، ولكنَّه قدْ يشْكلُ علَيْنا أنَّ ﴿مِّن﴾ لا تُزاد إِلَّا بعدَ النَّفي، وابْنُ مالك رَحِمَهُ اللَّهُ يقُولُ في هَذِهِ المسألَةِ[1]:

وَزِيدَ فِي نَفْيٍ وَشِبْهِهِ فَجَرّ ... نكِرَةً كَـ(مَا لِبَاغٍ مِنْ مَفَرّ)

فـ﴿مِّن﴾ زائِدةٌ إعْرابًا، ولكِنَّها فِي المَعْنى لهَا معْنًى، وهُوَ التَّنْصِيصُ عَلَى العُمُومِ، وذَكر ابْنُ مالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّها لا تُزادُ إِلَّا بعْدَ نفْيٍ وشِبْهِه، وهُنا سُبِقت بشِبْهِ نفْيٍ؛ لأَنَّهُ اسْتِفْهامٌ بمَعْنى النَّفْي، يعْنِي: مَا لكُمْ مِمَّا ملكَتْ أَيْمانُكم مِن شُركاءَ فِيما رَزَقْناكُم.

وقوْله تَعالَى: ﴿مِّن شُرَكَآءَ﴾: أيْ مُشارِكِينَ لكُمْ.

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ مِنَ الأَمْوالِ وغيْرِها فأَنْتم وهُمْ ﴿فِيهِ سَوَآءٌ﴾]، قوْله تَعالَى: ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ ليْسَتْ عائِدَةً عَلَى النَّفْي، لكِنَّها عائِدَةٌ عَلَى المنْفِيِّ، يعْنِي: فهَلْ أنْتم سَواءٌ فِيما رَزَقْناكُمْ.

قوْلُه رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾: أيْ أمثالِكُمْ مِنَ الأَحْرَارِ]، فجَعل الأَنْفُس هُنا بمَعْنى الجِنْس؛ لأَنَّ النَّفْس تأْتِي بمَعْنى الجِنْس، يعْنِي: هَل هَؤُلاءِ المَمالِيكُ شرُكاءُ لكُمْ فِي رزْقِكُم مِن الأمْوالِ والأَولادِ ومُساوُونَ لَكُم وتَخافُونَهُمْ كَما تخافُونَ مِن أنْفسِكُمْ؟

والجوابُ: لَا، ليْسَ لَنا مِمَّا مَلَكَتْ أَيمانُنا شُركاءُ فِيما رُزِقْنا، فالمَمْلوكُ لَا يُشارِكُك فِي مالِكَ، ولَا يُشارِكُك أيْضًا فِي وَلدِكَ، ولَا يُشارِكُكَ فِي أيِّ شيْءٍ تملِكُه، فإِذا كَان كَذلِكَ فلِماذَا تجْعَلُون هَذِهِ الأَصْنامَ شُركاءَ مَع الله وهِي مخْلُوقةٌ لَهُ مملُوكةٌ مرْبُوبةٌ له؟!

---

(١) البيت رقم (٣٧٠) من ألفيته.

إِذَن: المثَلُ واضِحٌ جدًّا فِي أنَّ هَؤُلاءِ المُشْرِكِينَ يُفرِّقونَ بيْنَ المُتماثِلَيْن، فكَما أَنَّكُم الآنَ وبِإقْرَارِكُم أنَّ عَبِيدَكُم لا يُساوُونكُم فِي المَنْزلةِ ولَا يُشارِكُونكُم فِي الرِّزقِ، فكَذَلِك أيْضًا مَا يمْلِكُه الله عَزَّوَجَلَّ مِن هَذِهِ الأصنامِ وغيْـرِها لَا يُساوُونَ الله تَعالَى في المَنْزِلَةِ، ولَا يُشارِكُونَه فِي الحُقوقِ، وَهَذا مَثَلٌ ظاهِرٌ جدًّا.

ومثالُه مِن أنْفُسِنا نَحنُ: هَذا رجُـلٌ يُؤدِّبُ ولدَه إذا أخْطأَ، فقَال لَهُ بعْـضُ النَّاسِ: لماذَا تضْرِبُه؟ لماذَا تنْهَرُه؟ فإنَّه سيقُولُ: أَلَسْت تفْعَلُ بِولَدِك مثْلَ هَذَا؟!

والجوابُ: بَلى، إِذَنْ كيْفَ تلُومُني عَلَى شيْءٍ تفْعلُه أنْتَ؟!

فيُقالُ لَهم: كيْف تجْعلُون مَع الله شَرِيكًا فِيما يسْتَحِقُّه وحدَه، وأَنْتم لَا تجْعَلُون لأَنْفُسِكُم شرِيكًا مِن عَبيدِكُم فِيما تختَصُّونَ بِه مِنَ الرِّزْقِ؟! هَذا الَّذِي ذَكر الله عنْهُم.

والعجِيبُ أن هَذِهِ الآيَةَ استدَلَّ بِها مَن يَرَوْن الاشْتِراكِيَّـة[١]، فأوَّل مَا ظهرَتْ الاشْتـراكِيَّةُ في العالَمِ العربِيِّ بدَؤُوا يأْتُون بالنُّصوصِ المُتشابِهَـةِ، وقالُوا: هَذِهِ الآيَةُ صرِيحَةٌ فِي الاشْتراكِيَّةِ؛ لأَنَّهُ يقولُ: ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾، فانْظُرْ: كيف التَّلبيسُ؟ وهذِه ليْسَتْ عَلَى ما أرَادُوا، إذْ هِي داخلَةٌ في النَّفْي، يعْني لسْتُم فِيه سَواءً، لكِن دَائِمًا أهْلُ الباطِلِ يُلَبِّسونَ لباطِلِهم بمُتَشابَهِ النُّصوصِ، وهَذِهِ مِنْ حكْمَةِ الله عَزَّوَجَلَّ، أنَّه جعَل فِي النُّصوصِ أشْياءَ متُشابِهةً ليضِلَّ بِها مَن يضِلُّ.

وقولُ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَأَنتُمْ﴾ وَهُمْ ﴿فِيهِ سَوَآءٌ﴾]، المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَتى بكَلِمـة (وَهُم) لأَنَّ المُسـاواةَ لَا تكُونُ إلا بيْنَ شيْئَيْـنِ؛ فلِهَذا أَتى بقَوْله: (وَهُم)، ولَا حاجَة إلَيْها فِي الحقِيقَةِ، فالكلامُ تامٌّ بدُونِها إذْ مِن المُمْكِنِ أنْ نقُولَ: ﴿فَأَنتُمْ﴾،

---

(١) انظر كتاب (بطلان الاشتراكية) لفضيلة الشّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الضَّميرُ يعُودُ عَلَى المالِك والمَمْلوكِ فأنْتُم أيُّها المالِكُون والمَمْلُوكونَ فِيه سواءٌ، وحِينَئِذٍ لا نحْتاجُ إِلَى تقْدِير (وَهُمْ).

وقوْله تَعالَى: ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾: هَذَا الَّذي تسلَّطَ علَيْه النَّفْيُ، يعْنِي لسْتُم فِيه سواءً.

قوْله تَعالَى: ﴿تَخَافُونَهُمْ﴾: الضَّمِيرُ يعُودُ عَلَى (مَا)، بِاعْتِبارِ المَعْنى؛ لأَنَّ (مَا) لَو عادَ إِلَيْها الضَّمِيرُ باعْتِبارِ اللَّفْظ لعَادَ إِلَيْها مُفْردًا، فلَمَّا عادَ إِلَيْها جَمْعًا صَار باعْتِبَارِ المَعْنى.

وقوْله تعالَى: ﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾: المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ جعَل الأَنْفُس بمَعْنى الجِنْس، يعْنِي كَما تخافُونَ مِن جِنْسِكُم، ولِهَذَا قالَ: [أيْ أمثالُكم مِنَ الأَحْرارِ]، ويُمْكِن أنْ يُقال أنَّه يعُودُ عَلَى ذَاتِ الإنْسَانِ، ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾، يعْنِي كَما أنَّ لكُم التّسلُّطَ عَلَى أموالِكُم، فأَنْتُم تخافُونَ أنْ يتسلَّطُوا عَلَى هَذِهِ الأموالِ كَما تتسلَّطُ أنْفُسُكُمْ.

وقوْله تَعالَى: ﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾: مصدْرٌ مضافٌ إِلَى الفاعِل، و(أَنْفُسَ) هِي المفْعولُ.

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [والاسْتِفْهامُ بمَعْنى النَّفْي، أيْ لَيْس ممالِيكُكم شُركاءَ لكُمْ إِلَى آخِره عنْدَكُم، فكَيْف تَجْعلُون بعْضَ مَمالِيكِ الله شُركاءَ لَهُ]، وَهَذا مثَلٌ واضِحٌ، إِذا كنْتَ أنْتَ الَّذي تمْلِكُ لَا يُشارِكُك فِي مالِك، وفِيما هُو مِنْ خَصائِصِك، فكَيْف تَجْعَلُ للهِ تَعالَى شَرِيكًا فِيما هُو مِن خَصائِصِه، الكلامُ واضِحٌ جِدًّا فِي إلْزام هَؤُلاءِ بعَدم الشِّرْكِ، وَلهَذَا قالَ الله تَعالَى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ [الأعراف:٣٢]، قالَ المُفَسِّر: [نُبيِّنُها مثْلَ ذَلِك التَّفْصِيلِ ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يتدبَّرونَ].

قوْله تَعالَى: ﴿كَذَلِكَ﴾ الكَافُ اسْمٌ بمَعْنى مثْلٍ، فهُو إِذَنْ مفْعُولٌ مطْلَقٌ عامِلُه ﴿نُفَصِّلُ﴾، أيْ مثْلَ ذَلِك التَّفْصيلِ والتَّبْيينِ، نُفصِّلُ الآياتِ، ولكِن مَن الَّذي ينْتَفِعُ بِها ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: إنَّ الله تَعالَى فصَّل الآيَات للعَاقِلِينَ وغَيْرِ العاقِلِينَ، فلِماذا خصَّ ذَلِك بالعاقِلِينَ؟

فالجوابُ: لأنَّهم المُنْتَفعونَ بِهَذا التَّفْصيلِ، مثْلَ مَا وصَفَ الله القُرآنَ بأنَّه هُدًى للمُتَّقِيـنَ، وَفِي آيَاتٍ أُخْرى هُـدًى للنَّاسِ عامَّةً، فبِاعْتبارِ الهِدايَـةِ المُطْلَقةِ هُو عامٌّ، وبِاعْتبارِ الانْتِفاعِ هُو خاصٌّ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: رحْمَةُ الله تَعالَى بخلْقِه بضَرْب الأمْثَالِ لَهُم؛ ليَصِلوا إِلَى الكمَال بالهِدَايَةِ.

الفائِدَةُ الثّانيةُ: بَلاغَةُ القُرآنِ بضَرْب الأَمْثالِ، وهُو أسْلوبٌ مِن أسَالِيبِ اللُّغَة العرَبِيَّة فِي مُنْتهى البَلاغَةِ.

الفائِدَةُ الثالِثَةُ: المُناداةُ بجَهْل هَؤُلاءِ المُشْرِكينَ وعِنادِهم؛ لأنَّهم جَعلُوا للهِ شُرَكاءَ مِن ممْلُوكِيهم، وأمَّا عِنادُهم؛ لأَنَّ الأمْـرَ واضِحٌ؛ ولِهَذا قال: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، ومَع هَذا عانَدُوا وأصَرُّوا عَلَى الشِّرْك، حتَّى إنَّهُم في تلْبِيتِهم يقُولونَ: لبَّيْك لَا شَرِيكَ لكَ، إلا شَرِيكٌ هُو لَكَ، تَمْلِكُه وَما مَلَكَ[1] فانْظُرِ الجَهْلَ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب التلبية وصفتها ووقتها، رقم (١١٨٥).

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: أنَّ العَبِيدَ لا يَمْلِكُونَ؛ وجْهُ ذَلِك أنَّه إذا انْتَفَتْ مُشارَكَتُهم لأَسْيادِهِم فِي أموالِهِم فغَيْرُهم مْن بَاب أَوْلى، وانْفِرادُهم أيْضًا مِن باب أَوْلى إذا كَانُوا لَا يمْلِكُون المُشارَكَةَ مِع أسْيَادِهم، فَالغَير مِن بَاب أَوْلى، والَّذِي لَا يمْلِكُ المُشارَكةَ لَا يمْلِكُ الانْفِرادَ، فالَّذِي لا يَمْلكُ المُشارَكَة مَع سيِّده وَهُو أقْربُ مِن غيْرِه فَلا يمْلِكُ مَع غيْرِه، هَذا مَع أنَّه جاءَ فِي الحدِيث الصَّحيح عَنْ رَسُول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنَّه قَال: «مَنْ بَاعَ عَبْدًا وَلَهُ مَالٌ فَمَالُه لِلَّذِي بَاعَهُ إِلَّا أَنْ يَشْتَرِطَ المُبْتَاعُ»[1]، قَالَ: «فَمَالُه لِلَّذِي بَاعَهُ».

ولَا تظُنَّ أنَّ هَذا مِن بَاب التَّنافُرِ حيْثُ أضَافَ المَالَ إِلَيْهِ ثمَّ قَال: «مالُه لِلَّذِي بَاعَهُ»؛ لأنَّ الإِضافَةَ ليْسَتْ لِلتَّمْليكِ ولكِنَّها للاخْتِصَاصِ كَما تَقُول: سَرْجُ الدَّابَّةِ، وزِمَامُ الدَّابَّةِ، وحُجرة الدَّابَّةِ، ومَا أشْبَه ذَلِك.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: الرَّدُّ عَلَى أهْلِ الاشْتراكِيَّةِ الَّذِين قالُوا: إنَّ الآيَةَ تدُلُّ عَلَى ثُبوتِ الاشْتراكِيَّةِ؛ لقوْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾، يعْنِي ليْسَ فِيها دَلِيلٌ عَلَى ثُبوت الاشْتَراكِيَّة خِلافًا لمَنْ قَال ذَلِك، بَلْ فِيها دَلِيل عَلَى نَفْي الاشْتِراكِيَّةِ؛ لأنَّ قوْلَه تَعالَى: ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ مِن مَدْخُولِ النَّفْي، ﴿هَل لَّكُم﴾ يعْنِي: لا يُمْكِنُ أنْ يكُونَ هكَذا، فالمَمْلوكُ لَا يكُونُ شَرِيكًا.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: أنَّ هَذا القُرآنَ مُفَصِّلٌ للآيَاتِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ [الأعراف:٣٢].

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب البيوع، باب في العبد يباع وله مال، رقم (٣٤٣٣)، والترمذي: كتاب البيوع، باب ما جاء في ابتياع النخل بعد التأبير والعبد وله مال، رقم (١٢٤٤)، والنسائي: كتاب البيوع، باب العبد يباع ويستثنى المشتري ماله، رقم (٤٦٣٦).

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: أنَّه لَا يُدْرِكُ هَذا التَّفْصيلَ إلا أهْلُ العَقْل؛ والدَّليلُ قوْلُه تعالَى: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

الفائِدَةُ الثّامِنَةُ: مدْحُ العَقْل؛ لأنَّ بِهِ يُدْرِكُ الإنْسانُ هَذا التَّفْصِيلَ الَّذي يُفصِّلُه الله عَزَّوَجَلَّ.

الفائِدَةُ التّاسِعَةُ: إثْبَاتُ عظَمَةِ الله؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿نُفَصِّلُ﴾؛ لأَنَّ ﴿نُفَصِّلُ﴾ أيْ نحْنُ، وهَذِه لا تكُون إلا للْمُعَظِّم نفسَه، أوِ الَّذِي معَه غيْرُه، وكوْنُه معَه غيْرُه ممْتَنِعٌ، فيَكُونُ دالًّا عَلَى التَّعْظِيم.

الفائِدَةُ العاشِرَةُ: أنَّ المعْبُودَ مِن دُونِ الله مِلْكٌ لله؛ لأَنَّ الله قال: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾، وَلَا شكَّ أنَّ كُلَّ ما في السَّموَاتِ وَالأرْضِ فهُو مِلْكٌ لله.

الفائِدَةُ الحادِيَةَ عشْرَةَ: أنَّ الرِّزقَ لَا يُنالُ بالكَسْب، وَإِنَّما هُو فَضْلٌ مِن الله، لكِنْ لَه أسبابٌ لا شَكَّ، مثْل غيْرِه مِن الأُمورِ؛ لقوْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ لكِنَّ هَذا الرِّزْقَ لَه أسبَابٌ شرعيَّةٌ، وأسبَابٌ كونِيَّةٌ، فمَثَلًا مِن الأَسْبابِ الشَّرعيَّةِ انْتِقَالُ المَالِ بالإرْثِ، واسْتِحقاقُ الفَقيرِ مِن الزّكاةِ، وَما أَشْبَه ذَلِك، والأَسْبَابُ الكونِيَّةُ أنَّ الإنْسانَ يسْعَى لِحِرَاثَةِ الأَرْضِ وَالبَيْع والشِّراءِ وَما أَشْبَه ذَلِك.

الفائِدَةُ الثّانية عَشْرَةَ: إثْبَاتُ القِيَاسِ؛ وجْهُ ذَلِك ضـرْبُ المَثَل، ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾.

الفائِدَةُ الثالِثَة عَشْرَةَ: أنَّ كوْنَ القِيَاسِ دَليلًا هُو مِن طَرِيق العَقْل؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾؛ ولأَنَّ الحاقَ الفرعِ بالأَصْلَ وهُو القِياسُ يَحْتاجُ إِلَى علَّةٍ جَامِعَةٍ تُدْرَكُ بالعَقْل.

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: إِذا قُلْتم إنَّ طَرِيقَ القِيَاسِ هُو العَقْل، فكَيْف يصِحُّ أنْ يكُونَ دَليلًا شرعيًّا؟

فالجوابُ: أنَّ الشّارعَ اعتَبَره وجعَلَه دَليلًا شرْعِيًّا، بِدَليلِ ضَرْب الأَمْثالِ، وقوْله تَعالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف:١١١].



الآية (٢٩)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [الروم:٢٩].

قوْله تعالَى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ﴾: للإضْرابِ، والإِضراب هُنا انْتِقاليٌّ وليْس إِبْطالِيًّا؛ ووَجْه ذَلِك أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لما بَيَّنَ هَذِهِ الآياتِ الدّالَّةَ عَلَى قُدْرَتِه عَلَى أنَّه واحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ بضَرْب المَثل الأَخِيرِ، المثَلُ الَّذِي لا يُنَازِع فِيه إِلَّا مكابِرٌ، المَثل الأَخِيرُ هُو أنَّه كيْفَ تجْعَلُون للهِ شرِيكًا هُو يمْلِكُه، أيْ الله يمْلِكُه فهَل لكُمْ أنْتُم شركاءُ فِي أموالِكُم ومَالِيكِكُم؟

والجوابُ: لَا، إِذَنْ فإِنَّهُ يدُلُّ عَلَى أنَّ الله لا شَرِيكَ لَهُ.

بعْدَ هَذا بَيَّنَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنَّ الَّذِين خرَجُوا عَن ذَلِك وَأَنْكَرُوا البَعْث وأنْكَروا الوَحْدانِيَّةَ أنَّهُم ليْسُوا عَلَى حَقٍّ، وَإِنَّما هُم ظَالِمُونَ؛ وَلِهَذَا قَال: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾.

قوْله تَعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾: قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالإِشْراكِ]، وَهَذا تخْصِيصٌ في غيْرِ محلِّه، وَالظّاهِرُ لي أنَّ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ خصَّصه مُراعَاةً للمَثل الَّذي قبْلَه؛ لأَنَّ المَثَل الَّذي قبْلَه واضِحٌ في أنَّ الغرَضَ مِنْهُ إبْطَالُ الشِّركِ، ولكِنْ لَو قِيلَ: إنَّه يشْمَلُ هَذا وغيْرَه مِن الظُّلمِ كإِنْكَارِ البَعْث مثَلًا، فَإِنْكَارُ البَعْثِ لا شَكَّ أنَّه ظُلْمٌ؛

لأَنَّهُ يسْتَلْزِمُ تكْذِيبَ الله عَزَّوَجَلَّ، كَما ثَبَتَ فِي الحدِيثِ القُدسيِّ أَنَّ تَكْذِيبَ الله: أَنَّ الله تَعالَى لَنْ يُعِيدَه كَما بَدَأَه[1]، وقَدْ سَبق ذِكْرُه فيَكُون المُرادُ بالظُّلمِ هُنا الإشْراكُ وغيْرُه ممَّا ظلَمُوا فِيه أنْفُسَهُم.

وقوْله تَعالَى: ﴿أَهْوَآءَهُم﴾: جَمْعُ هوًى، والهَوَى فِي الأصْلِ المَيْلُ، ثمَّ أنَّه لا يُطْلَقُ فِي الغالِبِ إِلَّا عَلَى الهَوى المَذْمُومِ، فيُقالُ: اتَّبع هَواهُ دُون هُدَاه، وقَدْ يأْتِي لِلْهَوى المحْمُودِ كَما فِي الحدِيث، وَإِن كَان فِيه ضعْفٌ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ»[2]، فهُنا الهَوى التَّابع لما جَاءَ بِه الرَّسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا شكَّ أنَّه هوًى محْمُودٌ.

وقوْله تَعالَى: ﴿أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: يعْنِي أنَّ هَذا الاتِّباعَ ليْس مبْنِيًّا عَلَى علْمٍ، بَل هُو مبْنِيٌّ عَلَى الجَهْل والضَّلالِ فيمَنْ كَانُوا جاهِلِينَ، وعلى الاسْتِهتارِ والعِنادِ فيمَنْ كَانُوا مُعانِدِينَ، فالَّذِين اتَّبعُوا أهْواءَهم اتَّبعُوها بِغَيْر علْمٍ إِذا كانُوا جَاهِلِينَ، فالأَمْر ظَاهِرٌ أنَّه لا علْمِ لهُمْ باتِّباعِ أهْوَائِهم.

وإِذا كانُوا مُعانِدِينَ، فهَلْ نقُولُ: إنَّهم اتَّبعُوا أهواءَهُم بِغَيْر علْمٍ؟

الجوابُ: نعَمْ، نقُولُ إنَّهُم اتَّبعُوا أهواءَهُم بِغَيْـر علْمٍ؛ لأَنَّ مَن اسْتَكْبر وعَانَد الحقَّ فإِنَّهُ كالجَاهِل بِمـا يسْتَحِقُّ الرّبُّ عَزَّوَجَلَّ، فهُو في الحَقِيقَةِ غيْرُ عَالِمٍ، بَل الجَاهِلُ خيْرٌ منْهُ.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: كيْفَ يصِحُّ نفْيُ العِلْم مَع وُجودِه؟

قُلْنَا: كَما يصِحُّ نفْيُ السَّمْع مَع وُجودِه، ونَفْيُ البَصر مَع وُجودِهِ لمَنْ لَمْ ينْتَفِعْ بِه،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب يقال: لا ينون (أحد) أي واحد، رقم (٤٩٧٤).

(٢) ذكره الحكيم (٤/ ١٦٤)، وأخرجه الخطيب (٤/ ٣٦٨).

أَلَيْس الله يقُولُ: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [الأنفال:٢١]، وقَالَ: ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [البقرة:١٨]، أَوْ ﴿لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة:١٧٠].

المُهِمُّ: أَنَّ نفيَ العِلْم لمَنْ لم ينْتَفِعْ بِه صَحِيحٌ كنَفْي السَّمْع عمَّنْ لم ينْتَفِعْ بِه، والحَاصِلُ أنَّ المُتَّبِعِينَ لأهْوَائِهم ينْقَسِمونَ إِلَى قِسْمَيْنِ:

▪ قسْمٌ جاهِلٌ حقًّا، بَنى هَواهُ عَلَى الضَّلالِ، ويُمْكن أنْ نُمَثِّل هَؤُلاءِ بالنَّصارَى؛ فإِنَّ النَّصارَى ضالُّون.

▪ وقِسْمٌ آخر مُسْتكْبِرٌ مُعانِدٌ، فهَذا فِي الحقِيقَةِ لا عِلْم عنْدَهُ، وَإِنْ كَان لَهُ علْمٌ فإِنَّهُ لَا ينْفَعُه، بلْ ضرَّه كاليَهُودِ.

قوْله تَعالَى: ﴿فَمَن يَهْدِى﴾: (مَن) اسمُ اسْتِفْهامٍ، والمُرادُ بالاسْتِفْهامِ هُنا النَّفْيُ، والقَاعِدَةُ أنَّ الاسْتِفْهامَ إِذا جَاء بمَعْنى النَّفْي صارَ مُشَرَّبًا بالتَّحدِّي؛ لأَنَّك إِذا قُلْت: مَنْ يفْعَلُ كذَا، أعظَمُ مما إِذا قُلْت: لَا أحَدَ يفْعَلُه، كأَنَّك تقُولُ: هَذَا أمْرٌ لا يُمْكِنُ، فإِنْ كُنْت صادِقًا فَأَرِني مَنْ يفْعَلُه، فإِذا جَاء الاسْتِفْهامُ بمَعْنى النَّفي صَار أَبْلَغ مِن النَّفْي المُجَرَّدِ؛ لأَنَّ الاسْتِفْهامَ بمَعْنى النَّفْي مُشرَّبٌ مَعْنى التَّحدِّي.

وقوْله تَعالَى: ﴿مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾: ﴿ٱللَّهُ﴾ فاعِلٌ، والمَفْعُول محذُوفٌ، والتَّقْدِيرُ: مَنْ أَضَلَّهُ الله، وَهَذا المفْعُول هو عائِدُ المَوصُولِ الَّذِي يعُودُ إِلَيْهِ.

قوْله تَعالَى: ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾: قال المُفَسِّر: [أَيْ لَا هَادِيَ لَهُ]، فسَّر الاسْتِفْهامَ بالنَّفْي، وهُو حَقٌّ لكِنَّهُ أَبْلَغُ مِن النَّفي المُجرَّدِ.

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ مَانِعِينَ مِنْ عَذَابِ الله]: الظَّاهِرُ أنَّ (الوَاو) هُنا للاسْتِئْنافِ؛ لأَنَّ الجمْلَةَ خبَرِيَّةٌ، والتي قبْلَها إِنْشائِيَّةٌ، لأَنَّ الاسْتِفْهامَ

مِن قِسْم الإنْشاءِ فِي البَلاغَةِ.

قوْله تَعالَى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾: يعْنِـي أنَّ هَؤُلاءِ الَّذِينَ اتَّبعُوا أهْواءَهُم بِغَيْر علْـمٍ مُستَحِقُّونَ للعْذَابِ، ولَـنْ يجِدُوا أحَدًا ينْصُرهُـمْ مِنْه، أيْ يمنَعُه مِنَ العَذابِ.

قوْله تَعالَى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾: النَّفْي هُنا مؤكَّدٌ بِـ(مِن) الزّائدَةِ الدَّاخلَةِ علَى قوْلِه تَعالَى: ﴿نَّٰصِرِينَ﴾، وأصْلُ الكَلامِ: ومَا لهُمْ نَاصِرُونَ.

وهَل (مَا) هُنا حِجازِيَّةٌ أوْ عرَبِيَّةٌ؟

الجوابُ: عرَبِيَّةٌ لاخْتِلافِ التَّرتيبِ؛ لأَنَّ خبَرها قُدِّمَ، ولَا تكُونُ حجازِيَّةً إلا إذا كانَتْ مُرتَّبةً، الاسمُ قبْلَ الخَبَرِ، والحجَازِيُّ معْناه الَّذي يخْتَصُّ بِه الحجَازِيُّونَ، والعَرَبِيُّ الَّذي يكُون للحِجَازِيِّن والتَّمِيمِيِّنَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: أنَّ المشْركيـنَ وغيْرَهُم مِن الَّذِين ظلَمُوا أنْفُسَهُم إنَّمـا اتَّبعُـوا أهواءَهُم، أمَّا العَقْلُ مَا استَعْمَلُوه، ولكِن مجرَّدُ هوًى، ولَوِ اتَّبعُوا العُقُولَ مَا خالَفُوا المنْقُول.

الفائِدَةُ الثّانِيَةُ: جَوازُ نفْيِ الصِّفَةِ عمَّن لا ينْتَفِعُ بِها؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

الفائِدَةُ الثالِثَةُ: أنَّ الأُمُورَ كلَّها -الهدايَةَ والضَّلالَ والصَّلاحَ والفَسادَ- بيَدِ الله؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾.

الفائِدَةُ الرّابِعةُ: لفْتُ انْتِباهِ الإنْسانِ إلَى سُؤالِ الهدَايَةِ مِن ربِّه دائِمًا؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾، إذا علِمْت أنَّه لَا أحَدَ يهْدِي مَنْ أضَلَّ الله فإلَى مَنْ تلْجأُ

فِي طلَبِ الهِدَايَةِ؟ إِلَى الله عَزَّوَجَلَّ، حتَّى نفسُك لا تعْتَمِدْ علَيْها، اعْتَمِدْ عَلَى الله عَزَّوَجَلَّ فِي الهِدَايَةِ واسأَلْه دَائِمًا الثّباتَ، وَلِهَذا يقُولُ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [النّساء:١٣٦]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، هُم آمَنُوا بِاللهِ ورَسُولِه، لكِنَّ المُرادَ اثْبُتُوا عَلَى هَذَا الشّيْءِ، اثْبُتوا عَلَيْه وحقِّقُوه، وَهَذا كُلُّه لا يُنَال إِلَّا باللهِ.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: أنَّ هَؤُلاءِ الظّالِمِينَ لَا يَجِدُونَ مَن يَنْصُرهم مِن عذَابِ الله؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يُضِلُّ أحدًا إِلَّا لظُلْمِه إِذْ هُو الَّذِي بَدَأَ وانْحَرفَ فِي إرادةٍ سيِّئَةٍ، فظَلم فأَضَلَّهُ الله؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾، هَذا مُفرَّعٌ عَلَى الَّذِي قبْلَهُ؛ وَلِهَذا أُتِي بِـ(الفَاءِ)، ﴿فَمَن يَهْدِى﴾ إشارَةً إِلَى أنَّ إِضْلالَهُم إنَّما كانَ بِسَبَبِ ظُلْمِهم، هُمُ الَّذِين ظَلَمُوا فأُضِلُّوا والعِيَاذُ بِاللهِ.

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: قوْله تَعالَى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ هَل يُشْكِل علَيْه مَا وقَع مِن نصْرِ المُشْرِكِينَ فِي أُحُدٍ، حيثُ حصَلَتْ هَزِيمةٌ عَلَى المُسْلِمِينَ، ومعْلُومٌ أنّه انْتِصارٌ للكَافِرِينَ؛ لأَنَّ الهزِيمةَ لخَصْمٍ انْتِصارٌ للخَصْم الآخَرِ، وَلِهَذا قالَ أَبُو سُفيانَ: «أُعْلُ هُبَل»[1] فِي ذَلِكَ اليَوْم، فهَلْ يُنافِي الآيَةَ الكَرِيمةَ؟

قُلْنَا: كانَّ نصْرَهم ليْسَ لأَجْلِ أنْ ينْتَصِروا، ولكِنْ لأَجْل ابْتِلاءِ الآخَرِينَ؛ وَلِهَذا كانَتِ العاقِبَةُ لِلْمُؤْمنينَ، بلْ قَال الله عَزَّوَجَلَّ مُشيرًا إِلَى الحِكْمَةِ مِنَ انْتِصارِهم:

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب، رقم (٣٠٣٩).

﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ [آل عمران:١٢٧]، قَالَ أَهْلُ العِلْم: إنَّ انْتِصارَهُم هَذَا يُؤدّي إِلَى أنْ يتشَجَّعُوا عَلَى مُحَارَبَةِ الرَّسُولِ ﷺ، حتَّى تكُونَ نهايَتُهم أنْ يُقْطَع طرَفٌ منْهُم.

وعَلَى كُلِّ حَالٍ: حقيقَةُ هَذا الظُّهورِ عَلَى المُسْلِمينَ ليْسَ نصْرًا لهَؤُلاءِ، ولكِنْ مِن أجْلِ الاسْتِدْراجِ بالنِّسبَةِ لَهُم، والابْتِلاءُ والامْتِحانُ بالنِّسبَةِ للمُؤْمِنينِ لمخَالفَتِهم؛ لقَوْلِه تَعالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران:١٥٢]، يعْنِي: بعْدَ مَا أَراكُم مَا تُحِبُّون حصَل مَا تكْرَهُونَ.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: الحثُّ عَلَى طلَبِ العِلْم والعَمَلِ بِه؛ لقوْلِه تعالَى: ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾.

وهَلْ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى ما ذَهَبت إِلَيْهِ الجبريَّةُ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾؟

قُلْنَا: ليْس فِيه دَلِيلٌ؛ لأَنَّ إضْلَالَ الله لَهُم كانَ بِسَبَبِهم، فيكُونونَ هُم السَّبب بِدَلِيل أَنّه قَال: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم ﴾، فكَانُوا هُم الظَّالِمِينَ أَوَّلًا، فأُضِلُّوا والعِيَاذُ بِالله.

الفائِدَةُ الثّامِنَةُ: الرّدُّ عَلَى القدَرِيَّةِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾، فنَسَب الله تَعالَى الإِضْلالَ إِلَيْهِ، والَّذي يضِلُّ هُم هَؤُلاءِ الَّذِين حقَّتْ علَيْهِم الضّلالَةُ، فدَلَّ هَذَا عَلَى أنَّ فِعْل العَبْد بتقْدِير الله وخَلْقِه.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: هَذا مُشْكِلٌ أنْ تَقُولوا أنّه هُو بِخَلْق الله وهُو فعْلُ الإِنْسَانِ، وهَل يُمْكِنُ أنْ يكُونَ الشّيءُ الواحِدُ مفْعُولًا لفاعِلَيْن؟

قُلْنَا: الشَّيْءُ الواحِدُ لا يُمْكِنُ أَنْ يكُونَ مفعولًا لِفاعِلَيْن إِلَّا إذا اخْتلَفَتِ الجِهَةُ، وإِلّا فأَنا إِذا قُمْتُ لا يُمكِنُ أَنْ يكُونَ قِيامِي قِيامًا لشَخْصٍ آخَر، ولَا يُمكِنُ أَنْ يكُونَ فِعْلي فِعْلًا لفَاعِلٍ آخَر، هَذا مُستَحِيلٌ، لكِن إِذا اختلَفَتِ الجِهَةُ صحَّ ذَلك، فأَقُولُ: إِنَّ فعْلَ العَبْدِ بالنِّسبَةِ للعَبْدِ فِعْلٌ مباشِرٌ لَه.

فإِذا جلسْتُ وأَنَا لا أُريدُ القِيامَ فأَنا جالِسٌ لأَنِّي ما أَرَدْتُ، لكِنِّي مرَّةً أردْتُ القِيام ولكِنِّي عاجِزٌ لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُومَ، أَيْضًا لا يَحْصُل القِيامُ الأَوَّل لانْتِفَاءِ الإِرادَةِ، والثَّاني لانْتِفاءِ القُدْرَة.

فمَن الَّذِي خَلق هَذِهِ الإِرادةَ والقُدْرَةَ؟

الله عَزَّوَجَلَّ هُو الَّذي خلَق هَذِهِ الإرادَةَ والقُدْرَةَ، فصَارَت نسبَةُ الفِعْلِ إِلَى الله واضِحةً، نسبَةُ السَّببِ إِلَى مُسبِّبِه، أَمَّا الْمُباشِـرُ فهُو الإِنْسانُ نفْسُه، وَبِهذَا نرُدُّ عَلَى القدَرِيَّةِ الَّذِين قالُوا: لا يُمْكِنُ أَنْ يكُونَ الفِعلُ الواحِدُ مفعولًا لفاعِلَيْن، فنَقُول: هَذا حقٌّ، ولكنَّهُ يصِحُّ أَنْ يكُونَ مفعولًا لفاعِلَيْن باعْتِبَارِ اختِلافِ الجِهَةِ، وَهَذا هُو الَّذي علَيْه أهلُ السُّنَّةِ والجَماعةِ، أَنَّ فِعْل الإنْسَانِ يُنسَب إِلَيْهِ حقيقَةً.

أَمَّا الأَشاعِرَةُ فقَالوا قولًا غيْرَ معْقُولٍ فِي هَذا البابِ، قالُوا أَنَّه لا يُنسَبُ لِلإِنْسَانِ حقيقةً، بل هُو كَسْـبٌ له، ولكنَّه ليْسَ له حقِيقَةً، حتى إِنَّهُم يقُولونَ: إذَا قُمْت فإِنَّ القِيامَ لم يحْصُل بِك، لكِن حصَل عندَك، ويقُولونَ: الإِنْسانُ إذا أَخَذ السِّكِّينَ وذَبح الشَّاةَ فإنَّها لا تموتُ بذَبْحِه، ولكِنْ عنْدَ ذَبْحِه، ويقُولونَ أَيْضًا: إِذا أَخذْتَ الحَجر ورَمَيْت الزُّجاجَةَ وانْكَسَـرَتْ، مَا انكَسَـرتْ بالحَجَر، بلِ انكسَـرتْ عنْدَه؛ لأَنَّهم يقُولونَ: لو أَنَّك أثبَتَّ أَنَّ هَذِهِ الأَشْياء تحْصُل بهَذه الأَشْياءِ أثبَتَّ خالِقَيْن، يعْنِي: هَذا الكَسْرُ إِذا قُلْت أَنَّه مِن الحَجر الَّذِي ضَرب الزُّجاجَةَ معْنَاه أَنَّك أثبَتَّ خالِقًا،

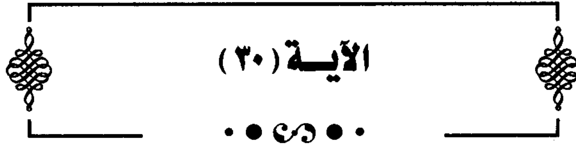
وهُو هَذا الحَجَرُ الَّذِي خلَق الكَسْر، وهَذا ليْس معْقُولًا، ولِذلِك يقُولونَ: إنَّ مسألَةَ الكَسْر عنْدَ الأشَاعِرَةِ هِي مَن الأُمُور الَّتي لا تُعقَلُ، ولا حقِيقةَ لَها، وكُلُّ إِنْسَانٍ يعْرِفُ أن المسَبَّب يحْصُل بالسَّببِ مبَاشَرَةً.

ومَن الَّذِي جَعل هَذا السَّبب مُؤثِّرًا في المسَبَّب؟

الله عَزَّوَجَلَّ هُو الَّذِي جَعل النَّار مُحْرِقَةً، فيقولونَ: إذا أدخَلْتَ وَرَقةً في النَّار واحْتَرَقَتْ مَا احتَرَقَتْ بِالنَّارِ، لكِنْ عنْدَ النَّارِ، أمَّا المُحْرِقُ فهُو الله.

وهَذا لو تُحدِّثُ بِه الصّبيانَ قالُوا هَذا كَلامٌ غيْرُ معْقُولٍ.





الآية (٣٠)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الرّوم:٣٠].

• • ✻ • •

قوْله تَعالَى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾: بعْدَ أنْ توعَّد هَؤُلاءِ المُشرِكينَ بما توعَّدهم بِهِ، وبَيَّنَ أن لا أحدَ يهْدِيهم، قَال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مَائِلًا إِلَيْه: أَيْ أَخْلِصْ دِينَكَ لله أَنْتَ وَمَنْ تَبِعَكَ].

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مائلًا إليه]، ونقُولُ: مَائلًا إِلَيْهِ وعمَّا سِواه أيْضًا؛ وَلِهَذا حُذِف المتَعلِّق لِيَكُونَ شَامِلًا للْمَيْل إِلَى الدِّين، والمَيْل عَن الدِّين، وأصْلُ الحَنَف ميْلُ الرِّجْل، فالرِّجل المَائِلَةُ تُسمَّى حَنْفَاء، فَالحَنِيفُ معْنَاه المَائِل (عَنْ) و(إلى)؛ عَن الشِّركِ إِلَى التَّوحِيد، وعَنِ المَعْصِيَةِ إِلَى الطَّاعَةِ.

وقوْلهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أيْ أَخْلِص دِينك لله أَنْتَ وَمَنْ تَبِعَك]: هَذا تفسِيرٌ معنَوِيٌّ لقوْلِه تَعالَى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ ﴾ ولَو جُعِل أعمَّ مِن ذَلِك لكَان أَوْلى؛ لأَنَّ إقامَةَ الوَجْه تشْمَلُ الإِخْلاص وتمام الاتِّباع؛ لأَنَّ إقامَة الوَجْه نحْوَ الشَّيْءِ يسْتَلْزِمُ متابَعَتَه، وعدَمَ المخالَفَةِ، فيكُونُ شامِلًا لإِخلاصِ النِّيَّةِ ولِلاتِّبَاعِ اللَّذَيْن هُما أَسَاسُ العَمَل، كُلُّ عمَلٍ لا ينْبَني عَلَى الإِخْلاص والمُتابَعَةِ فهُو بَاطِلٌ لأَنَّهُ إذا فُقِد الإِخْلاص صارَ شِـرْكًا،

وإنْ فُقِد الاتِّباعُ صَار بدْعَةً، وقَدْ قَال النّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِنَّما الأَعْمالُ بِالنِّيَّاتِ**»(١)، وَهَذا لِلْإِخلاصِ، وقَال: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنا فَهُو رَدٌّ**»(٢)، وَهَذا لِلاتِّبَاعِ.

وقوْلُهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَنْتَ وَمَنْ تَبِعَكَ]: أَتَى المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقَولِه: [وَمَنْ تَبِعَكَ]؛ لأَنَّهُ سيأْتِينا وصْفٌ مجْمُوعٌ، وهو قوْلُه تَعالَى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ﴾، آخِرَه، ولَا يُمْكِنُ أنْ تكُونَ الحَالُ المجْمُوعةُ لمُفَرَدٍ؛ لأَنَّ الحالَ وصْفٌ، فكَما لا يُخْبَر عَن الواحِد بالجَمْع لا تُجعَلُ الحالُ الجمْعُ لواحِدٍ، ومَا ذَهب إِلَيْهِ المُفَسِّر صحِيحٌ مِنْ وجْهَيْن:

أولًا: مُراعاة اللَّفْظ الآتِي.

ثانيًا: أنَّ الخطابَ للرَّسُولِ ﷺ خطابٌ لَهُ وللأُمَّـةِ؛ لأَنَّ زَعِيمَ القَوْم يُوَجَّه إِلَيْهِ الخطابُ الموجَّهُ للجَمِيعِ، مثَلًا الرّكن في الجيْشِ يقُولُ للقَائِد: اذْهَبْ إِلَى الجَبْهَةِ الفُلانِيَّة، فإِنَّه يُرِيدُ القَائِدَ ومَنْ مَعَه لَا يُرِيدُه وحْدَه، فالخِطابُ لزَعِيم القَوْم خِطابٌ للجَمِيعِ، فاللهُ عَزَّوَجَلَّ يُوجِّهُ الخِطابَ للرَّسُولِ ﷺ، والمُرادُ هُو والأُمَّةُ، والدّليلُ عَلَى هَذا قوْلُه تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطّلاق:١]، فالخِطابُ مُفرَدٌ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، وبَعْدَه ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ ليْسَ النّبيَّ ﷺ وحدَه، بلْ كُلّ الأمَّةِ، ويدُلُّ لِذَلِكَ أيْضًا قوْلُه تعالَى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأٓخِرَ﴾ [الأحزاب:٢١]، فنَحْنُ لَنا فِيه أُسوةٌ، ونحْنُ لَهُ تبعٌ.

إِذَنْ: وجْهُ كوْنِ الخِطابِ الخاصِّ بالرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ للأُمَّةِ له وجْهانِ كَما تقَدَّم:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب بدء الوحي، رقم (١)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنية...**»، رقم (١٩٠٧).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨).

الوَجْهُ الأَوَّلُ: أنَّ خِطابَ الزَّعيمِ خِطابٌ لَهُ ولِمَنْ تَبِعه؛ بِدلِيلِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطّلاق:١].

الوَجْهُ الثَّاني: أنَّنا مأمُورُونَ باتِّباعِ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فكُلُّ خِطابٍ له يُؤْمَرُ بِه أوْ يُنْهى عنْهُ فإنَّنا تَبَعٌ لَه في ذَلِك، والفَرْق بيْنَ الوَجْهَيْن ظاهِرٌ؛ لأنَّهُ عَلَى الوَجْه الأوَّلِ يكُونُ تناولَ الخِطابَ لنا أصْلًا معَ الرَّسولِ ﷺ، وعَلى الوَجْه الثَّاني يكُونُ تَوْجِيهُ الخِطابِ لَنا عَنْ طَرِيق التَّبعيَّةِ.

قوْله تَعالَى: ﴿فِطۡرَتَ﴾: البحثُ فِيها مِن وَجْهَيْن:

الوَجْهُ الأَوَّلُ: مِن حيْثُ الرّسمُ، فالرَّسم غيْرُ جارٍ عَلَى القواعِدِ المعْرُوفَةِ، لَا في الرَّسْم العُثْمانِيِّ، ولَا فِي الرَّسم الحاضِر، وجْهُ ذَلِك أنَّ التّاء مُطلَقَةٌ ﴿فِطۡرَتَ﴾، وهِي مربوطَةٌ؛ لأنَّهَا مُفرَدٌ، والمُفْرَدُ تكونُ التّاءُ فِيه مربُوطَةً وليْسَ فِي القُرآنِ ﴿فِطۡرَتَ﴾ مطلقَةٌ إِلَّا هَذه، ولا نقُولُ مفتوحَةٌ؛ لأَنَّ الفَتْح ضِدَّ الكَسْرِ، نحنُ نُسمِّيها مربُوطَةً ومُطلقَةً؛ لأَنَّ ضِد الرّبْط الإِطْلاقِ.

وعَلَى كُلِّ حَالٍ: فخَطُّ القُرآنِ يتبَعُ فِيه الرَّسم العثمانيَّ.

استِطْرادًا في البحْثِ اختَلف العُلَمـاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: هَل يجُوزُ لِلإِنْسَانِ أنْ يكْتُب المصْحَفَ عَلَى غيْرِ الرَّسم العُثْمانِيِّ أوْ لَا يجُوزُ؟

فمِنْهُم مَن قَال أنّه جائِزٌ؛ لأَنَّ الرَّسْم العُثْمانِيَّ عبارَةٌ عنْ شكلٍ وَصُورةٍ، ولَوْ كَان الرَّسم العُثْمانِيُّ فِي ذَلِك العهْدِ عَلَى غيْرِ هَذا الوَضْع لكُتِب القُرآنَ بِه.

إِذَنْ: فخضُوعه للرَّسم العُثْمانِيِّ فِي ذَلِك الوَقْت ليْس عَلَى سَبِيل أنّه نزَل عَلَى هَذا الوَجْه، لكِن عَلَى سَبيلِ أنَّ الرَّسْم في ذَلِك الوَقْت كانَ عَلَى هَذِهِ الصّورَةِ، ولا شَكَّ

أَنَّه لوْ كَان عَلَى الصُّورةِ المُوجودَةِ حاليًا لا شَكَّ أَنَّه سيُكْتَب علَيْها، مثلًا (الصَّلاةَ) الصّورةُ الحاليَّةُ -يعْنِي القاعِدَةُ الحاضِرة- أن تكتب بعْدَ الصّادِ (لامَ ألف)، لكِن عَلَى الرَّسم العثمَانِي مكتوبٌ (لَام واوٌ)، الزّكاة مثلُها، والرِّبا أيضًا بالواوِ معَ أَنَّها عَلَى الرّسمِ الموجُودِ بالألِف.

فالحاصِلُ: أنَّ بعضَ العُلَماءِ يقُول أَنَّه يجُوزُ أنْ يُكتَب القُرآنُ عَلَى القَواعِد المعْرُوفةِ حَاليًا، وتعْلِيلُهم أَنَّ هَذا الرَّسْم شكلٌ صادَف أَنَّه فِي ذَلِك الوَقْتِ عَلَى هَذا النّحوِ فكَتَبُوه، وليْسَ القُرآنُ نازلًا مكْتُوبًا بِهَذا، ولَو كَان نَازِلًا مكْتُوبًا بِهَذا لقُلْنا: رُبَّما لَا يجُوزُ لكِنَ هَذا اصْطِلاحٌ، وَإِذا كَان اصْطِلاحًا فكُلُّ مَا يتأَدَّى بِه الغَرضُ فإِنَّهُ يجُوزُ.

ومنْهُم مَن يقول أَنّه لا يَجُوزُ مُطلَقًا أنْ يخالَف الرَّسْمُ العثمانِيُّ، وأَنَّهُ يَجِبُ أنْ يَبْقى الرَّسْمُ حتَّى لو رُسِمَتْ لِلصِّبْيانِ عَلَى السّبورةِ يَجِبُ أنْ يكُونَ بالرَّسْم العُثْمَانِيِّ احترامًا للقُرْآنِ.

ومنْهُم مَن فَصَّل وقَال إِن المُبْتدِئَ يجُوزُ أن نرْسُمَه لَهُ بحسَبِ القَواعِد المعْرُوفةِ عنْدَه، وغيْرُه لا يَجُوزُ، قالُوا: لأَنَّ المبتَدِئَ يحتَاجُ إِلَى تعْلِيم، ولَو أَنَّك كتبْتَه بالرَّسْم العُثْمَانِيِّ للمُبتَدِئِ، وقلْت ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة:٢٧٦]، فإِنَّه سيقْرَؤُها: (يمحق الله الرِّبَوْ)، وفِي (الزّكاة) سيقُول: (الزّكَوة)، وفِي الصّلاة سيقولُ: (الصَّلَوَة)، وما أشْبه ذَلِك، بِخِلَافِ الإنْسان العالِمِ فإِنَّهُ يكتُبه بالرَّسْم العُثْمَانِيِّ.

وأيًّا كَان مِن هَذِهِ الأَقْوال صَحِيحًا فإِنَّ مَا يفْعَلُه بعْضَ النَّاس اليومَ مِن حيْثُ إِنَّهم يكْتُبونَ القُرآنَ عَلَى صورَةِ النُّقوشِ ويجْعَلُونها فِي بَراوِيزَ أيُّهم أحْسَنُ نقْشًا؟! فإِنَّ هَذا مُحَرَّمٌ عَلَى كلِّ الأَقْوالِ؛ لأَنَّنا إذا عمِلْنا هَذا العمَل كأَنَّنا جعلْنَا القُرآنَ وشْيًا وتطْرِيزًا، فتَضِيع قيمَتُه، وأَقْبَحُ مِن ذَلِك أنْ يُجْعَل عَلَى صُورَةِ إِنْسَانٍ، فقَدْ شاهدْتُ فِي منشورٍ

صورةَ إِنْسَانٍ فِي آيَةٍ مِن القُرآنِ جُعِل الرّأسُ والرِّجْلانُ كأَنَّه جالسٌ مفترِشٌ، أعوذُ باللهِ، مُضادَّةٌ ظاهِرَةٌ ومُحادَّةٌ للهِ ورسُولِهِ، الصّورةُ محرَّمَةٌ فكيْفَ تَكتُب بِها القُرآنَ، تجْعَلُها كِتابَةً لِلْقُرآنِ.

والحاصِلُ: أنَّ النّاسَ -نسْأَلُ الله لنَا ولَهُم الهِدايَةَ- صَارُوا يُبالِغُونَ فِي أشْياءَ تضرُّهُم، ولَا تنْفَعُهم بِالنِّسبَةِ للْقُرآنِ الكَرِيم.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: لَوْ كُتِب القُرآنُ الكَرِيمُ بالرَّسْم الحدِيثِ لضَاعتِ القِراءاتُ؟

قُلْنَا: صحيحٌ، لكِنَّ الَّذِين يقُولونَ بالجَوازِ يقُولونَ: نحْنُ نكْتُبهُ عَلَى قِراءَةٍ واحِدَةٍ، والقِراءَاتُ الآنَ ضُبِطَتْ ليْسَ بِالرَّسْم، بَل ضُبِطَتْ الحرَكاتُ، وما سمعتُ بإِجْماعٍ في هَذِهِ المسأَلَةِ، فالخلافُ فِي هَذا مشهُورٌ، ولَا يُوجَدُ إجْماعٌ.

والبحثُ الثّاني: في قوْلِه تَعالَى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾، مَا الَّذي نصبَها؟

الَّذِي نصَبها فِعْلٌ محذُوفٌ قدَّره المُفَسّر بقولِه: (الزموا)، أي: الزَموا فطْرَة الله، ومثْل هَذا يقُولونَ أَنَّه منصُوبٌ عَلَى الإغْراءِ، فهُو إِذَنْ أَبْلَغُ مِن ذِكْر العامِلِ الَّذِي هُو (الزَموا)، فحذْفُه أَبْلَغُ لأَنَّهُ إِذا وُجِد العامِلِ تقيَّدَتِ الجُملَةُ بِه، لكِن إِذا حُذِف العامِلُ صارَتِ الجمْلَةُ صالحِةً لَهُ ولِسواهُ مِمَّا يُمكِنُ أن يتسلَّط عَلَى المعْمُولِ: (الزَمُوها)، (اعْتَنُوا بِها)، (تمَسَّكُوا بِها)، ومَا أَشْبَه ذَلِك؛ فلِهَذا يقُولونَ أَنَّه منْصُوبٌ عَلَى الإِغراءِ، وهُو المُبالَغَةُ فِي الحثِّ.

المبحث الثالث: كلمة ﴿فِطْرَتَ﴾ مشتقَّةٌ مِن (فَطَرَ الشّيء) أي ابْتَدعَهُ عَلَى غيْرِ مِثالٍ سابِقٍ كَما في قوْلِه تَعالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر:١]، أيْ: مبْدِعهُما عَلَى غيْر مِثالٍ سابِقٍ، هَذِهِ الفِطْرةُ أبْدَعها الله عَزَّوَجَلَّ في الإِنسانِ أَوْ فِي النَّاس كَما فِي

لفْظِ الآيَةِ عَلَى غيْرِ مثَالٍ سابِقٍ؛ وَلِهَذا قال المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ﴾ خِلْقَته ﴿ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَا﴾، وَهِي دِينُه، أيْ: الزَمُـوهَا]. المُراد بالفِطْرة هُنا توْحِيدُ الله ودِينُ الله، وهذِه الآيَةُ شاهِدٌ للحدِيثِ الصَّحيح: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»(١). لو أنَّ المخلُوقَ تُرِكَ وفِطْرَته مَا عبَدَ إلَّا الله؛ ولِهَذا البهائِمُ العجمُ الَّتي ليْسَ لها مَا يُغرِيها أو يُصَرِّفُها: هلْ يُمكِن أنْ تعبُدَ اللاتَ والعُزَّى والشَّمْس والقَمر؟

الجوابُ: لَا؛ لأَنَّ الله تَعالَى يقُولُ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾ [الإسراء:٤٤]، فأصْلُ الخلْقِ مفْطُورٌ عَلَى توْحِيدِ الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ: الخالِق، لكِنْ مَن أُعْطُوا العقولَ هُم الَّذِين رُبَّما ينْحَرِفُونَ لأَنَّ لهم إرادَاتٍ واتِّجاهاتٍ بخلافِ مَنْ ليْسَ لَهُ إلا العقْلُ المعِيشيُّ، فإِنَّهُ لا ينْصَرِفُ عَن هَذِهِ الفِطرَةِ، وَلِهَذا البهائِمُ العُجْم -كَما قُلتُ- تعرِفُ خالِقَها وفاطِرَها ولَا تُسبِّحُ إلا الله.

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ﴾ لدِينِهِ، أيْ لَا تُبدِّلُوهُ بِأَنْ تُشْرِكُوا].

وقوْله تَعالَى: ﴿لَا تَبۡدِيلَ﴾ نفْيٌ؛ لأَنَّ ﴿لَا﴾ نافِيةٌ للجِنْس، فهَلْ هُو باقٍ عَلَى كونِه نفْيًا، يعْنِي لفْظًا ومعْنًى، أوْ أنَّه نفْيٌ لفظًا، خبرٌ معْنًى؟ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ مشَى عَلَى الأَخِيرِ، وأنَّه نفْيٌ بمَعْنى النَّهيِ، أيْ: لَا تُبدِّلُوا هَذِهِ الفطْرَةَ بالإشْراكِ، والنَّفْيُ يأْتِي بمعْنَى النَّهيِ كثِيرًا، مثْلُ قوْلِه تَعالَى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ﴾ [البقرة:١-٢]، فِيها تفْسِيرانِ كَما تقدَّم أحدُهُما أنَّها بمَعْنى النَّفيِ، أيْ: ليْسَ فِيه رَيْبٌ ولا شَكٌّ، والثَّانِي بمعْنَى النَّهيِ لا ترتابوا فيه، ومثل قوْله تَعالَى: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾ [الحج:٧]،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، رقم (١٣٨٥).

فقوْله تَعالَى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ أيْ لا تُبدِّلُوا خلْقَ الله بالإشْراكِ، بَلْ أَقِيمُوا وُجوهَكُم حُنَفاءَ، ويَجُوز أنْ يكُونَ نفْيًا عَلَى ظاهِرِه، وأنَّه لا أحَد يُبَدِّلُ خلْقَ الله كَما فِي قوْلِه تَعالَى: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام:١١٥]، ويكُونُ المَعْنى أنَّ الأَمْر بيَدِ الله عَزَّوَجَلَّ، فمَن شَاء هُداه بَقِي عَلَى فطْرَتِه، ومَنْ شَاء أنْ يُضلَّه أضلَّه، فلا أحَدَ يسْتَطِيعُ أن يبَدِّل خلْقَ الله، وإنَّما الَّذي بيَدِه الأَمْرُ هُو الله، وعَلى هَذا يكُونُ فِي الآيَةِ وجْهانِ:

الوَجْهُ الأَوَّلُ: أنَّها خبَرٌ بمَعْنى النَّهْي.

الوَجْهُ الثَّاني: أنَّها خبَرٌ عَلَى بابِها.

وعَلى الأوَّلِ الأَمرُ ظاهِرٌ، يعْني: المَعْنى ظاهِرٌ أنَّكُم لا تُبدِّلُوا، فيكُونُ الله نَهانَا عَن الإِشْراكِ، وعَلى الثَّاني يكُونُ وجْهُه أنَّ هَذِهِ الفِطْرَةَ الَّتِي فطَر الله علَيْها الخلْقَ، لا أحَد يسْتَطيعُ أنْ يُبدِّلَها، بَلِ الَّذي يُبدِّلُها هُو الله، فمَنْ أَراد الله هِدايَتَه لَنْ يُضِلَّه أحَدٌ، وَمن أرَادَ الله إضْلالَه لَنْ يهْدِيَه أحَدٌ، لا سِيَّما أنَّه قالَ قبْلَ هَذا، ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾، فَما قالَه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ له وجْهٌ؛ لوُرُودِ ذَلِك فِي اللُّغَةِ العرَبِيَّة، والوَجْهُ الثّاني هُو الأَصْل؛ لأَنَّ الَّذي عنْدَنا نفْيٌ، فمَنْ صرَفَه عَنْ ظَاهِره يحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هَذا التَّفْسيرُ أَلا يُوافِق قولَ الجَبرِيَّةِ؟

فالجوابُ: لَا، الرّسولُ ﷺ يقولُ فِي خُطْبَتِه: «مَنْ يَهْدِهِ الله فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ»(١)، لا أَحَدَ يسْتَطِيعُ هِدايَةَ إِنْسَانٍ أبدًا، أو انحرافَ إِنْسَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ الله، هَذا النَّبيُّ ﷺ حرِصَ غايَةَ الحِرْصِ وَبذَل ما يستَطِيعُ مِن جهْدٍ فِي هِدايَةِ عمِّه

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (٨٦٧).

أَبِي طالِبٍ، ولكِن لم يتمَكَّنْ، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦]، وليْسَ معْنَى ذَلِك أَنَّا إذا قُلْنا: إِنَّ الأَمْر بيَدِ الله عَزَّوَجَلَّ وَأَنَّه هُو الَّذي يُضِلُّ ويَهْـدِي، ليْسَ معْنَى ذَلِك أَلَّا نفعَلَ الأَسْبابَ كَمـا أَنَّ الأَمْـر بيَدِ الله فِي إِيجادِ الأَشْيَاء، إِيجادِ الرِّزْقِ وإِيجادِ الوَلَدِ، وَدَفْع الضَّرر، بل نفْعَلُ الأَسْبابَ، ونَقولُ: الهدايَةُ بيَدِ الله، والإِضلالُ بيَدِ الله، لكِن لكُلٍّ منْهُما سببٌ مِن جُمْلَة أَسْبَابِ التَّبْديلِ.

ومِن جُملَةِ أَسْبابِ التَّبدِيل مَا ذَكرَهُ الرَّسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في قولِه: «فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِه أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»(١)، وذِكْرُ الأَبَوَيْن ليْس عَلَى سبيلِ الحَصْر، وإِنَّما هُو عَلَى سبيلِ التَّنْظيرِ والتَّمْثيلِ، يعْني أَنَّ مَن يتَّصِلُ بِهَذا الإِنْسانِ يجْعَلُه يهودِيًّا أو نصْرَانِيًّا، وكَمْ مِن إِنْسَانٍ تنَصَّر لَا عَنْ طَرِيق الأَبَوَيْن، ولكِن عَن طَرِيقِ الجُلَساءِ والرُّفقاءِ ومن ثَمَّ حذر النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِن جَليسِ السُّوءِ ورَغَّب فِي الجَليس الصَّالِح، وقَال: «مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالجَلِيسِ السَّوْءِ كَحَامِلِ المِسْكِ وَنَافِخِ الكِيرِ، فَحَامِلُ المِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً»(٢).

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما معْنَى النَّفْيِ فِي قوْلِه تعالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾؟ [النّساء:٩٢]، (مَا كَان لُمْؤمِنٍ)، هَذِهِ بمَعْنى أَنَّه ممْتَنِعٌ غايَةَ الامْتِناعِ؛ لأَنَّ (مَا كَانَ) (ومَا ينْبَغِي) ومَا أَشْبَهَ ذَلِك فِي القُرآنِ، تأْتِي بمَعْنى امتنَع غايَةَ الامْتِناعِ، وأَيْضًا مثْل قوْلِه تَعالَى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾ [التّوبة:١١٥].

---

(١) تقدم قريبًا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الذبائح والصيد، باب المسك، رقم (٥٥٣٤)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب مجالسة الصالحين ومجانبة قرناء السوء، رقم (٢٦٢٨).

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ المُسْتَقِيمُ تَوْحِيدُ الله]، ﴿ذَٰلِكَ﴾ المُشارُ إِلَيْهِ قوْلُه تَعالَى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ أيْ: إِقامَةُ وجْهِك لِلدِّين حنِيفًا هُو الدِّينُ القَيِّمُ، قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ٱلْقَيِّمُ﴾ المُسْتَقِيمُ]، لكِنَّ (القَيِّم) أَبْلَغُ لأَنَّ القَيِّمَ عَلَى وزْنِ (فَيْعِل)، فهِي صفَةٌ مشبَّهَةٌ يَعْني هُو قَيِّمٌ، أبلَغُ مِن قوْلِنا أنَّه مستَقيمٌ؛ لأَنَّ المستَقِيمَ ضِدَّ المعوَجِّ، لكِنَّ القيِّم الكامِلَ في قِيامِه فهُوَ أَبْلَغُ، يعْنِي أنَّ هَذا الدِّينَ هُو الدِّينُ القَيِّمُ، أي الكامِلُ الَّذِي ليْسَ فِيه اعْوِجاجٌ، وَلَيْس فِيه نقْصٌ ولا شَكَّ أنَّه هُو القَيِّمُ، كَما قَالَ الله تَعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠]، فلَا أَقْومُ لِلْعبادِ وَلا أَنْفعُ لِلْعِبادِ مِنَ اتِّبَاعِ شَرِيعَةِ الله تعالَى.

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ أيْ كُفَّارُ مَكَّـةَ، ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ تَوْحِيدُ الله]، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [كُفَّار مكَّةَ]، وَهَذا لا شكَّ أنَّه تخْصِيصٌ بدُونِ دَلِيلٍ، بَل الدَّلِيلُ يُخالِفُه؛ لأَنَّ كُفَّار مكَّةَ ليْسُوا أكْثَر النَّاسِ، ثمَّ إِنَّ الله يقُولُ: ﴿أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾، مَا قَال: أَهْلُ مكَّةَ، ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ وصدَق الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأَنَّ أَهْلَ النّارِ مِنْ بَنِي آدَم تسْعُمِئَةٍ وتِسعَةٌ وتِسعُونَ مِن الألفِ، فهُم الأَكْثَرُ، أكثَرُ النّاسِ لا يعْلَمُونَ، لَو علِمُوا ما كَانُوا مِنْ أَصْحابِ الجَحِيم، فهُمْ لا يعْلَمُون.

ومَا معْنَى قوْلِه تَعالَى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، أيْ: لَا يعْلَمُونَ أنَّ هَذا هُو الدِّينُ القَيِّمُ، أوْ لا يعْلَمُون مَا ينْبَغِي لهُم أنْ يكُونُوا علَيْه، أمْ مَاذا؟

نقولُ: الآيَةُ مُطلَقَةٌ، فتشْمَل كُلَّ شيْءٍ يُنافِي هَذا الدِّينَ، فمَن خَرَج عَنْ هَذا الدِّين فإِنَّهُ لا يعْلَمُ أنَّ هَذا الدِّينَ قَيِّمٌ، وإِنْ عَلِم بِه ولم يتْبَعه صَار علْمُه كالمعدُومِ، كَذَلِكَ لا يعْلَم حَقِيقَةَ أمْرِه وحالِه، وأنَّه يجِبُ أنْ يكُونَ دائِنًا للهِ عَزَّوَجَلَّ بما دَان به خلْقَه،

كَذَلِكَ لا يعْلَمُ مَا يترتَّبُ عَلَى هَذا مِنْ جَزاءٍ بالثَّوابِ الجزِيل لمنْ قَام بِهِ، وبِالعُقوبَةِ والعَذابِ الأَلِيم لمَنْ خالَفه.

المُهِمُّ: أنَّ حذْف المفعُولِ يقْتَضِي العُمُومَ، وهذِه قاعِدَةٌ معروفَةٌ عنْد أهْل العِلْم، أنَّ حذْف المعْمُول يُفِيدُ العُمومَ، ولَهُ أمْثِلَةٌ كثِيرَةٌ في القُرآنِ، وفِي كَلامِ العَربِ، ومِنْه -بَلْ مِن أوْضَحِه- قوْلُه تَعالَى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى:٦-٨]، قولُه تعالى: ﴿فَآوَىٰ﴾ الإيواءُ للرَّسولِ ﷺ ولِمَنْ تَبِعَه، وقولُه: ﴿ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ الهدايَةُ له ولِمَنِ اهْتَدى بسُنَّتِه، وقولُه: ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ الغِنَى لهُ ولأُمَّتِه، قَال ﷺ: «وَأُحِلَّتْ لِيَ الغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي»[1].

المُهِمُّ: أنَّ تخصِيصَ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ بقولِه: [كُفَّار مكَّةَ] لا وجْهَ لَهُ، والصَّوابُ أنَّ أكْثَر النَّاس مِن بَني آدَم -مِن كُفَّارِ مكَّةَ وغيرِهم- لَا يعْلَمُون.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: كونُ السّورة مكيَّةً ألا يدُلُّ عَلَى أنَّ الخِطابَ خاصٌّ بأهْلِ مكَّةَ، كَما قَال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ؟

إذَا قُلنا بالعُمُومِ شَمِلَ كُفَّارَ مكَّةَ، فكَان فِيه التَّسلِيَةُ للرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وأمَّا كوْنُ السُّورَةِ مكيَّةً فَلا يدُلُّ عَلَى أنَّ جَمِيعَ الخِطاباتِ الَّتي فِيها تُشِيرُ إِلَى أهْل مكَّةَ، بلْ هِي عامَّةٌ.

مسْألةٌ: هلْ يأْجُوجُ ومأْجُوجُ مِن بَني آدَم؟

نعَم، هُم مِن بَني آدَم؛ وَلِهَذا الصَّحابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لما حدَّثَهم بأنَّ بعْثَ النَّارِ تِسعُمئَةٍ وتِسعةٌ وتِسعُونَ مِن الألف فَزِعوا، قَالُوا: يا رَسُولَ الله أيُّنا ذَلِك الواحِدُ؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التيمم، باب قول الله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾، رقم (٣٣٥)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم (٥٢١).

فقال لهم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَبْشِرُوا فإنَّكُم لَمع خَلِيقَتَيْنِ ما كَانَتَا فِي شَيْءٍ إِلَّا كَثَّرَتَاهُ، يَأْجُوجُ ومَأْجُوجُ»(١).

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: وُجوبُ الإِخْلاص للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ﴾.

الفائِدَةُ الثّانيَةُ: أن الإِخْلاص لا يتمُّ إلا بسلْبٍ وإيجابٍ، وهُو مضْمونُ قولِ الإِنسانِ: (لَا إِلَه إِلَّا الله)، فإِنَّ هَذِهِ الجملَةَ العَظِيمةَ مشْتَمِلةٌ عَلَى النَّفْي والإِثْبَات، ولا إِخْلاصَ إلا بنَفْيٍ وإِثْبَاتٍ، فهَذِه الآيَةُ فِيها نفْيٌ وإثْبَاتٌ، فقوْلُه تَعالَى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ ﴾ إِثْبَاتٌ، وقوْلُه تَعالَى: ﴿حَنِيفًا﴾ نفْيٌ يعْنِي مَائِلًا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قوْلُه تَعالَى: ﴿حَنِيفًا﴾ هَل يُؤخَذُ منه سلبٌ وإِيجابٌ؟

فالجوابُ: يُمْكِنُ أنْ يُؤخَذ بطَرِيق اللُّزومِ، ولكِن ليْس لَهُ داعٍ، وعنْدَنا قوْلُه تَعالَى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ ﴾.

الفائِدَةُ الثالِثةُ: أنَّ الإِخْلاص هُو الفِطْرة، نأْخُذه مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾، فتكونُ الآيَةُ هَذِهِ شاهِدةً لقَوْلِ الرّسولِ ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ»(٢).

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: إِثْبَاتُ الخَلقِ لله، وأَنَّه الخالِقُ وحْـدَه؛ لقوْلِه تعالَى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الحج، رقم (٣١٦٩).

(٢) تقدم قريبًا.

الفائِدَتانِ الخَامسَةُ والسَّادِسَةُ: أن ما يقدره الله عَزَّوَجَلَّ لا يمكن أن يُغير لقوْلِه تَعالَى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ عَلَى أَحَدِ المَعْنيَيْن، أمَّا عَلَى مَا ذَهَب إِلَيْهِ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيُسْتفَادُ منْه النَّهْيُ عَن الشِّرْكِ.

هل يمْكِنُ أن نقولَ: إنَّ الآيَة تدُلّ عَلَى المعْنيَيْـن جميعًا، وأنَّها صالِحَةٌ للمَعْنيَيْن جَمِيعًا، يعْنِي صالِحَةٌ كَي تكونَ للنَّفْي، وأنْ تكُونَ خبرِيَّةً أوْ أنْ تكُونَ للطَّلبِ فتكونَ إنشَائِيَّةً؟

في الحقيقةِ: أن الإنشاءَ والخَبَر مُتعارِضَانِ، لكِن إذا جعَلْنا كُلَّ واحِدٍ عَلَى انْفِرادٍ بمعْنَى أنّنا لَا ندْرِي هَلْ أرادَ الله هَذا أوْ هَذا، ومَا دامَتِ الآيَةُ صالِحَةً لهَذَا وَلِهذا، فإنَّنا نقولُ: هِي لِلْمعْنَيَيْنِ جميعًا، يعني أَنَّه لا أحَدَ يسْتَطِيعُ أن يُغيِّرَ مَا خلَقَ الله، ولَا يجُوزُ لَنا نحْنُ أنْ نغيِّرَ هَذِهِ الفِطْرَةَ الَّتي خُلِقْنا علَيْها مِن الإِخْلاص إلَى الشِّرك.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: أنَّ أقوَم الأَدْيانِ مَا بُنِي عَلَى الإِخْلاص؛ لقَوْلِه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾، المشارُ إِلَيْهِ هُو ما سَبق مِن الفِطْرة التّي فُطِر النّاسُ عليْها، والتّي أمَر الله بِها في قوْلِه تَعالَى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ فالدِّينُ القيِّمُ هُو الَّذي أقَامَ الإنسانُ فِيه وجْهَه للهِ حَنيفًا، وهِي الفِطْرةُ الَّتي فُطِر النّاسُ علَيْها.

الفائِدَةُ الثّامِنَةُ: أنَّ هَذا الدِّين المَبْنِيَّ عَلَى الإِخْلاص اجْتَمع فِيه الشَّرْعُ والفِطْرَةُ، أمَّا الشَّرعُ فلأَنَّهُ أُمِر بِه، وأمَّا الفِطرة فلأَنَّ النَّاس خُلِقوا علَيْها وجُبلوا علَيْها، ولوْلا ما يحْصُل مِن المَوانِع والعوارِضِ لِبَنِي آدَم لكَانَ النَّاسُ كلُّهم مُؤْمِنِينَ عَلَى الفِطْرَةِ كَما جَاء فِي الحَدِيثِ: «**أَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**»[1].

---

(١) تقدم قريبًا.

الفائِدَةُ التّاسِعَةُ: أنَّ أكْثَر النَّاسِ فِي هَذا البَابِ عَلَى جهْلٍ وضَلالٍ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فهُمْ بَيْن أمْرَيْن، إمَّا عالِمٌ استكْبَر فعِلْمُه لَمْ ينْفَعْه، وإمَّا جَاهِلٌ، فالعامَّةُ المتَّبعونَ لرُؤَساءِ الكُفْر والضَّلالِ نَصِفُهم بالجَهل وعدَم العِلم، والزُّعماءُ منْهُم العارِفُون نَصِفُهم بالجَهْل لِعدَمِ انْتِفاعِهم بِما عَلِمُوا، لكنَّهم في الحقيقَةِ يستَحقُّونَ وصْفًا أعظَمَ، فهُم جَاهِلُونَ مُستكْبِرونَ، والمُخالَفَةُ عَن عِلْمٍ تُسمَّى (الجَهْل المُركَّب)، فهؤُلاءِ الزُّعماءُ -والعِياذُ باللهِ- يعْلَمُون أنَّهم عَلَى ضَلالٍ، قَال الله تَعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النّمل:١٤]، وقَال مُوسَى لِفِرْعَوْنَ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الإسْراء:١٠٢]، ولم يقُل فرْعَوْنُ: إنَّني مَا علِمْتُ، فسكُوتُه إقْرَارٌ، لكِنْ عنْدَهُم -والعِياذُ باللهِ- العِنادُ.



الآيتان (٣١، ٣٢)

• • ∽ • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم:٣١-٣٢].

• • ∽ • •

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿مُنِيبِينَ﴾ راجِعِينَ]، مِن (أناب يُنِيب)، إذا رَجع، وقوْله تعالَى: ﴿إِلَيْهِ﴾، يعْنِي إِلَى الله تعالَى فِيما أَمَر به، ونَهى عنه يعْنِي الرُّجوعَ مِن معْصِيَةِ الله إِلَى طاعتِه، وقبْلَ ذَلِك مِن الشِّرْكِ إِلَى التَّوْحِيدِ، هَذا معْنَى الإنابَةِ.

وقد أَثْنى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى المُنِيبِينَ عليْه، كَما فِي قوْلِه تعالَى: ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص:٢٤]، فالإنابَةُ مِن أفْضَل الأَحْوالِ لِلْعابِدِينَ؛ لأَنَّ المُنِيبَ إِلَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى دائِمًا يذْكُر الله بقلْبِه؛ لأَنَّهُ يعْلَمُ أَنَّه قدِ انْتَقل مِن معصِيَتِه إِلَى طاعَتِه، ومِنَ الإشْراكِ بِه إِلَى توْحِيدِه؛ حتَّى يعْبُدَ الله كأَنَّهُ يَراهُ، فإِنْ لَمْ يكُنْ يراهُ فإِنَّ الله يَراهُ.

يقُولُ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [حَالٌ مِنْ فَاعِلِ (أَقِمْ)، وَمَا أُرِيدَ بِه: أَيْ أَقِيمُوا]، حالٌ مِن فاعلِ (أَقم) فِي قوله تعالَى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾، [وَمَا أُرِيدَ بِه] لأَنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ قالَ: [﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ أنْتَ ومَنْ تَبعَك]، فتكُون ﴿مُنِيبِينَ﴾ حالًا مِنَ الفَاعِل ومَا تَبعه، وَهَذا مبْنِيٌّ عَلَى أَنَّ الخطابَ في قوْلِه: (أَقِم) لِلرَّسولِ ﷺ شخصِيًّا، أمَّا إذا قُلْنا: إِنَّ المُرادَ بِه الأُمَّة خُوطِب بِها زَعِيمُها فَلا حاجَةَ إِلَى هَذا التَّقْدِير،

فنقُول: ﴿مُنِيبِينَ﴾ حالٌ مِن فَاعِلِ (أَقِم)، ولَا مَانِعَ أنْ يكُونَ جمْعًا؛ لأَنَّ المُرادَ بالمُفْرَدِ في أوَّل الآيَةِ الجمْعُ.

قوْله تعالَى: ﴿وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾؛ قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَاتَّقُوهُ﴾ خافُوهُ ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾].

التَّقْوى مأخوذَةٌ مِن الوِقايَةِ، وأصْلُها (وَقْوى)، والمُراد بالتَّقْوى اتِّخاذُ وِقايَةٍ مِن عذَابِ الله بفِعْلِ أوَامِره واجْتِنابِ نواهِيه، وجَميعُ التَّفاسِير الَّتي فُسِّرت بِها التَّقوى ترْجِعُ إِلَى هَذا المَعْنى الجَامِع العَامِّ، وهِي اتِّخاذُ وِقايَةٍ مِن عَذابِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِفِعْلِ أوامِره واجْتِنابِ نَواهِيه، فمَنْ كَان يعْبُدُ الله بِفِعْلِ الأَوامِرِ لكِنَّهُ يفْعَلُ النَّواهِيَ فلَيْسَ بمُتَّقٍ، عنْدَه تقْوَى مِن وجْهٍ دُونَ وجْهٍ.

واعْلَم أنَّ التَّقوى عنْد الإطْلاقِ تشْمَلُ الدِّينَ كُلَّه كَما يقْتَضِيه هَذا التَّفْسيرُ، فإنْ قُرِنَتْ بالبِرِّ كقوْلِه تعالَى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٢]، صَار المُرادُ بِها ترْكُ المحْظُوراتِ، وصارَ المُرادُ بالبِرِّ فِعْلُ المأْمُوراتِ، وَهَذا اللَّفْظ لهُ نَظِيرٌ كثِيرٌ في اللُّغَة العرَبِيَّةِ، يكُونُ اللَّفْظ لَهُ معْنًى عنْد الانْفِرادِ ومعْنًى آخَر عنْد الاجْتِماعِ، والَّذي يُعَيِّن ذَلِك هُو سِياقُ الكَلامِ.

وقوْله تعالَى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾: أي: ائْتُوا بها قويمةً، وليْسَ المُراد بإِقامَتِها لفْظُ (قَدْ قامَتِ الصَّلاةُ)، بَل أنْ تأْتِي بِها قَويمَةً، وإِقامَتُها علَى نوْعَيْن:

- إقامَةٌ واجِبةٌ لا بُدَّ لصِحَّةِ الصَّلاةِ مِنْها، وذَلك: الإِتيانُ بِالشُّروطِ والأَرْكانِ والوَاجِبَاتِ.

- وإقامَةٌ مُكمِّلةٌ، وهِي إضافَة المُستحبَّاتِ إِلَى ما ذُكِر، فإِنَّ هَذِهِ إقامَةٌ مُكمِّلةٌ،

ومِن إقامَتِها المُكمِّلةِ أنْ يَأْتِي الإنْسانُ بالنَّوافِلِ؛ لأَنَّ النَّوافِل -صلاةُ تطوُّعٍ- تُكمِّلُ بِها الفَرائِضُ يوْمَ القِيامَةِ.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: عَطْفُها عَلَى قوْله تَعالَى: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ مِن بَاب عطْفِ الخَاصِّ عَلَى العامِّ، وعطْفُ الخاصِّ عَلَى العامِّ يقْتَضِي زيادةَ الاعتناءِ به فهو دليلٌ عَلَى أهمِّيةِ الصّلاةِ.

قوْله تَعالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: الخِطابُ هنا يعودُ عَلَى الفاعلِ في ﴿مُنِيبِينَ﴾، يعني حالَ كَوْنِكُم مُنِيبينَ غيرَ مُشركينَ أيضًا في إنابَتِكُم.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ يُشرِكونَ باللهِ وهو شاملٌ للشركِ الأصغرِ، والشّركِ الأكبرِ، وَلِهَذا يُنهى الإنسانُ أنْ يفعلَ الشّركَ أيًّا كان نوعُهُ، قَالَ شَيْخُ الإِسْلَام رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ الشِّرْكَ لا يَغْفِرُهُ الله وَلَوْ كَانَ أَصْغَرَ، وَالكبَائِرَ تَحْت المَشِيئَةِ»[1]، واستدلَّ لِذَلِكَ بقوْله تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء:٤٨]، ووجهُ الدَّلالةِ من الآيَة أنَّ قوْلَه تَعالَى: ﴿أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ مُؤَوَّلٌ بمصدرٍ، فيكونُ المَعنى (إنَّ الله لَا يَغْفِرُ إِشْرَاكًا بِهِ)، فهو إذَنْ نكرةٌ في سياقِ النّفي، فيشملُ جميعَ أنواعِ الشّركِ، وَلِهَذا قال ابنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَأَنْ أَحْلِفَ بِاللهِ كَاذِبًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ بِغَيْرِهِ صَادِقًا»[2]؛ لأنَّ سيئةَ الشّركِ أعظمُ من سيئةِ الكَذِبِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل ما ذهبَ إِلَيْهِ شيخُ الإسْلامِ صحيحٌ؟

قُلْنَا: ظاهرُ الآيةِ أنه صحيحٌ.

وعَلَى كُلِّ حَالٍ: فالشّركُ الأصغرُ لا يُخَلَّدُ صاحبُه في النّارِ، بل يُعذَّبُ به ولا بُدَّ.

---

(١) جامع الرسائل لابن تيمية (٢/ ٢٥٤).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٨/ ٤٦٨، رقم ١٥٩٢٩).

قوْله تَعالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: إذا قِيلَ: إن هَذا خطابٌ للرسولِ ﷺ والشّركُ في حقِّه ممتنعٌ.

قُلْنَا: لا يمتنعُ أنْ نُخَاطِبَ شخصًا بإِثْبَاتِ ما هو علَيْه، أو بنفي ما هو مُنْتَفٍ عنه، ويكون المعنى الثُّبوت عَلَى ما ذُكِرَ، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النّساء:١٣٦]، هم مؤمنونَ، لكن المعنى: اثبتوا كَذَلِكَ، فأنتَ إذا قُلتَ لشخصٍ: (لَا تُشْرِكْ)، وهو لا يشركُ، صار المعنى: اثبت عَلَى نفي الشِّركِ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿مِنَ الَّذِينَ﴾ بَدَلٌ بِإِعَادَةِ الجَارِّ]، بدلٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، وأفادَنا المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ البدلَ عَلَى نوعَيْنِ، تَارَة بإعادةِ العاملِ، وتَارَة يكونُ بعدمِ الإعادةِ، فإذا قلتَ: (مَرَرْتُ بِزَيْدٍ أَخِيكَ) فَهَذَا بعدمِ إعادةِ العاملِ، وإِذَا قُلْتَ: (مَرَرْتُ بِزَيْدٍ بِأَخِيكَ) فهَذا بإعادةِ العاملِ، وهنا قَالَ: ﴿مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِينَ﴾، بدلٌ بإعادةِ العاملِ الَّذي هو حرفُ الجَرِّ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ بِاخْتِلافِهِمْ فِيمَا يَعْبُدُونَهُ، ﴿وَكَانُوا شِيَعًا﴾ فِرَقًا فِي ذَلِكَ ﴿كُلُّ حِزْبٍ﴾ مِنْهُمْ ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ عِنْدَهُمْ ﴿فَرِحُونَ﴾ مَسْرُورُونَ].

قوْله تَعالَى: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾: هَذَا وَصْفٌ لهَؤُلاءِ المُشْرِكِينَ، وصفٌ مذمومٌ ﴿فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ حيْثُ كان لكلِّ واحدٍ منهم مِلَّةٌ ونِحْلَةٌ، فهَؤُلاءِ يعبدونَ حَجَرًا، وأولئكَ يعبدونَ شمسًا، والآخرونَ يعبدونَ قمرًا، والرّابعُ يعبدُ شجرًا... وهكَذا، ثمَّ إنَّ لهم نِحَلًا مختلفةً فيما يَسْلُكونَهُ في مِنْهَاجِ عِبادتِهم، فَهُمْ فرَّقوا دِينَهم، وفي قوْله تعالَى: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ أي: شَتَّتُوهُ ووزَّعُوه، دليلٌ عَلَى أنَّه لا ينبَغِي للأمَّةِ الإسْلامِيَّة أنْ تُفرِّقَ دِينَها؛ فاليهودُ والنّصارى فرَّقوا دِينَهُم، اليَهُودُ

افْتَرَقُوا عَلَى إِحْدى وسبعينَ، والنَّصارى افْتَرَقُوا عَلَى اثنتَيْنِ وسبعينَ[1]، والمشركونَ الجاهليُّونَ حَدِّثْ ولا حَرَجَ في افتراقِهم، فهَؤُلاءِ فرَّقوا دِينَهم، ودِينُهم ما يَدِينُونَ به، سواء كانوا يَدِينُونَ لِمَخْلُوقٍ أو لِخَالِقٍ عَلَى زَعْمِهِمْ؛ لأَنَّ المُشْرِكِينَ يقُولونَ في آلهتِهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، أولئكَ أُناسٌ آخرون يَعْبُدُونَ ما يَعْبُدُونَ مِن الآلهةِ لا لِتُقَرِّبَهُمْ إِلَى الله، لكنْ لاعتقادِ أنَّها هي الآلهةُ وأنه لا إِلَهَ إلا هَذا المعبودُ عِنْدَهُمْ.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَكَانُواْ شِيَعًا﴾: شِيَعًا يعني فِرَقًا، وأَصْلُ التَّشَيُّعِ أو الشِّيعة أصلُها الانتصارُ للشيء، فيُقَالُ: (شِيعَةُ فُلانٍ) أي أنصارُه فَهُم شِيَعٌ، كلُّ طائفةٍ منهم تَنْصُرُ ما هي علَيْه وتؤيِّدهُ، يعني أنهم لم يقتصِرُوا عَلَى أن تَفَرَّقُوا فقط، بلْ كل واحدةٍ تدعو إِلَى ما هي علَيْه، ومعلومٌ أن من يدعو إِلَى ما هو علَيْه لا بُدَّ أن يحذرَ ممَّا يخالِفُه إذْ لا يتِمُّ الانتصارُ إلا بهذا.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿كُلُّ حِزْبِۭ﴾ مِنْهُمْ].

حِزْبٌ بمعنى طَائِفَة، وسُمِّيَتِ الطَّائِفَة المُتَّفِقة عَلَى رَأْيٍ أو هَدَفٍ أو دِينٍ سُمِّيَتْ حِزْبًا؛ لأَنَّ كلَّ واحِدٍ منْهَا يَحْزِبُ الآخَرَ أي يُقَوِّيه.

وقوْله تَعالَى: ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾: أي بالَّذي ﴿لَدَيْهِمْ﴾، بمعنى عندَهُم.

وهل ﴿لَدَيْهِمْ﴾ صِلةُ الموصولِ أو متعلقُها صلةُ الموصولِ؟

مُتَعَلقُها هو صِلة الموصولِ؛ لأَنَّ (لَدَى) ظرفٌ، بُنِيَ عَلَى السُّكونِ هنا لإضافَتِه

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب السنة، باب شرح السنة، رقم (٤٥٩٦)، والترمذي: أبواب الإيمان، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة، رقم (٢٦٤٠).

إِلَى الهاء، وإِلَّا فأصلُها مبنيٌّ عَلَى فَتْحٍ مُقَدَّرٍ عَلَى آخِرِه، تقولُ: (جَلَسْتُ لَدَى زَيْدٍ) أي عِنْدَهُ، لكنْ هنا أُضِيفَ إِلَى الهاء، مثل: (إلى) أُضِيفَتْ إِلَى الهاء، يُقال فيها: (إليه)، و(على) يُقال فيها: (عليه)، وتقدَّم أنَّ الصلةَ هي متعلقُ الظَّرف، والجارُّ والمجرورُ يُقَدَّرُ فِعْلًا، بخلافِ خبر المُبتدأ فإِنَّهُ يُقَدَّرُ اسمًا، فإذَا قُلْت: (زَيْدٌ عِنْدَكَ) فالتَّقديرُ: (زَيْدٌ عِنْدَكَ كَائِنٌ، أَوْ مُسْتَقِرٌّ)، وإِذَا قُلْت: (أَكْرَمْتُ الَّذِي عِنْدَكَ)، أقولُ: (الَّذِي اسْتَقَرَّ عِنْدَكَ)، والفرقُ بَيْنَهُما أنَّ الأصلَ في خبرِ المبتدأ أنْ يكُونَ مفردًا يعني لا جُمْلة، وأمَّا صلةُ الموصولِ فالأصلُ أنْ تكونَ جملةً، عَلَى أنَّه يجوزُ أنْ تُقَدِّرَ (مُسْتَقِر) في صلةِ الموصولِ، لكنْ إذا قَدَّرْتَ المُسْتَقِرَّ في صلةِ الموصولِ فإِنَّهُ يجبُ أنْ تُقَدِّرَ مبتدأً لتكونَ جملةً، ومنْ أجلِ هَذا قلنَا: إنَّ الأَوْلى أنْ يقدِّرَ مِنَ الأصلِ فِعْلًا حتى لا يحتاجَ إِلَى تقديرِ مُبْتَدأ.

قوْله تَعالَى: ﴿فَرِحُونَ﴾: خَبَرُ ﴿كُلُّ﴾. وقالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مَسْرُورُونَ]، لكن هَذا الفَرَحُ إنما وصفهم الله عَزَّوَجَلَّ به لأَنَّ مَنْ فَرِحَ بشيءٍ لازَمَهُ، ولكنَّهُ فَرَحٌ مذمومٌ لأَنَّهُ فرحٌ بباطلٍ، والفَرَحُ بالباطلِ لا شَكَّ أَنَّه باطلٌ، لكنْ لو فَرِحُوا بما عندهُم من الحقِّ لَكَان فرحًا مسرورًا؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨]، فالفرحُ لا يُذَمُّ من حيْثُ هو فرحٌ، ولكنه يُذَمُّ من حيْثُ مُتَعَلَّقه فإن كان فرحًا بباطلٍ فهو مذمومٌ، وإن كان فرحًا بحقٍّ فهو محمودٌ، أمَّا الأَشَرُ والبَطَرُ الَّذي يَنتجُ عن الفرح فَهَذَا مذمومٌ بكلِّ حَالٍ، حتى لو كان فرحُ الإنسانِ بحقٍّ وأدَّاهُ ذَلِك الفرحُ إِلَى الأَشَرِ والبَطَرِ، مثل أنْ يفرحَ بما أعطاهُ الله من المالِ والبنينَ لكِنَّهُ -وَالعياذُ بِاللهِ- يتخذُ من هَذا وسيلةً إِلَى العُلُوِّ والاسْتِكْبارِ، فإنَّ ذَلِك فَرَحٌ مذمومٌ لِنَتيجَتِه لا لِذَاتِه.

وقوْله تَعالَى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ إذا طَبَّقْناهُ الآن عَلَى الأحـزابِ الموجودةِ وأنَّ كلَّ حزبٍ فَرِحٌ بما هو علَيْه مُسْتَمْسِكٌ به مُدَافِعٌ عنه مُوهِنٌ لِغَيرِهِ وَجَدْنَا أنَّ الآيَةَ تَنْطَبِقُ تمامًا عَلَى ما يوجدُ الآن مِنَ الأحزابِ وَلا سِيَّما في الأمةِ العربيةِ، الأمةُ العَربِيَّةُ الآنَ مُتَحَزِّبَةٌ، كلُّ حزبٍ فَرِحٌ بما عندهُ، لكنَّ الأمةَ الإسْلامِيَّةَ لا تَتَحَزَّبُ لأنَّهَا حزبٌ واحدٌ هو الإسْلامُ حتى لو اختلفَتْ آراؤهُم، هَذا شافعيٌّ وَهَذا مالكيٌّ وَهَذا حنفيٌّ وَهَذا حنبليٌّ وَهَذا ظاهريٌّ وما أَشْبَهَ ذَلِكَ، فإنها في الحقيقةِ مُتَّفِقَةٌ؛ لأَنَّ كل واحدٍ من هَذِهِ الأحزابِ لا يُضَلِّلُ الآخرَ، بل إنَّه يمدحُه إذا خالَفه بمقتضَى الدَّليلِ عنده، الإنسانُ العاقلُ المؤمنُ حَقًّا هو الَّذي إذا خالَفه غيرُه بمقتضى الدّليلِ عنده لا يَكْرَهُه بل يَحْمَدُه عَلَى هَذِهِ المخالفةِ؛ لأَنَّهُ ما خالَفني لأني فُلان، خالَفني لأَنَّهُ يعتقدُ أنَّ الحقَّ معه، وَهَذا هو الواجبُ عليه، وواجبٌ عَلَى كلِّ مؤمنٍ أنْ يتبعَ الحقَّ إذا تَبيَّنَ له ولو خَالَفَ غيره.

إِذَنْ: فالطَّريقُ واحدٌ ولو اختلفَ المِنْهَاجُ؛ لأننا كلنا نُحَكِّمُ الكتابَ والسُّنةَ، وكلنا نعتقدُ أنَّ هَذا هو الحق، فلماذا أَكْرَهُه لأَنَّهُ خالَفني؟ والله تَعالَى يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، نَعَمْ مَنْ تَبيَّنَ لهُ الحقُّ وأصرَّ وعاندَ وعَلِمْنَا أنَّه مُجادِلٌ بالباطلِ فَهَذَا يَنزِلُ مَنزِلتَه، وَهَذا هو الميزانُ في قولهم: (لا إِنْكَارَ فِي مَسَائِلِ الاجْتِهَادِ)، فإن هَذِهِ العبارةَ اشتهرَتْ عَلَى الألسُنِ لكنها ليستْ عَلَى إطلاقِها؛ لأَنَّ مسائلَ الاجتهادِ نوعانِ:

أحدهُما: ما يَحْتَمِلُه الاجتهادُ، فَهَذَا لا إنكارَ فيه لأَنَّ كلَّ إِنْسَانٍ إذا اجتهدَ؛ إِنْ أصابَ فلهُ أَجْرانِ، وإِنْ أخطأَ فلهُ أَجْرٌ، ولا يمكِنُ أنْ نَزِنَ النَّاسَ بميزانٍ واحدٍ؛ لأَنَّ العِلْمَ بالأحكامِ الشّرعيةِ يَتَفَاوَتُ بحسبِ الإِيمان وحسب العلمِ وحسب الفَهْمِ،

فالعلمُ بالأحكامِ الشَّرعيةِ يَتفَاوَتُ بهذه الثَّلاثةِ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يكونُ معه إيمـانٌ صافٍ حتى يرى الحقَّ عَلَى ما هو علَيْه ويُفتح له بابُ الهِدايةِ، ومِنَ النَّاسِ مَنْ يكونُ في إيمانِه ضَعْفٌ فيُحجَبُ عنه مِنَ الهِدايةِ بِقَدْرِ ما نقص من إيمانه، فالإيمان له أثرٌ كبيرٌ حتى في العِلم، كما قال الشَّافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

شَكَوْتُ إِلَى وَكِيعٍ سُوءَ حِفْظِي ... فَأَرْشَـدَنِي إِلَى تَـرْكِ المَعَـاصِي

وَقَـالَ اعْلَـمْ بِـأَنَّ العِلْـمَ نُـورٌ ... وَنُـورُ الله لَا يُؤْتَـاهُ عَـاصِ

والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ [الأنفال:٢٩]، ولا فُرقانَ إلا بعلمٍ، فالنّاسُ يختلفونَ في هَذا اختلافًا عظيمًا بحسبِ ما معهم من الإيمان والتَّقوى.

كذلك أيضًا يختلفُ النَّاس في العلم، مثلًا رجلانِ أحدُهما يعرفُ كُتُبَ السُّنة -البُخاري ومُسلم وغيرها من كُتب السُّنة- والثاني لا يعرفُ شيئًا، فلا شك أن الأولَّ أَعْلَمُ.

والثَّالثُ الفَهْم، فإنَّ النَّاسَ يختلفونَ فيه اختلافًا عظيمًا؛ وَلِهَذا قِيلَ لِعَلِيِّ بنِ أبي طَالِبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: هَلْ عَهِـدَ إِلَيْكُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِشَيْءٍ؟ فَقَالَ: «مَا عَهِـدَ إِلَيْنَا بِشَيْءٍ إِلَّا مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ، أَوْ فَهْمًـا يُؤْتِيهِ الله تَعالَى فِي القُرْآنِ»[2]، ولا شك أن النّاسَ يختلفونَ في الفهمِ، حتى إنَّ النَّصَّ الواحدَ تجدُ بعضَ النَّاسِ يَسْتَنْبِطُ منهُ عَشْرَ مَسَائِلَ، وآخر لا يستنبطُ إلا مسألتينِ أو ثلاثة، وثالث يقول: أنَا أقرأُ لكم الحديثَ وعليكم الاسْتِنباط.

---

(١) ربيع الأبرار ونصوص الأخيار (٤/ ٨٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب كتابة العلم، رقم (١١١).

فالحاصِلُ: أنَّ النّاسَ يَخْتَلِفُونَ لِذَلِكَ، أهل السُّنةِ والجماعةِ، والمسلمونَ عُمُومًا يقُولونَ: إنَّ اختلافَنا في الآراءِ ليس اختلافًا في الدِّينِ؛ لأننا كلنا عَلَى هَدَفٍ واحد ولا يُضَلِّلُ بعضُنا بعضًا إلا مَنْ عَلِمَ الحَقَّ وتَبَيَّنَ لهُ وعَلِمْنَا أنَّه مُعَانِدٌ.

قوْله تَعالَى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَفِي قِرَاءَةٍ: «فَارَقُوا» أي: تركوا دينَهُم الَّذي أُمِروا به].

قوْلهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [في قراءة]، أي: قراءة سَبْعِيَّة؛ لأَنَّ اصطلاحَ المُفَسِّر إذا قَالَ: (في قراءة) فهي سبعيَّة، وإذا قَالَ: (قُرِئَ) فهي شاذَّةٌ، هذا اصطلاحُ صاحبُ الجلالينِ، أمَّا غيرُه إذا قَالَ: (قُرِئَ) فقد تكونُ سبعيَّة أحيانًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: أنَّ الخِطابَ للرسولِ ﷺ خطابٌ له ولأمتهِ؛ تُؤخَذ مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿مُنِيبِينَ﴾.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: وُجوبُ التَّقوى؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: وُجوبُ إقامةِ الصَّلاةِ؛ لقوْلِه تعالَى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

الفائِدَةُ الرَّابِعَةُ: شَرَفُ الصَّلاة وفضلُها؛ لقوْلِه تعالَى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ خَصَّهَا.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: النَّهيُ عن الشِّرك صَغِيره وكبيرِه؛ لقوْلِه تعالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

الفائِدَةُ السَّادِسَةُ: شدةُ التَّنفيرِ من الشِّركِ؛ نأخُذها مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟

مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾، بعدَ قوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ فإنَّهُ لا شك أنَّ تَرْكَ الشِّـرْكِ من التَّقوى، لكن هَذا يكون عطفَ خَاصٍّ عَلَى عامٍّ.

الفائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ أهلَ الشِّركِ من شأنِهم ودَأْبِهم وعادتِهم التَّفَرُّقُ في الدِّين؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ ﴾.

الفائِدَةُ الثَّامِنَةُ: التَّنبيهُ عَلَى أنَّه لا ينبغِي للمؤمنينَ أنْ يَتَفَرَّقوا في دينِهم؛ لقوْلِه تعالَى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ ﴾، والرَّسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أخبرَ أنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ سَتَتَّبِعُ سَنَنَ مَنْ كان قبْلها، ومع ذَلِكَ فاتباعُ سَنَنِ مَنْ قبلها مُحَرَّمٌ فَهَذَا أيضًا مثلُه، هَذا التَّفرق وإن كان موجودًا قَدَرًا لكِنَّهُ غيرُ محبوبٍ إِلَى الله شرعًا، وكانت هَذِهِ الأمةُ أكثرَ تفرقًا وإن كانت ليست أكثرَ تفرقًا في الواقعِ، لكن لما كانت ستتبعُ سَنَنَ مَنْ كان قبلها صارَ لا بُدَّ أنْ يكُونَ لها اثنتانِ وسبعونَ فِرقةً، يبقى من لم يتَّبع الفِرَقَ السَّابقةَ وهي واحدةٌ وهي الثَّالثة والسَّبعونَ، هَذا السَّبب في أن هَذِهِ الأمة ستفتـرقُ عَلَى ثلاثةٍ وسبعيـنَ فرقةً لأَنَّ اليَهُودَ واحدٌ وسَبْعُونَ، والنَّصارى اثنتانِ وسبعونَ فرقةً، والرَّسول ﷺ لما قالوا: اليَهُود والنَّصارى؟ قَالَ: «فَمَنْ»[1]، فَهَذَا يدلُّ عَلَى أنهم هَؤُلاءِ.

ويحتملُ أنْ يكُونَ معنى (فَمَنْ) باعتبارِ الجِنْس، يعني: هَؤُلاءِ وغيرهم، لكن حديث: «افْتَرَقَتِ اليَهُودُ... وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَى»[2]، يدلُّ عَلَى أنهم يُشْبِهُونَ هَؤُلاءِ.

والحاصلُ: أنَّ هَذِهِ الأمةَ ثلاثةٌ وسـبعونَ فرقةً، منْهَا اثنتان وسـبعون مُتَّبِعَةٌ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم»، رقم (٧٣٢٠)، ومسلم: كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى، رقم (٢٦٦٩).

(٢) سبق تخريجه.

لليهودِ والنَّصارَى، ومنها واحدةٌ سالمةٌ ناجيةٌ.

وعَلَى كُلِّ حَالٍ: فقد حاولَ بعضُ العُلَماء أن يَعُدَّ الفِرَقَ، حاولوا أن يَعُدُّوها فقسموا بحسبِ أصولِ البِدَعِ إِلَى خمسةِ أقسامٍ، ثمَّ فرَّقوا هَذِهِ الأقسامَ حتى أوصلوها إِلَى اثنتينِ وسبعينَ فرقةً، ولكن المسألةَ فيها نظرٌ؛ لأننا لا ندري هَذِهِ الفِرَقَ. فإِلَى الآن لم تَقُم القيامةُ، وقد توجد فِرَقٌ لم توجد الآن تنتسبُ إِلَى الإسْلام وهي بعيدةٌ منه.

الفائِدَةُ التّاسِعَةُ: أنَّ التَّفرق في الدِّين مُشابِهَةٌ للمُشْرِكِينَ، فأولئك الَّذِينَ يتفرقونَ في دِينِهم من أَجْل مسائلَ بسيطةٍ من فروعِ الدِّين القليلة أيضا، هَؤُلاءِ فيهم شَبَهٌ من المُشْرِكِينَ تجد بعض النّاس يعادي صاحبَه أو أخاهُ من أجل أنَّه لا يطبِّق سُنَّةً يراها، وَهَذا التّارك لها لا يراها، هَذا خطأ؛ لأَنَّهُ تقدَّمَ أنَّه يجب عَلَى الإنسانِ ألا يجعلَ الخلافَ المبنيَّ عَلَى الاجتهادِ سببًا للنزاعِ والبغضاءِ والتَّفرُّقِ، بل العاقلُ يرى أن مَنْ خالَفه من أجلِ قيام الدَّليل عنده فهو في الحقيقةِ موافقٌ له؛ لأَنَّ السَّبيل والمِنْهاجَ واحدٌ، كلنا نمشي عَلَى الدَّليل.

إِذَنْ: فأَنْتَ مُوافِقٌ لي والمنتهى واحدٌ، وإِنِ اختلفَت الطُّرُقُ.

الفائِدَةُ العاشِرَةُ: أنَّ أحزابَ المُشْرِكِينَ مستمسِكونَ بما هم علَيْه؛ لقوْلِه تعالَى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾.

الفائِدَةُ الحادِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ أولئك الَّذِين أُوتوا شيئًا من العلوم العصريةِ وفَرِحوا ورَفَعوا رؤوسَهم فِيهِم شَبَهٌ من المُشْرِكِينَ؛ لأَنَّ هنا أناسًا -والعياذُ باللهِ- أُوتوا شيئًا من العلوم العصريةِ فاحتقروا الدِّين واحتقروا العلوم الشَّرعية، وصاروا فرحين بما أوتوا فضلُّوا، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [غافر:٨٣]، تجدُ الواحدَ منهم إذا أدركَ مسألةً من

مسائلِ الكونِ البسيطةِ رأى كأنه أدركَ تفاسيرَ القرآنِ وأمهاتِ السُّنة، وأنه هو العالِمُ الحَبْرُ الَّذي لا يوجد له نَظِيرٌ واحتقرَ مَنْ سِوَاهُ، وهذه مشكلةٌ وقَع فيها بعضُ النَّاس اليوم.

الفائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّه لا يجوز التَّحَزُّبُ في الدِّين والتَّشيع فيَكون في هَذا ذَمٌّ لأولئك المتعصبينَ لمذاهبهم لأنهم يُشَيِّعُون النّاسَ في الواقعِ، حتى إنَّ بعض المُفْتينَ إذا استُفتي قال عَلَى أي مذهب تُريدُ أنْ أفتيَكَ، المذهب الشَّافعي، أم المالِكي، أم الحنبلي إلَى آخره؟ وَهَذا لا شك تفريقٌ للأمةِ؛ وَلِهَذا ذكروا فيما سبق في التّاريخ أنَّه يحصلُ إلَى حَدِّ القتالِ بين أصحابِ المذاهبِ المتبوعةِ، وأئمَّةُ هَذِهِ المذاهبِ لا يَرْضون هَذا أبدًا، ولا يرضون لأحدٍ أن يُقَدِّمَ أقوالَهم عَلَى قولِ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أو أنْ يجعلَ أقوالَهم مَسارًا للنزاعِ والجَدَلِ والعداوةِ والبَغْضَاءِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: الَّذِينَ يُقَلِّدُونَ الكُفَّارَ أَلا يَدْخُلُونُ في هَذِهِ الفِرَقِ؟

الجوابُ: لا، لا يَدخُلونَ؛ لأَنَّ هَذا خلافٌ في فرعٍ من الفروعِ لا بُدَّ أنْ يكُونَ هناكَ أصلٌ يشتركونَ فيه.



الآيــة (٣٣)

• • ◦ • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم:٣٣].

• • ◦ • •

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ﴾ أي كُفَّارَ مكَّةَ ﴿ضُرٌّ﴾ شدةٌ ﴿دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ﴾ راجعينَ ﴿إِلَيْهِ﴾ دون غيره ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ بالمَطر ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾].

المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ خصَّ هَذِهِ الآيَة من وجهيْنِ:

- من جهة المراد بها.
- ومن جهة الضُّر.

فقَالَ: [﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ﴾: أي كُفَّارَ مكةَ] وَهَذا ليس بصحيحٍ، بل النَّاس عُمُومًا.

وهل المرادُ بالنَّاس عُمُومهم؟

ننظر الحالة الَّتي تحدث الله عنها هل تنطبق عَلَى المؤْمنينَ أو خاصة بالكفار؟ فإنها خاصةٌ بالكفار.

إِذَن: النَّاس من حيْثُ هم ناس، أو نقول: المراد بالعُمُوم هنا الخصوص، وهم الكفَّار؟ فعندنا الآن وجهان:

الوَجْهُ الأَوَّلُ: أَنْ نقولَ المراد بالنَّاس النَّاس من حيْثُ هم ناس بقطعِ النَّظر عما يتصفونَ به من الإيمان أو الكفرِ.

الوَجْهُ الثَّاني: أنَّ المرادَ بالنَّاس الكفَّارُ فيكون عامًّا أُريدَ به الخاصُّ، مثل قوْله تَعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾ [آل عمران:١٧٣]، ﴿ٱلنَّاسُ﴾ الأولى يراد بها واحد وهو نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ أو غيرُه. وقوْله تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟﴾ المرادُ بـ﴿ٱلنَّاسَ﴾ الثَّانية واحد وهو أَبُو سُفْيَانَ أو جنسُ أتباعِه.

المُهِمُّ: أن كلمة ﴿ٱلنَّاسَ﴾ في قوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ﴾ المرادُ بها أحدُ أمرين:

- إِمَّا أن يراد بها الكافرون عينًا.
- أو المُؤْمِنُونَ والكَافِرُونَ، وهذا لا يصح؛ لأَنَّ الحال الَّتِي ذكر الله لا تنطبق عَلَى المُؤْمِنِينَ.

ثانيًا: يقولُ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ضُرٌّ﴾ شدة] ثمَّ قَالَ: «إِذَا أَصَابَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةٌ؛ بِالمَطَرِ].

إذا قُلْنَا: الرَّحمة مطرٌ صارت الشِّدةُ القحطَ، وهو عدمُ المطرِ، والأمر ليس كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بل هو أعم؛ لأَنَّ كلمةَ ﴿ضُرٌّ﴾ نكرةٌ في سياق الشَّرط، فتكونُ للعُمُومِ، أَيُّ ضر يكون سواء قَحْط أو مرض أو فَقْدُ مالٍ أو غيرُ ذَلِك، فإنهم عندما يُصابونَ بضرٍّ ﴿دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ﴾ راجعين إليه؛ كقوْله تَعالَى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت:٦٥]، فإذا أُصيبوا بالشِّدة عرفوا الله، خلاف ما أمر به النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في قوله: «تَعَرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ»(١)،

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٠٧).

فالَّذي لا يعرفُ ربَّه إلا في الشَّدة لم يعبدْ ربَّه رغبةً، وَهَذا الَّذي تحدَّثَ الله عنه أخفُّ حالًا ممن إذا أصيبوا بالشِّدة دَعَوُا المخلوقَ، هَؤُلاءِ أقبحُ ممن تحدثَ الله عنهم.

وقوله: ﴿مُخۡلِصِينَ﴾ حالٌ من فاعل ﴿دَعَوُاْ﴾.

وعندنا إشكالٌ في ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ﴾، لماذا ضمَّ الواوَ مع أن الواو ساكنةٌ؟

والجوابُ: حُرِّكت لالتقاءِ السَّاكنين.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: التّحريك لالتقاءِ السَّاكنين يكونُ بالكسرِ مثل ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [البينة:١].

قُلْنَا: لكن الكسر لا يناسب الواوَ، ويناسبها الضَّم، فعلى هَذا نقول: حُركت بالضَّم لالتقاءِ السَّاكنين، فالواو والياء إذا تحرَّكَا بالفتحة فإنها تظهر عليهما، لكن إن تحرَّكَا بالضَّم والكسرة فإنهما تقدران حيث يمنع من ظهورها الثِّقل.

لكن لا ثقل في قوله تعالى: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ﴾، بل تُنطق بسهولة؛ والسَّبب أن هَذِهِ الضَّمة عارضة للتخلص من التقاءِ السَّاكنيـن، أما قوله تعالى: ﴿دَعَوۡاْ رَبَّهُم﴾ فليس فيها إشكالٌ.

وقوْله تَعالَى: ﴿دَعَوۡاْ رَبَّهُم﴾: كلمةُ (رَب) بمعنى الخالِق المالِك المدبِّر، والرُّبُوبِيَّة تقتضي خَلْقًا، فالَّذي أوجد النَّاس هو الله، والمالكُ هو الله ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [المائدة:١٢٠]، وهو مدبِّرٌ ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾ [يونس:٣]، هَذا هو الرَّب قَالَ: ﴿دَعَوۡاْ رَبَّهُم﴾ لما وقعوا في الشِّدة عَرَفوا أنَّ الأمورَ بيدِه فَدَعَوْهُ.

وقوْله تَعالَى: ﴿مُخۡلِصِينَ﴾: حالٌ من الواو.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مُّنِيبِينَ﴾ راجعين ﴿إِلَيْهِ﴾ دونَ غيرِه ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ بالمَطَرِ ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾].

﴿أَذَاقَهُم﴾ يعني أصابتهم الرَّحمة حتى يتحقَّقوها كما يتحققُ الإنسانُ الطَّعامَ في فمِه، وَلِهَذا عبَّر بالإِذَاقَةِ، وإن كان هَذا لا يُذاق لأَنَّهُ لا يدخل في الفم لكن لِتَحَقُّقِ إصابتِه صار كالشَّيء الَّذي يُؤكلُ فَيُذاقُ.

وقوْله تَعالَى: ﴿مِّنْهُ رَحْمَةً﴾: المراد بالرَّحمة ما يقابل الضُّر، ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ﴾ ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ فمثلًا إذا كان الجدبُ فالمرادُ بالرَّحمة المطرُ والخِصْبُ، وإذا كان مرضًا فالمرادُ بها الشِّفاءُ، وإذا كان فقرًا فالمرادُ بها الغِنى، فالمُهِمُّ: أَنَّه يُقابل بالضُّرِّ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ﴿أَذَاقَهُم﴾ ألا يدل اللفظ عَلَى عدمِ الاستمرار، يعني مجرد وقت قليل، أذاقهم الرَّحمة فنكَصُوا؟ وهذا مفهومٌ مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿إِذَا فَرِيقٌ﴾، لأَنَّ ﴿إِذَا﴾ فُجَائية.

وقوْله تَعالَى: ﴿إِذَا﴾: فُجَائية، وهي حرف مع أنَّ ﴿إِذَا﴾ الشَّرطية اسم؛ لأَنَّ ﴿إِذَا﴾ الشّرطية نابَت مَنابَ اسمِ الشَّرط، وأما ﴿إِذَا﴾ الفجائية فنابت مَناب الفاء، والفاءُ حرفٌ.

وقوْله تَعالَى: ﴿فَرِيقٌ﴾ مبتدأ، وقوْله تَعالَى: ﴿يُشْرِكُونَ﴾ خبر جملة.

وهنا نسأل: لماذا جاء المبتدأ نكرةً وابن مالِكٍ يقول[1]:

وَلَا يَجُوزُ الِابْتِدَا بِالنَّكِرَة   مَا لَمْ تُفِدْ.....................

(١) ألفية ابن مالك (ص:١٧)، ط. دار التعاون.

الجوابُ: لأنَّهَا أفادتْ، وبالخصوص نقولُ: لأنَّهَا وقعتْ بعد ﴿إِذَا﴾ الفجائية، فإذا جاءَ المبتدأُ بعد ﴿إِذَا﴾ الفجائية فلا بأسَ أنْ يكُونَ نكرةً.

وقوْله تَعالَى: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾، وقال هنا: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ﴾ يعني وفريقٌ آخَرُ لا يشركُ، مع أنَّه في آيةٍ أخرى يقول: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت:٦٥]، وفي آية ثالثة ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان:٣٢]، فهل نقول: إن الآيات الَّتِي يقول الله فيها: ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ تُحمل عَلَى المُشْرِكِينَ، والآيات الَّتِي فيها ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ أو ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ تنزل عَلَى العُمُوم؟

والجوابُ: هَذا الإِشكالُ ما وَرَدَ عِنْدي إلَّا الآن لَمَّا وصلنا آخرَ الآية وإلَّا ففي الأول قرَّرنا أنَّها للمُشْرِكِينَ أو النَّاس من حيْثُ هم ناسٌ ولكن لما قَالَ: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ صَارَ عندي تَرَدُّدٌ، هل الآيَةُ عامة فنقول: إن المؤْمنينَ إذا أُصيبوا بالضَّراء لا شك أنهم يلجؤونَ إِلَى الله أكثرَ كما هو مُشاهد؛ وَلِهَذا قال الرَّسول ﷺ: «تعَرَّفْ إِلَى الله فِي الرَّخاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ»[1]، فَهَذَا دليلٌ عَلَى أنَّ الإنسانَ في حال الرَّخاءِ قد يحصُل منه غفلةٌ عن الله عَزَّوَجَلَّ وعَدَمُ تعَرُّفٍ، لكن في حال الشِّدة يلجؤونَ إِلَى الله عَزَّوَجَلَّ، قال النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في الخُسوف: «إِنَّ الله يُخَوِّفُ بِهِمَا عِبادَهُ فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا فَافْزَعُوا إِلَى ذِكْرِ الله»[2]، فالآية تحتاج إِلَى تأمُّلٍ.

والَّذي يبدو لي الآن أن الآياتِ الَّتِي يقولُ الله فيها: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ﴾ ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ تكون خاصَّةً بالمُشْرِكِينَ، أمَّا الآياتُ الَّتِي يقولُ الله فيها: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري: أبواب الكسوف، باب الذكر في الكسوف، رقم (١٠٥٩)، ومسلم: كتاب الكسوف، باب ذكر النداء بصلاة الكسوف الصلاة جامعة، رقم (٩١٢).

و﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ فإنها تصلحُ للعُمُوم؛ لأَنَّ النَّاس -حتى المؤْمِنينَ- إذا أصابهم الضُّرُّ صار عندهم من الرُّجوع إِلَى الله عَزَّوَجَلَّ واللجوء إِلَيْهِ أكثر. فصلاةُ الاستقساءُ رجوعٌ إِلَى الله وإنابةٌ أكثر، ومثلها صلاة الكُسوف، وحتى أَنْتَ بنفسك إذا وقعتَ في شدةٍ تجد عندك من اللجوء إِلَى الله عَزَّوَجَلَّ والافتقار أكثرَ مما إذا كنت في رخاء.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدتانِ الأولى والثَّانية: أَنَّ طبيعةَ الإنسان عند الضَّراء اللجوءُ إِلَى ربِّه لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾، ويتفرعُ عَلَى هَذا أَنَّ أولئك الَّذِين إذا مسَّهم الضُّر لجَؤوا إِلَى غير الله أنهم خالَفوا جميع فِطَرِ البشر لأَنَّهُ يوجد ناس الآن إذا وقع في ضر ما دعا الله، بل يدعو الولي الَّذي يتبعه، أو الَّذي يراه وليًّا، وإذا وقع في الأمر الهَيِّن دعا الله فيجعلون الشَّدائد لمن لا يستطيع أن يدفع عنهم شيئًا أبدًا، بل ولا يستجيب له، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الأحقاف:٥]، بخلافِ النَّاس -حتى غير المسلمين- إذا وقعوا في شِدَّةٍ لا يلجؤُون إلا إِلَى الله عَزَّوَجَلَّ.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: أَنَّ أولئك الَّذِين يلجؤون إِلَى ربهم في الشَّدائد إذا زالت عنهم الشَّدائد وأصيبوا بالرَّحمة انقسموا إِلَى قِسْمَيْنِ:

- منهم مَنْ يشركُ ويبقى عَلَى شركه.
- ومنهم مَنْ يبقى عَلَى إيمانه إذا كان من المُؤْمِنِينَ.

الفائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ أولئك المُشْرِكِينَ لا يتأنَّون في شركهم بعد أنْ ينجوا من الشِّدة، بل يستمرون عليْه فورًا؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾؛ لأَنَّ ﴿إِذَا﴾ فجائية.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: الرَّد عَلَى أولئك الَّذِين يقدمـون أولياءهم أو أولئك الَّذِين لا يلجؤون إِلَى أحد.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: إثْبَات الرّحمة لله؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: التَّنديد بإشـراكِ هَؤُلاءِ؛ لأَنَّهُ قَالَ: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ﴾ فكيف يليقُ بهم أن يشركوا بربهم الَّذي خلقهم؟ لأَنَّ الخالِق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يجب أن تكون العبادةُ له وحده.

الفائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن الشَّرَّ لا يُضاف إِلَى الله، ولكن يرد عَلَى هَذا بالنِّسبة للضرر والنَّفع؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾، إنما الشَّرُّ مطلقًا لا يضاف إِلَى الله، وإنما يضاف إِلَى المخلوقات المفعولات.



الآيتان (٣٤، ٣٥)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴾ [الرّوم:٣٤-٣٥].

قولُه تعالى: ﴿ لِيَكْفُرُواْ ﴾: (اللام) هنا للعاقبةِ، يعني أنهم بإشراكِهم صارَ عاقبتُهم الكفرَ بما آتاهم الله عَزَّوَجَلَّ وقوله: (آتاهُم) أي أعطاهُم.

وهل الباء في ﴿بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ للسببيَّة، أو للتخصيص بمعنى أنهم يَكْفُرُونَ بِهَذا الشَّيء؟

الجوابُ: يحتملُ أنْ تكونَ للسببيةِ، أي بسببِ ما آتاهم الله تَعالَى من الرَّحمة والإنقاذ من الشّدة، صار ذَلِك سببًا لأشرهم وبطرهم وكفرهم، كما هي عادة الإنسان إلا من عصمه الله عَزَّوَجَلَّ أو يُقَال: ﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ﴾، أي: يكفروا بِهَذا الشَّيء الَّذي آتيناهم حيثُ لا يؤدونَ شُكرَه، وكان الواجبُ عليهم أن يؤدوا الشُّكر للهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

وقوْله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾: هَذا يسمونَه في البلاغة التِفاتًا، يعني لم يقل: وليتمتعوا، كما قال في آية أخرى، ولكنه أمرهم أنْ يتمتعوا، والأمرُ هنا للتهديدِ كما قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ﴾ أُريدَ به التَّهديد ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾]؛ فالأمر هنا للتهديد وليس للإباحة، والدَّليل عَلَى ذَلِك قوْله تَعالَى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

ثُمَّ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عَاقِبَةُ تَمَتُّعِكُمْ، فِيهِ التِفَاتٌ عَنِ الغَيْبَةِ].

الغَيْبَة ﴿لِيَكْفُرُوا۟﴾، والالتفاتُ له فائدتان:

الفائدةُ الأولى: فائدةٌ لازمة في كل التفاتٍ، وهي التَّنبيهُ؛ لأَنَّ الكلام إذا كان عَلَى نسق واحد استمر الإنسان فيه مُنساقًا معه، فإذا اختلفَ انتبَه: لماذا اختلف السِّياق؟ لماذا كانت الجملةُ للغائب ثمَّ صارتْ للمُخاطبِ أو بالعكس؟ فيقفُ ويحصل بذلك تَأَمُّلٌ.

أما الفائدةُ الثَّانية: فإنها تختلف بحسب السِّياقِ، وهي في هَـٰذِهِ الآيَـة: أنهم إذا قُوبِلوا بالأمر ﴿فَتَمَتَّعُوا۟﴾ صار أشدَّ وأبلغَ تهديدًا مما إذا قال: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا۟﴾ [العنكبوت:٦٦].

وقوْله تَعالَى: ﴿فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: قد قيل إنَّ (سوف) تفيدُ التَّحقيق، لكنها تفيد أيضًا التَّراخي بخلاف السِّين، فإنها تفيد التَّحقيق والفورية، وكل شيء بحسبه، وإنما كان كَذَلِكَ هنا لأَنَّ أشد العقابِ الَّذي يأتيهم سيكون يوم القيامة وهو متأخر.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَمْ﴾ بمعنى همزة الإنكار ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنًا﴾ حُجَّةً وَكِتَابًا ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ تَكَلُّمَ دَلالَةٍ ﴿بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾ أيْ يَأْمُرُهُمْ بِالإِشْرَاكِ! لَا].

﴿أَمْ﴾ هنا يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بمعنى همزة الإنكار]؛ وَهَذا أحدُ القولين فيها، والقول الثَّاني: أنَّها بمعنى (بَلْ) و(الهمزة)، فتكون مفيدةً للإضراب، وهنا الإضراب الانتقالي يعني: بل أنزلنا عليهم سلطانًا، والاسْتِفْهام إذا كان للإنكار

فمعناه النَّفي، يعني: هل نحن أنزلنا عليهم سلطانًا يؤيد شركهم ويثبته ويقول إِنَّه حق؟ والجوابُ: لا، ما أنزلنا ذلك.

يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿سُلْطَٰنًا﴾ حُجَّةً وَكِتَابًا]، والحجة تسمى سلطانًا لأَنَّ المحتَجَّ بها له سلطةٌ عَلَى المحجوج؛ فلِهَذا تُسمى سلطانًا، كما قال الله تعالى: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ﴾ [يونس:٦٨]، أي حجة، واعلم أن السُّلطان يُطلق عَلَى عدة معانٍ، فيجمعها كلها السُّلطة عَلَى الشّيء، فتارةً تأتي بمعنى الحاكم كما جاء في الحديث: «فَإِن تَشَاجَرُوا فَالسُّلْطَانُ وَلِيُّ مَنْ لَا وَلِيَّ لَهُ»[1]، وَكَذَلِكَ: «إِنَّ الله يَزَعُ بِالسُّلْطَانِ مَا لَا يَزَعُ بِالقُرْآنِ»[2]، وتأتي (السُّلطان) بمعنى الحُجة وهو كثير، وتأتي بمعنى القُدْرَة مثل قوْله تَعالَى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [الرحمن:٣٣]، أي بقدرة وليس لكم قدرة، وكلها يجمعها هَذا المعنى السُّلطة الَّتِي بها السَّيطرة والغَلَبَةُ.

وقوْله تَعالَى: ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾؛ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تَكَلُّمَ دلَالَةٍ]؛ فهو يتكلم بلسان الحال وليس بلسان المقال، هَذا ما قاله المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ولكنه يحتمل أن تبقى عَلَى ظاهرها لأَنَّ الَّذي يَنزل من عند الله كلامُ الله، وكلامُ الله تَعالَى يصح أن ينسب الكلام إِلَيْهِ كما في قوْله تَعالَى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الجاثية:٢٩]، وكما في قوْله تَعالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النّمل:٧٦].

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب النكاح، باب النكاح، باب في الولي، رقم (٢٠٨٣)، والترمذي: أبواب النكاح، رقم (١١٠٢)، وابن ماجه: كتاب النكاح، باب لا نكاح إلا بولي، رقم (١٨٧٩).

(٢) أخرجه ابن شبة في تاريخ المدينة من قول عثمان بن عفان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ (٢/ ٩٨٨).

وقوْله تَعالَى: ﴿بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴾: (الباء) هنا للاختصاصِ أيضًا، أي يتكلم بِهَذا الشَّيء ويقول إنَّه حق.

والجوابُ: لا، إِذَنْ فليس عندهم حُجَّةٌ لا عقلية ولا فطرية، أمَّا العقلية فقد سبق أنَّ فطرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كلها الإِخْلاص لله، وأما الشَّرعية فإِنَّهُ لم يأتِ في كتابٍ من الكتب المُنَزَّلة أن الشِّرك حق، فجميعُ الكتب المنزلة وجميع الرُّسل المرسلين كلهم يقُولونَ: اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيره، وقال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥].

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: أن الله تَعالَى قد يجعلُ النِّعم سببًا للكُفر ويكونُ كفرهم عَلَى هَذا النَّحو؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾؛ لأننا ذكرنا أن اللام هنا للعاقبة.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: إثْبَات الأسبابُ إذا جعلنا (الباء) في قوْله تعالَى: ﴿بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ سببية، أمَّا إن جعلناها للاختصاص فليس فيها دليل.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: أن ما أصابنا من نِعَمٍ فإِنَّهُ من الله؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾.

الفائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تهديدُ الكَافِرينَ، وأنَّ انبساطَهم بنِعَمِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ضررٌ عليهم لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: بلاغةُ القرآن، وَذَلِكَ بالانتقال من الغَيْبَةِ إِلَى الخِطاب الَّذي يسمى في اصطلاح البلاغيين التِفاتًا.

الفائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثْبَات الجزاء؛ نأخذه مِنْ قَوْلِهِ تعالَى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾.

الفائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ أولئك المُشْرِكِينَ لَيْسَ لهم حجةٌ عَلَى شِركهم؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَنًا﴾.

الفائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ مَنْ صنع شيئًا بدليلٍ فلا لوم علَيْه؛ يُؤخذ مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَنًا﴾، يعني لو كان لهم سلطانٌ لا نلومهم ولا نعذبهم.

الفائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ المجتهدَ المتأوِّلَ لا إِثْمَ علَيْه لاعتماده في اجتهادِه عَلَى دليلٍ، يعني أنَّه استند إِلَى دليل، وَلِهَذا لم يُضَمِّن النَّبيُّ ﷺ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ الرَّجلَ الَّذي قتلَه بعد أن قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ[١]؛ لأَنَّهُ مُتَأَوِّلٌ، ولم يُلزِم عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ بقضاءِ الصَّلاة حين تيممَ عن الجنابة بالتَّقلب عَلَى الأرْض والتَّمرُّغ فيها[٢]؛لأَنَّهُ مُتَأَوِّلٌ، ولم يُلزِمِ المرأةَ المُستحاضةَ بقضاءِ الصَّلاة وهي تتركها وقت الاستحاضة[٣]؛ لأَنَّها مُتَأَوِّلَةٌ.

وعلى هَذا فكل مُتَأَوِّلٍ يظن أَنَّه عَلَى صواب فإِنَّهُ لا إثمَ علَيْه، لكن هل هَذا يشمل الأصولَ والفروعَ أو هو خاصٌّ بفروعِ الدِّين؟

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ: إنَّه يشملُ الأصولَ والفروعَ[٤]، وأنكرَ شيخُ الإسلام وتلميذُه ابنُ القَيِّمِ أَنْ يَكُونَ الدِّين منقسِمًا إِلَى أصول وفروع، وقال: إن هَذا التَّقسيمَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب بعث النبي ﷺ أسامة بن زيد إلى الحرقات من جهينة، رقم (٤٢٦٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال: لا إله إلا الله، رقم (٩٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التيمم، باب التيمم ضربة، رقم (٣٤٧)، ومسلم: باب التيمم، رقم (٣٦٨).

(٣) أخرجه أبو داود: كتاب الطهارة، باب من قال إذا أقبلت الحيضة تدع الصلاة، رقم (٢٨٧)، والترمذي: أبواب الطهارة، باب في المستحاضة أنها تجمع بين الصلاتين بغسل واحد، رقم (١٢٨)، وابن ماجه: كتاب الطهارة، باب ما جاء في المستحاضة التي قد عدت أيام أقرائها، قبل أن يستمر بها الدم، رقم (٦٢٢).

(٤) مجموع الفتاوى (١٣/ ١٢٥).

لا أصلَ له لا في الكتابِ ولا في السُّنة، فهذه الصَّلاة عند المقسمين من قسمِ الفروعِ وهي من آصلِ الأصولِ، هي الرُّكن الثَّاني من أركان الإسْلام، ومع ذَلِك هي عندهم من قسم الفروعِ، وأشياء يَخْتَلِفُونَ فيها وهي عِنْدَهُم من قسمِ الأصولِ، ويرونَ أنَّ للاختلافَ فيها مُساغًا كاختلافِهِم في رؤيةِ النَّبيِّ ﷺ ربَّه، واختلافهم في نَعِيمِ القبرِ وعذاب القبر في بعض الصُّور، وما أشبهَ ذَلِك مما هو من العقائد، ومع ذَلِك يرون أنَّ الاخْتِلافَ فيه سائغٌ.

فالشَّاهـدُ أنَّ المدارَ كلَّه عَلَى قاعدةٍ من قـواعدِ الشَّـرعِ، وَهِيَ قوْله تَعالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، فمَنِ اجتهدَ في طلبِ الحقِّ وتحرَّاه ولكنه لم يوفقْ له مع حُسْنِ النِّيةِ وصحةِ المَسْلَكِ فلا يمكن أنْ نقولَ: هَذا آثم، مثلًا يوجد عُلَمَاءُ أجِلَّاء نشهدُ لهم بالدِّينِ والصَّلاحِ وحُبِّ الإسْلامِ والانتصار للإسلام، ومع ذَلِك هم مخالِفونَ للسلفِ في العقيدةِ، ونحبهم ولا نؤثمهم كابنِ حَجَرٍ، وابن الجَوْزِيِّ، وَكَذلِكَ النَّوَوِيُّ، وطوائف من العلَمـاء معروفينَ بالصَّلاحِ والإصلاحِ وحب الخيـرِ، ونعلم أنهم مجتهدونَ، نَعَم الإنسانُ الَّذي تبيَّن له الحق ولكنه عانَد وأصرَّ فيُعامَل بما يقتضيهِ عنادُه وإصرارُه.

وهنا قوْله تَعالَى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَنًا﴾ هِيَ فِي مَسْأَلَة أُصُولِيَّة فِي الشِّرك، لو كَانَ لَهُم حُجَّةٌ يَعْتَمِدُونَ عَلَيْهَا مَا استحقوا العذابَ ولا اللومَ ولكنْ لَيْسَ لَهُم حُجَّةٌ.

الفائِدَةُ العاشِرَةُ: أنَّه لا بُـدَّ أنْ يكُونَ السُّلطانُ أو الحُجـة الَّتِي يحتجـونَ بِهَا واضحةً؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾، والتّعبيرُ بالكلامِ هُوَ أوضحُ مَا يَكُونُ مِنَ الإظهارِ.

الفائِدَةُ الحادِيَةَ عَشْرَةَ: ظهورُ عدلِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وإلَّا لكانَ عَزَّ وَجَلَّ يعذبُهم بدون أنْ يقيمَ عَلَيْهِمُ الحُجةَ، ولكنْ لإظهارِ عَدْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى صارَ يطالبُ بحُجةِ هَؤُلاءِ مَعَ العِلْم بِأَنَّهُ لا حُجَّةَ لَهُم، ومن هَذَا النَّوع المَوازينُ يَوْمَ القِيامَةِ، والكُتُبُ يَوْمَ القِيامَةِ، فكل هَذَا لإظهارِ عدلِ الله، وإلَّا فإن الله تَعالَى له الحُكْمُ وَإِلَيْهِ المُنتهى، قادرٌ عَلَى أنَّ يعذب بدونِ ميزانٍ وبدون كتابٍ، ولَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لكمالِ عدلهِ يُعطَى الإنسانُ كتابَه ويُقال له: ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٤]، قَالَ بعضُ السَّلفِ: «لَقَدْ أَنْصَفَكَ مَنْ جَعَلَكَ حَسِيبًا عَلَى نَفْسِكَ»[1]، لو كَانَ بينك وبينَ أحدٍ معاملةٌ من حسابٍ وصادرٍ ووارِدٍ، فقلتَ له: خُذِ الدَّفتر أَنْتَ وحاسِبْ، فلا شك أن هذا عدلٌ، بخلاف مَا لو أجملتَ الحساب وقلتَ: عليكَ كذا ولكَ كذا، وقد يَكُون فِي هَذَا شبهةٌ، لكن كونه يعطيكَ الدَّفتر ويقول: (أَنْتَ حَاسِبْ نَفْسَكَ)، فَهَذا غايةُ الإنصافِ.



---

(١) إيجاز البيان عن معاني القرآن لأبي القاسم النيسابوري (٢/ ٤٩٧).

الآيــة (٣٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ [الروم:٣٦].

• • ● • •

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ ﴾ كُفَّار مكَّة وغيرَهم].

هَذَا أحسنُ حيثُ جعلها عامةً، وأفادنا المُفَسِّر بقوله: [كُفَّار مَكَّة وغيرهم] أنَّ المرادَ بالنَّاسِ هُنَا الكفَّار، فيكونُ من بابِ العامِّ المستعملِ فِي الخاصِّ، والعامُّ المرادُ به الخصوصُ غيرُ العامِّ المخصوصِ، وفي أصولِ الفقهِ أنَّ العامَّ المخصوصَ غير العامِّ الَّذي أُريدَ بِهِ الخصوصُ، فالعامُّ الَّذي أُريدَ بِهِ الخصوصُ لم يُرِدْ معنى العُمُوم فِيهِ من أولِّ الأمرِ، وَإِنَّمَا أُريدَ بِهِ المَعْنَى الخَاص فقَطْ، كقوْله تَعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ ﴾ [آل عمران:١٧٣]، لم يُردْ بِهِ عُمُوم النَّاسِ من الأولِ، وأما العام الَّذي دخله التّخصيصُ يعني العامَّ المخصوصَ فهُوَ أُريدَ بِهِ العُمُومُ، وَهُوَ تناولُه لجميعِ الأفرادِ ثمَّ أُخرج بعضُ أفرادِه من هَذَا الحُكم، فيكونُ عامًّا مخصوصًا.

وَعَلَى هَذَا فلا يمكنُ أنْ يستدلَّ مستدِلٌّ بالعامِّ المرادِ بِهِ الخصوصُ عَلَى عُمُومِ الحُكمِ؛ لأَنَّهُ لم يُرَدْ بِهِ العُمُومُ، بخلافِ الثَّاني: العام المخصوص، فإِنَّهُ يمكنُ أنْ يُستدلَّ بِهِ عَلَى عُمُومِ الحكمِ، ويقولُ لمَنْ أخرجَ شيئًا مِنْ أفرادِه: هاتِ الدَّليلَ عَلَى التّخصيصِ؟

إذَن: المُرادُ بالنَّاس فِي قولِهِ: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا﴾ عامٌّ أُريدَ بِهِ الخصوصُ، يعني الكفَّارَ؛ لأَنَّ هَذَا الوصفَ لا ينطبقُ إلا عَلَيْهِم، أَمَّا المُؤْمِن فإِنَّهُ إِذا قَضَى الله له قضاءً لم يكنْ بِهَذا الوصفِ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وغيرَهم] بالنَّصب؛ لأَنَّ [كفارَ] بالنّصب.

قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿رَحْمَةً﴾ نِعْمَةً ﴿فَرِحُواْ بِهَا﴾ فَرَحَ بَطَـرٍ ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ﴾ شِدَّةٌ ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ يَيْأَسُونَ مِنَ الرَّحْمَةِ، وَمِنْ شَأْنِ المُؤْمِنِ أَنْ يَشْكُرَ عِنْدَ النِّعْمَةِ وَيَرْجُو رَبَّهُ عِنْدَ الشِّدَّةِ].

قَوْله تَعالَى: ﴿رَحْمَةً﴾ تشملُ جميعَ النِّعم من مالٍ وأولادٍ وأمنٍ ورخاءٍ فِي العيشِ وغيرِ ذَلِك، فكلُّ مَا يَنْعَمُ بِهِ الإنسانُ فإِنَّهُ داخِلٌ فِي ذَلِك؛ وَلِهَذا قَالَ [نِعْمَةً].

وقوْله تَعالَى: ﴿فَرِحُواْ بِهَا﴾ قيَّدها المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: [فَرَحَ بَطَرٍ]، احترازًا من الفرحِ بنعمةِ الله فَرَحَ شُكْرٍ، فإن هَذَا لا يُذم كما قَالَ الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ [يونس:٥٨]، فأمرَ الله تَعالَى أنْ نفرحَ بفضـلِ الله ورحمتِه، وَعَلَى هَذَا فالفرحُ نوعان، فرحُ بطرٍ يؤدي إِلَى الأشَرِ والاستكبارِ عنِ الحقِّ والتّعالي عَلَى الخَلْقِ، فَهَذَا هُوَ المذمومُ.

والثَّاني فرحُ شُكرٍ يَكُونُ الإنسانُ فَرِحًا بنعمةِ الله، لكنَّ هَذَا الفرحَ يحملهُ عَلَى شكرِ النِّعمةِ، فَهَذَا لَيْسَ بمذمومٍ، وَهُوَ من طبيعةِ الإنسانِ، فإِنَّ الإنسانَ إِذَا رُزِقَ ولدًا فَرِحَ، وَإِذَا رُزِقَ مالًا فَرِحَ، وَإِذَا كَانَ طالِبَ علمٍ فتوصَّلَ إِلَى مَسْأَلَةٍ من مسائلِ العِلْمِ فَرِحَ، فَهُوَ من الأمورِ الطّبيعيةِ، لكنْ إنْ أبدلَ فرحَه إِلَى الأَشَرِ فإِنَّهُ محرمٌ ومذمومٌ وإلا فلا.

وقوْله تَعالَى: ﴿سَيِّئَةٌ﴾ المرادُ بالسّيئةِ هُنَا مَا يَسُوؤُهُمْ، وَهُوَ ضدُّ الرَّحمةِ مثل فقرٍ وجَدْبٍ وخوفٍ وفقدانِ مالٍ وما أشبَه ذَلِك، وسُميت سيئةً لأنَّهَا تَسوؤهم.

وقوْله تَعالَى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾: (البَاءُ) للسببيةِ أي بِسَبب، و(مَا) موصولةٌ، أي بالَّذي، وَعَلَى هَذَا فالعائدُ محذوفٌ والتّقديرُ بما قدمَتْه أيديهِم إِذَا هم يَقْنَطُونَ، ولاحظْ أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أطلقَ الرّحمةَ، ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾، أمَّا السّيئةُ فقيَّدها بقوْله تَعالَى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ وَذَلِكَ لأنَّ السّيئاتِ سببُها أعمالُ العبادِ، كما قَالَ تَعالَى فِي الآيَة التّالية إنْ شاء الله: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم:٤١]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠]، وَلِهَذا قَالَ هنا: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾.

وقوْله تَعالَى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ المرادُ بما قدَّموا، فعبَّرَ بالأيدي عن النَّفْسِ؛ لأنَّ غالِبَ الأعمالِ بها، وَهَذا كثيرٌ فِي القرآن أنَّ الله تَعالَى يُضيفُ الشّيءَ إِلَى الأيدي، والمرادُ بِهَا نفسُ العاملِ بل إنَّ الله أضافَ الأيدي إِلَى نفسِه، والمرادُ بِهَا نفسُه مثل قوْله تَعالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ [يس:٧١]، فإنَّ قوْلَه تَعالَى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا﴾ لَيْسَ كقوْلِه تَعالَى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص:٧٥]، والفرقُ أنَّ المرادَ بقوْله تَعالَى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾، أي: مما عَمِلناه، وأما قوْله تَعالَى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾، فأضافَ الخَلْقَ إِلَى نفسِه مُعدى إِلَى اليدِ بـ(الباءِ) فصارتِ اليدُ حصلَ بِهَا الفعلُ، وأما الخلقُ فأضافَهُ إِلَى نفسِه المقدسةِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى وعدَّاه إِلَى اليدِ بـ(الباء) وَلِهَذا يغلطُ مَنْ جعَلَ قوْله تَعالَى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ مثل قوْله تَعالَى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾.

إِذَنْ: قوْله تَعالَى: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ أي بما كَسَبَتْ، وعبَّرَ بالأيدي عن النَّفسِ لأنَّهَا آلةُ الفِعْلِ غالبًا.

وقوْله تَعالَى: ﴿إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ﴾ إِذَا فُجائيةٌ واقعةٌ فِي جواب الشّرط وَهُوَ قوْله تَعالَى: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ﴾، وقوْله تَعالَى: ﴿إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ﴾ أتى بالجملةِ الاسميةِ للدَّلالةِ عَلَى أنهم اتصفُوا بِذَلِكَ عَلَى سبيلِ الدَّوامِ فهمْ دائِمًا فِي قنوطٍ مَا دامتِ السّيئةُ فيهم، والقنوطُ، يقولُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَيْأَسُونَ] ولَكِنَّهُ تفسيرٌ فِيهِ شيءٌ من القصورِ؛ لأَنَّ القنوطَ لَيْسَ اليأسَ بل هُوَ أشدُّ اليأسِ لأَنَّ اليأسَ إِذَا كَانَ فِيهِ شيءٌ من الرَّجاء لا يُسمى قنوطًا وإن سميَّ يأسًا لكن إِذَا بلغَ اليأسُ غايته سُمِيَّ قنوطًا، وقد قَالَ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عن إبراهيمَ: ﴿وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر:٥٦]، الجاهلونَ بها لله عَزَّوَجَلَّ من الحكمةِ فيما يَجري عَلَى عبادهِ من الضَّراءِ والسّراءِ، يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَمِنْ شَأْنِ الْمُؤْمِنِ أَنْ يَشْكُرَ عِنْدَ النِّعْمَةِ وَيَرْجُو رَبَّهُ عِنْدَ الشِّدَّةِ]، وَعَلَى هَذَا فتكونُ الآيَةُ فِي الكفارِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: أنَّ الرّحمةَ من الله تَفَضُّلٌ منهُ وامتنانٌ، أمَّا كَوْنُها مِنْهُ فلقوْلِه تَعالَى: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا﴾، وأما كَوْنُها تَفَضُّلًا فلأنه لم يذكرْ لها سببًا، فكانتْ تَفَضُّلًا وامتنانًا.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: ذَمُّ الفَرَحِ إِذَا كَانَ عَلَى سبيلِ الأَشَرِ والبَطَرِ، قد نقولُ من أين يُؤْخَذُ من الآيَةِ تقييدُ الفرحِ بالأَشَرِ والبَطَرِ؟

والجوابُ: مِنْ قَوْلِهِ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ﴾، يمكنُ أنْ يُؤخذَ الفرحُ المذمومُ من الصِّفةِ الَّتِي بعده.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: أنَّ السَّيِّئَةَ لا تُضافُ إِلَى الله لأنَّهُ قَالَ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ وَلَمْ يَقُلْ وإِنْ أَصَبْنَاهُمْ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: مَا تَقُولُونَ فِي قَوْلِهِ تَعالَى فِي سورةِ النِّساءِ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النّساء:٧٨]، فما هُوَ الجَمْعُ وقد قلنا إنَّ السَّيِّئَةَ لا تُضافُ إِلَى الله؟

قُلْنَا: إيقاعُها لَيْسَ بسيئةٍ، هِيَ سيئةٌ لكنْ إيجادُها لَيْسَ سيئةً، بل هُوَ لحكمةٍ فالشّيءُ بنفسِه قد يَكُونُ سوءًا لكنْ بالنّسبةِ لفعلِ الفاعلِ لا يَكُونُ فعلُ الفاعلِ سوءًا، هَذَا رجلٌ مَرِضَ ابنُه واحتاجَ الابنُ إِلَى كَيٍّ فأَحْمى الحديدةَ فِي النّارِ وكَوَاهُ فَصرخَ الابنُ أَلَمًا.

إِذَنْ: هَذِهِ سيئةٌ لكنْ كَيُّ وَالدِهِ إِياهُ حَسَنَة، فحينئذٍ يجبُ أَنْ نعرِفَ الفرقَ بين الفعلِ والمفعولِ، فالسّوءُ والشّرُّ إنما هُوَ بالنِّسبةِ لمفعولِ الله له ذاتٌ منفصلةٌ عن الله، وأما بالنّسبةِ للفعلِ الَّذي هُوَ فِعْلُ نفسِه، فإِنَّهُ لا يمكنُ أَنْ يكُونَ شرًّا أبدًا، بل هُوَ خيرٌ ويمكنُ أَنْ نقولَ إِنَّ الخيرَ نوعانِ: خيرٌ لذاتِه، وخيرٌ لغيرِه، فما كَانَ شرًّا فِي نفسِه وقَدَّره الله فَهُوَ خيرٌ لغيره، وما كَانَ خيرًا فِي نفسِه فَهُوَ خيرٌ.

إِذَنْ: لنا عن هَذَا جوابانِ:

الجوابُ الأولُ: أَنْ يُقالَ إِنَّ الشَّرَّ لَيْسَ فِي فعلِ الله بل هُوَ فِي مفعولِه، أَمَّا إيجادُ الله له فَهُوَ خيرٌ لما يتضمنُه من الحكمةِ البالغةِ، هَذَا واحدٌ، ونَظِيرُهُ كَيُّ الإنسانِ ابْنَهُ لِيَشْفَى مِنَ المَرَضِ؛ فالكَيُّ فِي ذاتِهِ شَرٌّ، لَكِنْ بالنِّسبةِ لِفِعْلِ الأَبِ لَهُ خَيْرٌ، هَذَا وَجْهٌ.

الجوابُ الثاني: أَنْ يُقالَ إِنَّ الخيرَ نوعانِ: خَيْرٌ لذاتِه وخيرٌ لغيرِه، فما كَانَ خيرًا مَحْضًا فَهُوَ خيرٌ لذاتِه كالمطرِ والنّباتِ والرّزقِ والأمنِ وما أشبهَ ذَلِكَ وما كَانَ شرًّا

بذاتِه فَهُوَ خيرٌ لغيرِه إِذَا كَانَ الشَّرُّ خيرًا لغيرِه صارَ بِهَذا خيرًا، فالجَدْبُ والقَحْطُ والخَوْفُ وما أشبَه ذَلِكَ خيرٌ لأَنَّهُ يؤدي إِلَى خيرٍ كما قالَ الله تَعالَى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا﴾ لماذا؟ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: مَا وَرَدَ من إضافةِ الإضلالِ إِلَى الله فِي مثلِ قوْله تَعالَى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾ [الأنعام:١٣٩]، كيف نُجيبُ عليه؟

قُلْنَا: إضافةُ الإضلالِ إِلَيْهِ يعني لِكَمالِ تَصَرُّفِهِ وَلِهَذا قُرِنَ بالهدايةِ لبيانِ كمالِ التَّصَرُّفِ، فالمقصودُ بَيانُ كمالِ التَّصَرُّفِ وليسَ معناهُ إرادةَ الشَّرِّ المَحْضِ، ثمَّ إنَّ إضلالَ الله له فِي الغالبِ كما قَالَ تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥]، فيكونُ هَذَا من بابِ العدْلِ فِي حقِّ هَذَا الرَّجلِ.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: أنَّ السُّوءَ لا يَنالُ النَّاسَ إِلَّا بأعمالِهم؛ لقوْلِه تعالَى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾.

سؤالٌ: هل هَذَا يشملُ السُّوءَ فِي الأمورِ الدِّينيةِ والأمورِ الدُّنيويةِ أو فِي الأمورِ الدُّنيويةِ فقط؟

والجوابُ: فيهما جميعًا فالجَدْبُ والقَحْطُ بسببِ الأعمالِ السَّيِّئَةِ والمعاصي كَذَلِكَ: فزَيْغُ القلبِ بسببِ المعاصي ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾.

إِذَن: المصائبُ الدِّينيةُ والدُّنيويةُ كلُّها بسببِ أعمالِنا نحنُ فلو اسْتَقَمْنا استقامَتْ لنا الأمورُ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الأنفال:٢٩]، انظر ﴿فُرْقَانًا﴾.

إِذَن: التَّقوى سببٌ للعلمِ لأَنَّ الفُرْقانَ لا يَكُونُ إِلَّا بعلمٍ يُفرِّقُ بِهِ الإنسانُ بَيْنَ النَّافعِ والضَّارِّ والحقِّ والباطلِ.

إِذَنْ: نقولُ هَذَا يشملُ أمورَ الدِّينِ وأمورَ الدُّنيا.

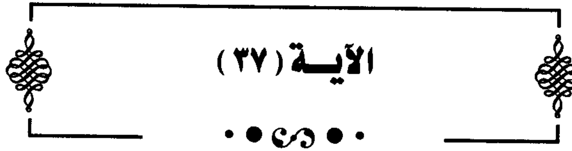
الفائِدَةُ الخامِسَةُ: تحريمُ القُنُوطِ من رحمةِ اللهِ؛ لأَنَّ اللهَ ساقَهُ عَلَى سبيلِ الذَّمِّ ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ هَذَا دليلٌ عَلَى تحريمِهِ، ودليلٌ عَلَى تحريمِهِ من النَّظرِ أَنَّ القُنُوطَ يستلزمُ عدمَ الرُّجوعِ إِلَى اللهِ تَعالَى لأَنَّهُ إِذَا قَنَطَ من رحمةِ اللهِ كَيْفَ يرجو رحمةَ اللهِ؟ فيستحسِرُ وييأسُ -والعياذُ باللهِ- ولا يتعرضُ لما بِهِ الرَّجاءِ والأملِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: كَيْفَ نُفرِّقُ بَيْنَ البلاءِ والابتلاءِ؟

قُلْنا: البلاءُ بما يُؤْلِمُ هَذَا سوءٌ، والبلاءُ بما يَسُرُّ هَذَا ابتلاءٌ، والمُؤْمِنُ يُبتلى عَلَى قَدْرِ إيمانِهِ؛ لأَنَّ الابتلاءَ أحيانًا يَكُون بالمصائبِ لَيْسَ من أجلِ العقوبةِ لكن من أجل التَّمْحِيصِ والبيانِ، وَهَذا مَرَّ أَنَّه قد يقعُ، قَالَ تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [محمد:٣١]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾ [البقرة:٢١٤]، وقلنا: إِنَّ الابتلاءَ مَعَ استقامةِ الحالِ لَيْسَ المرادُ بِهِ تكفيرَ سيئةٍ حصلتْ بل المرادُ بِهِ رفعُ الدَّرجاتِ لأَنَّ الصَّبْرَ لا يَكُونُ إِلَّا عَلَى بلوى، والصَّبْرُ مرتبةٌ عالية لا يُنالُ إِلَّا بمشقةٍ.

الفائدتان السّادسة والسّابعة: إِثْبَاتُ الاخْتِيارِ للبشرِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، فيكونُ فِي ذَلِكَ رَدٌّ لقول الجبريَّةِ الَّذِين يقُولونَ إِنَّ الإنسانَ لَيْسَ له اختيارٌ فِي العملِ.

الفائِدَةُ الثّامِنَةُ: أَنَّ الإنسانَ قد يُعاقبُ عَلَى أعمالِ القلوبِ أو قد يُذم عَلَى أعمال القلوب لأَنَّ القنوطَ من أعمالِ القلوبِ إِذْ إِنَّه أشدُّ اليأسِ ومحلُّه القلبُ.



الآية (٣٧)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الروم:٣٧].

•••

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يعلموا]؛ وَعَلَى هَذَا فالرُّؤية علمية ويؤيد تفسيرَ المُفَسِّر أَنَّها جاءت فِي آياتٍ أخرى ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا﴾، وَهِيَ فِي سورة الزُّمَر: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الزمر:٥٢].

إِذَنْ: فأحسنُ مَا يُفَسَّرُ بِهِ القرآن هُوَ القرآن، وَهُوَ أعلى أنواع التّفسير، ويمكن أن يقال إنَّ لكل آية معنى فنفسر الرُّؤيةَ هُنَا برؤية البصرِ لا برؤيةِ البصيرةِ الَّتِي هِيَ العِلْم، ونفسرها هناك بالعِلْم كما هُوَ لفظُ الآيَة ويكونُ البسطُ والتّضييق معلومًا بالقلب مرئيًا بالعين، فإنَّ الإنسانَ أيضًا يرى توسيع الرِّزقِ بعينه كما يعلمه أيضًا بقلبه.

وأيهما أعم، يعلمون أو يرون إِذَا لم يفسر ﴿يَرَوْا﴾ بـ﴿يَعْلَمُوا﴾؟

الجوابُ: العِلْم أعمُّ؛ لأَنَّ العِلْم قد يَكُون بالرُّؤية وقد يَكُون بالسَّماع، قد لا أرى أن الله بسَط الرِّزقَ لعباده وقدَّره لكنني أسمعُ أنّه فِي البلاد الفلانية فَقْرٌ وفي البلاد الغنية غنى، وما أشبه ذَلِك، فالعِلْمُ أعم وَذَلِكَ لأَنَّ وسائلَ العِلْم متعددة بخلاف الرُّؤية فإن طريقها البصر، العِلْمُ كل الحواسِّ الخمسةِ المعروفة كلها توصل

إِلَيْهِ، فاللمسُ والشَّمُّ والذَّوقُ والرُّؤية والسَّماع كلها تفيد العِلْم، فَهُوَ أعم لأَنَّهُ إِذَا رأى عَلِمَ، لكنَّ العِلْمَ أعم لأَنَّ وسائلَه أكثرُ.

وقوْله تَعالَى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ﴾ البسطُ بمعنى التَّوسيعُ، كما قَالَ الله تعالى: ﴿فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ﴾ [الروم:٤٨]، يعني يوسعه، وقوْله تَعالَى: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ سَبَقَ أنَّ كُلَّ شيء قيده الله بالمشيئة فإِنَّهُ مقرون بالحكمة وليست مشيئة الله تَعالَى مشيئةً مجردةً لأننا نعلم أن الله عَزَّوَجَلَّ حكيمٌ لا يفعلُ شيئًا ولا يُشَرِّعُ شَيْئًا إِلَّا لحكمةٍ، فكلما مَرَّ عليك شيءٌ مُقيَّدٌ بالمشيئةِ فاعلمْ أنَّه مُقيَّدٌ بالحكمةِ.

قوْله تَعالَى: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾؛ قَالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [امتحانًا ﴿وَيَقۡدِرُ﴾ يُضَيِّقُ لِمَنْ يَشَاءُ ابْتِلَاءً]، ففرَّق المُفسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بَيْنَ تضييقِ الرّزق وبين بَسْطِه وجعل البسطَ امتحانًا والتّضييق ابتلاءً، والصّواب أنهما سواءٌ كما قَالَ تعالى: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥]، فكلها ابتلاءٌ، وقال سُليمانُ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُ﴾ [النمل:٤٠]، فالصَّوابُ أنَّ كلَّها ابتلاءٌ، والامتحانُ قريبٌ من معنى الابتلاءِ، لكنَّ الإصَابَةَ ببسطِ الرّزقِ لبسطِ الرّزقِ تقتضي شكرًا، وبتضييقِه تقتضي صبرًا، هَذَا الفرق بَيْنَهُما، والمُؤْمِن يقوم بالوظيفتيْنِ إن أصابَتْهُ سراءَ شكرَ فكانَ خيرًا له، وإن أصابته ضراءَ صَبَرَ فكان خيرًا له، وَهَذا لَيْسَ إِلَّا للمؤمنِ فقط.

وقوْله تَعالَى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ الاسْتِفْهامُ هُنَا المُرادُ بِهِ التَّقرير، يعني أنهم يَرَوْنَ أنَّ الأمورَ بيدِ الله عَزَّوَجَلَّ وأنه يبسط الرّزق لمن يشاءُ ويَقْدِرُ، فكيف يقنَطُونَ إِذَا أصابتهم السَّيِّئَةُ وكيف يفرحونَ ويبطرونَ إِذَا أصابتهم الرَّحمةُ؟ بل الواجبُ عَلَيْهِم أن يعلموا أن ذَلِك بحكمةٍ من الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

وقوْله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ الواو هُنَا حرفُ عطفٍ وَلَيْتَ أداةَ الاسْتِفْهام،

وأداةُ الاسْتِفْهامِ لها الصّدارة، فإذا لم تسبق الواو بشيء يعطف علَيْه فما هُوَ الجواب؟

نَقُول: إنَّ لعُلَماءِ النّحو فِي مثل هَذَا التّركيب قولَيْن:

القولُ الأول: أن الواو عاطفة عَلَى مُقَدَّرٍ بعد الهمزةِ.

القولُ الثَّاني: أنَّ الواو عاطفة عَلَى مَا سبق، وَعَلَى هَذَا فتكون الهمزةُ مقدمة قبل العاطف وذكرنا أن هَذَا الرّأي أولى لأَنَّ الأول وإن كَانَ جيدًا من حيْثُ الأسلوبُ لكِنَّهُ فِي بعض الأحيان يصعُبُ عَلَى الإنسان أن يقدِّرَ شَيْئًا يرى أنَّه مناسبٌ للسياقِ.

وعليه فيكونُ القولُ بأن الهمزةَ للاسْتِفْهام وأن الواو مُقَدَّرَةٌ قبلها يعني وَأَلَمْ يَرَوْا أَسْهَل.

قوْله تَعالَى: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ لا شك أن بَسْطَ الرِّزقِ وتضييقهِ ابتلاءٌ من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وَذَلِكَ لأَنَّ العبدَ أحيانًا يناسبُه أنْ يُبْسَطَ له الرِّزقُ وأحيانًا بالعكس حسب مَا تقتضيه الحكمةُ.

قوْله تَعالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ﴾: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، أي فِي بسطِ الرّزقِ وتضييقِه ﴿لَأَيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ﴾ ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ الَّذي نصبَها ﴿إِنَّ﴾ فهي اسمُها مُؤَخَّرًا و﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ خبرُها مُقَدَّمًا.

وقوْله تَعالَى: ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ أي لَعَلَامَاتٍ دالةٍ عَلَى أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ له التّصرفُ المطلقُ فِي عباده، وأظنُّنا نرى أحيانًا مِن بعض النَّاس أنَّه يسعى بقدر مَا يستطيع فِي أسبابِ الرّزق ومع ذَلِك لا ينتجُ، تجدُه يبيع ويشتري ويسافر يضرب فِي الأرْض يبتغي من فضلِ الله ومع هَذَا لَيْسَ كثيرَ المالِ، مُضَيَّقٌ علَيْه، وتجد بعض النَّاس يسعى سعيًا بسيطًا ولكن الله تَعالَى يبارك له فِي سعيه حتى يَكُون عنده رزق كثير مما يدل

عَلَى أن الأمور لا تُنال بالكسب، فالكَسْبُ سَبَبٌ لكن فوق ذَلِك إرادةُ الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوْله تَعالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم هم الَّذِين ينتفعون بهذه الرّؤية وَهَذا التّفكر، أمَّا غير المُؤْمِن فإِنَّهُ لا ينتفـع بِهَذا؛ ولذلك تجد هَـؤُلاءِ الَّذِين لا يؤمنون إِذَا حصلت مثل هَذِهِ الأمور يَنْسُبُونَهَا إِلَى الطّبيعةِ، إِذَا كثر المطر قالوا: هَذَا بسببِ كذا، وَإِذَا قَلَّ قالوا هَذَا بسبب كذا، ونحن لا ننكر أن الأمورَ لها أسبابٌ، ولكننا ننكر أن تكون الأسباب هِيَ الفاعلة، فإن الفاعلَ هُوَ الله عَزَّوَجَلَّ وما الأسبابُ إِلَّا وسائلُ يُستدلُّ بِهَا عَلَى حكمةِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى وأنه حكيمٌ حيْثُ ربط المسببات بأسبابها.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: تقريرُ مَا يحدث فِي الكون من بَسْطِ الرّزقِ وتضييقِه؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ لأنَّ الاسْتِفْهامَ للتقريرِ كما سبق.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: أنَّ سَعَةَ الرّزقِ وتضييق الرّزقِ كله بيد الله عَزَّوَجَلَّ.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: إِثْبَات المشيئةِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: أنّه لا ينتفعُ بالآيات إِلَّا المُؤْمِنُونَ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.



الآية (٣٨)

•●ဖ●•

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الرّوم:٣٨].

•●ဖ●•

قوْله تَعالَى: ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ إِلَى آخره (آتِ) بمعنى أَعْطِ لأَنَّهَا من الرُّباعي، لو كانت من الثُّلاثي لكانت بمعنى جِئْ، لكنها من الرّباعي الَّذي بمعنى أَعْطَى.

وقوْله تَعالَى: ﴿ فَـَٔاتِ ﴾ الخطابُ مفردٌ، فهل هُوَ للرسول ﷺ شخصيًا أو لكل مَنْ يتوجَّهُ إِلَيْهِ الخطابُ؟ للعُلَمَـاء فِي هَذَا رأيانِ، إِلَّا مَا دل الدّليلُ عَلَى أَنَّه خاصٌّ بالرَّسول ﷺ فَهَذَا يختص بِهِ مثل قوْله تَعالَى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١]، هَذَا خاصٌّ بالرَّسول ﷺ، وقوْله تَعالَى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى:٨]، (وجدك) أي الرَّسول لكِنَّهُ أغنى بك جميعَ من انتفع بهذا، ومثل قوْله تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧].

وقوْله تعالَى: ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ أي صاحِبَ القرابةِ، وَلِهَذا قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [القرابة]، فالقُرْبى بمعنى القرابةِ ﴿حَقَّهُۥ﴾؛ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِنَ البرِّ والصِّلَةِ]، وأَحَقُّ النَّاسِ بِذَلِكَ الأُمُّ والأَبُ وإِنْ عَلَوَا، وصلتُهما تُسمى بِرًّا؛ لأَنَّهُ يجب أن تكونَ أعلى من صلة غيرهما، و(البِرُّ) كثرةُ الخير، وصلة غيرهما تسمى صلة؛ لأَنَّ المقصود

الوصل فقط بخلاف الأب والأم، فـ﴿حَقَّهُۥ﴾ هُنَا مُجْمَلٌ ولَكِنَّهُ مُبَيَّنٌ بنصوصٍ أُخْرَى من القرآنِ، والسُّنةِ وَهُوَ أنَّ حقَّ الأبوين البرُّ، وحقَّ غيرِهما الصِّلةُ فيمكنُ أنْ يكُونَ قولُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ من البر والصّلةِ عَلَى سبيلِ التّوزيعِ من البر بالأبوين والصّلة بغيرهما من ذوي الأرحامِ.

وقوْله تعالَى: ﴿ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾ يَعُمُّ كلَّ قريبٍ ولو كَانَ كافرًا لأَنَّ العِلَّةَ القرابةُ ليست الإسْلامَ، لو قَالَ آتِ المُؤْمِنَ حقَّه قلنا العلةُ الإيمانُ فيختصُّ الحكمُ به.

قوْله تَعالَى: ﴿وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ المِسْكِينُ هُوَ الفقيرُ وهنا أُطْلِقَ المِسْكِينُ والمُرَادُ بِهِ الفَقِيرُ والمِسْكِينُ فِي آيةِ الصَّدقةِ، وقد مر أنَّ المِسْكِينَ إِذَا أُطْلِقَ يشملُ الفَقِيرَ، والفَقِيرَ إِذَا أُطْلِقَ يشملُ المِسْكِينَ، وَإِذَا قُرِنَا جَمِيعًا افترقَا، المِسْكِينُ له حقٌّ، مَا حقُّه؟ حقُّه دَفْعُ حاجتِه لأَنَّهُ فقيرٌ، قَالَ أهل العِلْم: وإطعامُ الجائعِ وكِسْوَةُ العَارِي فَرْضُ كفايةٍ إِذَا قَامَ بِهَا مَنْ يكفي سقطَ عَنِ الباقِينَ.

قوْله تَعالَى: ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [المُسَافِرُ مِنَ الصَّدَقَةِ وَأُمَّةُ النَّبِيِّ ﷺ تبعٌ لَهُ فِي ذَلِكَ]، وسُمِّيَ ابن سَبِيلٍ لِمُلازمتِه لَهُ، والسّبيلُ الطّريقُ، وكل مَنْ لازمَ شَيْئًا يُسمى ابنًا لَهُ، قَالُوا كما يُقَال ابن الماءِ لطيره، طَيْرُ الماء يُسَمَّى ابنَ الماءِ، ويُقَال للرجل الَّذي يُكْثِرُ السَّفر فِي الليل ابن الليالي وما أشبهَ ذلك، فالابنُ لكل مَنْ لازمَ الشّيء، وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [من الصّدقة]، هَذَا تفسير لحق المِسْكِين وابن السّبيل، وقيل المُرَادُ بابن السّبيل الضّيفُ لأَنَّهُ عابرُ سبيلٍ، ولكن الصّحيح أَنَّه المسافر ويشمل الضّيف لأَنَّ الضّيف مسافر.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وأمة النَّبيّ ﷺ تبعٌ لَهُ فِي ذلك] أفادنا المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذه الجملة أنَّ الخطابَ فِي قوْله تَعالَى: ﴿فَـَٔاتِ﴾ موجَّهٌ للرسول ﷺ شخصيًا والأمة

تَبَعٌ لَهُ، وقد سبق أن وجه ذَلِك أن الرَّسول ﷺ هُوَ زعيمُ أمته فَوُجِّه الخطاب إِلَيْهِ وإن كَانَ شاملًا أو أَنَّه خاصٌّ بِهِ وتكون أمته تبع لَهُ عَلَى سبيل التَّأَسِّي به.

قوْله تَعالَى: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾: ﴿ذَلِكَ﴾ المُشارُ إِلَيْهِ إيتاء ذي القربى حقه والمِسْكِين وابن السَّبيل.

قوْله تَعالَى: ﴿خَيْرٌ﴾ كلمة خير هُنَا هل يراد بِهَا التَّفضيلُ أو أَنَّها اسم وليست بتفضيل؟ قلنا فيما سبق أن خيرًا وشرًّا تستعملان اسمَيْ تفضيل وتستعملان اسمًا مجردًا عن التّفضيل كما فِي قوْله تَعالَى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزّلزلة:٧-٨]، هُنَا لَيْسَ المُرادُ بِهَا التّفضيلَ كَذَلِكَ هُنَا قَالَ ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ الظّاهر أَنَّه لا يراد بِهَا التّفضيل وأن المُراد أن هَذَا خير ضد الشّر، لكِنَّهُ قُيِّدَ بقوْله تَعالَى: ﴿لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ وَهَذا دليل عَلَى الإِخْلاص يعني خيرًا للمخلصين الَّذِين يريدون وجه الله، أمَّا غيرُ المخلص فإِنَّهُ لَيْسَ خيـرًا لَهُ لكن هل هُوَ خيـر للمخلص؟ قَالَ الله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النّساء:١١٤]، فجعل الله تَعالَى ذَلِك خيـرًا مطلقا ثمَّ قَالَ: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النّساء:١١٤]، فجعل هَذَا الشّيء خيرًا مطلقًا لما فِيهِ من النّفع المتعدي ولَكِنَّهُ لا يَكُون خيرًا للفاعل إِلَّا بالنّية؛ بنيةِ الإِخْلاصِ وأظنُّ أن هَذَا ظاهرٌ، لو أَنَّك تصدقْتَ عَلَى شخصٍ بدراهمَ أو بثوب يلبَسُه انتفعَ، أما أنت فقد تنتفعُ وقد تنضرُّ وقد لا تنتفع ولا تنضر، فإن فعلتَ ذَلِك رياءً انضرَرْتَ، وإن فعلته إخلاصًا انتفعتَ وإن فعلته مجرد سجية وطبيعة فإنك لا تنتفع وَلِهَذا قَالَ هُنَا ﴿لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ فنقول: لا يَكُون خيرًا إِلَّا للذين يريدون وجه الله هَذَا بالنّسبة للمعطي، أمَّا بالنّسبة للمُعطى فَهُوَ خير لَهُ حتى لو يعطي كافرٌ شخصًا مالًا

انتفع بِهِ وصار خيرًا لَهُ فلا يَكُون خيرًا للمعطي إِلَّا بالنّية، أمّا بالنّسبة للمعطى فَهُوَ خيرٌ لَهُ عَلَى كل حَالٍ.

ولم يذكر الله فِي الآيَة هُنَا الخير للمعطي إِلَّا بهذه النّية أمّا المعطى فلا شك أنّه خير لَهُ عَلَى كل حَالٍ كما تفسره آياتٌ أُخْرَى، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي ثَوَابُهُ بِمَا يَعْمَلُونَ]، قول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي ثوابه] هَذَا تفسير لَيْسَ بصحيح وَإِنَّما هُوَ عَلَى طريق أهل التّأويل الَّذِين لا يؤمنون بالصّفات الخبرية الَّتِي أخبر بِهَا الله عن نفسهِ كالوجهِ واليدين والقدم وما أشبهها، فتفسير الوجه بالثّواب خطأ وليس عَلَى طريق أهل السّنة والجماعة، بل هُوَ عَلَى طريق أهل البدع المُؤَوِّلِينَ الَّذِين يُسمونَ أنفسهم مُؤَوِّلِينَ وهم فِي الحقيقةِ مُحرِّفُونَ.

والصّوابُ: أن المُرَادَ بِهِ وجهُ الله: وجهُه الَّذي هُوَ صفتُه، وأنَّ فِي الآيَة إشارةً إِلَى أن من فعل مثل هَذِهِ الأمورِ لله فإِنَّهُ سَوْفَ يرى الله عَزَّوَجَلَّ ويلقاهُ كما ثَبَتَ ذَلِك فِي الكتابِ والسّنةِ وإجماعِ السّلفِ أَنَّ المُؤْمِنينَ يَرَوْنَ رَبَّهُمْ كَما يَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ[1]، قَالَ تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القِيامَة:٢٢-٢٣]، الأولى ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ بالضّادِ بمعنى حَسَنَةٍ وَبَهِيَّةٍ، والثّانية بالظّاء لأنَّهَا من النَّظَرِ بالعَيْنِ.

قَوْله تَعالَى: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: (أولاءِ) مبتدأٌ و(هم) ضميرُ فصلٍ والمفلحونَ خبرُه، المُفْلِحُ هُوَ الَّذي فازَ بالمطلوبِ وَنَجا مِنْ المرهوبِ مَنْ أَفْلَحَ إِذَا فَازَ، والفلاحُ أصلُه البقاءُ، كما قَالَ الشّاعر[2]:

.... وَالمُسْيُ وَالصُّبْحُ لَا فَلَاحَ مَعَه

(١) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، رقم (٥٥٤)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر، رقم (٦٣٣).
(٢) البيت للأضبط بن قريع، البيان والتبيين (٣/ ٢٢٣).

يعني لا بقاءَ، ولَكِنَّهُ صار شاملًا لكل مَا حصلَ بِهِ المطلوبُ ونجا بِهِ من المرهوبِ، وقوْله تَعالَى: ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الجملة اسمية تدُلّ عَلَى أنَّ الفلاحَ لازمٌ له.

وضمير الفصل هل هُوَ اسمٌ أو حرفٌ؟

الصّحيح أنَّه حرفٌ لا محل لَهُ من الإعرابِ ولا يُعرب.

إِذَنْ: مَا الفائدة من ضمير الفصل؟

له ثلاثُ فوائدَ: الأولى الحصر، والثّانية التّوكيد، والثَّالثة الفرق بَيْنَ الصّفة والخبر، مثال ذَلِك إِذَا قُلْتَ: (زَيْدٌ العَاقِلُ)، فـ(زيد) مبتدأ و(العاقل) خبره، لكن يحتمل أن تكون (العاقل) صفة لـ(زيد)، وأن الخبر لم يأتِ بعد، مثل: (زَيْدٌ العَاقِلُ مَحْمُودٌ) مثلًا، لكن إِذَا قُلْتَ: (زيد هُوَ العاقل) تعيّن أن تكون (العاقل) خبرًا، وَلِهَذا قيل له: ضمير فصل؛ لأَنَّهُ يفصل ويميز بَيْنَ التّابع الَّذي هُوَ النّعت وبين الخبر، أمَّا إفادتُه للتوكيد فواضحةٌ، فإن قولك: (زيد هُوَ العاقل) أقوى فِي الدّلالة عَلَى الحصر من قولك: (زيد العاقل)، أمَّا كَونُه لا محل لَهُ من الإعراب فظاهر، فِي القرآن ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ﴾ [الشّعراء:٤٠]، لو كَانَ لَهُ محلٌّ من الإعراب لقَالَ: إن كانوا هم الغالبونَ، ونقول (هم) مبتدأ والغالِبونَ خبرٌ، والجملة خبر (كان)، فدل هَذَا عَلَى أَنَّه لا محل لَهُ من الإعراب، وَهُوَ -عَلَى المشهور عند النّحويين- حرف جِيء بِهِ للفَصلِ، فصورته صورة الضَّمير، لكن معناهُ لَيْسَ معنى الضّمير الَّذي يَكُون اسمًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: أن هَؤُلاءِ الأصناف الثّلاثة حقَّ القريبِ والمِسْكِينِ وابنِ السّبيلِ.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: وجوب إيتاء هَؤُلاءِ حقهم؛ تؤخذ من الأمـرِ فِي قوْله تعالَى: ﴿فَـَٔاتِ﴾ والأصلُ فِي الأمرِ الوجوبُ.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: أنَّ الأقربَ فالأقربَ أحقُّ؛ تؤخذ مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

لكن كَيْفَ الأخذ؟

الأخذ: هُـوَ أن لدينا قاعـدة سبق أنْ قَرَّرناها وَهِيَ أن الحكمَ إِذَا عُلِّقَ عَلَى وَصْفٍ فكلما كَانَ أكثر فِي هَذَا الوصف فهُوَ أحقُّ إِذَا عُلِّقَ الحكمُ عَلَى وصف فكلما كَانَ هَذَا الوصفُ أشدَّ تمكُّنًا فِي شيءٍ فَهُوَ أَحَقُّ به، فمثلاً إِذَا قُلْتَ: (أَدِّبِ العَاصِي)، عُلِّقَ التّأديبُ بالعصيانِ، فيقتضي هذا أن كل من كَانَ أشَدَّ معصيةً كَانَ أَشَدَّ تأديبًا، وَإِذَا قلنا: (أَكْرِمِ المُؤْمِنَ) صَارَ معنى ذَلِكَ: أنَّ كلَّ من كَانَ أقوى إيمانًا صَارَ أحقَّ بالإكرامِ، قوْله تَعالَى: ﴿ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾ عُلِّقَ الحقُّ بالقرابةِ، فكلما كَانَ أقربَ كَانَ أحقَّ بالإيتاءِ، وهذِهِ القاعدةُ مفيدةٌ لطالبِ العِلْمِ أنَّه إِذَا عُلِّقَ الحُكْمُ عَلَى وصفٍ، قَوِيَ ذَلِك الحكم بقوة ذَلِك الوصف؛ نظرًا لأَنَّ تعليقَه بالوصف يفيد علِّيته وهذه أيضًا قاعدة ثانية: (أَنَّ تَعْلِيقَ الحُكْمِ بِالوَصْفِ يُفِيدُ أَنَّ ذَلِكَ الوَصْفَ عِلَّةٌ)، فمثلًا تقول أكرمِ المُؤْمِنَ لماذا؟ لإيمانِه، أَدِّبِ الفاسقَ لفسقِه ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة:٦٤]، معناه لإفسادِهم وهكذا.

فنَقُول: إن تعليقَ الحكمِ بالوصفِ يدلُّ عَلَى عِلِّية ذَلِك الوصف، وأنَّه عِلَّةُ الحُكْمِ، وبناء عَلَى هَذِهِ القاعدةِ تأتي القاعدةُ الأولى أيضًا.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: أنَّ كل من كَانَ أحقَّ بالإحسَانِ فَهُوَ أولى به؛ لأَنَّ المِسْكِينَ أحقُّ بالإحسَانِ من الغني، وابنَ السّبيل المسافر المنقطع بِهِ سفره أحقُّ من غيره.

الفائدتان الخامسة والسّادسة: أن النَّفْعَ المتعدي خيرٌ فِي نفسه.

وهل هُوَ خير للفاعل؟

نعم، هُوَ خير للفاعل بشرط، فَهُوَ خير فِي نفسه وإن لم ينتفع بِهِ الفاعل.

ويتفرع عَلَى هَذَا أن مَا يبذله الكفَّار من منافع للمسلمين هِيَ خير للمسلمين، لا نقول هَذِهِ صدرت من كافرٍ فليست بخير وليس فيها خيرٌ.

مثلًا لو أن أحدًا من الكفَّار أصلحَ طريقًا من الطّرق، من هَذِهِ الشّركات الكافرة فيكونُ فِي هَذَا الإصلاح خيرٌ لا شك، لكن لَيْسَ خيرا لَهُم إنما هُوَ خير لغيرهم.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: التّنبيهُ عَلَى أهمية الإِخْلاصِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾.

الفائِدَةُ الثّامِنَةُ: أنَّه كلما كَانَ العمل أَخْلَصَ للهِ كَانَ أكثَرَ خيرًا للفاعل نأخذ هَذَا الحكم من القاعدة الَّتِي مرت بأن هَذَا الحكم عُلِّق بعلة ﴿لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ﴾؛ لأن اسم الموصول مَعَ صلته كاسم الفاعل تمامًا، فيكون خيرًا للذين يريدون.

إِذَنْ: فكلما كَانَ الإنسانُ أخلصَ فِي إرادة وجه الله كَانَ أكثرَ خيرًا له.

الفائِدَةُ التّاسِعَةُ: إثْبَات الوجه لله؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ ووجه الله عَزَّوَجَلَّ قَالَ أهل العِلْم: أنَّه من الصّفات الخبرية لأَنَّ عِنْدَهُم من الصّفاتِ مَا هِيَ خبريةٌ محضةٌ، فيعبرونَ عنها بالخبرية؛ لئلا يقعوا فِي المحذور فلا يقُولونَ إِنَّها بعضيَّة مثلًا أو جزئيَّة لأَنَّ التّبعُّض والتّجزئة فِي ذات الله عَزَّوَجَلَّ محرمٌ إطلاقًا، فالوجهُ واليدُ والعين والسّاق والقدم كل هَذِهِ يُعَبَّرُ عنها بالصّفاتِ الخبريةِ، لكنَّ السّمعَ والعِلْمَ والقُدْرَةَ والحياة تُسمى صفاتٍ معنويةً: صفات معانٍ، والفرقُ بَيْنَ الصّفات المعنوية والخبرية

أن الصّفات المعنوية تدُلُّ عَلَى معانٍ كالسَّمعِ والبصر والعِلْم والقُدْرَة وما أشبهها، وأما الصّفات الخبرية فهي تدُلُّ عَلَى صفاتٍ هِيَ بالنّسبة لنا أبعاض، فَيَدُ الإنسانِ ووجه الإنسان وساق الإنسان وقدم الإنسان وعينُه مثلًا هَـٰذِهِ أبعاض لَهُ ولكن لا نسميها بالنّسبة لله أبعاضًا بل سماها أهل العِلْم الصّفات الخبرية.

الفائِدَةُ العاشِرَةُ: الإشارةُ إِلَى رؤية الله عَزَّوَجَلَّ لقوْلِه تَعالَى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ ولا شك أن رؤية الله عَزَّوَجَلَّ ثابتة بالقرآن والسّنة وإجماع السّلف، ففي القرآنِ قَالَ الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [المائدة:٢٢-٢٣]، معنى ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ الأولى من النَّضارة وَهِيَ الحُسْنُ ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ بالظَّاءِ من النّظر وَهُوَ الرّؤية بالعين وهذه الآية من أَصْرَحِ مَا فِي القرآن وتوجد آية أُخْرَى وَهِيَ قوْله تَعالَى: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين:٢٣]، وتوجد آية ثالِثة وَهِيَ قوْله تَعالَى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، فسرها النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بأنها النّظر إِلَى وجه الله، وتوجد آية رابعة وَهِيَ قوْله تَعالَى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥]، وتوجد آية خامسةٌ وَهِيَ قوله تَعالَى فِي الأنعام: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام:١٠٣]، لأَنَّ هَذِهِ الآيَةَ تدُلُّ عَلَى الرّؤية لأَنَّ الله تَعالَى قَالَ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾ ونَفْيُ الإدراك يدل عَلَى ثبوتِ الأصل، ولو كَانَ لا يُرى لقَالَ: (لا تَراهُ الأَبْصارُ)، فنفي الأَخَصِّ يقتضي وجود الأعمِّ؛ وَلِهَذا كانت هَذِهِ الآيَةُ الَّتِي يُستدل بِهَا أهل التّعطيل عَلَى نفي رؤية الله دليلًا عَلَيْهِم لا دليلًا لهم.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ورد فِي الحديث أن يَوْمَ القِيامَة يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: من كَانَ يعبدُ الطّواغيتَ فليعبد الطّواغيتَ، ومن كَانَ يعبدُ الشَّمسَ فليعبدِ الشّمسَ فيأتيهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي صورة غير صورته الَّتِي يعرفونها فيقولُ أنا ربكم فيقولونَ نعوذُ

بالله منكَ هَذَا مكانُنا حتى يأتينا ربنا، قَالَ ثمَّ يأتيهِمْ فِي صورتِه الَّتِي يعرفونَ فيقولُ أنا ربُّكم، فيقولونَ أنْتَ ربُّنا، فينطلقُ ثمَّ يتبعونَه[١]، والإشكال هو: مَا معنى قوله: فينطلق ثمَّ يتبعونه؟

فالجوابُ: أن هذه اللفظةَ غيرُ ورادةٍ، فلا أدري معناها، ولا نبحثُ فيها حتى تؤكَّدَ، وَإِنَّمَا ورد أن الأممَ تتبعُ مَنْ كانتْ تعبدُ حتى تُلقى فِي النَّارِ[٢].

وفي الحديث: «**فَيَكْشِفُ عَنْ سَاقِهِ فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مَنْ كَانَ يَسْجُدُ للهِ تَعالَى فِي الدُّنْيا**»[٣].

الفائِدَةُ الحادِيَةَ عشْرَةَ: أَنَّ الفلاحَ يَكُونُ بأمرين: بالإِخْلاصِ وفعلِ المأمورِ بِهِ نأخذُها مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ وهؤُلاءِ المُشارُ إليهم أَتَوْا بالفعلِ والثّاني الإِخْلاصُ.



(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب الصراط جسر جهنم، رقم (٦٥٧٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٢). ولفظ: «فينطلق بهم ويتبعونه» أخرجه أحمد (٣/ ٣٨٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾، رقم (٤٥٨١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٣).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ﴾، رقم (٤٩١٩).

الآيــة (٣٩)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم:٣٩].

لَمَّا أمرَ الله تَعالَى بإيتاءِ ذي القربى حقه فِي قوْله تعالَى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ﴾ إِلَى آخره، حذَّر من هَذَا الأمر ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾، والرّبا فِي اللُّغَة الزّيادةُ كقوْله تعالَى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحج:٥]، أي علت، ومنه الرَّبْوَةُ للمكانِ المرتفعِ، أمَّا فِي الشّرع فالرِّبا المحرَّمُ هُوَ زيادةٌ فِي أَشْيَاءَ أو نَسِيءٌ فِي أَشْيَاءَ، فَهُوَ إمَّا أَشْيَاءُ يزيدُ فِيهَا كما لو باعَ صاعًا من البُرِّ بصاعين مِنْهُ ولو يَدًا بيَدٍ فَهُوَ ربًا: ربَا فَضْلٍ. أو باع دنانيرَ بدراهمَ مَعَ تأخيرِ القبْضِ فَهذَا رِبَا نَسِيئَةٍ، وكلاهُما مُحَرَّمٌ.

وأما الرّبا هُنَا فِي الآيَة ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا﴾ فالمُرَادُ بِهِ الزّيادة فَهُوَ رِبًا لُغَوِيٌّ، هَذَا هُوَ الَّذي علَيْه جمهورُ المفسرين، فقوْله تعالَى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم﴾ أي وما أعطيتُم من ربًا ليربوا فِي أموالِ النَّاسِ فلا يَرْبُو عندَ الله، وقولنا: وما أعطيتُم من ربًا؟ فسره المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: [بِأَنْ يُعْطِيَ شَيْئًا هِبَةً أَوْ هَدِيَّةً لِيَطْلُبَ أَكْثَرَ مِنْهُ]، تُهدِي لشخصٍ لأجلِ أنْ يعطيَك أكثرَ أو تَهِبُهُ من أجلِ أن يَرُدَّ عليكَ أكثرَ مما وهبتَ الآن آتيتَ شَيْئًا ليرد عليك أكثر منه، نقول آتيتَ ربًا.

لَكِنْ إِذَا قَالَ قَائِلٌ: أنا مَا أعطيتُ ربًا أنا أعطيتُ شَيْئًا حصل بِهِ الرِّبا؟

أجاب المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ عن هَذَا: [فَسُمِّيَ بِاسْمِ المَطْلُوبِ مِنَ الزِّيَادَةِ فِي المُعَامَلَةِ]، فيكونُ هَذَا الَّذي أعطى ليُعطى أكثرَ كأنَّه أعطى رِبًا لأَنَّهُ أُعطِيه، هَذَا مَا علَيْه أكثر المفسرين.

وَعَلَى هَذَا فيكون الرِّبا هُنَا لُغَوِيًّا، وهنا قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [هِبَةً أَوْ هَدِيَّةً] الفرقُ بَيْنَ الهبةِ والهديةِ أن الهبةَ يقصد بِهَا مجردَ الإحسَانِ إِلَى المُعطَى فَقَطْ، والهديةُ يُقصدُ بِهَا التَّوددُ والإكرام؛ وَلِهَذا قَالَ الرَّسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**تَهَادُوا تَحَابُّوا**»(١)، يوجدُ شيءٌ ثالثٌ يُسَمَّى صدقةً يُقْصَدُ بِهِ ثوابُ الآخرةِ فما يُقصدُ بِهِ ثوابُ الآخرةِ فَهُوَ صدقةٌ، وما يُقْصَدُ بِهِ التَّوددُ والإكرامُ فَهُوَ هديةٌ، وما يُقْصَدُ بِهِ نفعُ المعطَى فَهُوَ رِبًا.

قَوْله تَعالَى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ كأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ حذَّرَ مِنْ أن يؤتي الإنسانُ أحدًا من ذوي القربةِ أو المساكيـنِ أو ابنِ السّبيلِ لأجلِ أنْ يُعطى أكثرَ.

قَوْله تَعالَى: ﴿فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي فلا يزيد عند الله عَزَّوَجَلَّ لأَنَّ هَذِهِ الحالةَ حالُ دُنْيَا نازلةٍ، وَلِهَذا نهى الله عنها رسوله ﷺ فِي قَوْله تَعالَى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر:٦]، يعني لا تُعطِ لأجلِ أنْ تعطَى أكثرَ، ولما كانتْ هَذِهِ الحالة نازلةً، قَالَ هُنَا ﴿فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ المُعطِينَ أي يزيدُ]، ﴿فَلَا يَرْبُواْ﴾ يعني فلا يزيدُ، قَالَ المُفَسِّـر: [فلا يَـزْكُو ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي لا ثَـوابَ فِيهِ للمُعطِينَ]، وَذَلِكَ لأَنَّهَا حالٌ لا تنبغي فلا يَكُون فِيهَا أجرٌ عند الله عَزَّوَجَلَّ هَذَا مَا ذكره المفسرون فِي تفسير هَذِهِ الآية وَرَوَوْهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وغيرِه.

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١/ ٢٠٨، رقم ٥٩٤).

وعندي أَنَّه يحتملُ فِي الآيَة معنًى آخر يَكُون قوْله تَعالَى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا﴾ الرِّبا الشَّرعي، ويخاطب الله عَزَّوَجَلَّ المعطين للرِّبَا يعني أن الرِّبا الَّذي تعطونه غيركم وإن كَانَ يزيد فِي أموالهم فإِنَّهُ لا يَرْبُو عند الله بل إنَّه عَلَى العكس يحصُلُ بِهِ المَحْقُ والسُّحْتُ للمال الطَّيب، فلا خيرَ فِيهِ ويؤيد ذَلِك قوْله تَعالَى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ فَفَرَّقَ بَيْنَ المُرابي وبين المُتَصدِّقِ، كما أن الله عَزَّوَجَلَّ يقرن بَيْنَهُما فِي بعض الآيات مثل مَا ذكر فِي سورة البقرة ذكر الله الإنفاق وذكر بعده الرِّبا، وَكَذلِكَ أيضًا فِي سورة آل عمران ﴿لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران:١٣٠-١٣٣]، وذكرَ من جملةِ أوصافهم أنهم يُنفِقونَ فِي السَّرَّاءِ والضَّراء، ولكنْ هَذَا الاحتمالُ حتى الآن مَا رأيتُ أحدًا قَالَ بِهِ، وَإِنَّما يقُولونَ بالمَعْنَى الأول وَهُوَ أن يُعطي الإنسان شَيْئًا هِبَةً أو هديةً ليُعطَى أكثرَ فإنَّ هَذَا وإن زاد فِي أموال المعطين فليس فِيهِ زيادة عند الله لأَنَّهُ خُلُقٌ مذمومٌ.

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: مَا تَقُولُونَ فيما لو أهدينا إِلَى شخصٍ معروف بالمكافأة وأنا مَا قصدت فهل يجوز أم لا؟

قُلْنَا: مَا دام أَنَّك مَا قصدتَ فإِنَّهُ لا يضرُّ.

وهل الإهداءُ للأمراء والملوك والوزراء وما أشبههم يدخل فِي هَذَا النَّهي؟

غالِب الَّذِين يُهدون خصوصًا عَلَى الملوك والكبار من الأمراء إنما يريدون الزّيادة، يريدون أكثر؛ وَلِهَذا إِذَا عُرِفَ الإنسانُ بِأَنَّهُ لا يعطي إِلَّا مثل القيمة أو دونها لا يُعطَى هدايا، فلا يعطى هدايا إِلَّا من عُرِفَ أَنَّه يبذل أكثرَ ويردُّ أكثرَ.

قوْله تَعالَى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم﴾ يعني أعطيتم ﴿مِّن زَكَوٰةٍ﴾: (مِن) حرف جر وَهِيَ بيانية بَيان لـ(ما) فِي قوْله تَعالَى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم﴾، و(ما) هُنَا إعرابها شرطية بدليل قوْله تَعالَى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ فارتبطت (الفاء) فِي الجواب يعني ومهما آتيتم من زكاة بِهَذا القيد تريدونَ وجهَ الله ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾.

وقوْله تَعالَى: ﴿مِّن زَكَوٰةٍ﴾؛ قَالَ المُفَسِّر: [صَدَقَة]، وفِي هَذَا القيد نظر إن قصد بِهَا صدقة التّطوع أمَّا إن قصد بِهَا الصّدقة مطلقًا فنَعَمْ لأَنَّ الصّدقة تُطلق عَلَى الواجب والمستحب والدّليل عَلَى إطلاقها عَلَى الواجب قوْله تَعالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة:٦٠]، فهَذَا للواجبِ والمستحب.

إِذَنْ نَقُول: ﴿مِّن زَكَوٰةٍ﴾ المُراد بِهَا الزّكاة الواجبة.

فبالمَعْنَى الأول كَيْفَ نحوِّلها إِلَى صدقةٍ عَلَى أن المُراد بِهَا التَّطوعُ؟

والصّواب: أن المُراد بالزّكاة هِيَ الزّكاة الواجبة لأَنَّها مرادة عند الإطلاق، ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة:٤٣]، المُراد الواجب، إِذَنْ: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ﴾ أي من صدقة واجبة.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: الزّكاةُ فُرِضَتْ بالمدينة وهذه السُّورة مكِّية؟

قُلْنَا: هَذِهِ لا تدُلُّ عَلَى الفرض، وَإِنَّمَا تدُلُّ عَلَى الأجر فقط، مَعَ أن الصّحيح أن الزّكاة مفروضةٌ بمكةَ لكن تقديرها وتقدير أَنْصِبَائِها هُوَ الَّذي كَانَ فِي المدينة هَذَا هُوَ الصّحيح.

قوْله تَعالَى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ يعني تريدونَ بهذه الزّكاة الَّتِي آتيتم، تريدون وجهَ الله، هَذِهِ جملة شرط للثواب والأجر أن يريد الإنسان

وجه الله؛ لأَنَّ مَنْ لا يريدُ وجه الله إمَّا أن يريد وجه غيره أو أن لا يريد شَيْئًا، إِذَا أراد وجهَ غيرِه فليس لَهُ أجر بل علَيْه وِزْرٌ لأَنَّهُ مُراءٍ مشْرِكٌ فلا تقبل مِنْهُ، وإن لم يُرِدْ وجه الله ولا غيره لكِنَّهُ أراد إبْراءَ ذِمته فقط كما هُوَ حال غالب من يؤدي الزّكاة بل -الله يعاملنا بعفوه- غالِب من يؤدي حتى الصّلاة، أكثر النَّاس عندما يأتي إِلَى الصّلاة تجده يريد إبراء ذمته لا يشعر بأن هَذِهِ الصّلاة تقربه إِلَى الله عَزَّوَجَلَّ ويريد القرب بِهَا إِلَى الله هَذا، فغالب النَّاس -إلا من وفق وصار ينتبه عند فعل الطّاعات بإرادة وجه الله وَهُوَ الإِخْلاص واتباع الرَّسول ﷺ- فِي هَذِهِ العبادة لا يُراد وجهُ الله ولا يراد وجه غيره، وَإِنَّما أراد بِهَا إبراء ذمته تنفعه بلا شك وتبرأ بِهَا ذِمتُه وربما يُؤجر لقيامه بركن من أركان الإِسْلام، بل يقينًا يُؤجر لكن ربما يُؤجر أيضًا بكونه يشعر أن هَذِهِ مما أوجب الله علَيْه فيؤديه؛ لأَنَّ هَذَا لا شك أَنَّه تَعَبُّدٌ لله يعني فَعَلَه تَعَبُّدًا لكنْ كونُه يريد بِذَلِكَ وجه الله والتّقرب إِلَيْه هَذِهِ حالة أعلى من كونه يريد مجرَّد إبراء ذمته.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قوْله تعالَى: ﴿تُرِيدُونَ﴾ بِهَا ﴿وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ ثَوابَهُمْ بِمَا أَرَادُوهُ].

قوْله تَعالَى: ﴿وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ المُفَسِّر لم يفسِّرْها هنا، لكِنَّهُ فسرها فِي الآيَة الَّتِي قبلها بأنها ثوابه والصّواب أن المُرادَ بوجه الله ذات وجه الله لا ثوابه وفيه إشارة كما سبق إِلَى رؤية المؤْمِنينَ ربهم.

وقوْله تَعالَى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ جوابُ الشَّرط، ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل، ﴿ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ خبر (أولئك) ومعنى ﴿ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ أي الحاصلونَ عَلَى التَّضعيفِ لأَنَّ الفعلَ الثُّلاثي إِذَا دخلت علَيْه الهمزة فقد يراد بِهِ الدُّخول فِي الشّيء مثل قولهم: (أنجد) أي دخل نجدًا فمعنى (أضعف) هُنَا أي صَارَ من ذوي الأضعافِ، والأضعافُ

معناه الزّيادةُ يعني أولئك هم المضعفون الَّذِين حصلوا عَلَى مضاعفة الأجر والثّواب بخلاف الأولين الَّذِين آتَوُا الرِّبَا ليربوا فِي أموالِ النَّاس، فهَؤُلاءِ لَيْسَ لَهُم زيادةٌ، فالزِّيادةُ للذين آتوا الزَّكاة يريدونَ وجهَ الله، هَؤُلاءِ هم المضعفون أي الدَّاخلونَ فِي المضاعفةِ.

قوْله تَعالَى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ قول المُفَسِّـر: [﴿ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ ثوابهم] يعني الَّذِين ضاعفوه وزادوه بما أرادوه.

ثمَّ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فيهِ التفاتٌ عن الخِطابِ إِلَى الغَيْبَةِ]، والخطاب هُوَ قوله تعالَى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾، هَذَا خطاب، وكان مقتضى السّياق إِذَا كَانَ عَلَى نسق واحد أن يُقَال لَأَنْتُم المضعفون، لكن قَالَ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ وفائدة الالتِفات التّنبيه وفيه تَعْلِيَةٌ للشأن مثل التّعبير بقوْله تَعالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ﴾ [غافر:٦٠]، لم يقل وقلت لكم أو أقول لكم، تعظيمًا لشأنه تَعالَى فيكون المُراد بِذَلِكَ تعظيم شأن هَؤُلاءِ الَّذِين أردوا وجه الله عَزَّوَجَلَّ بكونهم حصلوا عَلَى مضاعفة الأجر والثّواب بخلاف الأولين.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: أن من بذل مالَه من أجل الحصول عَلَى أمر الدّنيا فإِنَّهُ لا أَجْرَ لَهُ فِي ذَلِك تؤخذ مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ وَهَذا عكس الأولين الَّذِين سبقوا فِي الآيَة السّابقة، الَّذِين أعطوا فِي الآيَة السّابقة يريدون وجه الله هَؤُلاءِ بالعكس يريدون الازدياد بما أعطوا.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: التّنبيه عَلَى أهمية الإِخْلاص لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ تؤخذ من قوله: ﴿تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾.

الفائِدَةُ الثَّالِثةُ: أنَّ مضاعفةَ الأعمـال تكون بحسب الإِخْلاص لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ فقد رتب الله تَعالَى الأضعاف عَلَى إرادة وجه الله، وَعَلَى مَا قررنا فِي القاعدة قبل قليل يَكُون كل من كَانَ أخلص لله فعمله أكثرُ مضاعفةً، وَهَذا أمر لا شك فِيهِ، فإن مضاعفة الأعمال تكون بأسباب كثيرة منْهَا شرفُ الزَّمانِ، ومنها شرفُ المكانِ ومنها شرف الفاعل، ومنها شرف العمل، ومنها الإِخْلاص، ومنها الاتِّباع، كل هَذِهِ الأسباب السّتة من أسباب المضاعفة.

المضاعفة بسبب شرف الزّمان كرمضان والعشر الأُوَلِ من ذي الحجة هَذَا لشرف الزّمان.

ومنها: المكان كالحرمين والأقصى فإِنَّهُ العمل فِيهَا أشرف من غيرها فالصّلاة فِي المساجد الثّلاثة أشرف من غيرها.

المضاعفة أيضًا بحسبِ العملِ، أي بحسب جِنس العملِ وليس بكثرتها، فالصّلاة أفضل من غيرها، والفرض من كل عمل أفضل من نَفْلِهِ وأشرفُ، والجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله ذُرْوَةُ سَنَامِ الإِسْلَامِ[1]، وهكذا كما يتبين لنا كثيرًا.

ومنها: المضاعفَةُ بحسب الفاعل، كالصّحابة الَّذِين قَالَ فيهم الرَّسول ﷺ: «**لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ**»[2]، ويلحق بِهَذا العاملون فِي آخر الزّمان فِي أيام الصّبر الَّذِين يتمسكون بسنة الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

---

(١) أخرجه الترمذي: أبواب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، رقم (٢٦١٦)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، رقم (٣٩٧٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلًا»، رقم (٣٦٧٣)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم، باب تحريم سب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم، رقم (٢٥٤١).

مَعَ تباعد النَّاس عنها، فإن هَؤُلاءِ يُضاعَف لَهُم الأجرُ وإن كانوا لا ينالون من مرتبة الصّحابة لكن يضاعف أجرهم بسبب مَا يجدونه من الغرابة ومخالَفة النَّاس لَهُم؛ لأَنَّهُ لا أحد يشك أن الإنسان الَّذي يعمل فِي محيط يعملون كما يعمل أن العمل يَكُون علَيْه هيِّن، بل مخالَفة النَّاس هِيَ الصّعبة، فعمل الإنسان فِي محيط لا يعملونه هَذَا هُوَ الصّعب والشّاق لا سِيَّما أن المعارضة ستكون عنيفة لأَنَّ هَذَا متمسك بطاعة الله والمخالَفون لَهُ عَلَى العكس، وأعنف صراع يَكُون بَيْنَ المتخالَفين هُوَ مَا يَكُون بَيْنَ المتمسكين بدين الله والمتحللين منه.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: مَا معنى قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**العَامِلُ فِي أَيَّامِ الصَّبْرِ لَهُ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ**»[1]؟

قُلْنَا: المَعْنَى لَهُ أجر خمسين فِي هَذِهِ الخصلة الَّتِي عانى بِهَا وتعب، فأصل العمل مثلًا الصّدقة مضاعفة بعشر أمثالها، عشر الأمثال موجودة فِي الصّحابة وموجودة فِي هَذَا الزّمن المتأخر لكِنَّهُ يضاعف ذَلِك فيكون أجر هَذَا مثل أجر خمسين من الصّحابة لما يجده من المعاناة، لكن الكمية الَّتِي تحصل للصحابة الّتي: لو أنفق أحدنا مثل أُحد ذهبًا مَا بلغ مد أحدهم ولا نصيفه[2]، هَذِهِ خاصة بهم، فعندنا ثواب عَلَى أصل العمل وثواب مضاعف بحسب العامل، فالَّذي فِي أصل العمل كالصّدقة مثلًا يَكُون لهَؤُلاءِ المتأخرين أجر خمسين من عمل الصّحابة باعتبار أصله لا باعتبار أَنَّه وقع من الصّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، رقم (٤٣٤١)، والترمذي: أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة المائدة، رقم (٣٠٥٨)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾، رقم (٤٠١٤).

(٢) سبق تخريجه.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ألا يردُّ عَلَى هَذَا قولهم: منا أو منهم؟ قَالَ: «**بَلْ مِنْكُمْ**»؟

فالجوابُ: لا يردُّ عَلَى هَذَا لأننا نعتبر أصل العمل لا المضاعفة بحسب كونه صحابيًا بالنّسبة لأصل العمل، الصّحابي لولا الصّحبة لكان لَهُ أجر أصل العمل فَقَطْ، فبالصّحبة يزداد فيكون معنى قول الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أجر خمسين منكم**»، يعني: باعتبار أصل العمل ويجب الرّجوع إِلَى هَذَا لأَنَّهُ لا يمكن الجمع بينه وبين هَذَا الحديث إِلَّا عَلَى هَذَا الوجه.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: لماذا قَالَ فِي الحديث أجر خمسين عاملًا ولم يقل أجر خمسين صحابيًا؟

قُلْنَا: لا نستطيع أن نقول لماذا لم يقل، والمَسْأَلَة الآن مَسْأَلَة جمع ولو كَانَ الأمر واضحًا مَا احتجنا أن نقول مَا وجه الجمع بَيْنَهُما، فما دامت المَسْأَلَة مَسْأَلَة جمع يحتاج أن ننظر أدنى دائرة يمكن أن تجمع بَيْنَ النّصين.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل الصّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يتفاضلون؟

فالجوابُ: معلوم أن الصّحابة يتفاضلون، والرَّسول ﷺ يخاطب الصّحابة: يخاطب خَالِدَ بْنَ الوَلِيدِ فِي مقابلة سبِّه لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، وعبدُ الرَّحمنِ بنُ عَوْفٍ من السّابقين الأولين، وخالد بن الوليد متأخر إسلامه، وكان بَيْنَهُما مَسَابَّةٌ فقال له: «**مَهْلًا يا خَالِدُ، لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ**»[1].

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: وهل لَحِقَ خالدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِهذا الفضل؟

---

(١) سبق تخريجه.

قُلْنَا: بالنّسبة لمن دونه يلحق لا شك لكن بالنّسبة لمن فوقه ظاهر الحديث أنَّه لا يلحق وَلِهَذا قالَ الله تَعالَى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠].

والخامس: بحسب الإِخْلاص كمـا فِي هَذِهِ الآيَة فكلما كَانَ الإنسان أخلصَ ولو كَانَ العمل واحدًا كَانَ عملُه أشرفَ من الآخر؛ وَلِهَذا تجد رجلين ركبا سيارة واحدة وخرجا ودخلا جَمِيعًا فِي الحج أو فِي العمرة ورجعا جَمِيعًا عَلَى السّيارة وأفعالُهما واحدة وأقوالُهما واحدة، وبَيْنَهُمـا تفاوت أكثر مَا بَيْنَ المشـرق والمغرب بحسب الإِخْلاص لله.

والسّادس: بحسب الاتِّباع وَلِهَذا أخبر النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أنَّ أَفْضَلَ الأَعْمَالِ بَعْدَ الإِيمَانِ بِاللهِ الصّلاةُ عَلَى وَقْتِهَا**»[1]؛ لأَنَّهَا حصلت عَلَى وجه المتابعة للرسول ﷺ.

هَذِهِ الأسباب فِي الشّرف كلها مما يوجب للعبد العناية بأعمالِه وأن يتحقق بما يستطيع من هَذِهِ الأسباب.



(١) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها، رقم (٥٢٧)، ومسلم: كتاب الإِيمان، باب بيان كون الإِيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، رقم (٨٥).

الآيــة (٤٠)

• ● ● •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الرّوم:٤٠].

• ● ● •

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ ممن أشركتم بالله ﴿مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾ لا؛ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به].

قوْله تَعالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ يعني أوجدكم من العدم، لكنَّ الخلقَ لَيْسَ مجرد الإيجاد بل هُوَ الإيجاد بتقدير، بل إن بعضهم قَالَ إن الخلق فِي الأصل هُوَ التّقدير واستدلوا لِذَلِكَ بقول الشّاعر:

وَلأَنْتَ تَفْرِي مَـا خَلَقْـتَ وَبَعْـــ ـــضُ النَّاس يَخْلُقُ ثمَّ لا يَفْـرِي[1]

معنى: (ما خلقتَ) أي مَا قدرت ولكن الصّحيح أَنَّه يطلق عَلَى الإيجاد المسبوق بالتّقدير فمعنى ﴿خَلَقَكُمْ﴾ أوجدكم إيجادًا مسبوقًا بالتّقدير والإحكام والإتقان وَهَذا مُسلَّم حتى عند المُشْرِكِينَ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزّخرف:٨٧]، ولا يمكن لأحد أبدًا إِلَّا المجنون أن يدعي أَنَّه خلق نفسه، أو يدعي أَنَّه خُلق بدون

---

(١) ذكره الجوهري في الصّحاح (٤/ ١٤٧١)، ونسبه إلى الشّاعر زهير بن أبي سلمى.

خالق ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطّور:٣٥]، فأنت مَا خلقك أبوك ولا خلقتك أمك ولا خلقك أحد من البشر ولا من غير البشر سوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فَهَذَا أمر مُسَلَّمٌ، وأما أهل الطّبيعة فيقولون هَذَا شيء وجد فِي الأزل عَلَى هَذَا الصّفة وصار يتفاعل ويتوالدّ وما أشبه ذَلِك لكن يقرون بموجد فلا يقُولونَ إن هَذَا الإنسان مثلًا أو هَذَا الحيوان وجد هكذا صدفة يقرون بموجد وَهِيَ الطّبيعة، فنقول لَهُم هَذِهِ الطّبيعة من الَّذي أوجدها؟ لكن هَؤُلاءِ مكابرون ولا عبرة بقولهم.

قوْله تَعالَى: ﴿ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ أي أعطاكم. والرّزق فِي اللُّغَة العطاء ومنه قوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ [النّساء:٨]، أعطوهم وهل أحد يدعي أن الرّازق سوى الله؟ قد يدعي أحد. قد يقول: الله قَالَ: ﴿فَٱرْزُقُوهُم﴾ فأنا رزقت هَذَا الإنسان أي أعطيته فيُقَال لكن مَن الَّذي خلق مَا أعطيت؟ الله، الَّذي رزقك هَذَا هُوَ الله، ومهما كَانَ من عمل بني آدم فإنما هُوَ تحويل لا إيجاد كل أعمال بني آدم حتى الصّنائع والبناء وغير ذَلِك لَيْسَ إِلَّا مجرد تحويل يعني تغيير من شيء إِلَى شيء وإلا فالأصل هُوَ الله عَزَّوَجَلَّ هُوَ الخالِق وَهُوَ الموجد، هَذَا الرّزق الَّذي أعطيت أو هَذَا الرّجل أعطيته كيسًا من الطّعام صحيح أَنَّك رزقته لكن من الَّذي أوجد هَذَا الكيس؟ الله عَزَّوَجَلَّ فإذًا الرّزق أصله من الله وإن كَانَ قد يوجد عَلَى أيدي بعض النَّاس لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾.

وقول الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالمَعْرُوفِ»(١)، لكن يُقَال من الَّذي خلق هَذَا الرّزق؟ ومن الَّذي جلبه إليك؟ ومن الَّذي قَدَّرَ أن تعطيه؟ والجوابُ على كل هذا: هُوَ الله.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨).

وقوْله تَعالَى: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ يعني بعد هَذَا الخلق والإمداد، الخلق إعداد، والرّزق إمداد، الله عَزَّوَجَلَّ أوجدك وأعدك وهيأك ثمَّ أمدك بها بِهِ قوامك بعد ذَلِك. ﴿يُمِيتُكُمْ﴾ يعني بعد الحياة: حياة الدّنيا يَكُون الموت وَهُوَ مفارقة الرُّوح البدن مفارقة تامة لأَنَّ النّوم فِيهِ مفارقة تفارق الرّوح البدن ولكن ليست مفارقة تامة، أمَّا الموتُ الَّذي هُوَ الموت فهي مفارقة تامة ولكنها تُعاد إِلَيْهِ فِي قبره إعادة بَرْزَخِيَّةً لا كإعادتها فِي الدّنيا.

قوْله تَعالَى: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ الحياة الآخرة الَّتِي لَيْسَ بعدها فناء.

قوْله تَعالَى: ﴿شُرَكَآئِكُم﴾ أي: من شركائكم الَّذِين أشركتموهم، فتكون مضافة إِلَى المفعول، يعني هل من هَؤُلاءِ الَّذِين أشركتموهم بالله؟ وَلِهَذا قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [ممن أشركتم بالله]، أي ممن أشركتموهم، والإنسان إِذَا أشرك فالمشْرَك بِهِ مفعول وليس معنى شركائكم هم الَّذِين شاركوكم أو أشركوكم، بل أنتم الَّذِين أشركتموهم مَعَ الله فَهُوَ مضاف إِلَى مفعوله.

قوْله تَعالَى: ﴿مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾ إعـراب ﴿مَّن يَفْعَلُ﴾ محلها مـن الإعراب يحتمل أن تكون نكرة موصوفة والتّقدير ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ أحدٌ يفعل ذَلِك ويحتمل أن تكون موصولة عَلَى أَنَّها مبتدأ مؤخر أي هل الَّذي يفعل ذَلِك من شركائكم، والأول أحسن أن تكون نكرة موصوفة يعني هل من شركائكم أحد يفعل شَيْئًا من ذلك.

وقوْله تَعالَى: ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ من زائدة وصحت زيادتها لأَنَّ الاسْتِفْهام هُنَا بمعنى النّفي و﴿مِّن﴾ تزاد فِي النّفي كما قَالَ ابن مالِك رَحِمَهُ اللَّهُ[1]:

---

(١) البيت رقم (٣٧٠) من ألفيته.

وَزِيــدَ فِي نَفْــيٍ وَشِــبْهِهِ فَجَــرّ نَكِـرَةً كَـ (مَـا لِبَـاغٍ مِـنْ مَفَـرّ)

وقَوْله تَعالَى: ﴿مِن ذَٰلِكُم﴾ المُشار إِلَيْهِ الخلق والرّزق والإحياء والإماتة، فعلى هَذَا يَكُون الجواب عن كونه مفردًا مذكرًا مَعَ أن السّابق أربعة أَشْيَاء: جمع، يُقَال لأَنَّهُ أُوِّلَ بالمذكور ﴿مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم﴾ أي من ذلكم المذكور، فصح أن يأتي اسم الإِشارة مفردًا مذكرًا لأَنَّهُ عائد إِلَى مذكور.

وقَوْله تَعالَى: ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ يعنـي لا يمكن أن يفعل هَـؤُلاءِ أي شيء من هَذِهِ الأمور لا الخلق ولا الرّزق والإحياء ولا الإماتة وَهَذا عَلَى سبيل التّحدي، فإذا كانت هَذِهِ الآلهةُ الَّتِي أُشْركت بالله لا تفعل شَيْئًا من هَذَا هل يصح أن تكون آلهة؟ لا بل تَأْلِيهُهَا باطلٌ؛ لقَوْلِه تَعالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [لقمان:٣٠].

يبقى النّظر لو ادعى مدعٍ أَنَّه يحيي ويميت كالَّذي حَاجَّ إبراهيمَ فِي ربِّه، إبراهيم ﷺ قَالَ له: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨]. فمـا هُوَ الجواب لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إن من المعبودين من يستطيع أن يحيي ويميت؟

نَقُول: هَذِهِ دعـوى باطلة؛ لأَنَّ الإحياء والإماتة من الإنسان ليسـت إحياء وإماتة ولكنها فعل سبب.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: الاسْتِدلال بالأَجْلى والأَوْضح لأَنَّ الله استدل عَلَى بطلان آلهة المُشْرِكِينَ بأمر يقرونه هم، وآلهتهم لا تفعله وَهُوَ الخلق والرّزق والإماتة والإحياء.

الفائِدَةُ الثَّانيةُ: تمام قدرة الله عَزَّوَجَلَّ وَذَلِكَ بالأمور الأربعة الخلق والرّزق إِلَى آخره.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: إثْبَات أن مَا اكتسبه الإنسان فَهُوَ من الله لأَنَّ هَذِهِ الأربعة فِيهَا ثلاثة لا أحد يُماري فِيهَا وَهِيَ الخلق والإماتة والإحياء لكن الرّزق قد يماري فِيهِ ممارٍ، فَقَارُونُ قَالَ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص:٧٨]، فقد فُسِّر: (عَلَى علم مني بوجوه المكاسب)، والمَعْنَى أني أنا ماهر فِي معرفة المكاسب وحصلت هَذَا المال، ولكننا نقول هَذَا التّحصيل الَّذي حصلته بمهارتك إنما جاءك من الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأَنَّ هَذَا الَّذي حَصَل لك بسببٍ وخالِقُ الأسباب هُوَ الله.

الفائدة الرّابعة والخامسة: أَنَّه ينبغي لنا استجلاب الرّزق من ربنا وحده لقوْلِه تعالَى: ﴿ثُمَّ رَزَقَكُمۡ﴾، وَإِذَا كَانَ الأمر كَذَلِكَ فإِنَّهُ يترتب عَلَى هَذَا فائدة أُخْرَى وَهِيَ أن لا نطلب رزقه بمعاصيه، وجهه: إِذَا كنت تطلب الرّزق من الله هل من اللائق عقلًا أنْ تُقَدِّمَ لَهُ معصيةً ليرزقك، الَّذي يستدر الرّزق من غيره يُقَدِّمُ طاعته والخضوع لَهُ، وَلِهَذا قَالَ الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ [الطّلاق:٢-٣].

إِذَنْ: مَنِ استجلبَ رزق الله بمعاصيه فقد خالَف الحكمة والصّواب. فهَؤُلاءِ الَّذِين يطلبون الرّزق بالرّبا ويطلبون الرّزق بالغش ويطلبونه بالكذب وغير ذَلِك من الوسائل المحرمة هم فِي الحقيقة أشبه مَا يَكُونُونَ بالمستهزئين بالله عَزَّوَجَلَّ السّاخرين بِهِ كأنهم يقُولونَ يا ربنا إننا نعصيك لترزقنا! وَهَذا من أعظم مَا يَكُون؛ وَلِهَذا جعل الله الَّذِين يطلبون زيادة المال بالرّبا جعلهم محاربين لَهُ، كما فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٢٧٨ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة:٢٧٨-٢٧٩]، والرّبا كما قَالَ شيخ الإسْلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما ورد فِي ذنب من الذّنوب دون الشّرك أعظم مما ورد فِي الرّبا»، الَّذي أصبح عند

النَّاس الآن من أسهل الأشْيَاء وأبسطها حتى كانوا يتعاطونه بالصّراحة، ويتعاطونه بالتّحيل، وتعاطيه بالتّحيل أخبث من تعاطيه بالصّراحة، مثلما أنَّ تعاطيَ الكفر بالنّفاق أخبثُ من تعاطيه بالكفر الصّـريح؛ لأَنَّ هَذَا المتحيل مخادع لله عَزَّوَجَلَّ جمَـعَ -والعياذُ باللهِ- بَيْنَ مَفْسَدَةِ الرِّبا ومفسدة الخداع والتّحيل، فالرّب عَزَّوَجَلَّ إِذَا حرم شَيْئًا لَيْسَ كغيـره تخفى علَيْه الأشْيَاء فَهُوَ ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر:١٩]، ونبيه عَلَيْهِ‌الصَّلَاةُ‌وَالسَّلَامُ وضَّح أنَّ: «**الأَعْمَال بِالنِّيَّاتِ**»[١]، فمـا دُمْتَ نويتَ الرّبا الآن لكن تحايلت علَيْه بإدخال سلعة غير مقصودة هَذَا تلاعب واستهزاء بآيات الله عَزَّوَجَلَّ يأتي إِلَيْهِ يقول أنا أريد منك مئة ألف عَلَى أن تكون بمئة وعشرين ألفًا إِلَى سنة كَيْفَ الوصول إِلَى هذا، يقول والله نحن مسلمون لا أستطيع أن أعطيك مئة ألف نقدًا وأكتبها عليك بمئة وعشرين لأننا نخشى الله ولكن نلوذ من جهة أُخْرَى ونجعل حاجزًا بيننا وبين الله بأي سلعة تتَّفق، فيذْهَبون ينظرون الَّذي عند النَّاس، فإن وجدوا سكرًا قَالُوا: نشتري سكرًا، وإن وجدوا هيلًا قَالُوا: نشتري هيلًا، وإن وجدوا سيارات اشتروا سيارات، حتى لو وجدوا أكياسًا لا يدرون مَا فِيهَا لعله أنْ يكُونَ رملًا قَالُوا نشتري هَذِهِ الأكياس، وهَذا هُوَ الواقع؛ وَلِهَذا لا ينظرون إِلَى هَذِهِ الأكياس ولا يدرون مَا فيها، وأكثر مَا يَكُون فِي القبض أَنّه يمرر يده عَلَيْهَا أو يعدها، ويقولون إن هَذَا هُوَ القبض، وليس هَذَا هُوَ القبض لغةً أو عرفًا أو شرعًا، ولا يعد هَذَا قبضًا؛ لأَنَّ القبض معناه أنْ يكُونَ الشّيء فِي قبضتك وَهَذا الشّيء مركون فِي مكانه ترد علَيْه عدة مبايعات فِي خلال ساعة أو ساعتين، وهذه البَلِيَّةُ الَّتِي ابْتُلِيَ بِهَا

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (١)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «إنما الأعمـال بالنية»، وأنه يدخل فيه الغزو وغيره من الأعمال، رقم (١٩٠٧).

النَّاس الآن نسأل الله أن ينقذهم منْهَا بلية عظيمة، ويقبحها أنهم يعتقدون أنَّها حلال وأن عمل البنوك حرام، حتى إن بعضهم يأتي يتغيظ ويتضجر، أعوذ بالله انظروا الحرام الرِّبا يعلن صريحًا فِي البنوك وَهُوَ ممن يتعاملون بهذه المعاملة يبكي غيره ولا يبكي نفسه، وَهُوَ أحق بأن يبكي نفسه.

فالمُهِمُّ: أن الرِّزق إِذَا كَانَ من الله عَزَّوَجَلَّ فإِنَّهُ يجب عليك شرعًا وعقلًا أن تستمد هَذَا الرِّزق بطاعة الله لا بمعصيته.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل التَّوَرُّقُ داخل فِي هذا؟

التَّوَرُّق يقول شيخ الإسْلام إِنَّه داخل فِي هَذَا، ويقول عنه تلميذه ابن القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن شيخنا يُسأل عن هَذَا مرارًا فيصر عَلَى أَنَّه حرام». وقد كَانَ التَّوَرُّق غير التَّوَرُّق المتعامل بِهِ بَيْنَ الناس اليوم، قَالَ العلَمـاء وعبارتهم: «ومَنِ احْتَاجَ إِلَى نَقْدٍ فَاشْتَرَى مَا يُسَاوِي مِئَةً بِمِئَةٍ وعِشْرِينَ فَلَا بَأْسَ بِهِ وَهِيَ مَسْأَلَةُ التَّوَرُّقِ»[1]، هَذِهِ عبارة (الرّوض المربع) شرح الزّاد.

أولًا: قَالَ: «ومن احتاج» فعلمنا أنَّها لا تكون إِلَّا للحاجة.

ثانيًا: قَالَ: «فاشترى مَا يساوى مئة بمئة وعشرين»، وقع العقد عَلَى عين المبيع ولم يقولوا العشر أحد عشر ولا اثنا عشر.

وكلمة: «اشترى» تحمل عَلَى الشّراء الشّرعي الَّذي يجمع الشّروط ومن جملتها، العِلْم بالمبيع ونوعه وجنسه إِلَى آخره، وهَذا غير موجود فِي عمل النَّاس الآن.

---

(١) الروض المربع شرح زاد المستقنع (ص:٣١٨)، ط. دار المؤيد - مؤسسة الرسالة، ونصها: «ومن احتاج إلى نقد فاشترى ما يساوي مائة بأكثر ليتوسع بثمنه فلا بأس، وتسمى: مسألة التورق».

كَذَلِكَ قوله: «اشترى بما يساوي مئة بمئة وعشرين إِلَى أجل» ينطبق لأنهم يقُولونَ لكل عشرة اثنا عشر وثلاثة عشر وأحد عشر حسب الاتفاق، ثمَّ نفس الفقهاء الَّذِين أباحوا ذَلِك قَالُوا يُكره أن يقول فِي المرابحة أي فِي بيع المرابحة المعروف أن يقول العشر أحد عشر وذكروا عن الإِمَام أحمد نصًّا بِأَنَّهُ يحرم أن يقول العشر أحد عشر حتى فِي غير مَسْأَلَة التّورُّق، ففي بيع المرابحة المعروف يحرم فِيهِ عَلَى إحدى الرّوايات عن أحمد أن يقول العشرة أحد عشر وَهُوَ يريد السّلعة نفسها لا يريد النّقد.

والمذهب: أنّه يكره والرّواية الثّانية عن أحمد أنّه يحرم، مثلًا لو اشتريت هَذَا الكتاب وأنت تريد هَذَا الكتاب نفسه لا تريد دراهمه فقلتَ لي سأشتريه منك مرابحة، قلت لا بأس أنا شاريه بمئة وسأبيعه عليك عَلَى أن أربح بكل عشرة دراهم درهمًا، أي تكون المئةُ مئةً وعشرة، هَذَا جائز لكن لو قلتَ سأشتريه منك العشرة أحد عشر، قَالُوا إِنَّه يكره عَلَى المذهب ويحرم عَلَى الرّواية الثّانية مَعَ أَنَّها ليست هِيَ مَسْأَلَة التَّورُّق فهَؤُلاءِ النَّاس الآن جمعوا بَيْنَ الأمرين بَيْنَ العشرة أحد عشر أو اثنا عشر وبين التَّوَرُّق.

أمَّا عمل الناس الآن فَهُوَ لا ينطبق علَيْه، حتى عَلَى قول من يقول بجواز التَّوَرُّق؛ ولاحظ أن الإِمَام أحمد عنه رواية بأنها جائزة والرّواية الثّانية بأنها من مسائل العِينَةِ، ذكرها عنه شيخ الإسْلام ابن تَيْمِيةَ[1]، وذكرها ابن القَيِّمِ فِي تهذيب السُّنن[2]، أن مَسْأَلَة التَّوَرُّق من مسائل العِينَةِ والعِينَةُ معروف أنَّها حرام.

فالحاصِلُ: أننا فِي عصرنا الحاضر لما كَانَ النَّاس لا يبالون إِلَّا أن يكتسبوا المال

(١) مجموع الفتاوى (٢٩/ ٣٠).

(٢) تهذيب سنن أبي داود وإيضاح مشكلاته (٢/ ١٥٦)، وإعلام الموقعين عن رب العالمين (٣/ ٢٠١).

فقد جعلوا المال مقصودًا مخدومًا بعد أن كَانَ وسيلة خادمًا، وحَقِيقَةُ المالِ أَنَّه وسيلة خادم ولكن جعلناه الآن مقصودًا مخدومًا، وَهَذا من سفه الإنسان أن يستخدمه مالُه الَّذي خلق لَهُ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:٢٩].

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل الإيداع فِي البنوك يعتبر إيداعًا شرعًا؟

قُلْنَا: إن قولنا فِي البنوك أني وضعت مالي وديعة عِنْدَهُم هَذَا غير صحيح لا ينطبق علَيْه شرعًا. فمعنى الوديعة شرعًا هُوَ أن تعطيه المال ليحفظه بعينه لا أن تعطيه مالَك يضعه فِي صندوق وينتفع به، حتى إنَّ العلَماءَ قَالُوا لو أن المودِع أذن للمودَع بالانتفاع بالوديعة صارت قرضًا يثبت فِي ذمته.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: مَا حكم السَّلَمِ؟

السَّلَمُ معروفٌ، وَهُوَ أن أعطي شخصًا دراهمَ نقدًا بسلعةٍ مؤجَلة، عكس الشّراء، فأعطيك مثلا عشرة آلاف ريال عَلَى أن تعطيني بعد سنة مئة كيس سكر أو سيارة وصفها كذا وكذا هَذَا لَيسَ فِيهِ شيء؛ لأَنَّ الصّحابة كانوا يفعلونه فِي عهد الرَّسول ﷺ كانوا يسلفون فِي الثّمار السّنة والسّنتين[1]، فقال النَّبيّ عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ أَسْلَفَ فِي شَيْءٍ فَلْيُسْلِفْ فِي كَيْلٍ مَعْلُومٍ وَوَزْنٍ مَعْلُومٍ إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ»[2]، ووجه أَنَّه لَيسَ فِيهِ شيء هُوَ أَنَّهُ لَيسَ هناك ربحٌ مضمون لأحد الطّرفين، فأنا إِذَا أعطيتك مثلًا عشرة آلاف ريال فِي سيارة إِلَى أجل لا أدري، هل أنا الَّذي أربح أو أنت؟ لأَنَّهُ عند انتهاء الأجل يمكن أن أجد السّيارة بستة آلاف ريال ويمكن لا أجدها

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب السلم، باب السلم إلى أجل معلوم، رقم (٢٢٥٣)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب السلم، رقم (١٦٠٤).

(٢) التخريج السابق.

إِلَّا بخمسة عشر ألف ريال، وَهَذا لا بُدَّ أن يقع، ونادرًا أن تكون الأسعار إِلَى سنة لا تقل، فإذا كَانَ فِي الذّمة فليس فِيهِ شيء، وَلِهَذا قَالَ الفقهاء: لو أَسْلَمَ فِي ثَمَرِ بستان معين مَا صح لأَنَّهُ صَارَ محله الآن البستان ولم يعد فِي الذّمة فلا بد من تمام الشّروط.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: الَّذي يحتاج فلوسًا ماذا يفعل؟

قُلْنَا: إِذَا احتاج فلوسًا يأتي للواحد يقول تعال أعطنا فلوسًا بشيء مؤجل أو يشتري المواد الَّتِي يحتاج بثمن مؤجل أكثر من النّقد، وليس هذا من التَّورُّق، إِذَا اشترى السّلعة يريدها بعينها لَيْسَ تورقًا، ففي التَّورُّق هُوَ لا يريد السّلعة وَلِهَذا سمي تورقًا، مأخوذ من الوَرِق لأَنَّهُ لا يريد إِلَّا الفضة.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: عجز هَذِهِ الآلهة عن فعل شيء يختص بالرُّبُوبِيَّة لقَوْله تَعالَى: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾؛ لأَنَّ هَـذَا الاسْتِفْهام كمـا قررنا بمعنى النّفي.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: ثبـوت التّلازم بَيْنَ التّوحيدين: توحـيد الرُّبُوبِيَّة وتوحـيد الألوهية وأن من أقر بتوحيد الرُّبُوبِيَّة لزمه أن يقر بتوحيد الألوهية وَهَذا المَعْنَى قرره الله تَعالَى فِي عدة آيات.

الفائِدَةُ الثّامِنَةُ: تنزيـه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن كل نقـص يؤخذ مِنْ قوْلِـه تَعالَى: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾.

الفائِدَةُ التّاسِعَةُ: أن المُشْرِكِينَ بالله عَزَّوَجَلَّ قد وقعوا فِي تَنَقُّصِ الله لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

الفائِدَةُ العاشِرَةُ: أن الله تَعالَى يجمع فيمـا وصف وسمى بِهِ نفسه بَيْنَ النّفي

والإثْبَات، فالنّفي فِي قوْله تَعالَى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾، والإثْبَات فِي قوْله تَعالَى: ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

الفائِدَةُ الحادِيَةَ عشْرَةَ: قوة الإقناع فِي أسلوب القرآن لأَنَّ مثل هَذَا التّحدي ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾ هَذَا أقوى مَا يَكُون فِي الإقناع كل منهم سيكون جوابه لا.

إِذَنْ: لماذا تعبدونها مَعَ الله هل يستفاد من هَذِهِ الآيَة استنباط أقسام التّوحيد الثّلاثة؟ الرّبُوبِيَّة موجودة، والألوهية موجودة لالتزام الإقرار بالرّبُوبِيَّة الإقرارَ بالألوهية ثمَّ إن قوْله تَعالَى: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ المقصود بِهِ إبطال أُلوهيَّتهم، والأسماء والصّفات موجودة فِي قوْله تَعالَى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.



الآية (٤١)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

قوْله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ظَهَرَ﴾ بمعنى بان واتضح، وقوْله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْفَسَادُ﴾ ضد الصّلاح وَهُوَ من كل شيء بحسبه ففساد الزّروع بيبسها وتلفها بالعواصف والأمطار المغرقة والبرق المتلف وَكَذلِكَ فساد المواشي بهلاكها ومرضها، وفساد الثّمار بنقصها وما أشبه ذلك، المهم الفساد فِي كل شيء بحسبه وهل الفسادُ هُنَا يراد بِهِ الفسادُ الحسي أو يشمل الفساد الحسي والمعنوي؟ الصّحيح أنّه يشمل الفساد الحسي والمعنوي، فالحسي مَا ذكرنا أمثلته قبل، والمعنوي هُوَ كثرة المعاصي والفسوق وانتشارها بَيْنَ النَّاس وعدم المبالاة بِهَا حتى يصبح المنكر معروفًا والمعروف منكرًا، فإن هَذَا من أعظم الفساد قَالَ الله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف:٥٦]، قَالَ العلماء لا تفسدوها بالمعاصي.

وقوْله تَعالَى: ﴿فِى ٱلْبَرِّ﴾؛ يقول المُفَسّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي القفار بِقَحْطِ المَطَرِ وَقِلَّةِ النَّبَاتِ].

البَرُّ القفَارُ، يعني الفَيافِي الخارجة عن المدن والسُّكان، وقيل المُرَاد بالبَرَّ مَا لَيْسَ ببحر فيشمل المدن والأمصار والقفار وغيرها.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَٱلۡبَحۡرِ﴾ أي: البِلادُ الَّتِي عَلَى الأنهارِ بِقِلَّةِ مَائِهَا]، فمشى المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَى أن المُرَاد بالبَرِّ مَا سوى العمران، والمُرَاد بالبحر العمران الَّذي عَلَى شواطئ البحار، وَبِهذَا قَالَ كثير من المفسرين ولكن الصّواب أن المُرَاد بالبر مَا سوى البحر، والمُرَاد بالبحر الماء؛ لأَنَّ مَا ذكرناه هُنَا أعم مما ذكره المُفَسِّر وغيره وَهُوَ الأظهر أيضًا، فإن البحر إِذَا أُطلقَ فِي القرآن يُراد بِهِ الماء، ففساد البر كما قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بالقحط وقلة النّبات]، وفساد النّبات أيضًا بعد وجوده؛ وَلِهَذا أرسل الله عَلَى آل فِرْعَوْنَ الجَرادَ والقُمَّلَ والضَّفادع والدَّمَ، أربع آفات، الجراد يفسد الزّروع بعد خروجها ويأكلها، القمل يفسد القوت، إِذَا حصد وأُدْخِلَ جاءه القمل وَهُوَ السّوس الَّذي يتلفه فَهُوَ مَا يدخل من السّوس فِي القوت يسمونه عندنا (النّخشية) وَهِيَ عبارة عن دودة تكون فِي الحبوب فتفسده وتأكله فيكون قشورًا فقط. والضّفادع بالماء، امتلأت مياههم ضفادع حتى إن الإنسان لا يستطيع أن يشرب الماء بسبب الضّفادع -والعياذُ باللهِ-. والدّم: الصّحيح أن المُرَاد بِهِ النّزيف وإن كَانَ بعض العلَماء يقول إن المُرَاد بالدّم أنْ يكُونَ الماء عند آل فرعون كالدّم والصّواب أَنَّه النّزيف لأَنَّ الله ذكر إفساد الماء بالضّفادع فكان القوت من أوله إِلَى آخره وغايته وَهُوَ الدّم لأَنَّ الدّم يَكُون من القوت فصارت الأقوات -والعياذُ باللهِ- لا تنفعهم لا قبل دخولها أجوافهم ولا بعد الدّخول، وهذا من فساد البر.

فكيف كَانَ الفسادُ فِي البحر؟

قال العلَماء يَكُون بموتِ الحيتان وفسادها، وَكَذَلِكَ تَغَيُّرُ المياه وعدم اطرادها كالعادة.

وقوْله تَعالَى: ﴿بِمَا كَسَبَتۡ﴾: (الباء) للسببية و(ما) يحتمل أن تكون مصدرية

ويحتمل أن تكون موصولة، إِذَا كانت موصولة فلا بد لها من عائد محذوف فالتّقدير بما كسبته أيدي النَّاس، وإن كانت مصدرية لا تحتاج إِلَى عائد ويكون المَعْنَى بكسب أيدي النَّاس.

وقوْله تَعالَى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [من المعاصي].

وقوْله تَعالَى: ﴿أَيْدِي النَّاسِ﴾ جمع يد والمُرَاد مَا كسبوا وَهَذا من أساليب اللُّغَة العرَبِيَّة أن يعبر باليد عن صاحب اليد وليس المُرَاد مَا كسبت اليد فقط؛ لأَنَّ المعاصي لا تكون بالأيدي فَقَطْ، بل تكون باليد وبالرّجل وبالعين وباللسان وبالأذن وكل الحواس يمكـن لِلإِنْسَانِ أن يعمل بِهَا المعصيـة فيكون المُرَاد بالأيدي هُنَا الأنفس لا اليد الَّتِي هِيَ عضو من أعضاء البدن، وليست مجازًا لأَنَّهَا بسياقها دالة عَلَى أن المُرَاد مَا كسبوه فلا تكون مجازا، أَمَّا قوْله تَعالَى: ﴿إِنَّمَا جَزَاؤُا الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة:٣٣]، فالمُرَاد بـ﴿أَيْدِيهِمْ﴾ الأعضاء فالكلمة فِي سياقها حقيقة فِي معناها وَلِهَذا لو أراد أن يصـرف قوْله تَعالَى: ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ﴾ إِلَى أن المَعْنَى أو تقطع أبدانهم مَا استطاع، كما أَنَّه لو أراد أن يجعل بما كسبت أيدي النَّاس أي بما كسبت اليد نفسها فقط دون بقية الأعضاء مَا استطاع وَهَذا هُوَ وجه قول شيخ الإِسْلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّه لا مجاز فِي القرآن ولا فِي اللُّغَة العرَبِيَّة؛ لأَنَّهُ إِذَا كانت الكلمة قد تعيـن معناها بسياقها صـارت بمقتضى هَذَا السّياق حقيقة فِي هَذَا المَعْنَى وحِينَئِذٍ لا نحـتاج إِلَى تأويل.

وقوْله تَعالَى: ﴿النَّاسِ﴾ أصلها أناس لكن حذفت الهمزة للتخفيف كما هِيَ فِي قَوْلِهِ فِي شر وخير وأصلها أشر وأخير وكما هِيَ فِي قوْله تَعالَى: ﴿اللَّهَ﴾ فإِنَّ أَصْلَهُ

الألاه، هكذا قيل فِي الله وفي النّفس من هَذَا شيء.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لِيُذِيقَهُم﴾ بـ(الياء) و(النّون) بعض الَّذي عَمِلُوا].

﴿لِيُذِيقَهُم﴾: (اللام) هُنَا للتعليل والمعلل مُتَعلَّقُ هَذِهِ اللام واللام متعلقة بـ(ظهر) هَذَا هُوَ المعلل ظهر لأجل أن يذيقهم، وفيها قراءتان سبعيتان وَهِيَ (لِيُذِيقَهُمْ)[1]، مضاف فِيهَا الفعل إِلَى الله عَزَّوَجَلَّ أو ﴿لِيُذِيقَهُم﴾ مضاف فِيهَا الفعل إِلَى ضمير الغائب، ومع ذَلِك فإن هَذَا الغائب يعود إِلَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقوْله تَعالَى: ﴿لِيُذِيقَهُم﴾ يُعبر دَائِمًا بالإِذَاقَة عن الإصَابَة لأَنَّ الذّوق هُوَ أعلى أنواع الإدراك الحسي، فإن الإنسان يسمع بالشّيء ثمَّ يراه ثمَّ يذوقه، أقول لك عندي تفاحة إدراكك للتفاحة الآن بالسّماع ثمَّ أُخرجها وأريك إياها يَكُون بالرّؤية، والرّؤية أقوى من السّماع ثمَّ أُعطِيكها فتأكلها فيكون هَذَا بالذّوق وَهَذا أعلى مَا يكون؛ لأني إِذَا قلت عندي تفاحة ولم ترَها أنْتَ يحتمل أن قولي هَذَا كذب، وَإِذَا أريتك إياها ولكنك مَا ذقتها يحتمل أن تكون نباتًا آخر يشبه التّفاحة ويحتمل أن تكون من التّفاح الصّناعي الَّذي يصنعونه من البلاستيك تشاهده كأنه تفاح حقيقي، فإذا ذقتها صارت حق اليقين؛ وَلِهَذا يعبر الله عَزَّوَجَلَّ دَائِمًا عن الإصَابَة بالإِذَاقَة لأَنَّهَا أعلى أنواع الإدراك.

وقوْله تَعالَى: ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾؛ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي عقوبته]، لأَنَّ الَّذي عملوا غير الفساد الظّاهر فِي البر والبحر ولكن الفساد هُوَ عقوبته.

قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: لماذا عبر عن العقوبة بالفعل؟

---

(١) الحجة في القراءات السبع (٥/ ٤٥١)، وهي قراءة ابن كثير.

فنَقُول: عبَّر عن العقوبة بالفعل فِي قوْله تَعالَى: ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ لوجهين:

الوَجْهُ الأَوَّلُ: بَيان سبب هَذِهِ العقوبة وأن سبب العقوبة هَذَا العمل.

الوَجْهُ الثَّانِي: أن هَذِهِ العقوبة بقدر العمل تمامًا ولذلك عُبِّرَ عنها بالعمل إشارة إِلَى أنَّها بقَدْرِه لَيْسَ فِيهَا ظلم، وَهَذا كثير فِي القرآن، يعبر الله تَعالَى عن العقوبة بالفعل من أجل هذين الوجهين.

وقوْله تَعالَى: ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ يعني لا كله لأَنَّ الله يقول: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر:٤٥]، وقَالَ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشّورى:٣٠]، وَهَذا حق لو أن الله تَعالَى عاقب النَّاس بقدر ذنوبهم مَا ترك عَلَيْهَا من دابة، كَانَ كل النَّاس يموتون ولا يبقون ولَكِنَّهُ سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ يصيبهم ببعض ذنوبهم فقط. الحكمة قَالَ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾؛ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يتوبون]، (ولعل) هُنَا للتعليل، وكلما جاءت (لعل) فِي كلام الله فإنها للتعليل أو توقع الشّيء إِذَا كَانَ من المتوقع أي لأجل أن يرجعوا إِلَى الله عَزَّوَجَلَّ وهذه من حِكم الله، أن الله تَعالَى يبتلي العباد بالضّراء لأجل أن يرجعوا إِلَى الله، وكم من إِنْسَان صارت عقوبته بالضّراء سببًا لرجوعه إِلَى ربه، بل إنَّها أحيانًا تكون سببًا مباشرًا ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾ [لقمان:٣٢]، أين يذهبون؟ ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [لقمان:٣٢]، هَذَا رجوع لكنهم -والعياذُ باللهِ- إِذَا نجوا عادوا إِلَى كفرهم.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: أنَّ الفسادَ سببه أعمال بني آدم لقوْلِه تَعالَى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى

ٱلنَّاسِ﴾ ويدل لهذا أيضًا قوْله تَعالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٩٦].

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: إثْبَات العلل والأسباب وأن أفعال الله عَزَّوَجَلَّ مُعَلَّلَةٌ لا بُـدَّ لها من علة تؤخذ مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ ولا شك أن أفعال الله تَعالَى وأحكامه مُعَلَّلَةٌ لأَنَّ من أسمائه الحكيم.

الفائدتان الثَّالثَة والرّابعة: أن النَّاس لا يعاقبون إِلَّا بأسبابهم لقوْلِه تَعالَى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ فيتفرع عن ذَلِك أن من أراد أن ترفع عنه العقوبة فَلْيَتُبْ إِلَى الله؛ فإن التّوبة من أسباب رفع العقوبة وجلب المثوبة وَلِهَذا قَالَ هود لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾[هود:٣]، ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود:٥٢]، وقال نوح لقومه: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح:١٠-١٢].

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: أن الجزاء من جنس العمـل وبقدر العمـل؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: بطلان مذهب الجبرية، فالجبرية يقُولونَ إن الإنسان مجْبَر عَلَى عمله لا يفعل باختياره ولا يُضاف الفعل إِلَيْهِ إِلَّا عَلَى سبيل المجاز، فيُقَال صام، زكَّى مجازًا لا حقيقة، الآية الكريمة تَرُدُّ عَلَيْهِم من وجهين:

الوَجْهُ الأَوَّلُ: قوْله تَعالَى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ فأضاف الكسـب إِلَى أيدي النَّاس.

الوَجْهُ الثَّاني: أن الله تَعالَى عاقبهم عَلَى هَذَا الفعل ولو كانوا مجبرين علَيْه لكانت عقوبتهم ظلما لَهُم، إذ كَيْفَ يعاقبون عَلَى مَا لَيْسَ باختيارهم.

ففيها رد من وجهين؛ وجه لفظي وَهُوَ إضافة الكسب إِلَى أيديهم، ووجه معنوي وَهُوَ أَنَّه يلزم من عقوبتهم عَلَى ذَلِك لو كانوا مجبرين أنْ يكُونَ الله تَعالَى ظالِمًا لَهُم، والله تَعالَى لَيْسَ بظلام للعبيد وَكَذلِكَ أيضًا يؤخذ مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿عَمِلُواْ﴾ حيث أضاف العمل إليهم.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: بَيان سَعَةِ رحمة الله وأن رحمته سبقت غضبه؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾، ولو أن الغضب كَانَ بقدر الرّحمة لكان الله يذيقنا كل الَّذي عملنا، ولو كَانَ غالبا للرحمة لكان يذيقنا أكثر مما عملنا، فالأمور ثلاثة: إذاقة البعض أو المثل أو الأكثر، والمثل أو الأكثر ممتنع، وَإِنَّما يذيق الله تَعالَى البعض لأَنَّهُ ثبت فِي الحديث الصّحيح: «أَنَّ الله تَعالَى كَتَبَ كِتَابًا عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي»[1]، ولولا هَذَا لكان الله تَعالَى يؤاخذ النَّاس بما عملوا.

الفائدتان الثّامنة والتّاسعة: أن العقوبات قد تكُون سَبَبًا للرجوع إِلَى الله لقوْلِه تَعالَى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ كما أَنَّها قد تكون بالعكس، أي: قد تكُون سَبَبًا للازدياد فِي العتو والنّفور -والعياذُ باللهِ- يدل عَلَى ذَلِك قوْله تَعالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَ﴾ [الحج:١١]، والجمع بَيْنَ هَذِهِ الآيَة والآية الَّتِي نفسرها أن العقوبات عَلَى سبيل العُمُوم مفيدة لكن عَلَى سبيل الخصوص قد لا تفيد؛ لأَنَّ الله تَعالَى قَالَ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ عَلَى أن قوْله تَعالَى: ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ يحتمل أن يراد بِهَا فتنة الدِّين بحيث

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾، رقم (٧٤٢٢).

لا يَكُون عنده مقاومة فيقع فِي الهاوية -والعياذُ باللهِ- لكن الأظهر أنَّها عامة ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥].



الآية (٤٢)

• • • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ [الرّوم:٤٢].

• • • •

قال المُفَسِّـر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿قُلْ﴾ لكفار مكَّة ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾].

الخطاب فِي قوْله تَعالَى: ﴿قُلْ﴾ للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ويحتمل أنْ يكُونَ لَهُ ولكلِّ من دعا إِلَى شريعته ودعا النَّاس إِلَى الاتعاظِ والاعْتِبار.

وقوْله تَعالَى: ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ السَّير معناه المشي و﴿فِي﴾ بمعنى (على) يعني عَلَى الأرْض وليس المُرَاد فِي داخلها وقِيلَ: إن ﴿فِي﴾ للظرفية، وإن الظّرف يختلف بحسب المظروف وبحسب الظّرف أيضًا يعني مثلًا إِذَا قلنا الماء فِي الكوز صَارَ فِي جوف الكوز، هُوَ والكأس أو الطّاسة أو القدر فهنا صَارَ الماء فِي جوفه، وَإِذَا قلنا الكتابة فِي الورق اختلف، وَإِذَا قلنا الوجه فِي المرآة اختلف، فيرى بعض العلماء أن ﴿فِي﴾ هُنَا للظرفية ولكن ظرف كل شيء بحسبه، والسّيـر المأمور بِهِ هُنَا لا أحد يتصور أن المُرَاد احفروا لكم خندقًا فِي الأرْض وادخلوا فِيهِ لا أحد يتصور هَذَا فهنا وجهان فِي كلمة ﴿فِي﴾:

الوَجْهُ الأَوَّلُ: أن تُجعل بمعنى (على) سيروا عَلَى الأرْض أي عَلَى ظاهرها.

الوَجْهُ الثَّانِي: أن تُجعل ﴿فِي﴾ للظرفية ويُقَال إن الظّرفية فِي كل مكان بحسبه هَذَا تفسير ﴿سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

وهل المُرَاد السّير بالأقدام أو السّير بالعقول والتّفكير؟

يشمل السّيـر بالأبدان بأن يذهب الإنسان إِلَى مساكن القوم ليتعظ ويعتبـر أو السّير بالقلوب بأن يقرأ تواريخهم وأحداثهم حتى يعتبر بها، وكم من سير بالقلب صَارَ أعظم من السّير بالقدم ولكن السّير بالقدم لأجل التّفرج والنّزهة هَذَا محرم كما يفعله بعض النَّاس الآن، يذهبون إِلَى ديار ثمود من أجل التّفرج والنّزهة والاطّلاع عَلَى مَا لَهُم من قوة سابقة مَعَ أن الرّسول ﷺ يقول: «لا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلاءِ القَوْمِ إِلَّا وَأَنْتُمْ بَاكُون، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلا تَدْخُلُوهَا»(1)، أين الَّذِين يذهبون إِلَى ديار ثمود وهم يبكون والرّسول ﷺ لما مر بِهَا فِي ذهابه إِلَى تبوكَ مشى مسرعًا وقَنَّعَ رأسه: نَزَّلها عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وأسرع وَعَلَى هَذَا فنقول إِذَا سرت فِي أرض هَؤُلاءِ المعاقبين فسر سير متعظ معتبر كما أمر النَّبِيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

قَوْله تَعالَى: ﴿فَٱنظُرُواْ﴾ نظر اعتبار وتفكر أو نظر عين؟

عَلَى حسب مَا قلنا فِي السّيـر إن كَانَ سيرًا بالقدم فَهُوَ نظرٌ بالعيـن، وإن كَانَ سيرًا بالقلب فَهُوَ نظر بعين البصيرة: التّفكر والتّأمل، ويمكن أن نقول أيضًا حتى إِذَا فسرنا السّير هُنَا بالسّير الحسي عَلَى الأقدام فإِنَّهُ لا بُدَّ أَنْ يكُونَ مقرونًا بالنّظر بعين البصيرة والاعْتِبار إذ النّظر بالعين المجردة لا يفيد شيئًا.

---

(1) في قوله ﷺ: «لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ المعَذَّبِينَ إلا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ لَا يُصِيبُكُمْ مَا أَصَابَهُمْ»، أخرجه البخاري: كتاب الصّلاة، باب الصّلاة في مواضع الخسف والعذاب رقم (٤٣٣)، ومسلم: كتاب الزّهد والرّقائق، باب لا تدخلوا مساكن الذّين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين، رقم (٢٩٨٠).

قوْله تَعالَى: ﴿كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾: ﴿كَيْفَ﴾ محلها النّصب خبـرًا لـ﴿كَانَ﴾ مقدمًا، و﴿عَـٰقِبَةُ﴾ اسم ﴿كَانَ﴾ والجملة مُعَلِّقَةٌ عن العمل مُعلَّقة لكلمة (انظروا) الجملة المعَلِّقة فِي تأويل الاسم المفرد والتّقدير فانظروا حالهم كَيْفَ كان.

وقوْله تَعالَى: ﴿عَـٰقِبَةُ﴾ هُنَا مصدر وَلِهَذا ذُكِّرَ الفعل أي بمعنى عقبى.

قوْله تَعالَى: ﴿مِن﴾ حرف جر ﴿قَبْلُ﴾ مبنية عَلَى الضّم لقطعها عن الإضافة حُذِف المضاف ونوي معناه فتبنى عَلَى الضّم لأنهم يقُولونَ فِي (قبل) و(بعدُ) إن وجد المضاف لفظا فهي معربة غير منونة، وإن حذف لفظًا ومعنى فهي معربة منونة، هذان حالان متقابلان إِذَا وجد المضاف إِلَيْهِ فهي معربة غير منونة، تقول أتيت من قَبْلِ زيد ومن بَعْدِه، وَإِذَا حُذِفَ المضاف لفظًا ومعنى فهي معربةٌ منونةٌ، وَإِذَا حُذِفَ المضافُ إِلَيْهِ ونوي لفظه فهي معربة غير منونة كما لو وجد لفظه، وَإِذَا حذف المضاف إِلَيْهِ ونوي معناه فهي مبنية عَلَى الضّم ولها أربع حالات.

قوْله تَعالَى: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ كأن الإنسان يتوقع ﴿فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ أهلكوا وأتلفوا وما أشبه ذَلِك ولكن البيان جاء عَلَى غير المتوقع ماذا تتوقع أنْتَ لما قالَ الله تَعالَى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [فاطر:٤٤]؟ تتوقع أهلكناهم ودمرناهم وما أشبه ذَلِك؛ لأَنَّ هَذِهِ عاقبتهم لكن جاء الأمر عَلَى خلاف المتوقع ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ جاء مبيِّنًا لسبب هَذِهِ العاقبة لأَنَّهَا هِيَ الحال الَّتِي عَلَيْهَا هَؤُلاءِ المكذبون وَهُوَ الشّـرك يعني فأنتم الآن مشركون وهم كانوا مُشْرِكِينَ فدمروا، فمعنى ذَلِك أن عاقبتكم أنتم ستكون مثلهم مآلها التّدمير والهلاك، وَهَذا من بلاغة القرآن أن الله تَعالَى ذكر سبب هلاك أولئك القوم.

الَّذي كَانَ علَيْه الآن هَؤُلاءِ المخاطبون، هَؤُلاءِ المخاطبون الآن مشركون كانوا عَلَى الشّرك إِذَنْ إِلَى الآن مَا وجدوا العاقبة، لكن إِذَا علموا أن سبب عاقبة هَؤُلاءِ هُوَ الشّرك فلا شك إِذَا كَانَ لَهُم عقول أن ينتهوا عن الشّرك.

قوْله تَعالَى: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾؛ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فأُهْلِكُوا بِإِشْرَاكِهِمْ، ومَسَاكِنُهُمْ وَمَنَازِلُهُمْ خَاوِيَةٌ].

قوْله تَعالَى: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ ظاهر الآيَة الكريمة أن البعض الآخر وَهُوَ الأقل لم يكن مشركا، وهاهنا إشكال هل أُهلك الموحدون مَعَ المُشْرِكِينَ مَعَ أن الله تَعالَى ذكر فِي آيات كثيرة فِي الأمم السّابقة، قَالَ تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ [الأعراف:٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ﴾ [الزمر:٦١]، فظاهره أن المؤْمِنينَ لم يُهْلَكوا أو نقول: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ باعتبار القادة والرّؤساء الَّذِين يعرفون أنهم عَلَى شرك، أمَّا العامة الَّذِين لا يدرون فهم تابعون وراضون وإن لم يكن عِنْدَهُم شرك لكن هم يظنون أن هَذَا هُوَ الحق، فأي الاحتمالين أولى، أو احتمال ثالِث أن يُقَال إن الله تَعالَى أمرنا أن ننظر كَيْفَ كانت عاقبة السّابقين، وَإِذَا نظرنا وجدنا أن أكثرهم مشرك فأُهلك، وأن المُؤْمِن نجا فيكون فِي هَذَا تحذيرٌ من الشّرك وترغيب فِي الإيمان والتّوحيد فها هُنَا ثلاثة احتمالات:

الاحْتِمال الأول: أن الجميع أُهلك، وَهَذا يشكل علَيْه آيات كثيرة بأن الله تَعالَى أنجى المُؤْمِنِينَ.

الاحْتِمال الثّاني: أن المُرَاد بقوْله تَعالَى: ﴿أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ الَّذِين يعرفون أنهم عَلَى شرك دون الغوغاء والعامة الَّذِين لا يدرون مَا هم علَيْه وَإِنَّمَا هم أتباع كل ناعق.

الاحْتِمال الثّالث: أن يُقَال العاقبة حميدة وذميمة، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يقول: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ ونحن نعلم أن من حكمة الله عَزَّوَجَلَّ أن يجازي المشركَ عَلَى شركه والمُؤْمِنَ عَلَى إيمانه، وحِينَئِذٍ يَكُون فِي الآية ترغيب فِي الإيمان والتّوحيد وترهيب عن الشّرك والكفر، فأي الاحْتِمالات أولى؟ الظّاهر أن الأخير أولى يعني أن ينظروا كَيْفَ كانت عاقبة السّابقين، وأن من كَانَ مشركًا منهم أُخذ بشركه، ومَنْ كَانَ مؤمنًا نُجِّيَ بإيمانه من أجل أن يؤمنوا هم ومن أجل أن يثبت المُؤْمِنُونَ من هَذِهِ الأمة عَلَى إيمانهم.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فَأُهْلِكُوا بِإِشْرَاكِهِمْ وَمَسَاكِنُهُمْ وَمَنَازِلُهُمْ خَاوِيَةٌ] هَذَا هُوَ الواقعُ فمثلًا قوم صالح، صالح والَّذِين معه نجوا، وقومهم أخذتهم الرَّجْفَةُ والصَّيْحَةُ ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف:٧٨]، ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ [النّمل:٥٢]، تجدها الآن خاوية ولم تُسكن فيها نعلم بعدهم، مَا سُكنت إِلَى الآن.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: الأمر بالاعْتِبار بما جرى للسابقين لقوْلِه تَعالَى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

الفائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّه ينبغي لِلإِنْسَانِ أنْ يقرأَ كُتُبَ التّاريخ الماضية للاعتبار، ولكن كما نعلم جميعًا كتب التّاريخ بعضها مزيف لَيْسَ عَلَى حقيقته فمصدر التّاريخ فِي الأمم السّابقة مَا أخبر الله بِهِ ورسوله، قَالَ الله تَعالَى فِي سورة إبراهيم: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [التّوبة:٧٠]، ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [إبراهيم:٩]، فنفى أنْ يكُونَ لأحدٍ علمٌ بِهِ إِلَّا الله.

إِذَنْ: من أين نأخـذ أخبارهم مَا دام أَنَّه لا يعلمهم إِلَّا الله؟ نأخـذها من الله إمَّا من الكتاب أو من السّنة.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: أن أسباب هلاك الأمم السّابقين كانت إشراك أكثرهم لقوْلِه تَعالَى: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: أن العقوبة إِذَا حلت قد تصيب الصّالح وغيره لأَنَّهُ قَالَ: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ يعني والبعض لم يشرك ومن ذَلِك قوْله تَعالَى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال:٢٥]، وقد ينجي الله المؤْمِنينَ كما أنجى الله تَعالَى الرّسل ومن آمن معهم.



الآيـة (٤٣)

• ● ● •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الرّوم:٤٣].

• ● ● •

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ دِين الإِسْلامِ].

أقم الخطاب للرسول ﷺ أو لكل من يتوجه إِلَيْهِ الخطاب، وقد سبق توجيه القول الأول إِذَا جعلنا الخطاب للرسول ﷺ فإما أنْ يكُونَ المُرَاد بِهِ الرَّسول نفسه وتكون أمته تبعًا لَهُ، وإما أن يُراد بِهِ الرَّسول والأمة، لكن خوطب بِهِ الرَّسول لأَنَّهُ زعيمُهم وإمامهم.

وقوْله تعالَى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ هل المُرَاد بالوجه الاتجاه أو المُرَاد الوجه الحسي الَّذي فِي الرّأس؟

الظّاهر أن المُرَاد الاتجاه؛ لأَنَّ الوجه يراد بِهِ الجهة كما قَالَ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة:١١٥]، لأَنَّهُ سبق أن فِيهَا قوليْن للمفسرين:

- قولٌ أنَّ المُرَاد بِهِ وجه الله الحقيقي.
- وقول أن المُرَاد بِهِ الجهة.

ولا شك أن الوجه يراد بِهِ الجهة، وَإِذَا قلنا إن المُرَاد بالوجه الجهة، اتجاهك للدين شمل مَا إِذَا كَانَ الوجه الحسي فيما يطلب مِنْهُ الاتِّجاه للقبلة مثلًا.

وقوْله تَعالَى: ﴿لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ المُرَاد بالدّين هُنَا العمل وقد سبق أن الدّين فِي القرآن يراد بِهِ العمل والجزاء فقوْله تَعالَى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤]، وقوْله تَعالَى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الانفطار:١٧]، المُرَاد بالدّين الجزاء وأما قوْله تَعالَى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، وقوْله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩]، فالمُرَاد بِهِ العمل كما فِي هَذِهِ الآية.

وقوْله تَعالَى: ﴿ٱلْقَيِّمِ﴾ القيم ضد المعوج كما قَالَ تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام:١٥٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا﴾ [الأنعام:١٦١]، يعني قَيِّمًا، فدينُ الإسْلام دين مستقيم لَيْسَ فِيهِ اعوجاج لا بالنّسبة لمعاملة الله عَزَّوَجَلَّ وَهِيَ العبادة ولا بالنّسبة لمعاملة المخلوق؛ وَلِهَذا تجد فِي المعاملات حرم الكذب والغش والخديعة وما أشبه ذَلِك، وحرم الجور والظّلم، وتحريم تفضيل الأولاد وما أشبه ذَلِك؛ لأَنَّ كل هَذَا خلاف الاستقامة، وفِي العبادات حرم الشّرك والابْتداع لما فِي ذَلِك من الانحراف عن الصّراط المستقيم.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قوْله تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩]، هل يشمل الأَعمال الظّاهرة والباطنة؟

قوْله تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩]، هَذَا يشمل العقيدة ويشمل الأَعمال الظّاهرة، مثل الإسْلام إِذَا قرن بالإيمان كَانَ الإسْلام للأعمال الظّاهرة والإيمان للأعمال الباطنة، وَإِذَا أفرد أحدهما شمل الآخر.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ وَهُوَ يَوْمُ القِيَامَةِ ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾]، قوْله تَعالَى: ﴿مِن قَبْلِ﴾ متعلق بـ(أَقِمْ) يعني أقمه من قبل هَذَا اليوم.

وقوْله تَعالَى: ﴿يَوۡمٌ﴾ نُكر للتعظيم لأَنَّ هَذَا اليوم كما وصفه الله تعالَى فِي قوْله تَعالَى: ﴿لِيَوۡمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين:٥٥].

وقوْله تَعالَى: ﴿مَرَدَّ﴾ هَذَا مصدر ميمي أي لا رد لَهُ، يعني لا يمكن أن يرد هَذَا اليوم لأَنَّ الله تَعالَى قضى به.

وقوْله تَعالَى: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ متعلقٌ بصفة لـ(يوم) يعني من قبل أن يأتي يَوْم من الله، يعني هَذَا اليوم من الله لا من غيره، ويحتملُ أنْ يكُونَ متعلقًا بـ﴿يَأۡتِيَ﴾ أن يأتي من الله يَوْم، والأَول أبلغ أنْ يكُونَ صفة لـ(يوم) لأَنَّ كونه من الله يدل عَلَى عظمته وأنه لا يمكن أن يرد هَذَا اليوم.

وقوْله تَعالَى: ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٌ﴾، إِذَا قَالَ قَائِلٌ: هَذِهِ الآيَة خوطب بِهَا النَّاس فِي عهد الرَّسول ﷺ ومعلوم أن القِيامَة لا تكون فِي عهد الرَّسول ﷺ فكيف قَالَ: ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾؟

فالجوابُ: أنَّ الموتَ واقعٌ حتى فِي عهد الرَّسول ﷺ ومن مات قامت قيامته وانقطع عمله ولا فرق بَيْنَ من يموت فِي ذَلِك الوقت وبين من يموت وَهُوَ آخر النَّاس موتًا بالنّسبة لانقطاع العمل كل منهم انقطع عمله، فكأن من يموت فِي عهد الرَّسول ﷺ كأنه بلغ يَوْم القِيَامَة؛ وَلِهَذا يقول العلَماء: إن موت الإنسان قيامة بالنّسبة إِلَيْهِ وَهُوَ قيامة صغرى بالنّسبة إِلَى عُمُوم النَّاس لأَنَّ العمل انقطع وانتهى.

وقوْله تَعالَى: ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ يفيد بأن هَذَا أمر لا بُدَّ أن يقع وَهُوَ كَذَلِكَ فإن يَوْم القِيَامَة هُوَ الَّذي من أجله خُلق النَّاس، خلق النَّاس لعبادة الله، وجزاؤها يَكُون يَوْم القِيَامَة.

قوْله تَعالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فيه إدغام التّاء فِي الأَصل فِي الصّاد ومعناه يتفرقون بعد الحساب إِلَى الجنة والنّار].

قوْله تَعالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: (إذ) منونة والتّنوين هُنَا عِوَضٌ عن جملة يعني يَوْم إذ يأتي يَصَّدَّعُونَ، ويقول الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فيه إدغام التّاء فِي الأَصل فِي الصّاد]، أي أن أصلها يتصدعون، فقوله: [إدغام التّاء فِي الأصل] أي باعتبار الأصل يعني أن الصّاد الَّتِي أدغمت فِي أختها أصلها تاء فأدغمت فِيهَا بعد قلبها صادًا ومعنى يَصَّدَّعُونَ يتفرقون، فالتَّصَدُّعُ التّفرق ومنه تَصَدُّعُ الأرْضِ لأَنَّ تَصَدُّعَهَا تَفَرُّقٌ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: وجوب الاتِّجاه إِلَى الدّين؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ ويلزم من وجوب الاتِّجاه إِلَيْهِ وجوبُ الإعراضِ عما سواه؛ لأَنَّ الوجهة واحدة، إمَّا إِلَى هُنَا وإما إِلَى هُنَا، فإذا لزم أن تتجه إِلَى الدّين لزم أن تنحرف عن غيره.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: تحريم الحكم بِغَيْر مَا أنزل الله لأَنَّهُ مخالَف للاتجاه للدين القيم والحكم بِغَيْر مَا أنزل الله مِنْهُ مَا يَكُون كفرًا ومنه مَا يَكُون فسقًا ومنه مَا يَكُون ظلمًا كما ذكر الله تَعالَى ذَلِك فِي سورة المائدة: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤]، وفي الآيَة الثّانية ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [المائدة:٤٥]، وفي الآيَة الثَّالثة ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [المائدة:٤٧]، وهذه الأوصاف تتنزل عَلَى حال الحاكم فقد يَكُون كافرًا أو ظالمًا أو فاسقًا.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: أنَّ هَذَا الدِّينَ قَيِّمٌ، ومعنى قيم: معتدل لا اعوجاج فِيهِ فِي جانب العبادة ولا فِي جانب المعاملة.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: أَنَّك إِذَا ظننت أن فِي الدِّين مَا يخالِف الاستقامة فاعلم أَنَّك قاصر إمَّا فِي علمك وإما فِي فهمك وجه ذَلِك أن الله وصف هَذَا الدّين بِأَنَّهُ قيم، كل شيء تستعرضه فِي دين الله فيبدو لك أَنَّه لَيْسَ عَلَى الاستقامة فاعلم أَنَّك مخطئ لقصور علمك أو لقصور فهمك، والإنسان يؤتى من هاتين النّاحيتين إمَّا لقصور علمه يعني لَيْسَ عنده علم، وإما لقصور فهمه عنده علم لكن لا يفهم.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: أَنَّه ينبغي لمن أَمَرَ بشيء أن يذكر مَا يُغْرِي بِهِ ويُرَغِّبُ فِيهِ، يؤخذ مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿ٱلْقَيِّمِ﴾ فالإنسان إِذَا عرف أنَّ الدِّين قيم لا شك أَنَّه يتجه إِلَيْهِ، فأنت إِذَا أردت أن تأمر بشيء فاذكر الأسباب الَّتِي توجب للناس الإقبال علَيْه بأوصافه المحبوبة وثمراته الحميدة.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: الجمع بَيْنَ التّرغيب والتّرهيب: التّرغيب فِي قوْله تَعالَى: ﴿ٱلْقَيِّمِ﴾ والتّرهيب فِي قوْله تَعالَى: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: إثْبَات يَوْم القِيَامَة وأنه آتٍ لا محالة لقوْلِه تَعالَى: ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

الفائِدَةُ الثّامِنَةُ: أن يَوْم القِيَامَة يَوْم عظيم يؤخذ من تنكير ﴿يَوْمٌ﴾ فِي قوْله تَعالَى: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ والتّنكير يفيد التّعظيم، ويدل لعظم هَذَا اليوم قوْله تَعالَى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٤-٦].

الفائِدَةُ التّاسِعَةُ: أن الحكم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لقوْلِه تَعالَى: ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ فلا أحد يستطيع أن يمنع مَا أراد الله ولا أن يجلب مَا لم يُرِدِ الله أبدًا «اللهم لا مانِعَ

لما أعطيتَ ولا مُعْطِيَ لما مَنَعْتَ ولا يَنْفَعُ ذا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ»[١].

الفائِدَةُ العاشِرَةُ: أن النَّاس يَوْم القِيَامَة ينقسمـون ويتفرقـون؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَصَّدَّعُونَ﴾.



(١) أخرجه البخاري: كتاب القدر، باب لا مانع لما أعطى الله، رقم (٦٦١٥)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، رقم (٥٩٣).

الآيــة (٤٤)

• ● ● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الرّوم:٤٤].

• ● ● •

قوْله تَعالَى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ يقول المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَبَالُ كُفْرِهِ وَهُوَ النَّارُ]، هَذَا كالتّفسيـر لقوْله تَعالَى: ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾ لأَنَّ معنى ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾ يتفرقون بحسب أعمْاهم.

قوْله تَعالَى: ﴿مَن﴾ شرطية، وفعل الشّرط ﴿كَفَرَ﴾، وجوابه جملة ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ وقوْله تَعالَى: ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ جملة خبرية مكونة من مبتدأ وخبر، المبتدأ قوْله تَعالَى: ﴿كُفْرُهُۥ﴾ والخبر قوْله تَعالَى: ﴿فَعَلَيْهِ﴾ مقدم، وفائدة التّقديم الحَصْرُ.

قوْله تَعالَى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ مثلها شـرطية وجـواب الشّـرط قوْله تَعالَى: ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ وقُـدِّم المعمولُ ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ للحَصْـرِ وَهِيَ فائـدة معنويةٌ ولمراعاة الفواصل وَهِيَ فائـدة لفظية؛ لأَنَّهُ لو قَالَ فيمهدون لأنفسهم استقام الكلام لكِنَّهُ قُدِّم لهاتين الفائدتين.

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ يعني أَيَّ إِنْسَان يكفر فإنَّ وَبَالَ كفره علَيْه لا يضر إِلَّا نفسه، وهل يَكُون عَلَى غيره؟ لا يَكُون عَلَى غيره إِلَا أنْ يكُونَ ذَلِك الغير سببًا فيه، فإن كَانَ سببًا فِيهِ صَارَ علَيْه مثل وزره قَالَ الله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓا

أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [النحل:٢٥]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت:١٣]، وثبت عن النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ «مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»(١).

فإذا قِيلَ: هل هَذَا يناقض الآيَة ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾؟

فالجوابُ: لا يناقضها لأَنَّهُ إِذَا كَانَ هُوَ السّبب فإن ذَلِك من عمله لكن صورة المَسْأَلَة مختلفة أَنَّه عمل غيره وعمل نفسه، إنما حقيقة الأمر أن الدّال عَلَى الكفر فاعل لما يؤزر عليه.

قوْله تَعالَى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ الكفر فِي اللُّغَة العرَبِيَّة هُوَ السّتر ومنه الكُفُرَّى الَّذي هُوَ غلاف طَلْعِ النّخل، فالكفر فِي الأصل هُوَ هَذَا والمُراد بِهِ الخروج عن طاعة الله؛ لأَنَّ الخارج عن طاعة الله قد ستر مَا أنعم الله بِهِ علَيْه من العقل والعِلْم وما أشبه ذلك.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ قَالَ أهل العلم: العمل الصّالِح هُوَ مَا جمع شرطين أساسيين أحدهما الإِخْلاص والثّاني المتابعة للرسول ﷺ، والإِخْلاص ضده الشّرك، والمتابعة ضدها الابتداع فمثلًا إِذَا وجدنا رجلًا يصلي الصّلاة المعتادة لكِنَّهُ يرائي النَّاس بِهَا فعمله لَيْسَ بصالح لأنه فقد الإِخْلاص، وَإِذَا وجدنا رجلًا قد أحدث نوعًا من العبادات لم يُرِدْ بِهِ الشّرع لكِنَّهُ مخلص يريد بِذَلِكَ وجه الله وتجده خاشعًا يبكي ويتأثر بهذه العبادة لكنها عَلَى غير شريعة الله فَهَذَا عبادته باطلة؛

(١) أخرجه مسلم: كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة، رقم (١٠١٧).

لفقد المتابعة للرسول ﷺ.

ومن ذَلِك مَا إِذَا أخرج العبادات المشروعة عما شرعت عليه، وَهِيَ عبادة مشروعة فِي الأصل لكن أخرجها عما كانت علَيْه، فإِنَّهُ لا يُقبل عمله كما لو صلى الصّلاة بعد خروج وقتها متعمدًا بدون عذر فَهَذَا لا يقبل مِنْهُ لأَنَّهُ لا توجد متابعة هُوَ مخلص لكِنَّهُ غير متابع، وَكَذلِكَ لو صلى صلاة لا يطمئن فِيهَا إِذَا قَالَ: (سمع الله لمن حمده) سجد بسرعة إِذَا قَامَ من السّجود سجد الثّانية بسرعة فصلاته باطلة، لو صلى إِلَى يَوْم الدِّين مَا قَبِلَ الله مِنْهُ لعدم المتابعة؛ وَلِهَذا لما صلى رجل صلاة لا يطمئن فِيهَا قَالَ لَهُ الرَّسول ﷺ: «ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكِ لَمْ تُصَلِّ»[1]، فنفى عنه الفعل لانتفاع صحته وإلا فإِنَّهُ قد صلى لكنها ليست صلاةً، ولو سألتَهُ لماذا صليتَ؟ قَالَ: مَا صليتُ إِلَّا لله، لكِنَّهُ خَالَفَ أمْرَ الله.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل هَذَا يُنافي الإِخْلاص؟

قُلْنَا: لا ينافي الإِخْلاصَ، فالإِخْلاصُ فِي القلب، وَهُوَ مَا قَامَ يصلي من أجل النَّاس، ولا همُّه النَّاس، فَهُوَ صلى لله، لَكِنَّهُ خالَف أمر الله.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل يلزم المصلي أن يفقَه مَا يقولُ؟

قُلْنَا: لَيْسَ بلازم لكِنَّهُ أفضل إِذَا فقه مَا يقول، فإذا كَانَ قلبه حاضرًا يعني خاشعًا فِي صلاته وحاضر القلب فَهُوَ أفضل.

وهل المصلي يَكُون خشوعه فِي أمور داخلَ الصَّلاة أم خارجَها؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب أمر النبي ﷺ الذي لا يتم ركوعه بالإعادة، رقم (٧٩٣)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، وإنه إذا لم يحسن الفاتحة، ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها، رقم (٣٩٧).

الجوابُ: يخشع فِي أمور داخل الصّلاة يعني يستحضر مَا يقول فِي صلاته وما يفعل فِي صلاته، فمثلًا لا يذهب يتذكر جلسة كَانَ خاشعًا فِيهَا فيما سبق.

لو قِيلَ: المصلي قد يتذكر القبور والجنة والنّار، فهل يصح؟

الجوابُ: لا يصح إِلَّا إِذَا مرَّتْ بِهِ أثناء قراءته.

قوْله تَعالَى: ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ المهد والتّمهيد بمعنى التّوطئة، ومنه قولهم هَذَا طريق مُمَهَّدٌ يعني موطأ مُحَسَّن لأجل أن تطأه الأقدام فمعنى ﴿يَمْهَدُونَ﴾ أي يحسنون الشَّيْءَ حتى يَكُون موطئًا لَهُم، وَذَلِكَ لأَنَّ الَّذِين يعملون صالحًا يتوصلون بعملهم الصّالِح إِلَى دخول الجنة فيسهل لَهُم الطّريق الَّذي يوصلهم إليها.

وقوْله تَعالَى: ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ تقديم المعمول يفيد الحَصْرَ.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: هل هَذَا ينافي مَا ثبت فِيهِ الحديث من أن «مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فِي الإِسْلامِ فلَهُ أَجْرُها وأَجْرُ مَنِ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْم القِيَامَةِ»[1]؟

قُلْنَا: لا ينافيه؛ لأَنَّ الَّذِين يسنونَ الحسناتِ عملوا فتُوبِعُوا عَلَى ذَلِك، فالأجر الَّذي حصل لَهُم من أجل اتباع غيرهم لَهُم هُوَ فِي الحقيقة من فعلهم.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: الجمعُ بَيْنَ التّرغيب والتّرهيب، فالتّرهيب فِي قوْله تَعالَى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ والتّرغيب فِي قوْله تَعالَى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾.

الفائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن شؤم الكافر لا يتعداه إِلَى غيره؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿مَن كَفَرَ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة، رقم (١٠١٧).

فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ﴾ وتقديم الخبر يدل عَلَى الحصْرِ.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: أنَّه لا يتم الثّواب إِلَّا بالعمل الصّالِح المبني عَلَى أمرين وهما الإِخْلاص لله تَعالَى والمتابعة لرسوله ﷺ لقوْلِه تعالَى: ﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: أن الحَزْمَ والكِيَاسَةَ فِي العمل الصّالح لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ﴾؛ لأنهم إِذَا فعلوا ذَلِك استراحوا فِي المستقبلِ إذ إنهم وطئوا لأنفسهم منزلًا هُوَ خير المنازل، وقد ذكرنا الجمع بَيْنَ قوْله تَعالَى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ﴾ وبين قوله ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»، وقوْله تَعالَى: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾ [العنكبوت:١٣]، وقوْله تَعالَى: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ﴾ [النّحل:٢٥]، وذكرنا فِي الجمع أنهم هم السَّببُ.



الآيــة (٤٥)

• ● ෆ ● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [الروم:٤٥].

• ● ෆ ● •

قوْله تَعالَى: ﴿لِيَجْزِيَ﴾؛ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُتَعَلِّقٌ بـ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾]، دائِمًا نرى العلَماء إِذَا جاء ظرف أو جار ومجرور يقُولونَ متعلِّق بكذا.

فما معنى قولهم مُتَعلِّق؟

يعني أن هَذَا هُوَ الَّذي عمل فِيهِ لأَنَّ الجَارَّ والمجرورَ والظَّرْفَ بمنزلة المفعول به، والمفعول بِهِ لا بُدَّ لَهُ من عامل يعمل به، فإذا قِيلَ: (متعلق بكذا) يعني أن هَذَا هُوَ الَّذي عمل فيه، ولا بد لكل جار أو ظرف لا بُدَّ لَهُ من متعلق، قَالَ الناظمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

لابُــدَّ للجَــارِّ مِــنَ التَّعَلُّــقِ   بِفِعِــلٍ أَوْ مَعْنَــاهُ نَحْــوَ مُرْتَقِــي

فيكون معنى قوله: [متعلق بـ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾] أن العامل فِي كلمة ﴿لِيَجْزِيَ﴾ قوْله تَعالَى: ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾ وَهَذا رأي المُفَسِّر، ويحتمل أنْ يكُونَ مُتَعَلِّقًا بقوله ﴿يَأْتِيَ﴾ في: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ اللَّهِ﴾.

قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ لأَنَّ التَّصدُّعَ فِي الحقيقة هُوَ

(١) نظم قواعد الإعراب للجواد بن شبيب بن حية.

نفس الجزاء، فكيف يَكُون الشّيء علة لنفسه؟! هَذَا مَا يبعد كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ، لكن إِذَا قيل يأتي هَذَا اليوم لأجل المجازاة صَارَ المَعْنَى مستقيمًا وواضحًا.

فإذا قُلْنَا: إن هَذِهِ اللام فِي قوْله تَعالَى: ﴿لِيَجْزِىَ﴾ -لأَنَّ اللام حرف جر- متعلقة بـ﴿يَأْتِيَ﴾ فَهُوَ أوضح من قولنا أَنَّها متعلقة بـ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾؛ لأَنَّ نفس التَّصَدُّعَ والتّفريق إِلَى الجنة وإلى النّار هُوَ نفس الجزاء.

وقال بعض المعربين إِنَّه خبر لمبتدأ محذوف، فَهُوَ متعلق بمحذوف خبر لمبتدأ محذوفٍ، والتّقدير ذَلِك ليجزي والمشار إِلَيْهِ مَا سبق، وَهَذا أيضًا وجيه جدًّا أن يُجعل متعلقًا بمحذوفٍ خبرًا لمبتدأ محذوفٍ.

قُلْنَا: إن اللام فِي قوْله تَعالَى: ﴿لِيَجْزِىَ﴾ حرف جر، والمعلوم أن حروف الجر لا تدخل إِلَّا عَلَى الأسماء، ومن علامات الاسم الجر، ومن أسبابه دخول حرف الجر علَيْه، صاحب الأجروميّة يقولُ[1]: (الاسْمُ يُعْرَفُ بِالخَفْضِ، وَالتَّنوِينِ، وَدُخُولِ الأَلِفِ وَاللَّامِ، وَحُرُوف الخَفْضِ...)، فكيف صحَّ أن نقول إن اللام فِي قوْله تَعالَى: ﴿لِيَجْزِىَ﴾ حرف جر مَعَ أَنَّها داخلة عَلَى فعل؟

فنقُول: لأَنَّ هَذَا الفعل بمنزلة الاسم، إذ إِنَّه فعلٌ مُقَدَّرٌ فِيهِ (أَنْ) لأَنَّ التّقدير لأَنْ يجزيَ، و(أَنْ) مصدرية تحول الفعل إِلَى مصدر، والمصدر اسم، وعليه فيكون المَعْنَى لجزاء الَّذِين آمنوا وعملوا الصّالحات إِلَى آخره، فإذا دخلت اللام: لام التّعليل عَلَى الفعل، فإِنَّهُ يقدر بينها وبين الفعل أن المصدرية، والتّقدير: لأَنَّ يجزي فالفعل منصوب بـ(أن) مضمرة بعد اللام، واللام جارة لما بعدها باعتبار أن الفعل سيكون مصدرًا، فهي نفسها حرف جر وَهِيَ نفسها لام التّعليل الَّتِي يُنْصَب الفعل المضارع

(١) متن الآجرومية لابن آجروم الصنهاجي (ص:٥)، ط. دار الصميعي.

بـ(أن) بعدها عَلَى رأي البصريين، فاللام واحدة ولام التّعليل كما تدخل عَلَى الأفعال تدخل عَلَى الأسماء، فلو قلت: (جئت لإكْرَامِكَ) فهي لام التّعليل، وتقول: (جئت لأُكْرِمَكَ) هِيَ لام التّعليل.

وقوْله تَعالَى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الفاعل: فاعل الجزاء هُوَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وَهُوَ ضمير مستتر يعود عليه.

وقوْله تَعالَى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الجـزاء بمعنى المكافـأة يعني ليكافـئهم ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾؛ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يُثِيبَهُمْ]، هَذَا تفسيرٌ للجزاء بمعنى الإثابة والثّواب هُوَ المكافأة وسمي ثوابًا لأَنَّهُ من ثاب يثوب إِذَا رجع لأَنَّهُ يرجع إِلَى الإنسان جزاء عمله.

وقوْله تَعالَى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ انتبه لهذين الشّرطين؛ إيمان، وعمل صالح، فالإيمان وحده لا يكفي، والعمل الصّالِح وحده لا يكفي، هَذَا إِذَا قُرن الإيمانُ بالعمل، أمَّا إِذَا قِيلَ: عمل صالِح يكفي، أو إيمان يدخل فِيهِ العمل، والإيمان يَكُون بالقلب، فمن لا إيمـان فِي قلبه لو عمل من الصّالِحات مهما عمل لم ينفعه، والمنافق يذكر الله ويصلي وينفق وربما يخرج فِي الجهاد ولا ينفعه عمله؛ لأَنَّهُ لا إيمان فِي قلبه، الإنسان الَّذي عنده إيمان بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لكِنَّهُ لم يعمل عملًا صالحًا يمكن أن يُجزى إِلَّا فِي واحدة فقط وَهِيَ الصّلاة، فإِنَّهُ إِذَا لم يعملْها لا ينفعه إيمان لأَنَّهُ قد دلت الأدلة عَلَى أن هَذَا العمل وإن كَانَ عملًا بدنيا لكِنَّهُ يَكْفُرُ الإنسان بتركه كفرًا مخرجًا عن الملة، أمَّا غير الصّلاة من الأعمال فقد قَالَ عَبْدُ الله بْنُ شَقِيقٍ: «كَانَ أصحاب النَّبيّ ﷺ لا يَرَوْنَ شَيْئًا مِنَ الأَعْمالِ تَرْكُهُ كُفْرٌ إِلَّا الصّلاةَ»[1]، يعني لو لم يُزكِّ

(١) أخرجه الترمذي: أبواب الإيمان، باب ما جاء في ترك الصلاة، رقم (٢٦٢٢).

فإِنَّهُ لا يخرج من الإِيمَان، لو لم يَصُمْ فإِنَّهُ لا يخرج من الإِيمَان، لو لم يَحُجَّ فإِنَّهُ لا يخرج من الإِيمَان، هَذَا هُوَ الصّحيح، وعن الإِمَام أحمد رواية أن جميع أركان الإسْلام إِذَا تركها الإنسـان متهاونًا فَهُوَ كافر، فإذا لم يُزَكِّ فَهُوَ كافر، إِذَا لم يَصُمْ فَهُوَ كافر، إِذَا لم يَحُجَّ فَهُوَ كافر، يقول: لأَنَّ الرُّكنَ علَيْه الاعتماد، ركن الشّيء علَيْه اعتماد الشّيء، فإذا لم يوجد الرّكن مَا قَامَ الشّيء، وَهَذا لا شك أن لَهُ وجهًا لكن الأدلة تمنع من القول بِهَذا، فإن حديث أبي هريرة الصّحيح فيمن لا يؤدي زكاته، ذكر النَّبيّ ﷺ عقوبته ثمَّ قَالَ: «ثُمَّ يَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ»(١)، فَهَذَا يدلُّ عَلَى أَنَّه لا يكفر بمنع الزّكاة، وجهه لأَنَّهُ لو كفر بِذَلِكَ مَا كَانَ لَهُ سبيل إِلَى الجنة، وَهَذا واضح، فإذا لم يكفر بترك الزّكاة فما دونها من باب أولى، ولا شك أن أركان الإسْلام الَّتِي دون الزّكاة أَنَّها دونها فالصِّيام دون الزّكاة والحج دون الزَّكاة.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: مَا تَقُولُونَ فِي قوْله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٧]، فإن ظاهـره من كفر فلم يحج فإن الله غنيٌّ عن العالمين؟

فالجوابُ: إن المُرَاد بالكفر هُنَا سوى الكفر الأكبر يعني كفر دون كفر، وَلِهَذا لم يقل ومن لم يحج فَهُوَ الكافر، أو وتَرْكُ الحج هُوَ الكفر كما قَالَ فِي الصّلاة، و(كَفَرَ) فِعْلٌ، والفعل يدل عَلَى الإطلاق ولا يدل عن العُمُوم، فَهَذَا الجواب عن هَذِهِ الآيَة، والَّذِين قَالُوا إِنَّه يكفر بترك الحج احتجوا بهذه الآيَة، وأما قول عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ: «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَحُجَّ فَلْيَمُتْ إِنْ شَاءَ يَهُودِيًّا وَإِنْ شَاءَ نَصْرَانِيًّا»(٢)، هَذَا يُقَال من باب

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة، رقم (٩٨٧).

(٢) أخرجه الترمذي: أبواب الحج، باب ما جاء في التغليظ في ترك الحج، رقم (٨١٢).

التّهديد أو أن هَذَا رأي لَهُ، وَهَذا أيضًا إن صح الحديث؛ لأَنَّ فِي الحديث مقالًا، لكن إن صح فَهُوَ يُحمل عَلَى أن المُرَاد أن هَذَا من باب التّحذير أو أنّه رأي لَهُ كما رآه غيره من أهل العلم.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: حديثُ مَنْ لَمْ يغزُ ولَمْ يُحدِّثْ نَفْسَهُ بِالغَزْوِ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً[1]. كَيْفَ نُجِيبُ عَلَى هَذَا الحديث؟

قُلْنَا: لا يمنع أن الإنسان يموت ميتة جاهلية لأَنَّهُ فعل فعلًا من أفعال الجاهلية حيْثُ لم يَقُمْ بواجب الجهاد.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: إثْبَاتُ العِلَلِ فِي أفعال الله لقوْلِه تَعالَى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وقد انقسم النَّاس فِي هَذَا إِلَى ثلاثة أقسام:

- قسم: أنكروا العلل فِي أفعال الله وفي شرعه وقَالُوا إِنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يفعل مَا يشاء ويحكم بما شاء بدون أي علة أو حكمة كالجبرية.

- وقسم آخر: أثبتوا العلل فِي أفعال الله وقَالُوا إن الله تَعالَى لا يفعل إِلَّا لحكمة ولا يشرع إِلَّا لحكمة، لكنهم جعلوا تلك العلل موجبة وقَالُوا يجب علَيْه أن يفعل كذا لكذا، وهَؤُلاءِ المعتزلة.

- وقسم ثالِث: توسطوا وقَالُوا أفعال الله تَعالَى لحكمة وشرائعه لحكمة لكن ليست هَذِهِ الحكمة موجبة بل الَّذي أوجب عَلَى نفسه الحكمة هُوَ الله، والحكمة من

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب ذم من مات، ولم يغز، ولم يحدث نفسه بالغزو، رقم (١٩١٠)، ولفظه: «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ، مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ».

مقتضى اسمه الحكيم فتكون واجبة ليست بإيجاب أحد ولكنها بمقتضى كونه حكيمًا هُوَ الَّذي أوجبها عَلَى نفسه وَهَذا القول هُوَ الصّحيح وَإِذَا قلنا بِهِ فإننا لا يمكن أن نعترض عَلَى أي حكم من أحكام الله كونيا كَانَ أم قدريا لأننا نعلم أن الَّذي أوجب أن تقترن أفعاله وشرائعه بالحكم هُوَ الله لا نحن فلا نقول: إن الله يجب علَيْه فعل الأصلح ولا فعل الصّلاح إيجابًا مستقلًّا عن إرادته وَهَذا القول هُوَ الحق.

إِذَنْ: نأخذ مِنْهُ أن جميع أفعال الله وأحكام الله كلها معللة بالحكمة بمقتضى اسمه الحكيم.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: أن الجزاءَ لَيْسَ واجبًا عَلَى الله لقوْلِه تَعالَى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ لكِنَّهُ أوجبه عَلَى نفسه لقوْلِه تَعالَى:﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام:٥٤]، أوجبه هُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلَى نفسه وَلِهَذا قَالَ الشّاعر[(١)]:

مَـا لِلْعِبَـادِ علَيْـهِ حَـقٌّ وَاجِـب ... كَـلَّا وَلا عَمَـلٌ لَدَيْـهِ ضَـائِعُ

إِنْ عُـذِّبُوا فَبِعَدْلِـهِ أَوْ نُعِّمُـوا ... فَبِفَضْـلِهِ وَهُـوَ الكَـرِيمُ الوَاسِـعُ

وابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ نظم معنى هذين البيتين لكِنَّهُ علل فقال[(٢)]:

مَـا لِلْعِبَـادِ علَيْـهِ حَـقٌّ وَاجِـب ... هُوَ أَوْجَبَ الأَجْرَ العَظِيمَ الشَّانِ

إِنْ عُـذِّبُوا فَبِعَدْلِـهِ أَوْ نُعِّمُـوا ... فَبِفَضْـلِهِ وَالفَضْـلُ لِلْمَنَّـانِ

فقيد المطلق فِي البيتين السّابقين أَنّه هُوَ الَّذي أوجب ذَلِك تَفَضُّلًا مِنْهُ عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ١٦٢).

(٢) الكافية الشافية لابن القيم (ص:٢٠٨، ٢٠٩)، ط. مكتبة ابن تيمية، القاهرة.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: إثْبَات المحبة لله تؤخذ مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لكن هَذَا نفي كَيْفَ نأخذ مِنْهُ الإثْبَات؟

لأَنَّهُ إِذَا انتفى محبته عن الكَافِرِينَ لزم محبته للمؤمنين، فإن لم يكن، لم يكن فرق بَيْنَ المؤْمِنينَ وبين الكَافِرِينَ، لو كانت المحبة منتفية فِي هَؤُلاءِ وهَؤُلاءِ مَا كَانَ بينهم فرق، وَلِهَذا استدل أهل العِلْم عَلَى إثْبَات رؤية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بقوْله تَعالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥]، قَالُوا: فلما حجب هَؤُلاءِ فِي حال السّخط دل عَلَى أنّه لا يحجب الآخرون فِي مقام الرّضا.

إِذَنْ: نأخذ من هَذِهِ الآيَة إثْبَات المحبة وَهِيَ كما سبق الكلام علَيْه صفة ثابتة لله عَلَى وجه الحقيقة وليست بمعنى الثّواب ولا إرادة الثّواب، وَإِنَّمَا ذَلِك من لازمها ومقتضاها إِذَا أحب قومًا أثابهم ولا يثيبهم إِلَّا بإرادة ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: الحث عَلَى الإِيمَان والعمل الصّالِح، الله جَلَّ وَعَلَا مَا قَالَ آمِنُوا واعْمَلُوا، لكنْ ذِكْرُ الجزاءِ يستلزم الحث عَلَى الفعل، وَهَذا أحد الطّرق الَّتِي يُستدل بِهَا عَلَى أن الشّيء مأمور بِهِ، لا تظن أن الشّيء المأمور بِهِ هُوَ مَا جاء بصيغة الشّيء افعل، بل الأمر يستفاد من عدة أمور، فإذا ورد التّرغيب فِي شيء فَهُوَ مأمور به.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: ذم الكفر يؤخذ مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فإذا نفى الله المحبة عن هَؤُلاءِ فإِنَّهُ يقتضي ذم عملهم.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: أن الحكم إِذَا علق بمشتق -وهذه فائدة أُصُولِيَّة- فَهُوَ دليل عَلَى أن ذَلِك المشتق هُوَ علة فِي الحكم، مثلًا قوْله تعالَى: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فالعلة هُنَا كفرهم، أي أن الحكم بعدم حبهم عُلق عَلَى وصفٍ هُوَ كفرهم.

إِذَنْ: فالكفر علة انتفاء المحبة.

وكما لو قَالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ [الصّف:٤]، فالعلة فِي المحبة هِيَ القتال فِي سبيله صفًا.

وهكذا كُلُّ حُكْمِ معلّق بمشتق فإِنَّهُ يدل عَلَى عِلّية ذَلِك الشّيء.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: اعتبار اللازم بمعنى أَنّه إِذَا لزم من الشّيء كذا وكذا فإِنَّهُ يثبت هَذَا اللازم تبعًا لثبوت الملزوم، فمثلًا لاحِظ فِي المؤْمِنينَ قَالَ: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ما قَالَ إِنَّه يحب أو لا يحب الكَافِرينَ قَالَ: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ فالمقابل: أَنّه لا يحب الكَافِرِينَ، فالَّذي يلزم مِنْهُ أَلَّا يجزيَهم من فضله وَإِنَّما يعاملهم بعدله، فعقاب الكَافِرِينَ مأخوذ من لازم انتفاء المحبة.

ودلالة التّلازم هَذِهِ مفيدة جدًّا لطالب العلم، ومعناها أَنّه يلزم من كذا وكذا، كذا وكذا، لكن لا بُدَّ من شرطين:

الشّرط الأول: أَنْ يكُونَ اللازم صحيحًا، فإن كَانَ اللازم فاسدًا فإِنَّهُ لَيْسَ بلازم حتى لو ادعى الإنسان أَنّه لازم فليس بلازم.

الشّرط الثّاني: أَنْ يكُونَ ذَلِك فِي كلام الله وكلام رسوله ﷺ.

أما الشّرط الأول -أَنْ يكُونَ التّلازم صحيحًا- فإننا نحترز بِهِ عما إِذَا كَانَ التّلازم غير صحيح، مثلًا أهل التّعطيل الَّذِين أنكروا الصّفات أو بعضها، شُبْهَتُهُمْ فِي الإنكار قَالُوا إِنَّه يلزم التّمثيل، لكن هَذَا اللازم لَيْسَ بصحيح؛ ولذلك لا نقول إِنَّه يلزم من إثْبَات الصّفات التّمثيل لأَنَّهُ لَيْسَ بلازم.

فِي كلام الله وكلام رسوله إِذَا كَانَ اللازم صحيحًا فَهُوَ حق ويكون النّص دالًّا

علَيْه، لكن فِي كلام غيره لا يَكُون اللازم قولا لصاحب القول الملزوم، وَلِهَذا العلَماء عِنْدَهُم ترجمة فِي هَذِهِ المسألة: (هلْ لازِمُ القَوْلِ قَوْلٌ أَوْ لَيْس بِقَوْلٍ؟) فمنهم من قَالَ إن لازم القول لَيْسَ بقول، ومنهم من قَالَ إن لازم القول قول.

والصّحيح أن لازم القول فِي كتاب الله وسنة رسوله ﷺ قول لكن بشرط أنْ يكُونَ اللازمُ صحيحًا، ويكون قولًا لأَنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يعلم مَا يترتب عَلَى كلامه من اللوازم وَإِذَا لم ينفها الله دل ذَلِك عَلَى ثبوتها، لكن الإنسان البشر لا يعلم دوما مَا يلزم عَلَى قوله، فأحيانًا يقول الإنسان قولا يظنه صوابًا ويكون هَذَا القول يلزم مِنْهُ لزوما صحيحًا حقيقيًّا أمور فاسدة لو نُبِّهَ القائل لها لرجع عن قوله؛ فلذلك نقول إن لازم القول فِي غير كتاب الله وسنة رسوله لَيْسَ بقول، صحيح أَنَّه يستدل بِهِ عَلَى بطلان القول لكن مَا يُقَال إنَّه قول فلان.

فالحاصِلُ فِي هَذِهِ المسألة: أنه ينبغي التّنبه لها، وَإِنَّمَا نقول بِذَلِكَ لأَنَّ الإنسانَ بشرٌ لا يحيط بما يستلزمه كلامه من اللوازم الصّحيحة أو اللوازم الباطلة، الآن نرى كثيرًا مَا يـأمر الإنسان بشيء أو ينهى عن شيء فِي أولاده ثمَّ إِذَا فعلوه علم أَنَّه يستلزم مفسدة فيرجع عنه، هَذَا اللازم هل كَانَ عالِمًا بِهِ من قبل؟ لو كَانَ عالِمًا مَا أمرهم، وكثيرًا مَا ينهاهم عن شيء ثمَّ إِذَا تركوه رأى فِي ذَلِك مفسدة يعني استلزم مفسدة مَا كَانَ يعلم بِهَا حين النّهي فتجده يرجع، فلازم القول فِي كتاب الله وسنة رسوله قول لكن بشرط أنْ يكُونَ التّلازم صحيحًا، أَمَّا فِي غيره فليس كَذَلِكَ، لَيْسَ بقول.



الآية (٤٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الروم:٤٦].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾: ﴿مِنْ﴾ للتبعيض و﴿ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ مجرور بـ(من) و﴿أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ﴾ فعلٌ مُؤَوَّلٌ بالمصدر هُوَ المبتدأ، أي من آياته إرسال الرّياح ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ حال من الرّياح].

يقول الله عَزَّوَجَلَّ فِي هَذِهِ الآية: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ أي بعض آياته لأَنَّ ﴿مِنْ﴾ هُنَا للتبعيض؛ وَذَلِكَ لأَنَّ آيات الله عَزَّوَجَلَّ لا يمكن إحصاؤها ولا حصرها.

فَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَـهُ آيَـةٌ   تَـدُلُّ عَـلَى أَنَّـه وَاحِـدُ[1]

لو أراد الإنسان أن يحصي آيات الله عَزَّوَجَلَّ الَّتِي فِي جسمه هُوَ فقط مَا استطاع إِلَى ذَلِك سبيلًا، فكيف بآيات الله تَعالَى الَّتِي ملأت الكون؛ وَلِهَذا تأتي ﴿مِنْ﴾ الدّالة عَلَى التّبعيض.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ أي علاماته واعلم أن كل آية فإنها تدُلّ عَلَى العِلْم وتدل عَلَى القُدْرَة وتدل عَلَى الحكمة، لا بُدَّ من ذَلِك فِي كل آية أَنَّها تكون آية وعلامة عَلَى هَذِهِ الأمور الثّلاثة: العِلْم والقُدْرَة والحكمة، ثمَّ تختص بعض الآيات

(١) البيت لأبي العتاهية، ديوان (ص:١٠٤).

بما تختص به، إمَّا أن تكون الآيَة الَّتِي بعدها آية رحمة أو بعدها شيء يدل عَلَى السّلطان والعظمة.

والُمهِمُّ: أن لكل آية معنى خاصًّا ومعنى عامًّا، فالمعنى العام هُوَ هَذِهِ الثّلاثة: العِلْم والقُدْرَة والحكمة، فقوْله تَعالَى: ﴿أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ﴾ يضاف إِلَى هَذِهِ الثّلاث الرّحمة لأَنَّ هَذِهِ الرّياح تبشر بالمطر وقوْله تَعالَى: ﴿أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ﴾ الإرسال بمعنى الإطلاق ومنه قول الشّاعر(١):

فَأَرْسَلَهَا العِـرَاكُ................ ....

يعني أطلقها، ومنه قول الفرضيين: (دَيْنٌ مُرْسَلٌ) يعني مطلقا لَيْسَ بِهِ رهن فقوْله تَعالَى: ﴿أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ﴾ أي يطلقها عَزَّوَجَلَّ، والرّياح جمع ريح وَهِيَ الأهوية، واعلم أن الرّيح تُذْكَرُ مفردةً وتذكر مجموعةً، فإذا ذكرت مجموعة فإنها تكون غالبًا للرحمة، وَإِذَا ذُكرت مفردةً فإنها تكون غالبًا للعقاب كما فِي قوْله تَعالَى: ﴿فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ﴾ [الحاقة:٦]، قَالَ (ريح)، وقوْله تَعالَى: ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ﴾ [الذّاريات:٤١]، وقوْله تَعالَى: ﴿رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [الأحقاف:٢٤]، وما أشبه ذَلِك، ولكنها أعني الرّيح قد تُفرد وتكون فِي مقام النّعمة لا سِيَّما إِذَا وصفت بما يدل عَلَى ذَلِك.

كما فِي قوْله تَعالَى: ﴿وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ﴾ [يونس:٢٢]، فالرّيح هُنَا عقوبة نعمة، وَإِنَّمَا كانت نعمة لأَنَّهَا وصفت بقوْله تَعالَى: ﴿طَيِّبَةٖ﴾، أما بالنّسبة للسفن فالأَوْلَى اتحاد الرّيح لا اختلافها؛ لأَنَّهَا إِذَا اختلفت اختلف سير السّفينة، وفي الماضي

(١) البيت للبيد، وتمامه:

فأرسلها العراك وَلم يذدها وَلم يشفق على نغص الدّخال

لما كانت السّفن شراعية كانت الرّياح فِي مقام النّعمة وَلِهَذا جمعت.

قوْله تَعالَى: ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ مبشرات حال من الرّياح أي تبشر بالخير وَلِهَذا بعض الرّياح إِذَا هبت استبشر النَّاس لأَنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أجرى العادة أن هَذِهِ الرّيح المعينة يتكون منْهَا السّحاب ثمَّ المطر، وأحيانًا يستبشرون بالرّيح إِذَا رأوها تجمع السّحاب، تجمعه وتكثفه، استبشروا بها.

وقوْله تَعالَى: ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ البشارة هِيَ الإخبار بما يسر غالبًا، وسميت بشارة لأَنَّهَا تؤثر عَلَى البشرة، فالإنسان إِذَا استبشر ينيرُ وجهُه ويُسْفرُ وتجدُ علَيْه علامة البشرى، وقد تطلق البشارة بما يسوء كقوْله تَعالَى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران:٢١].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ بمعنى لِتُبَشِّرَكُمْ بِالمَطَرِ].

فسر المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ اسم الفاعل بالفعل المعلل، وقَالَ: [بمعنى لِتُبَشِّرَكُمْ] لأجل أن يسهل العطف فِي قوْله تَعالَى: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ لأَنَّ ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ ﴿وَلِيُذِيقَكُم﴾ يجد الإنسان بَيْنَهُما فجوة، هَذِهِ الفجوة أراد المُفَسِّر أن يقربها بقوله: [بمعنى لِيُبَشِّرَكُمْ بها]، ولكن الصّحيح عندي أن المبشرات عَلَى حالها تعتبر اسمًا ولكننا نقدر فعلًا يناسب مَا بعده لأجل أن يصح عطف الفعل علَيْه، والَّذي أرى أن يقدر: [﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ لتستبشروا بِهَا ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾]، أو نجعل لتبشركم كما قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا نجعلها بمعنى مبشرات بل نجعلها فعلًا مستقلًّا قدرناه ليصح العطف فِي قوْله تَعالَى: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلِيُذِيقَكُم﴾ بِهَا ﴿مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ المَطَر والخِصْب].

تقدم أن الله تَعالَى يعبر عن الإصَابَة بالإِذَاقَة لأنّهَا أعلى أنواع الإصَابَة وأبلغها ﴿وَلِيُذِيقَكُم﴾ بِهَا ﴿مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾.

يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [المطر والخصب] ففسر الرّحمة بأثرها، وَعَلَى هَذَا فلا تكون الرّحمة مخلوقة وليست صفة من صفات الله، وَهَذا الَّذي فسرها بِهِ محتمل لأَنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد يطلق الرّحمة عَلَى الشّيء المخلوق الَّذي يَكُون من آثار رحمته كما ثبت فِي الحديث الصّحيح أن الله قَالَ للجنة: «أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ»[1]، ومن المعلوم أَنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يُرِدْ أَنَّها رحمته الَّتِي هِيَ صفته؛ لأَنَّ الجنة مخلوق بائن دائم ولكن أراد أَنَّها من أثر رحمتـه أو مقتضى رحمته، فهنا يصح أن نقول: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أي من هَذَا المطر والخصب وتكون الرّحمة هُنَا مخلوقة من المخلوقات.

وإن جعلناها الصّفة فهي للابتداء يعني ليذيقكم نعمة صادرة من هَذِهِ الرّحمة.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ﴾ السُّفُنُ بِهَا ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ بإرادته ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ تطلبوا ﴿من فضله﴾ الرِّزق بالتِّجارة فِي البحر ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾].

قوْله تَعالَى: ﴿وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ﴾ يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [السُّفُنُ بها] الضّمير يعود عَلَى الرّياح، فالله تَعالَى يرسل الرّياح لتسير بِهَا المياه فِي أجواء السّماء وَهُوَ السّحاب ويرسل الرّياح لتسير بِهَا السّفن فِي البحار، وكُلٌّ من السّحاب ومن السّفن يحمل نعمًا كثيرة، السّفن تحمل الأرزاقَ والأَنَاسِيَّ والحيوانَ وغيرَها، والسُّحـب تحمل الماء الَّذي هُوَ مادة الحياة، ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة:٦٨-٦٩]، ففي الرّياح إِذْنْ فائدتان:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾، رقم (٤٨٥٠)، ومسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، رقم (٢٨٤٦).

- تسيير السُّحب فِي أجواء السّماء.

- وتسيير السُّفن فِي أجواء البحار.

وقوْله تَعالَى: ﴿ٱلْفُلْكُ﴾ تصلح للجمع وللمفرد، وَهَذا فِي القرآن موجود، مثالُها للجماعة قوْله تَعالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس:٢٢]، هَذَا جمع؛ لأَنَّهُ قَالَ: ﴿فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ﴾ لم يقل فِي الفلك وجرى، وقوْله تَعالَى: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ [فاطر:٢٢]، أيضًا جمع، ومثالها للمفرد قوْله تَعالَى: ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ﴾ [البقرة:١٦٤]، قَالَ: ﴿ٱلَّتِى﴾ ولم يقل اللاتي، وقد ذكر الفقهاء أن الأحدب ينوي الرّكوع بقلبه، فالأحدب لَيْسَ بقائمٍ حتى يركع، بل ينويه بقلبه، قَالَ بعض الفقهاء: فَهُوَ شبيه للفُلْكِ فِي اللُّغَة العرَبِيَّة يعني انحناء هَذَا الأحدب شبيه بالفلك فِي اللُّغَة العرَبِيَّة، مَا يُعرف إِلَّا بالنِّية، فالفلك صالِح للمفرد وللجماعة ولا يعرف إِلَّا بالنّية أو القرينة، وكَذَلِكَ الأحدب فِي حال الرّكوع، فما الَّذي يُعلمنا أَنَّه راكع أو غير راكع فركوعه وقيامه سواء.

ويمكن أن يستدل بمَسْأَلَة الأحدب عَلَى مَا ذُكر عن الكسائي أنه قَالَ: إن الإنسان إِذَا أتقن شَيْئًا من العِلْم أمكنه أن يفهم غيرَه من العلوم[1]، وذكروا قصة أَنَّه كَانَ هُوَ وأبو يوسفَ عند الرَّشِيدِ -أحد خلفاء بني العباس- وأنهم تناظروا فِي مَسْأَلَة فقال أبو يوسف للكِسَائِيِّ: مَا رأيك لو سها الإنسان فِي سجود السَّهْوِ، هل نَحْوُكَ يعلمك بحكم هَذِهِ المسألة؟ قَالَ: نعم إِذَا سها فِي سجود السّهو فإِنَّهُ لا يسجد، قَالَ: أين تجد هذا فِي نحوك؟ قَالَ: عندنا قاعدة فِي النّحو أن المصغر لا يصغر، فاستدل بأن سجود السّهو صلاة مصغرة فإذا سها فِيهِ فإِنَّهُ لا يصغر مرة ثانية، وهل هَذَا

---

(١) الوافي بالوفيات (٢١/ ٤٨).

واقع أو غير واقع؟ الله أعلم لكنهم ذكروه.

قوْله تَعالَى: ﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ﴾ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بإرادته]، والصّحيح ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ من الأمر الَّذي هُوَ بالقول وليس المُرَاد بالإرادة فقط لأَنَّ الفلك مَا تَعْلَمُ عما يريد الله عَزَّوَجَلَّ لكنها إنما تأتمر بأمره القولي وقد قَالَ الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، فكلُّ مرادِ الله إن لم يقترن بالقول فإِنَّهُ لا يقع، وكيف تحدث الكائنات بمجرد إرادةٍ لا يعلم بِهَا إِلَّا الله؟ فلا بد من قول، فالصّواب أن المُرَاد بأمره: أمره القولي لقوْلِه تَعالَى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، ولا يمنعُ ذَلِك أنْ يكُونَ هَذَا الجريانُ بأمره بأسباب محسوسة معلومة لنا؛ لأَنَّ المُقَدِّرَ للأسباب هُوَ الله عَزَّوَجَلَّ فهُوَ سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يخلق ويُسَخِّرُ ولكن بأسباب.

قوْله تَعالَى: ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ كل هَذَا مما خلقه الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لهذه الحِكَمِ العظيمة.

قال المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلِتَبْتَغُواْ﴾ تطلبـوا ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ الرِّزق بالتِّجارة فِي البحر]، وَهُوَ كَذَلِكَ، وكم من أناس كانت تجارتهم فِي البحار ينقلـون الأرزاق من جهة إِلَى جهة بواسطـة هَذِهِ السّفن، لولا هَذِهِ السّفن لكان من المتعذر أن تنتقـل الأرزاق من الجهة الَّتِي خلف البحر إِلَى الجهة الأُخْرَى، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ جعل هَذِهِ السّفن لأجل أن تنقل هَذِهِ الأرزاق والنّعم.

قوْله تَعالَى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: (لعل) هَذِهِ معناها التّعليل، تشكرون؛ الشّكر هُوَ القيام بطاعة المنعم ويكون باللسان وبالقلب وبالجوارح، فأما الشّكر بالقلب فأن يؤمن الإنسان بأن هَذِهِ النّعمة من الله عَزَّوَجَلَّ هُوَ الَّذي أمده بِهَا وَهُوَ الَّذي يسرها

لَهُ وَهُوَ الَّذي جلبها إِلَيْهِ هَذَا بالقلب، والشّكر باللسان أن يحمد الله عَلَيْهَا فإن هَذَا من شكر النّعمة وأن يتحدث بِهَا اعترافًا لله بالفضل لا افتخارًا بِهَا عَلَى غيره، وأما الشّكر بالجوارح فأن يقوم لله تَعالَى بالعمل البدني من صلاة وزكاة وحج وغيره، وَلِهَذا يقول الشّاعر[1]:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً ... يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ الْمُحَجَّبَا

فيدي الجوارح، واللسان القول، والضّمير المحجب القلب.

ما الواسطة بَيْنَ الحمد والشّكر، أو النّسبة بَيْنَ الحمد والشّكر؟

الحمد أعم من حيْثُ السَّببُ، والشّكر أعم من حيْثُ التَّعلُّقُ؛ لأَنَّ الحمد يَكُون باللسان ويكون عَلَى النّعم وَعَلَى كمال صفات المحمود، يعني أنَّه يحمد المحمود عَلَى نعمه وإحسانه عَلَى الحامد وَعَلَى كمال صفاته، وأما فِي الْمُتَعَلَّق فإِنَّهُ يتعلقُ باللسان خاصة الحمد يَكُون باللسان فَقَطْ، وربما يَكُون بالقلب أيضًا بأن يعتقد الإنسان كمال هَذَا المحمود لكِنَّهُ لا يُسَمَّى حمدًا لغة إِلَّا باللسان، وأما الشُّكرُ فَهُوَ أخص من الحمد باعتبار سببه وأعم باعتبار متعلِّقه، أخص باعتبار سببه لأَنَّ سببه الإنعام عَلَى الشّاكر، ولو كَانَ الإنسان المحمود من أكمل النَّاس ولم يعطِك شَيْئًا لا تشكره، فالشّكر يَكُون عَلَى النّعم فَهُوَ أخص من حيْثُ السّبب ويكون بالقلب واللسان والجوارح فَهُوَ من حيْثُ المتُعَلَّق أعم.

إِذَن: النّسبة بَيْنَهُما العُمُوم والخصوص الوجهي.

قوْله تَعالَى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الشّكر هُوَ القيام بطاعة المنعم هَذَا بالمَعْنَى العام،

---

(١) نهاية الأرب في فنون العرب للنويري (٣/ ٢٤٨).

لكن شكر النّعمة الخاصة يَكُون بالقيام بوظيفتها من الطّاعة، يَكُون بالقيام بوظيفتها الخاصة، مثلًا شكر الإنسان ربه عَلَى العِلْم يَكُون بالعمل بِهِ وتعليمه، هَذَا شكر خاص لنعمة خاصة، شكرُ الإنسانِ ربَّه عَلَى المسكن مثلًا يَكُون بطاعته فِي هَذَا المسكن بأن لا يَكُون فِيهِ مثلًا إسراف ولا تبذير وما أشبه ذَلِك فالشّكر هُنَا لَهُ معنيان:

- المَعْنَى العام هُوَ القيام بطاعة المنعم.

- والشّكر الخاص هُوَ القيام بطاعة الله تَعالَى لما يتعلق بهذه النّعمة الخاصة، وكل نعمة لها شكر خاص.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: أن هناك علاماتٍ ودلالاتٍ عَلَى وجود الخالِق وَعَلَى علمه وقدرته وحكمته هَذِهِ الآيات. هَذِهِ الآيات الَّتِي تَعَرَّضَ الله بِهَا لعباده من نعمة الله عَلَيْهِم أن الله تَعالَى يريهم آياتِه ليقوموا بشكره ويعترفوا بفضله.

الفائِدَةُ الثَّانِيَةُ: من آياته أيضًا -زيادة عَلَى الآيات الثّلاثة الَّتِي ذكرنا- ثبوتُ الرَّحمة لقوْلِه تَعالَى: ﴿أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ﴾ هَذِهِ الرّياح لو اجتمع الخلق كلهم عَلَى أن ينفخوا بجميع وسائل النّفخ فإنهم لا يستطيعون أن يغطوا بِهَذا النّفخ بلدًا واحدًا، والرّب جلت قدرته يغمر مَا شاء أن يغمر بهذه الرّيح الَّتِي قد تقلع الأشجار وتهدم الدّيار، أليس هَذَا دليلًا عَلَى قدرة الله العظيمة؟ وكونها مبشرات فِيهِ إثْبَات الرّحمة.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: نعمة الله تَعالَى بالفلك الَّتِي تجري بأمره لولا أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يسر من الأسباب مَا يَكُون بِهِ ذَلِك مَا عرف النَّاس كَيْفَ يتعدون من بر إِلَى بر بواسطة البحر.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: أنَّ ظهورَ الآيَاتِ لِلإِنْسَانِ سببٌ لشكر نعمة الله علَيْه، نأخذُه مِنْ قوْلِه تعالَى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: إثْبَاتُ العِلَلِ والحِكَمِ فِي أفعال الله تَعالَى؛ لقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ﴾ لأَنَّهَا للتعليل.



الآيــة (٤٧)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الرّوم:٤٧].

قوْله تَعالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ اللام فِي قوْله تعالَى: ﴿وَلَقَدْ﴾ مُوَطِّئَةٌ للقَسَمِ يعني أنَّها جواب لقسم محذوف، التّقدير والله لقد، وَبِهذَا نعرف أن الجملة هُنَا مُؤكدة بثلاثة أمور وَهِيَ القسم واللام وقد.

قوْله تَعالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ من المشهور المعروف عند أهل العِلْم أنَّ الرَّسولَ مَنْ أُوحِيَ إِلَيْهِ بشرع وأُمِر بتبليغه لأَنَّهُ مرسل، وَهَذا الصّنف من النَّاس هُوَ أعلى أنواع الأصناف من بني آدم ويليهم الأنبياء ثُمَّ الصّديقون ثُمَّ الشّهداء ثمَّ الصّالحون، فأعلى أجناس البشر الرّسل -علَيْهِمُ الصّلاةُ والسّلامُ- لأنهم جمعوا بَيْنَ الاختصاص بالرّسالة والعبادة، والله أعلم حيْثُ يجعل رسالته، لا يعطي الرّسالة إِلَّا لمن هُوَ أهل لها، فأحق النَّاس بالرّسالة بلا شك هم هَؤُلاءِ الأعيان الَّذِين أرسلهم الله عَزَّوَجَلَّ ولا يمكن أنْ يكُونَ أحد من النَّاس أحق منهم بِهَا، وَبِهذَا نعرف ضلالَ بل وكُفْرَ من قَالُوا إن عَلِيَّ بنَ أبي طَالِبٍ أَحَقُّ بالرِّسالة من مُحَمَّدٍ ﷺ لأنهم بِذَلِكَ طعنوا فِي الله عَزَّوَجَلَّ ونسبوه إِلَى مَا لا يليق بِهِ، لأَنَّهُ إِذَا كَانَ أعطى الرّسالة محمدًا وعليٌّ أولى بِهَا فَهُوَ إِمَّا جاهل بالأحقية وإما غير مريد لإعطاء الحق أهله هَذَا

الصّواب، وكلا الأمرين بالنّسبة إِلَى الله مُحالٌ وممتنِعٌ، وأي أحد يصف الله بِهَذا أو بما يستلزم هَذَا فإِنَّهُ كافر بلا شك.

إِذَن: الرّسل -علَيْهِمُ الصّلاةُ والسّلامُ- هم أشرفُ أصنافِ الخلقِ وهم أحق النَّاس بالرّسالة بلا شك ولا أحد أحق منهم، ويوجد -والعياذُ باللهِ- بعض النَّاس -الفلاسفة- يرون أن الرّسل من آخر مراتب الخلق ويقولون إن الولي أفضل من النّبي، والنّبي أفضل من الرَّسول لأَنَّ الولي خاص الخاصة، وليٌّ عَلَى اسمه، والنّبي لَهُ مَزِيَّةُ الوحي، والرَّسول بمنزلة الخادم الَّذي فِي البيت يُرْسَلُ ليشتريَ الحوائج، انظر كَيْفَ -والعياذُ باللهِ- الضّلالَ ويقولون فيما يقولون[1]:

مَقَامُ النُّبُوَّةِ فِي بَرْزَخٍ ... فُوَيْقَ الرَّسُولِ وَدُونَ الوَلِي

أعوذ بالله، مقام النّبوة برزخ فويق الرَّسول، يعني فوق الرَّسول بقليل وبالنّسبة للولي دون منحط بعيد عن الولي، وَعَلَى هَذَا فتكون رتبة الولاية عِنْدَهُم أعلى شيء، وَهَذا لا شك أَنَّه كُفْرٌ، بل نقول إن مقامَ الرِّسالة فوق كل شيء ثمَّ النّبوة ثمَّ الولاية؛ لأَنَّ الرَّسول جامعٌ بَيْنَ الرّسالة والنّبوة والولاية والنّبي لَهُ النّبوة والولاية والولي لَهُ الولاية دون النّبوة والرّسالة، ومعلوم أَنَّه كلما ازدادت صفة الكمال فِي شخص كَانَ أكمل من غيره.

قَوْله تَعالَى: ﴿إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ﴾ القوم هم الطّائفة الَّذِين ينتسب إليهم الإنسان لأَنَّ

---

(١) نقله شيخ الإسلام ابن تيمية عن ابن عربي في منهاج السنة (٥/ ٣٣٦)، وفي كتاب لطائف الأسرار لابن عربي، ط. دار الفكر العربي (ص:٤٩):

سماء النبوة في برزخ ... دوين الولي وفوق الرسول

وفي الفتوحات المكية (٢/ ٢٥٢) يقول:

بين الولاية والرسالة برزخ ... فيه النبوة حكمها لا يجهل

بهم قوامه فَهُوَ يقوم بهم، وهم بِهِ يقومون.

وقوْله تَعالَى: ﴿إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ﴾ لأَنَّهُ مَا من رسول أُرسل سوى رسول الله ﷺ إِلَّا ورسالته خاصة كما ثبت فِي الحديث الصّحيح: حديث جَابِرٍ «وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»(١).

قوْله تَعالَى: ﴿فَجَآءُوهُم﴾ الفاعل للرسل والمفعول للقوم.

قوْله تَعالَى: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالحُجَجِ الوَاضِحَاتِ عَلَى صِدْقِهِمْ فِي رِسَالَتِهِمْ إِلَيْهِمْ فَكَذَّبُوهُمْ].

قوْله تَعالَى: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ معلوم أَنَّ البينات تعني الواضحات لكن هل المُرَاد بالبينات هُنَا مَا يبين صدق رسالتهم فيكون المُرَاد بِهَا المعجزات الَّتِي أُيِّدوا بِهَا، أو المُرَاد بالبينات أي بالشّرائع البينات الظّاهرة الَّتِي كل من استَقْرَأَها عَرَفَ أَنَّها من عند الله، أو المُرَاد الأمران؟ المُرَاد الأمران فالرُّسل أتوا بالآيات البينات الَّتِي تؤيدهم وتدل عَلَى صدقهم وأتوا أيضًا ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ بالشّرائع البينة الظّاهرة الَّتِي يعلم أَنَّها من عند الله عَزَّوَجَلَّ فالباء فِي قَوْلِهِ ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ تكون للمصاحبة، يعني أُرسلوا رسالةً مصحوبة بالبينات، أو للاختصاص عَلَى القول بأن المُرَاد بالبينات الشّرائع، وَهَذَا من حكمة الله عَزَّوَجَلَّ ورحمته أن الله مَا أرسل رسولًا إِلَّا أيده بآية من حكمته ورحمته؛ لأَنَّهُ لو جاء الرَّسولُ بدون آية إِلَى النَّاس وقال أنا رسول الله بدون آية هل يقبلونه؟ من طبيعة البشر أن لا يقبلوا حتى يعرفوا، كما أَنَّه لو جاء واحد من النَّاس وقَالَ: أنا عالِمٍ عندي علم بالشّرع استفتوني فِي أي شيء أفتكم، فلا يطيعونه حتى يمتحنوه

(١) أخرجه البخاري: كتاب التيمم، رقم (٣٣٥)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، رقم (٥٢١).

ويسألوه، فكيف إِذَنْ بالَّذي يدعي أَنَّه يُوحَى إِلَيْهِ، لا يقبل إِلَّا إِذَا جاء بآية فَهَذَا من حكمة الله.

من رحمته أيضًا أَلَّا يعاقب أحدًا بذنب بدون حجة لأَنَّهُ لو أرسل الرّسل بدون آيات وكذبهم الأمم لكانوا معذورين بالتّكذيب لعدم وجود الآية، وقد لا يُعذرون لأنهم يجب عَلَيْهِم أن يستسلموا، لكن من رحمته أن جعل معهم آيات بينات ليطمئن النَّاس إليهم ويؤمنوا بهم عن اقتناعٍ.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ ربما يُستفاد من كلمة ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ لا رسول بعده كما سنذكره إن شاء الله تَعالَى فِي الفوائد ونناقش هَذِهِ الفائدة.

قوْله تَعالَى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا﴾ الانْتِقام هُوَ الأخذ بالعقوبة، وَهَذا من فعل الله وليس من أسمائه؛ وَلِهَذا الحديث الَّذي فِيهِ سياق الأسماء الحسنى وَهِيَ مدرجة مَا صحت عن الرَّسول ﷺ فِيهَا أن من أسمائه المنتقم وليس كَذَلِكَ، لَيْسَ من أسمائه بل هُوَ من أوصافه وأفعالِه وَلِهَذا مَا جاء مطلقا قَالَ: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السّجدة:٢٢]، ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ فَهُوَ فِعْلٌ.

وقوْله تَعالَى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ الإجرام فعل الجرم، وكل مَا يَكُون سببًا فِي الإثم فَهُوَ جُرْمٌ، والمُراد بالإجرام هُنَا الكفر، وفُهِمَ من الآيَة الكريمة ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ أن من لم يجرم لم يُنتقم منه؛ وَلِهَذا قَالَ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الله أكبر، ﴿نَصْرُ﴾ إعرابها اسم (كان)، وخبرها ﴿حَقًّا﴾، هَذَا أحسن مَا يَكُون فِي إعراب الآيَة، وأوجه مَا يَكُون وأسهل مَا يكون، وإلا ففيها أوجهٌ أُخْرَى.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾ الحق بمعنى الشّيء الثّابت اللازم ﴿نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: المؤْمنينَ بما يجب الإِيمَان بِهِ من الإِيمَان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم

الآخر والقدر خيره وشره، فأوجب الله عَزَّوَجَلَّ عَلَى نفسه أن ينصرَ المُؤْمِنِينَ، أوجب ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾ التِـزامٌ من الله عَزَّوَجَلَّ ﴿نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ نَصْرُهم أي منعُهم من أعدائهم، وَذَلِكَ بأن يجعل لَهُم من النّصر الحسي والمعنوي مَا تكون العاقبة لَهُم، وَهَذا كقوْله تَعالَى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر:٥١].

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هَذَا الحق الَّذي التَزم الله بِهِ قد يشكل علينا أن الله تَعالَى يخذل المؤْمِنينَ أحيانًا كما فِي أُحُدٍ مثلًا، فإن النّصر فِي أُحُدٍ كَانَ لقريش وأتباعها فما هُوَ الجواب عن هَذِهِ الآية؟

نَقُول: إن الجواب إن نصر قريش عَلَى الرّسول ﷺ لَيْسَ نصرًا دائِمًا كانت العاقبة فِيهِ لَهُم، بل إن هَذَا فِي الحقيقة من نصر المؤْمِنينَ عَلَيْهم، وَإِذَا شئت أن يتبين لك ذَلِك فاقرأ مَا عَلَّلَ الله بِهِ هَذِهِ الغزوة فِي سورة آل عمران من جملة مَا ذكر من الحكم ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤١].

إِذَنْ: فَهُوَ نصر لجلبهم لأنهم لو هُزِموا فِي كل مقام مَا قاموا ولا حاربوا، لكن إِذَا صَارَ لَهُم شيء من النّصر فإن ذَلِك يُغرِيهم بالقتال حتى تكون العاقبةُ للمؤمنين، ويبيدهم الله عَزَّوَجَلَّ ومنها أيضًا نصر المؤْمِنينَ عَلَى أنفسهم لأنهم مَا أتاهم مَا أتاهم فِي أحد إِلَّا بسببِ مخالَفتهم كما قَالَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:١٥٢]، فهنا يعرفون قدر المعصية وأنه يفوت بِهَا من المحبوب مَا لا يخطر عَلَى بالٍ.

فالحاصِلُ: أن هَذِهِ الآية عَلَى بابها أن الله تَعالَى ينصر المؤْمِنينَ حقًّا عليْه أوجبه

هُوَ بنفسه عَلَى نفسه كما فِي قوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤].

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: تسليةُ الرَّسولِ ﷺ وتحذيرُ المخالِفين لَهُ، تسليته بمن سبقه من الرّسل فقد كُذِّبوا وأُوذوا، فإذا علم أن أَحَدًا شاركه فِي ذَلِك هان علَيْه الأمر لأَنَّ كل إِنْسَان يتسلى بما أُصيب بِهِ غيره بمثله؛ وَلِهَذا قالَ الله تَعالَى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزّخرف:٣٩].

الفائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تحذيرُ المخالِفين لَهُ لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: رحمةُ الله عبادَه بإرسال الرّسل إذ لولا هَذِهِ الرّسالة مَا عرف النَّاس كَيْفَ يَعْبُدُونَ الله عَزَّوَجَلَّ بل ولا عرفوا مَا عرفوا من تفاصيل أسمائه وصفاته كما سبق فِي درس التّوحيد، فالرّسل رحمة عظيمة للخلق كما قَالَ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: أَنَّ الانْتِقامَ من المكذبيـن كَانَ بسبـب فعلهم لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ أي لإجرامهم.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: أن الرِّسالاتِ السَّابقةَ خاصةٌ لقوْلِه تَعالَى: ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ ويبيِّنه الحديث الثّابت فِي الصّحيحين: «وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»[1].

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: أن الله تَعالَى مَا أرسل الرّسل إِلَّا ببينات تشهـد بصدقهم

(١) التخريج السابق.

وبشرائع بينة لا توجب لَبْسًا عَلَى المتبعين تؤخذ مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ أي بالآيَات البينات الدّالة عَلَى صدقهم وبالشّرائع البينات الواضحة الَّتِي لا تقتضي لَبْسًا عَلَى المتبع، قَالَ أهل العِلْم: وآياتُ الأنبياء عَلَى حسب عصرهم ففي عهد موسى انتشر السّحر وكثر فأعطاه الله تَعالَى من الآيَات مَا تبطل السّحر وليست بسحر، أعطاه الله تَعالَى اليد، وأعطاه العصا.

قَالُوا وفي عهد عيسى تقدم الطِّبُّ فأعطاه الله من الآيَات مَا لا يمكن للطب أن يقوم بِهِ وَهُوَ إبراءُ الأَكْمَهِ والأَبْرَصِ وإحياء الموتى وإخراجهم من قبورهم، هَذَا لا يمكن أن يقوم بِهِ الطِّبُّ أبدًا، فالميت لا يمكن أن يحيا بالطّب، وقَالُوا أيضًا إن الأبرص لا يمكن شفاؤه بالطّب، والأكمه قَالُوا أَنَّه الَّذي خُلق بلا عين، هَذَا فيما سبق من العصور لا يمكن أن يوضع لَهُ عين لكن الآن إِذَا وجد مكان العين يمكن أن يوضع لَهُ عين فِي الطّب، لكن إِذَا لم يوجد مثلا خلقه الله عَزَّوَجَلَّ بدون أن يخلق لَهُ مكانًا للعين لا يمكن أن يوضع لَهُ عين.

في عهد الرَّسول ﷺ قَالُوا: إن البلاغة بلغت أعلى ذروتها فكان من أعظم آيات الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هَذَا القرآن الَّذي أعجز البُلَغَاءَ والفُصَحاءَ بل تحدى الله بِهِ كل الجن والإنس ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ [الإسْراء:٨٨]، لا انفرادًا ولا تعاونًا، وَلِهَذا قَالَ: ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإِسْراء:٨٨].

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: الَّذِين يقُولونَ بالإعجاز العلمي فِي القرآن يقولون: الآن زالتِ البلاغة فالنَّاس لا يستطيعون أن يميزوا أوجه البلاغة والفصاحة ولكن الإعجاز العلمي فِيهِ إشارات علمية لكي يصدق أهل هَذَا العصر؟

فأقولُ: هَذَا لَيْسَ ببعيد، يمكن أنْ يكُونَ صحيحًا يعني أن القرآن فِي كل عصر يَكُون معجزةً بما تناسب العصر لأَنَّهُ نزل إِلَى جميع الخلق إِلَى يَوْم القِيَامَة فلا يبعد هذا، القرآن لكل معنى لكِنَّهُ فِي ذَلِك الوقت أشد مَا فِيهِ البلاغة.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: إثْبَات فعل الانْتِقام لله عَزَّوَجَلَّ لقوْلِه تعالَى: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا﴾.

الفائِدَةُ الثّامِنَةُ: إثْبَات العظمة لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا﴾ و﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ فإن هَذَا للتعظيم وليس للتعدد بإجماع المسلمين إنما هُوَ للتعظيم.

الفائِدَةُ التّاسِعَةُ: أن عَلَى الله حقًّا أوجبه عَلَى نفسه لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا﴾.

فإذا سُئلنا: هل يجب عَلَى الله شيء؟

قُلْنَا: أمَّا بعقولنا فلا يجب عَلَى الله شيء، وأما أن يوجب عَلَى نفسه شَيْئًا فَهَذَا أمر واقع.

الفائِدَةُ العاشِرَةُ: أن الله أوجب عَلَى نفسه نصر المؤْمِنِينَ لقوْلِه تعالَى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

الفائِدَةُ الحادِيَةَ عشْرَةَ: أن هَذَا النَّصر لا بُدَّ أن يكون؛ لأَنَّهُ أتى بصيغة التَّعظيم ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا﴾، ولم يقل عليَّ بل قَالَ: ﴿عَلَيۡنَا﴾ إشارة إِلَى أن هَذَا الحق لا بُدَّ أنْ يكُونَ لأَنَّ الله تَعالَى أعظم من كل شيء.

الفائِدَةُ الثّانِيَةَ عَشْرَةَ: فضيلة الإِيمان وأنه سبب للنصر لقوْلِه تعالَى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

الفائِدَةُ الثَّالثةَ عَشْرَةَ: أن غير المؤْمِنيـنَ لا ينصرون؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

فإذا أورد إِنْسَان علينا مَا حصـل من الانتصارات الخاطفة للكفار فمـا هُوَ الجواب؟

الجوابُ: أن هَذَا استدراجٌ من الله عَزَّوَجَلَّ حتى يتم النّصر للمؤمنين فِي النّهاية، وقد يَكُون من مصلحة المؤْمِنينَ لأَنَّهُ نصر لأنفسهم عَلَى أنفسهم ثمَّ أنَّه لا يدوم هَذَا النّصر أبدًا، فالعاقبة لا بُدَّ أن تكون للمؤمنين، وقال بعض أهل العِلْم إن النّصر نوعان:

- نصرٌ بالحُجَّةِ والبُرهان.

- ونصرٌ بالسَّيف والسِّنان.

فأما النّصر بالحجة والبرهان فَهُوَ مضمون وثابت وليس فِيهِ استثناء لأَنَّ الحجة والبرهان مَعَ المؤْمِنينَ عَلَى كل حَالٍ حتى لو هُزِموا عسكريًّا فإن الحجة والبرهان معهم، غالِبون بحجتهم وبرهانهم وَهَذا لا استثناء فيه.

الثّاني: النّصر العسكري يعني بالسّيف والسِّنان ونحن نقول الآن بالطّائرة والقنابل وما أشبهها، فقد يحصل نصر لغير المؤْمِنينَ امتحانًا للمؤمنين واستدراجًا للكافرين.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل هَذِهِ الآية تدُلّ عَلَى ختم الرّسالة بالرَّسول ﷺ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ أو لا تدل؟

فالجوابُ: قد تدُلُّ من حيْثُ إن الرَّسول مرسل إِلَى النَّاس عامة، والعُمُوم هَذَا يشمل العُمُوم فِي الوقت والمكان والأمم وَهَذا يستلـزم أن لا يوجد رسول بعـد،

لو وجد رسول بعد انتفى العُمُومُ إِلَى النَّاس كافة، وصار معناه أن الرَّسول الَّذي بعده يَكُون رسولا إِلَى هَؤُلاءِ النَّاس دون محمد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: كون الرَّسول أرسل إِلَى النَّاس كافة، لَيْسَ فِيهِ دليل عَلَى أَنَّه آخر الرّسل؟

قُلْنَا: لأَنَّهُ إِذَا لم يكن آخرهم فالَّذي يأتي من بعده يَكُون أرسل إِلَى بعض النَّاس وهم الَّذِين تأخروا.

عَلَى كُلِّ حَالٍ: أخذها فِيهِ شيء من الغموض والأمر فِي هَذَا واضح.

والغريب أن بعض النَّاس -على سبيل الاستطراد- أنكر نزول عيسى بن مريم ﷺ وقَالَ: إننا لو قلنا بنزوله لكان ذَلِك تكذيبًا للقرآن ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:٤٠].

وهل استدلالهم بالآية صحيح أو لا؟

الجوابُ: غير صحيح؛ لأَنَّ عيسى لا ينزل مشرعًا وَإِنَّمَا ينزل تابعًا للرسول ﷺ ولا ينشئ شَيْئًا من الشَّريعة حتى كسر الصَّليب وقتل الخِنزير[1]، هَذَا أخبر بِهِ الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فأقره يعني يُقَال أَنَّه يأتي ويحكم بِذَلِكَ ولا يقبل إِلَّا الإِسْلام لا توجد جزية بعد نزول عيسى، لا يوجد أخذ جزية ولا عهد، لا يوجد إِلَّا الإِسْلام فيُقَال إن هَذَا لَيْسَ شرعًا جديدًا ناسخًا لشرع الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بل هُوَ شرع مُقَرَّرٌ من الرَّسول ﷺ، الرَّسولُ أخبرَ بِأَنَّهُ سيفعل هَذَا مقررا لَهُ، فَهُوَ لم ينزل عَلَى أَنَّه رسول

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب قتل الخنزير، رقم (٢٢٢٢)، ومسلم: كتاب الإِيمان، باب نزول عيسى بن مريم حاكما بشريعة نبينا محمد ﷺ، رقم (١٥٥).

بشرع جديد، بل عَلَى أَنَّه تابع للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ولعل هَذَا والله أعلم ليتحقق مَا أخبر الله بِهِ بالفعل، ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران:٨١]، هَذَا خبر من الله عَزَّوَجَلَّ.

وهل نحن علِمْنا بأن نبيًّا من الأنبياء تَابَعَ الرَّسول فعلًا؟

الجوابُ: لا، لكن نزول عيسى ومتابعته ولرسالة الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تكون هَذِهِ حق اليقين لأَنَّ آية آل عمران فِيهَا علم اليَقِينِ، فإذا وجد ذَلِك بالفعل صَارَ حَقَّ اليقين، فَهَذَا من الحكمة فِي نزوله ﷺ فِي آخر الزّمان، وأيضًا عندنا أحاديث واضحة صحيحة صريحة متلقاة بالقبول عند أهل العِلْم فكيف ينكر ذَلِك؟ لكن -والعياذُ باللهِ- بعض النَّاس يأتي بقاعدة من أفسدِ القواعد وأبطلِ القواعد، وَهِيَ أن العقيدة لا تثبت بأخبار الآحاد ولو كَانَ الخبر صحيحًا، وَهَذا فِي الحقيقة مزلة ممن قاله لأننا نقول لَهُ أَنْتَ تثبت من الأحكام العملية: تثبت الحكم العملي بدليل لا يصل إِلَى درجة الصّحة تثبته بدليل يصل إِلَى درجة الحسن وربما يَكُون إِلَى درجة الحسن عندك أَنْتَ وعند غيرك لا يصل إِلَى درجة الحسن، وإثْبَات الحكم العملي مستلزم للعقيدة؛ لأَنَّ تنفيذه مقتضى الإِيمَان ولأن الإنسان لا يعمل بِهَذا إِلَّا بعد أن يعتقد أَنَّه من شريعة الله وإلا لما عمل بِهِ فهناك عقيدة سابقة أن هَذَا من حكم الله ومن شريعة الله وأنه مقرب إِلَى الله وأنه عبادة لله ثمَّ العمل به، ثمَّ إِذَا أخذنا بِذَلِكَ لزم أن ننكر أَشْيَاء كثيرة مما يتعلق بالأمور العلمية لأَنَّ الشّرع كما هُوَ معلوم إمَّا أمور علمية أو أمور عملية، والصّواب بلا شك أَنَّه لا فرق بَيْنَهُما وأن مَا صح عن رسول الله ﷺ

فإِنَّهُ يجب الإِيمان بِهِ عقيدةً وعملًا وَإِذَا شئت مزيد إيضاح فاقرأ مَا كتبه ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي آخر الصّواعق المرسلة فإِنَّهُ تكلم عَلَى هَذِهِ المَسْأَلَة كلامًا شافيًا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: عند نزول عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يلهمه الصّواب فِي مسائل الشّريعة أم ماذا؟

قُلْنَا: الظّاهر -والله أعلم- أن القرآن والسّنة محفوظان إِلَى ذَلِك الوقت، والعجيب أن بعضهم ذكر من شُبَهِ إنكار نزوله أن لغة عيسى سريانية ولغة الرَّسول ﷺ عربية، قَالَ: كَيْفَ ينزل ويحكم بالشّريعة وَهُوَ سرياني؟!

نَقُول: نعم الجواب بالتّسليم وبالمنع:

أولًا: الآن يوجد أناس يتكلمون بِغَيْر اللُّغَة العرَبِيَّة وهم مسلمون ملتزمون بأحكام الإسْلام قائمون بِهِ عَلَى أتم وجه ولغتهم غير عربية.

الثَّاني: أن الله جَلَّ وَعَلَا عَلَى كل شيء قدير يمكن أنْ يكُونَ لسانه عربيًّا إِذَا كَانَ بالممارسة والمخالطة ينقلب لسان الإنسان من سرياني إِلَى عربي فكيف بقدرة الله، لكن سبحان الله العظيم الإنسان إِذَا اشتهى شَيْئًا أتى بشبهٍ لا تنطلي عَلَى أحد.



الآيتان (٤٨، ٤٩)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴾ [الروم:٤٨-٤٩].

قوْله تَعالَى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تُزْعِجُهُ]، لأَنَّهُ مأخوذ من (أثار الصَّيد) إِذَا أزعجه ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ ﴾، يعني يبعثها كَيْفَ شاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تُزْعِجُهُ] كإثارة الصَّيد، فإِن إثارة الصَّيد من مكانه يعني إزعاجه حتى يقوم وقوْله تَعالَى: ﴿سَحَابًا﴾ السَّحاب معروف هُوَ الغيم ﴿فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِنْ قِلَّةٍ وَكَثْرَةٍ]، يبسطه البسط معناه النَّشر ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ تعود إِلَى كيفية هَذَا النَّشر قد يَكُون واسعًا وقد يَكُون قليلًا وقد يَكُون كثيفًا وقد يَكُون خفيفًا، وَلِهَذا قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ بفتحِ السِّين وسُكُونها: قِطَعًا مُتَفَرِّقَةً]، بفتح السِّين يعني ﴿كِسَفًا﴾ وسكونها يعني (كِسْفًا) وقد الله تعالى: ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴾ [الطّور:٤٤]، كِسْفًا؛ الكسَف معناه القطع، وكأن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يريد أن يبين أن السَّحاب قد يَكُون واسعًا منتشرًا مبسوطًا وقد يَكُون قليلًا قطعًا متفرقة، وقال بعض المفسرين معنى كونه كسفًا أَنَّه قِطَعٌ متراكبة بعضها فوق بعض حتى يَسْوَدَّ ويَدْلَهِمَّ ويحصل فِيهِ الرّعد والبرق وهَذا أولى، وَهَو فِي الغالب أكثر مطرًا.

قوْله تَعالَى: ﴿فَتَرَى﴾ الخطاب لكل من يتأتى خطابه لأَنَّ هَذِهِ الرّؤية ليست خاصةً بالرَّسول ﷺ، وقوْله تَعالَى: ﴿ٱلْوَدْقَ﴾ يعني المطر يعني حبات المطر تسمى وَدْقًا.

قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾؛ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي وَسطِه]، وقيل من بينه: من بَيْنَ هَذَا السَّحاب.

وقوْله تَعالَى: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾؛ إِذَا قَالَ قَائِلٌ: نحن لا نـراها بأعينـنا المجـردة لا نرى أن المطر يتخلل هَذَا السّحاب وينزل فيُقَال أنّه خبر صدق فيكون كالمشاهدة مَا دام أن الله تَعالَى أخبر بِهِ فإننا كأنما نشاهده بأعيننا ثمَّ أنَّه فِي الوقت الحاضر وجدت الآلات القوية الَّتِي يستطيع الإنسان بِهَا أن يرى كَيْفَ يخرج هَذَا المطر: هَذِهِ النّقط من خلال السّحاب.

وقوْله تَعالَى: ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ قَالَ الْمُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالوَدْقِ ﴿مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾]، هَذِهِ جملة شرطية ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ﴾ ﴿إِذَا هُمْ﴾ تدُلّ عَلَى أن هَؤُلاءِ الَّذِين أُصيبوا بالمطر أنهم فِي غاية الاشتياق إِلَيْهِ وَلِهَذا بمجرد مَا يصيبهم يحصل الاسْتِبْشَار، وقولنا بمجرد لَيْسَ نتيـجة عن ترتب جواب الشّرط عَلَى فعل الشّرط ولَكِنَّـهُ نتيجة لِذَلِـكَ وزيادة أمر آخر وَهُوَ الإتيان بـ(إذا) الفجائية الَّتِي تدُلّ عَلَى المفاجئة والسُّرعة.

إِذَنْ: (إِذَا) تفيد الشّرط وفعل الشّرط (أصاب) وجواب الشّرط جملة ﴿هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ المصدرة بـ(إذا) الفُجائية.

قُلْنَا: إن هَذَا التّعبير يدل عَلَى أن هَؤُلاءِ فِي غاية مَا يَكُون من الاشتياق إِلَى نزول الغيث وجه ذَلِك استبشارهم بمجرد الإصَابَة وليس استبشارا عاديا كترتب

الجواب عَلَى فعل الشّرط ولَكِنَّهُ أبلغ لأَنَّهُ أتى بـ(إِذَا) الفُجائية الدّالة عَلَى المبادرة لوجود ذَلِك الشّيء.

وقوْله تَعالَى: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَفْرَحُونَ بالمَطَرِ]، الاسْتِبْشَار أشد من مجرد الفرح بل هُوَ يستبشر بنفسه وربما يهنئ غيره ويبشره وَلِهَذا ففي أول مَا يأتي المطر فِي أيام موسم المطر تجد النَّاس إِذَا رأى بعضهم بعضا لا سِيَّما الَّذِين يأتون من البراري يقول أبشرك أنَّه قد نزل مطر وأنه كثير أو حسب مَا يكون، فالاسْتِبْشَار هُنَا أبلغ من مجرد الفرح لكن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ربما يفسره بالتّقريب.

وقوْله تَعالَى: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ لا: «ما يشاء النَّاس» فالَّذي ينزل الغيثَ هُوَ الله عَزَّوَجَلَّ وليس أحد يستطيع أن ينزله، وأما مَا ذُكِرَ من أنهم الآن يُسلِّطون مَوَادَّ كيماوية عَلَى السّحاب فينزل المطر فإن صح هَذَا الأمر فنقول: من الَّذي خلق هَذَا المطر؟ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والَّذي أوجد هَذَا السّحاب هُوَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وكونهم يتوصلون إِلَى أسباب يتبخر بِهَا هَذَا السّحاب حتى ينزل مطرًا هَذَا لا ينافي أنْ يكُونَ الله عَزَّوَجَلَّ هُوَ الَّذي ينزل الغيث، ثمَّ إن قوله فِي الآيَة ﴿يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ أبلغ من ينزل المطر إذ إن المطر قد ينزل ولا يَكُون غيثًا كما ثبت فِي صحيح مسلم: «لَيْسَ السَّنَةُ أَنْ لَا تُمْطَرُوا إِنَّمَا السَّنَةُ أَنْ تُمْطَرُوا وَلَا تُنْبِتُ الأَرْضُ»(١)، السّنة معناها الجَدْبُ والقَحْطُ يعني لَيْسَ السّنة أنَّه لا يأتي المطر، السّنة الحقيقية أن يأتي ولا يحصل نبات.

وقوْله تَعالَى: ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ المُرَادُ بالعباد هُنَا جمع عبد وَهِيَ العبودية العامة لأَنَّ المطر ينزل عَلَى المؤْمِنينَ وَعَلَى الكَافِرِينَ، بل ربما يَكُون

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في سكنى المدينة وعمارتها قبل الساعة، رقم (٢٩٠٤).

نزوله عَلَى الكَافِرِينَ أكثر وأغدق وأشد استمرارًا، امتحانًا لهُم لتُعَجَّل لهُم طيباتهم فِي حياتهم الدّنيا كما قَالَ الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف:٢٠]، أي بهذه الطّيبات ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأحقاف:٢٠]، إِلَى آخره.

قوْله تَعالَى: ﴿وَإِن كَانُوا۟﴾ قَالَ المُفَسِّر: [وقد كانوا]، قدر (إنْ) بـ(قد) وتَبعَ فِي ذَلِك البَغَوِيَّ لأَنَّ الجلاليْنِ مأخوذ من البغوي يعني كأنه مختصر لَهُ لأنك إِذَا تأملت تفسيره رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجدت أَنَّه هُوَ تفسير البغوي بعينه لكن البغوي مبسوط وَهَذا مختصر؛ قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِن﴾ قد]، ولا أحد من أهل النّحو قَالَ بِهَذا القول إِلَّا أن يقوله عَلَى سبيل التّفسير فقط، والصّواب الَّذي لا شك فِيهِ هُوَ أن (إنْ) مخففة من الثّقيلة كما فِي قوْله تَعالَى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤]، وَعَلَى هَذَا فنقول (إنْ) أصلها (إنَّ) فخففت واسمها ضمير الشَّأْنِ محذوف والتّقدير وإنهم، وقد سبق أن القول الصّحيح من أقوال النّحويين أن ضمير الشّأن لا يقدر مفردًا مذكرًا وَإِنَّما يقدر بحسب السّياق إن كَانَ السّياق يقتضي التّأنيث فَهُوَ مؤنث وإن كَانَ السّياق يقتضي التّذكير فَهُوَ مذكر وإن كَانَ يقتضي الجمع فَهُوَ مجموع وإن كَانَ يقتضي التّثنية فَهُوَ مثنى.

إِذَنْ: أصله وإنهم كانوا لكن خففت (إنَّ) فحذف اسمها عَلَى أَنَّه ضمير الشّأن ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾ أي: من قبل أن يُنَـزَّل عَلَيْهِم المطر، وعرفنا أَنَّ المراد بِهِ المطر من قوْله تَعالَى: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ فإن الوَدْقَ إِذَا خرج من خلال السَّحاب ينزل إِلَى الأرْض.

وقوْله تَعالَى: ﴿مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾ يعبر الله عَزَّوَجَلَّ عن نزول المطر بالإنزال

والتّنزيل وَذَلِكَ لأَنَّ المطر أحيانًا يأتي دفعةً واحدة بكثـرة وغزارة فيكون إنزالًا، وأحيانًا يأتي بالتّدريج ضعيفًا متقطعًا فيُسَمَّى تنزيلًا لأَنَّ التّنزيل معناه إنزال الشّيء شَيْئًا فشيئًا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: بالنّسبة لتغاير الإنزال والتّنزيل هل نقول أَنْزَلَ باعتبار المطر ككل وباعتبار أفراده نقول نَزَّلَ؟

فالجوابُ: لا، بل هُوَ باعتبار الكثرة والتّفريق، يعني بعد أيام يأتي، ثمَّ يأتي أيضًا قليلًا أحيانًا، مثلا يَكُون المطر يومين أو ثلاثة ولَكِنَّهُ قليل وأحيانًا يأتي كما هُوَ مُشاهَد سُحبًا عظمية كأنها أفواه القرب.

وقوْله تَعالَى: ﴿مِّن قَبۡلِهِۦ﴾ اختلف فِيهَا أهل العِلْم فقال بعضهم كما قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ إنَّها تأكيدٌ كقوْله تَعالَى: ﴿ لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ﴾ [آل عمران:١٨٨]، كرَّر الفعل توكيدًا، هَذَا قول وَهُوَ الَّذي مشى علَيْه المُفَسِّر وعليه أكثر المفسرين أن قوله ﴿مِّن قَبۡلِهِۦ﴾ أي من قبل أن يُنزَّل عَلَيْهِم قَالَ: وإن كانوا من قبل أن ينزل عَلَيْهِم، من قبل أن ينزل عَلَيْهِم لَـمُبْلِسِينَ، فيكون تكرارها للتوكيد.

وقال بعض المفسـرين إنَّها كُررت للتأسيـس لا للتوكيد، ومعلوم أنَّه إِذَا دار الكلام بَيْنَ أنْ يكُونَ توكيدا وأن يَكُون تأسيسًا فالأصل التّأسيس لأَنَّ الأصل عدم التّوكيد لأَنَّ التّوكيد تكرار والأصل عدم التّكرار، ولينتبه للفرق فِي تعبير العلَمـاء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، فالفرق بَيْنَ التّوكيد والتّأسيس أن التّوكيد معناه أن هَذَا هُوَ الأول، والتّأسيس معناه أن هَذَا غير الأول وأنه كلام مستقل.

وعَلَى القول بِأَنَّهُ تأسيسٌ فما معناه؟

قال بعضهم ﴿مِّن قَبۡلِهِۦ﴾ أي: من قبل الاسْتِبْشَار ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ﴾ من قبل الاسْتِبْشَار ﴿لَمُبۡلِسِينَ﴾ فذكر الله لَهُم حالين: قبل الاسْتِبْشَار وبعده، وَهَذا مَا مشى علَيْه أبو السّعود وَهُوَ جيد وليس فِيهِ إشكال من حيْثُ التّصور والمَعْنَى، ويكون المَعْنَى وإن كانوا من قبل إنزال المطر من قبل ذَلِك الاسْتِبْشَار لمبلسين فنبههم الله عَلَى حالهم قبل الاسْتِبْشَار وَهُوَ الإبلاس وَعَلَى حالهم بعد ذلك.

وقال بعضهم ﴿مِّن قَبۡلِهِۦ﴾ أي من قبل قبل أن ينزل عَلَيْهِم ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم مِّن قَبۡلِهِۦ﴾ أي من قبل ذَلِك القبل فيجعلون الضّمير فِي قوْله تَعالَى: ﴿مِّن قَبۡلِهِۦ﴾ لَيْسَ عائدًا إِلَى المطر ولا عائدًا إِلَى الاسْتِبْشَار وَإِنَّمَا يجعلونه عائدا إِلَى القبل فالمَعْنَى عَلَى هَذا: (وإن كانوا من قبل أن ينزل عَلَيْهِم من قبل ذَلِك القبل لمبلسين)، فيكون فائدتها أن الإِبْلاس مستمر معهم من قديم الزّمان فيأتي موسم لا يأتي فِيهِ مطر فيبلسون ثمَّ يأتي موسم آخر فيبلسون ثمَّ يأتي موسم آخر فيبلسون وهكذا، ومعلوم أَنَّه إِذَا تكررت مواسم ولم ينزل مطر كَانَ أشد فِي الإِبْلاس ويكون المَعْنَى أن هَذَا الاسْتِبْشَار أتى بعد يأس مرتين فأكثر وَهَذا أيضًا ذكره ابن كَثِيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي تفسيره.

فصار لدينا فِي قوله: ﴿مِّن قَبۡلِهِۦ﴾ ثلاثة أقوال:

القول الأول: أَنَّه توكيدٌ.

القول الثّاني: أن الضّمير يعود عَلَى الاسْتِبْشَار.

القول الثّالثُ: أن الضّمير يعود عَلَى القَبْل.

أَمَّا قوْله تَعالَى: ﴿لَمُبۡلِسِينَ﴾ فهي بالنّصب خبر لـ(كان) فِي قوْله تَعالَى: ﴿وَإِن كَانُواْ﴾ واقترنت (اللام) بِهَا من أجل (إنْ).

والاقتران هُنَا هل هُوَ واجب أو جائز؟

والجوابُ: إننا لو أسقطناها فسوف تشتبه (إنْ) المخففة بـ(إنْ) النّافية، فيفهمها البعض: لو كانت (وما كانوا من قبل أن ينزل عَلَيْهِم مبلسين)، يعني يستبشرون أنهم مَا أبلسوا ولا يئسوا، يعني: يستبشرون وإن كَانَ لَيْسَ عِنْدَهُم يأس من قبل، لذا فالظّاهر وجوب هذا الاقتران، لأَنَّهَا قد تشتبه بـ(إن) النّافية، أَمَّا إِذَا لم تشتبه فلا يجب الاقتران هل هناك شاهد فِي كلام العرب لذلك؟ نعم قول الشّاعر[1]:

.... وإن مالِك كانت كِـرَامَ المَعَـادِنِ

يفتخـر بِأَنَّهُ من بني مالِـك ثُمَّ يقول: (وإن مالِـك كانت كرام المعادن) هُنَا لا يمكن أن تشتبه (إنْ) بـ(ما) لأَنَّهُ لا يمكن أن يفتخر بقوم يسلب عنهم كرم المعدن لو تقول مثلا أنا من قبيلة هَذِهِ القبيلة مَا كانت كرام المعادن لا يستقيم.

فالحاصِلُ: أن اللام هُنَا للتوكيد ويسميها بعض العلَماء (اللام الفارقة)، وَهَذا أدق فِي التّعبير وَهِيَ مَعَ كونها فارقة تفيد التّوكيد وَإِنَّما سموها اللام الفارقة لأَنَّهَا تفرق بَيْنَ (إنْ) النّافية وبين (إنْ) المخففة.

إِنْ قَالَ قَائِلٌ: هل يمكن أن تقترن باللام مَعَ كون (إنْ) بمعنى النّفي؟

فالجوابُ: لا، وَهَذا هُوَ السّر فِي أنَّهَا فارقة لا يمكن أن تقترن بِهَا اللام لأَنَّ اللام تفيد توكيد الإثْبَات، والنّفي بخلاف ذَلِك، فالنّفي يفيد النَّفي.

---

(١) البيت للطرماح، في ديوانه (ص:١٧٣)، وشطره الأول:

أنا ابن أُباة الضَّيم من آل مالك ....

قوْله تَعالَى: ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [آيِسينَ مِنْ إِنْزَالِهِ]، والإِبْلاس مثل القُنُوطِ أَشَدُّ اليَأْسِ ومنه سمي إبليس نعوذ بالله مِنْهُ لأَنَّهُ مُبْلِسٌ آيس من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الفائِدَةُ الأُولَى: كمال قدرة الله من خمسة أوجه:

أولًا: إرسال الرّياح.

ثانيًا: إثارتها السّحاب.

ثالثًا: بسطه فِي السّماء.

رابعًا: جعله كِسَفًا.

خامسًا: نزول المطر منه.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: أن السّماء يُطلَق عَلَى كل مَا علا لقوْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾، فإِنَّهُ لا يُبسط فِي السّماء الَّتِي هِيَ السّقف المحفوظ وَإِنَّما يُبسط فِي الجو العالي.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: حكمةُ الله عَزَّوَجَلَّ فِي نزول المطر من أعلى لأَنَّهُ إِذَا نزل من أعلى عم النّازل والمرتفع بخلاف مَا لو كَانَ يجري فِي الأَرْض، لو كَانَ يجري فِي الأَرْض فإِنَّهُ يغرق النّازل قبل أن يصل إِلَى العالي.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: بَيان شدة افتقار الخلق إِلَى رحمة الله لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: إثْبَات المشيئة لقوْلِه تَعالَى: ﴿مَن يَشَآءُ﴾.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: إثْبَات العبودية العامة لقوْلِه تَعالَى: ﴿مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: جواز الاسْتِبْشَار بالمطر وأن يبشر النَّاس بعضهم بعضًا به.

ولننظر هل تصح هَذِهِ الفائدة أم لا؟ يعني: هل يمكن أن يؤخذ منْهَا جواز الاسْتِبْشَار بالمطر أو يُقَال إن هَذَا خبر عن واقع فلا يتأتى مِنْهُ حكم؟

فيه احتمال أن يؤخذ منْهَا الاسْتِبْشَار بالمطر وفيه احتمال أنْ يكُونَ هَذَا بيانًا للواقع فلا يؤخذ مِنْهُ حكم، وغاية مَا فِيهِ أن يُقَال إنَّه مباح لأَنَّ الله تَعالَى ذكره ولم ينكره.

الفائِدَةُ الثّامِنَةُ: بَيان رحمة الله عَزَّوَجَلَّ لكون المطر ينزل نقطًا لا أنَّه ينزل دفعة واحدة؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ لأَنَّهُ لو نزل كأفواه القرب أو كالأودية الَّتِي تمشي لكان مدمرًا للمنازل مدمرًا للأشجار مؤثرًا عَلَى مَنْ ينزل علَيْه من حيوان ولكن الله عَزَّوَجَلَّ جعله بِهَذا الرَّذاذ.

الفائِدَةُ التّاسِعَةُ: بَيان حال العبد قبل نزول المطر وأن العبد ضعيف لقوْلِه تَعالَى: ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ فإِنَّهُ ضعيف إِذَا أصيب بشيء أَيِس واستبعد الفرج، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ يزيل عنه هَذَا الأمر، تؤخذ مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ﴾.



الآية (٥٠)

• ● ∽ ● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الرّوم:٥٠].

• ● ∽ ● •

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [«فَانْظُرْ إِلَى أَثَرِ» وفي قراءة ﴿ءَاثَـٰرِ﴾].

قَوْله تَعالَى: ﴿فَانظُرْ﴾ الخطاب لِلإِنْسَانِ لَيْسَ للرسول أي الخطاب لمن يتأتى خطابه، الرَّسول ﷺ وغيره لأَنَّهُ قَالَ فِي الآيـة الَّتِي قبلها ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ﴾ ثمَّ قَالَ هُنَا ﴿فَانظُرْ﴾ أي انظر أيها الإنسان (إِلى أثرِ رحمةِ الله) وفي قراءة يقول المُفَسِّـر: ﴿ءَاثَـٰرِ﴾، والرّسم العثمـاني من فوائد التِزامه أنَّه لا يتغير بتغير القراءات ﴿ءَاثَـٰرِ﴾ عَلَى مقتضى قواعد الرّسم العصرية تكتب بألف بَيْنَ الثّاء والرّاء، لكنها عَلَى قواعد المصحف العثماني لا يكتب فِيهَا ألف (أثر) ثاء وراء فتصلح (آثار) وتصلح (أثر).

وقوْله تَعالَى: ﴿إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ﴾ و(إلى أثر) لا فرق بَيْنَهُما فِي الجملة من حيْثُ المَعْنَى لأَنَّ (آثار) مضاف فيفيد العُمُوم و(أثر) مضاف فيفيد العُمُوم أيضًا؛ لأَنَّ المفرد إِذَا أضيف أفاد العُمُوم فأثر وآثار من حيْثُ الجملة لا فرق بَيْنَهُما لأَنَّ قوله: (أثر رحمة الله) بمعنى آثار لكن الفرق بَيْنَهُمـا من حيْثُ المَعْنَى الخاص أن أثر يشـمل الجنس باعتباره شَيْئًا واحدًا، وأما آثار فتشمل الجنس باعتباره أنواعًا.

كيف باعتباره أنواعًا؟

مثلًا أثر المطر يخرج بِهِ الزّرع ويخرج بِهِ الشّجر ويخرج بِهِ شيء صغير وشيء كبير وشيء لَهُ أشجار مُفَطَّحَةٌ[1]، وشيء لَهُ أشجار دَقِيقَةٌ كالعيدان، فلِهَذا تعتبر هَذِهِ آثارًا باعتبار أنواعها، ثمَّ أيضًا الآثار تختلف من أرض إِلَى أرض، هَذِهِ الأرْض تُنْبِتُ كذا وهذه الأرْض تنبت كذا هَذِهِ ينبت فِيهَا الكلأ وهذه لا ينبت وهكذا فهي آثار باعتبار الأنواع، أمَّا باعتبار الجنس وأن كله حصل بسبب المطر فَهُوَ شيء واحد وَهَذا هُوَ الفرق الخاص بَيْنَ أثر وآثار.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ﴾ أي نعمته بالمطر].

وقد سبق أن الرّحمة فِي مثل هَذَا يصح أن تكون اسمًا للمخلوق ويصح أن تكون من صفات الله، فإن كَانَ المُراد الأثر المباشر فالمُراد بالرّحمة المطر لأَنَّ هَذَا النّبات نبت بالمطر، وإن كَانَ المُراد السّبب غير المباشر فالمُراد بالرّحمة صفة الله يعني لكون الله جَلَّ وَعَلَا رحيمًا، فهذه من آثار الرّحمة أنّه ينزل المطر وتنبت بِهِ الأرْض ويزول بِهِ القحط، فالآية صالحة لهذا وَلِهَذا.

قوْله تَعالَى: ﴿كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآ﴾ هَذَا مما يرجِّح أن المُراد بالرّحمة: رحمة الله: الصّفة ﴿كَيۡفَ يُحۡيِ﴾ هُوَ أي بالرّحمة سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ يجعلها حيَّة ﴿بَعۡدَ مَوۡتِهَآ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أيْ يُبْسِهَا]، وحياة كل شيء بحسبه فالأرْض اليابسة الَّتِي لَيْسَ فِيهَا خضار تسمى ميتة لَيْسَ فِيهَا شيء حي، فإذا نزل علَيْه المطر وحيي النّبات سميت حية ﴿يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآ﴾ وَهَذا دليل عَلَى قدرة الرّب عَزَّوَجَلَّ وَعَلَى رحمته؛ لأَنَّ من يقدر عَلَى أن يفلقَ النَّـوَى فِي باطن الأرْض حتى يخرج مِنْهُ

(١) مُفَطَّحٌ: عَريض، لسان العرب (٢/ ٥٤٥).

هَذَا النّبات النّامي هل أحد يقدر عَلَى هذا؟ لا أحد يقدر؛ وَلِهَذا قد جاء فِي الحديث الصّحيح القدسي: «فَلْيَخْلُقُوا حَبَّةً أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً»(١)، ولا يستطيع أحد منهم ولا من غيرهم أن يخلق هَذا، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [الأنعام:٩٥].

قوْله تَعالَى: ﴿كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ يعني انظر إِلَى الكيفية والقُدْرَة كَيْفَ هَذِهِ الأرْض الَّتِي كانت غبراء كأنها محترقة أصبحت الآن روضة خضراء.

قوْله تَعالَى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ قَالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي يبسها بأن تنبت ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾].

قوْله تَعالَى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ هَذَا الكون العظيم لا يمكن أنْ يكُونَ عبثًا، يُخْلَقُ بشر عاقل، يعرف، ويعقل ويتصرف ويقتل بعضه بعضًا وينهب بعضه بعضًا ويسالِم بعضه بعضًا والنّتيجة أن يكونوا ترابًا، هَذَا لا يمكن أبدًا، يعني لو تصوره الإنسان أدنى تصور لوجد أن العقل يدل دلالة قطعية عَلَى أنَّه لا بُدَّ من بعث ومجازاة وإلا لكانت الدّنيا كلها عبثًا، ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص:٢٧].

أَلَسْنا نشاهد مَنْ يخالِفُنا فِي العمل، ومن يخالِفنا فِي الأخلاق، ومن يخالِفنا فِي العقيدة ونتألَّم من ذَلِك، لو لا أن الله يسلي الرَّسول ﷺ ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشّعراء:٣]، وما أشبه ذَلِك مما يسليه بِهِ لتقطع قلبه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ نحن الآن نتألَّم لمن يخالِفنا فِي العقيدة ومن يخالِفنا فِي الأخلاق ومن يخالِفنا فِي الأعمال، هَذَا الألم

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾، رقم (٧٥٥٩)، ومسلم: كتاب اللباس والزينة، باب لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا صورة، رقم (٢١١١).

يؤثر علينا ولكن يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ [النّساء:١٠٤]، لكن هناك فارق ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النّساء:١٠٤].

فالحاصِلُ: أن هَذَا الكونَ العظيم لا يمكن أنْ يكُونَ عَبَثًا هكذا يحيا ثمَّ يكُون ترابًا، والله عَزَّوَجَلَّ يحيي الموتى لَيْسَ بني آدم فقط ولكن بنو آدم وغيرهم ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام:٣٨]، ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التّكوير:٥]، وأخبر النَّبيّ ﷺ أن البهائم يُقْتَصُّ من القَرْنَاءِ لِلْجَلْحَاءِ[1]، حتى البهائم يقضى بينها وَلِهَذا نقـول قوْله تَعالَى: ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ لا يختص بالإنسان فقط بل بالإنسان وغير الإنسان.

ثم أكد إحياء الموتى بمؤكَّدٍ آخر فِي الجملة الَّتِي بعدها وَهُوَ قوْله تَعالَى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

إِذَنْ: فقد أُكِّد أحياء الموتى بمؤكديْن لفظييْن ومؤكديْن معنوييْن.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ كل شيء الله قادر عليْه بدون استثناء كل مَا تتعلق بِهِ القُدْرَة ويمكن أنْ يكُونَ قادرًا عليْه، فإن الله تَعالَى قادر، عَلَى كل شيء قدير، لَيْسَ عَلَى مَا يشاء فقط بل عَلَى مَا يشاء وما لا يشاء، فهداية الكافر الَّذي مات عَلَى كفره الله قادر عَلَيْهَا، مَا شاءها وَهُوَ قادر عَلَيْهَا، فلا تختص قدرته بما شاءه، وَبِهذَا نعرف أن تعبير بعض النَّاس: (أنَّه عَلَى مَا يشاء قدير) أنَّه لا ينبغي، بل قل كما قَالَ الله عن نفسه: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:٣٩]، وأما حديـث الرّجل الَّذي يبعثه الله يَوْم القِيَامَة، ذكر القصة وفيها أن الله قَالَ لَهُ: «إِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ»[2]،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨٢).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإِيمان، باب آخر أهل النار خروجا، رقم (١٨٧).

فهذه لَيْسَ المُرَاد بِهَا وصف الله بالقُدْرَة مطلقًا بل وصف الله بالقُدْرَة عَلَى هَذَا الشّيء المعين الَّذي استبعده المخاطَب، فالله يقول قد شئته فأنا قادر علَيْه وَكَذلِكَ قوْله تَعالَى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ فالقيد بالمشيئة هُنَا لَيْسَ عائدًا عَلَى القُدْرَة لكِنَّهُ عائد عَلَى الجمع، الشّيء المعين يمكن أن تقيده بالقُدْرَة، أَمَّا إِذَا أردتَ وصف الله بالقُدْرَة فلا تقيدها بالمشيئة، ففرق بَيْنَ أن تُعَلَّق القُدْرَة بشيء معين خاص وبين أن تُذْكَرَ عَلَى سبيل الوصف العام لله، إِذَا كانت وصفًا عامًّا لله، فالله تَعالَى مَا ذكر قَيْدَ المشيئة أبدًا ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان:٥٤]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب:٢٧]، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٨٤]، وما أشبه ذلك.

والقُدْرَة ضد العجز انظر إِلَى قوْله تَعالَى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤]، وأتى بالعِلْم هُنَا لأَنَّ العاجز قد يعجز لعدم علمه بالشّيء، مهندس لكن فِيهِ روماتيزم لا يقدر أن يتحرك، قلنا لَهُ اصنع هَذِهِ السّيارة لا يقدر لأَنَّهُ لَيْسَ عنده القُدْرَة؛ لأَنَّهُ عاجز لا يقدر أن يتحرك، وآخرُ نشيط يحمل الحجر الَّذي أكبر مِنْهُ لكِنَّهُ لا يعرف الصّناعة أبدًا قلنا لَهُ اصنع سيارة قَالَ لا أقدر؛ لعدم العلم، فانتفاء القُدْرَة قد يَكُون لعدم العِلْم وقد يَكُون لعدم القُدْرَة الحسية لَيْسَ عنده علم لَيْسَ عنده شيء يعني عاجزًا.

ذكر صاحب هَذَا التّفسير هَذَا فِي قوْله تَعالَى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة:١٢٠]، آخر سورة المائدة، ذكر عبارة منكرة -والله أعلم- مَا أراد بِهَا سوءًا فقَالَ: [وخص العقلُ ذاتَه فليس عَلَيْهَا بقادرٍ]، يعني أن العقل يقتضي تخصيص ذات الله فالله لا يقدر عَلَيْهَا هَذَا لَيْسَ بصحيح بل الله عَلَى كل شيء قدير وَلِهَذا الله تَعالَى استوى عَلَى العرش بفعله وقدرته، ينزل إِلَى السّماء الدّنيا، يأتي

للفصل بَيْنَ عباده، يتكلم بما أراد، كل هَذَا مما يتعلق بذاته وَهُوَ قادر علَيْه.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: الله يقدر عَلَى إماتة فلان هل يقدر عَلَى أن يميت نفسه، هَذَا لا يمكن لا لانتفاء القُدْرَة لكن لأَنَّ هَذَا أمر لا يليق بِهِ وَهُوَ أشد من العجز.

فنَقُول: امتناع هَذَا لأَنَّهُ مستحيل عَلَى الله عَزَّوَجَلَّ وَلِهَذا السّفاريني رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي العقيدة لما ذكر صفة القُدْرَة قال[1]:

بِقُــدْرَةٍ تَعَلَّقَــتْ بِمُمْكِــن ....

أما المستحيل فَهُوَ مستحيل، لا يمكن، المستحيل أصله مستحيل لا تتعلق بِهِ القُدْرَة.

يُقَال إن الشَّيطان يفرح إِذَا مات العالِم، يفرح فرحًا عظيمًا وَإِذَا مات العابد لا يهمه، قَالَ جنوده لَهُ كَيْفَ تفرح لموت العالم هَذَا الفرح ولا تفرح لموت العابد الَّذي طول نهاره فِي المحراب؟ قَالَ نعم لأَنَّ العالم أشد علينا من العابد وَإِذَا شئتم أن أضرب لكم مثلًا الآن، فذهب إِلَى العابد وقال لَهُ هل يقدر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يجعل السّموَات وَالأَرْض فِي جوف بيضة؟ قَالَ العابد لا يقدر، قَالَ هل يقدر الله أن يخلق مثله؟ قَالَ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، يمكن أن يقدر أن يخلق مثله هَذَا غير صحيح وغير ممكن فذهب إِلَى العالم فقال لَهُ مثل هَذَا القول، قَالَ أَمَّا خلق مثله فَهَذَا شيء مستحيل ولا يمكن للمخلوق أَنْ يكُونَ مثل الخالِق أبدًا مهما كان، وأما كونه يجعل السّموَات وَالأَرْض فِي جوف بيضة فَهُوَ عَلَى كل شيء قدير، قَالَ الشّيطان: انظروا المِسْكِين العابد كَفَرَ من وجهين أثبت مَا لا يمكن

(١) العقيدة السفارينية (ص:٥٢)، ط. مكتبة أضواء السلف.

ونفى مَا يمكن، وَهَذا حقيقة يعني: أن العباد مثل مَا قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: «مَنْ فَسَدَ مِنْ عُبَّادِنَا فَفِيهِ شَبَهٌ مِنَ النَّصَارَى، وَمَنْ فَسَدَ مِنْ عُلَمَائِنَا فَفِيهِ شَبَهٌ مِنَ اليَهُودِ، واليَهُودُ أَخْبَثُ مِنَ النَّصَارَى»[1]، لا شك لأَنَّ العالمَ فساده -والعياذُ باللهِ- عن عِلم، والعابدَ فسادُه عن جهلٍ، وما كَانَ عن جهل فَهُوَ أَهْوَنُ مما كَانَ عن علم.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: بالنّسبة لقول من قَالَ إِنَّه عَلَى مَا يشاء قدير، يمكن نستخلص قاعدة وَهِيَ أن الصّفات الذّاتية لا تناقض المشيئة والصّفات الفعلية تناقض المشيئة؟

قُلْنَا: صحيح، هَذِهِ القاعدة، فالقاعدة عِنْدَهُم أن الصّفات الذّاتية هِيَ اللازمة للذات والفعلية مَا تتعلق بالمشيئة هَذِهِ قاعدتهم.

وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: كَيْفَ تعبير القرآن مرة بالإنزال، ومرة بالتَّنزيل؟

قُلْنَا: إِذَا وَرَدَ أَنَّه منزل مثل ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر:١]، يَكُون المُرَاد كإنزالنا يعني أنزلنا جملةً مِنْهُ لَيْسَ كله، فأما التَّنزيل فإِنَّهُ يَكُون نازلًا شَيْئًا فشيئًا كما فِي قوْله تَعالَى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء:١٠٦]، مَعَ أَنَّه قد يأتي التّنزيل لشيء وقع جملةً واحدة مثل قوْله تَعالَى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ﴾ [النّساء:١٤٠]، فعلى هَذَا تكون القاعدة الَّتِي ذكرها أهل العِلْم فِي هَذِهِ المَسْأَلَة قاعدة أغلبية ليست لازمة.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأُولَى: الأمرُ بالنَّظر ويكون بالعين الباصرة وبعين البصيرة أيضًا فالأمر هُنَا بالنّظر للوجهين جَمِيعًا الإنسان ينظر بعينه الباصرة وبعين البصيرة.

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٧٩).

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: أن النّظر كمـا يَكُون نافعًا لِلإنْسَانِ فَهُوَ مأمور بِهِ شرعًا أي بمعنى ثواب الإنسان أو إثابة الإنسان عَلَى النَّظر فِي آيات الله لأَنَّهُ مأمور به.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: أن الآثار الَّتِي تنتج عن المطر كلها من رحمة الله إحياء الأرْض بالنّبات وكثرة المياه فِيهَا كله من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: إثْبات قدرة الله تَعالَى عَلَى إحياء الموتى لقوْله تَعالَى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: الاسْتِدلالُ بالمحسوس المنظور عَلَى المحسوسِ المنتظر، المحسوسُ المنظور مَا يحصل من حياة الأرْض، والمحسوس المنتظر مَا يحصل من إحياء الموتى.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: أنَّه لا بُدَّ أنْ يكُونَ الدّليل أجلى وأظهر من المدلول علَيْه بمعنى أنّه لا يمكن أن نستدل بالأخفى عَلَى الأظهر والأوضح؛ لأَنَّ الدَّليلَ مُعَرِّفٌ للمدلولِ ومُبَيِّنٌ لَهُ فكيف يمكن أن تستدلَّ بشيء خفي عَلَى شيء واضح؟

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: رحمة الله تَعالَى بعباده حيْثُ يضرب لَهُم الأمثالَ ويبيِّن لَهُم الأدلةَ ليتوصلوا إِلَى اليقين فيما يجب الإيمان بِهِ؛ لأَنَّهُ يكفي أن يقول الله عَزَّوَجَلَّ آمنوا بأني أحيي الموتى، يكفي فِي إقامة الحجة عَلَيْهم، لكن من رحمته أَنَّه يُبيِّنُ لنا ويضربُ لنَا الأمثالَ لنصل إِلَى درجة اليقين فيما أخبرنا بِهِ، نأخذه مِنْ قوْله تَعالَى: ﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾.

الفائِدَةُ الثّامِنَةُ: نعمةُ الله عَلَى العباد بإحياءِ الأرْض لقوْله تعالَى: ﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآ﴾.

الفائِدَةُ التّاسِعَةُ: أنَّ الجماد يوصف بالحياةِ والموتِ، ففيه رَدٌّ عَلَى الفلاسفة الَّذِين يقُولونَ إن الجماد لا يمكن أن يوصف بالحياة والموت؛ لأنَّهُ غير قابل لها؛ فنقول إن الله تَعالَى وصف الجماد بِأَنَّهُ حي وميت كما فِي هَذِهِ الآية وكما فِي قوْله تَعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـًٔا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖ﴾ [النّحل:٢٠-٢١]، مَعَ أنَّها أصنامٌ من الأحجار والأشجار وما أشبهها.

الفائِدَةُ العاشِرَةُ: ثبوتُ صفة القُدْرَة وعُمُومِها لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ لا يُعْجِزُهُ شيء فِي السّماوات ولا فِي الأرْض.



الآيــة (٥١)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾ [الرّوم:٥١].

قوْله تَعالَى: ﴿وَلَئِنْ﴾ اللام هُنَا لام قسم دخلت عَلَى (إن) الشّرطية، وقوْله تَعالَى: ﴿لَّظَلُّوا﴾ هَذَا هُوَ الجواب، لَكِنَّهُ جواب لأيهما: للشرط أو للقسم؟ هُوَ جوابٌ للقسم؛ لأَنَّهُ لو كَانَ جوابًا للشرط مَا احتاج إِلَى اللام، الفعل الماضي يُجاب بِهِ الشَّرط بدون واسطة، وأيضًا فإن القاعدةَ عند أهل العِلْم بالعربية أَنَّه إِذَا اجتمع شرط وقسم يحذف جواب المتأخر منْهما، قَالَ ابن مالِك رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

وَاحْذِفْ لَدَى اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَم جَـوَابَ مَـا أَخَّـرْتَ فَهْـوَ مُلْتَـزَم

فالقَسَمُ دَلَّ علَيْه اللام الموطئة للقسم، ويوجد شرط (إنْ) والجوابُ الآن للقَسَم ﴿لَّظَلُّوا مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾ وجوابُ الشَّرط محذوف دل علَيْه جواب القسم ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ انظر الفرق فِي الأول يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ﴾ وهنا قَالَ: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ مفرد، وقد ذكرنا سابقًا أن الجمع يَكُون رحمةً، والإفرادَ يَكُون عذابًا هَذَا الغالب.

قوْله تَعالَى: ﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾: (رأوه) الضّمير لا يعود عَلَى الرّيح لكِنَّهُ يعود

---

(١) ألفية ابن مالك (ص:٥٩).

عَلَى مَا حَيِيَ بالماء الَّذي نزل من السَّماء، لأَنَّهُ تقدم قوْله تَعالَى: ﴿كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾، يعنى: ولئن أرسلنا رِيحًا فرأوا هَذَا الَّذي حَيِيَ مُصْفَرًّا يعني يابسًا حطيمًا بهذه الرّياح ﴿لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾.

نقرأ كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَئِنْ﴾ يقول لام قسم ﴿أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ مُضِرَّةً عَلَى نَباتٍ ﴿فَرَأَوْهُ﴾]، الضّمير يعود عَلَى النّبات ثمَّ قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مُصْفَرًّا لَّظَلُّواْ﴾ صاروا جوابُ القسم ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي من بعد أي بعد اصفراره ﴿يَكْفُرُونَ﴾ يَجْحَدُونَ النِّعْمَةَ بِالمَطَرِ]، يعني أن الله عَزَّوَجَلَّ إِذَا أحيا الأَرْض بعد موتها وأرسل عَلَيْهَا رِيحًا فاصفر النّبات وبعد اصفراره سيتلف امتحانًا مِنْهُ جَلَّوَعَلَا لكانوا من بعد هَذَا الاسْتِبْشَار وبعد أن رأوا آثار الرّحمة صاروا يَكْفُرُونَ ﴿لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾ يقُولونَ: كَيْفَ هَذَا يأتي المطر وينزل وتحيا الأَرْض ثمَّ تأتي هَذِهِ الرّيح فتهلكه فيَكْفُرُونَ -والعياذُ باللهِ- وينسون نعمة الله السّابقة، وَهَذا من الامتحان وَهُوَ داخل فِي قوْله تَعالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَ﴾ [الحج:١١]، وكان عَلَيْهِم إِذَا أرسل الله هَذِهِ الرّيح واصفر النّبات بِهَا كَانَ عَلَيْهِم أن يقابلوا ذَلِك بالصَّبر لا بالكفر، بالصّبر عَلَى هَذِهِ البلية فإن الصّابر يوفى أجره بِغَيْر حساب، وربما تزولُ هَذِهِ المحنة إِلَى نعمة أُخْرَى لأَنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ [النّحل:١٢٦]، ويقول: ﴿وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ [محمد:٣٦]، ويقول: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران:١٨٦]، فالمُؤْمِنُ يصبر عند البلاء ويشكرُ عند الرَّخاء.

• • ❁ • •

الآيـة (٥٢)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ [الرّوم:٥٢].

قوْله تَعالَى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ويجوز أنْ يكُون الخطابُ عامًّا لكل من يَتَأَتَّى خِطَابه ﴿لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، يعني لا تُسْمِعُهم سماعًا ينتفعون بِهِ أو لا تسمعهم حين الدّعوة، والأقرب الأول لأَنَّهُ لَيْسَ من المعقول أن أحدًا يقف عَلَى الأموات ويقول يا أيها النَّاس اعبدوا الله واتقوه، هَذَا لَيْسَ بمعقول لكن لو فرض أنَّه دعا فهل يسمعون سماعًا ينتفعون به؟

الجوابُ: لا يسمعون سماعًا ينتفعون به.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: هَذَا تقييدٌ للآية، الآية مطلقةٌ ﴿لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فكيف ساغَ لكم أن تقيدوها بقولكم: (سماعًا) ينتفعون به؟

قُلْنا: إن نفي السَّماع يطلق عَلَى نفي السَّماع النَّافع كما فِي قوْله تَعالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال:٢١]، هم يسمعون بآذانهم لكن لا يسمعون سماعًا ينتفعون به، ولا نحمله عَلَى الإطلاق لأَنَّ سماع الموتى قد وردت بِهِ الآثَار، فإن رسول الله ﷺ ثبت عنه أنَّه وقف عَلَى أصحاب قَلِيبِ بَدْرٍ من الْمُشْرِكِينَ وجعل يدعوهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: «يا فُلان بن فُلان، يا فلان بن فلان،

هل وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ فَإِنَّا قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا» فقال عمر: يا رسول الله مَا تخاطب من قوم قد جَيَّفُوا يعني كَيْفَ تخاطب الجِيَفَ، موتى، فقَالَ: «**مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ**»(١)، يعني هم يسمعون أشد من سماعكم، فإِذَا ثبت أن الموتى يسمعون، وَكَذٰلِكَ صحح ابن عبد البَرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ حديثًا ورد عن الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ «**أَنَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَى مَيِّتٍ كَانَ يَعْرِفُهُ فِي الدُّنْيَا إِلَّا رَدَّ الله عَلَيْهِ رُوحَهُ فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ**»(٢)، وَهَذا ذَكَرَهُ ابْنُ القَيِّمِ فِي كتاب الرُّوح(٣)، وذكر تصحيح ابن عبد البَرِّ لَهُ ولم يتعقبْه، وَعَلَى هَذَا فهم يسمعون لكنهم لا ينتفعون بِهَذا السّماع، ووردت آثار أيضًا عن الصّحابة فِي هَذَا الأمر ذكرها ابن كَثِيرٍ عند هَذَا الآيَة، وثبت أيضًا فِي الصّحيح: «**أَنَّ الإِنْسَانَ إِذَا انْصَرَفَ عَنْهُ أَصْحَابُهُ بَعْدَ الدَّفْنِ حَتَّى إِنَّه لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ أَتَاهُ مَلَكَانِ يَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ**»(٤)، عَلَى الأَرْض كما يمشي الإنسان عَلَى السّقف فيسمع مشيه عَلَى السّقف وَهَذا أيضًا يقول يسمع قرع النّعال، ولكن الله تَعالَى يجعلهم يسمعون ذَلِك.

فالحاصِلُ: أننا نقول كل هَذَا يؤيد أن المَعْنَى ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يعني سماعًا ينتفعون بِهِ ومعلوم أن الرَّسول ﷺ مَا دعا الموتى، مَا ذهب إِلَى القبور يدعوهم،

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل، رقم (٣٩٧٦)، ومسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه، رقم (٢٨٧٥).

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٠/ ٣٨٠، رقم ٢٥٩٢).

(٣) كتاب الروح لابن القيم (ص:٥)، ط. دار الكتب العلمية.

(٤) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، رقم (١٣٧٤)، ومسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه، رقم (٢٨٧٠).

ولكن الَّذِين يدعوهم من الأحياء كالموتى لا يستجيبون ولا ينتفعون بالدّعوة.

قوْله تَعالَى: ﴿ٱلصُّمَّ﴾ مفعولٌ أول، و﴿ٱلدُّعَآءَ﴾ مفعولٌ ثانٍ أمَّا ﴿لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، الأولى فقد حذف المفعول الثّاني لأَنَّ هَذَا فَضْلَةٌ وقد سبق أنَّه يجوز حذف الفَضْلَةِ ولو بلا دليل.

قوْله تَعالَى: ﴿ٱلصُّمَّ﴾ جمع أصم وَهُوَ الَّذي لا يسمع، الَّذي لا يسمع لا تستطيع أن تسمعه لا سِيَّما إِذَا اقترن بِهِ الإدبار ﴿إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ وَهَذا أشد مَا يَكُون انتفاء السّماع عن الأصم، فَهُوَ لا يسمع ولو كَانَ مقابلًا لك، فيكف إِذَا أدبر؟! يَكُون أعظم وأعظم، وَلِهَذا فالأصم إِذَا كَانَ أمامك ودعوته بصوتٍ ربما يسمع لكن إِذَا ولى مهما دعوته لا يسمع إِلَّا إِذَا أدركته فمسكته، فالصّم إِذَا ولوا مدبرين لا يسمعون وَإِنَّما قَيَّدَ الله عَزَّوَجَلَّ الصّم بهذه الحال لأَنَّهَا هِيَ الحال الَّتِي لا يسمعون بِهَا مطلقًا بخلاف مَا إِذَا كانوا أمامك فإنهم قد يسمعون ويستدلون عَلَى مَا تقول بحركات شفتيك.

قوْله تعالَى: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِتَحْقِيقِ الهَمْزَتَيْنِ وَتَسْهِيلِ الثَّانِيَةِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اليَاءِ]، ﴿ٱلدُّعَآءَ إِذَا﴾ هَذَا تحقيقٌ. وتسهيلُ الثَّانية بينها أي بَيْنَ الهمزة المحققة وبين الياء، أي: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا﴾ تجعلها بَيْنَ الهمزة وبين الياء والقراءتان سَبْعِيَّتَانِ[1].



(١) النشر في القراءات العشر (١/ ٣٨٦).

الآية (٥٣)

• • ● ● •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ [الرّوم:٥٣].

• • ● ● •

قوْله تَعالَى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ انظر الآن انتقال الموتى، الصُّم، العُمْي ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾: (ما) حجازية و(أنت) اسمها و(الباء) حرف زائد و(هادٍ) خبرها.

قوْله تَعالَى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ﴾ اسم فاعل ﴿بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ﴾ العُمْيُ جمع أعمى لأَنَّ أَفْعَلَ جمعُه فُعْلٌ قَالَ ابن مالِك رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١):

فُعْـــلٌ لِنَحْـــوِ أَحْمَـــر وحَمْـــرَا ....

أَحْمَر مثل أعمى، وحَمْرَاء مثل عَمْياء، فَعُمْيٌ جمع للذكور والإناث.

قوْله تَعالَى: ﴿عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ ضلالتّهم يعني متاهتهم إِذَا تاهـوا فِي الطّريق، فمـا أَنْتَ بهادي العمي عنه، فكَذَلِكَ هَؤُلاءِ الَّذِين عموا عن الحق -والعياذُ باللهِ- فلا يرونه وصموا عنه فلا يسمعونه وماتوا عنه فلا يفقهونه هَؤُلاءِ أيضًا لا تستطيع أن تهديهم، فتأمل الآن فِي مَسْأَلَة الموت ومَسْأَلَة الصَّمَم، قَالَ إِنَّك لا تُسمِعُ الموتى ولا تسمع الصّم، وفي باب العمى قَالَ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ﴾ مَا قَالَ مَا أَنْتَ بمبصر؛

---

(١) ألفية ابن مالك (ص:٦٦).

السّبب لأَنَّ البصر تتعلق بِهِ الدّلالة وَهِيَ الهداية بخلاف الصَّمَمِ فيتعلق بِهِ السّمع.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِن﴾ مَا ﴿تُسْمِعُ﴾ سماعَ إفهام وقبول ﴿إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ القرآن ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾].

فسر المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إنْ) بـ(ما) التفسيرية؛ وَلِهَذا لا تدغم بـ(إن) لا يُقَال (إمَّا) بل يُقَال (إن) ثمَّ يُقَال (ما) عَلَى سبيل الإظهار لأَنَّ (ما) تفسير لها فهي هي.

قوْله تعالَى: ﴿تُسْمِعُ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [سماع إفهام وقبول، مَا تسمع ﴿إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ القرآن ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾]، أي فبناءً عَلَى إيمانهم هم مسلمون منقادون؛ لأَنَّهُ كلما تم الإيمان تم الانقياد، فكلما كَانَ الإنسانُ أقوى إيمانًا فإِنَّهُ يكُون أعظم انقيادًا؛ وَلِهَذا فإن الإِيمان يستلزم الإسْلامَ، كل مؤمنٍ مسلمٌ ولا عَكْسَ، فليس كل مسلم مؤمنًا، قد يستسلم الإنسان ظاهرًا وقلبه مُنْطَوٍ عَلَى الكفر -وَالعياذُ بِاللهِ- بخلاف الإِيمان، وَلِهَذا رتَّب عَلَى الإِيمان، الإسْلام بالفاء ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ فهم من أجل إيمانهم مسلمون منقادون.

قوْله تَعالَى: ﴿إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ قَالَ المُفَسِّر: إنَّها القرآن، مَعَ أن آيات جمع وليست مفردًا، فما هُوَ الجواب عن قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؟

الجوابُ: أن فِي قَوْلِهِ قُصورا، والحق أن المُرَاد بالآيَات مَا هُوَ أعم من القرآن فيشمل جميع الكتب المنزلة ويشمل كَذَلِكَ الآيَات الكونية بأن يؤمن بأن هَذَا الكون خلقه الله عَزَّوَجَلَّ لأَنَّ من النَّاس من لا يؤمن بالآيَات الكونية انظر ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا﴾ [الطّور:٤٤]، ماذا يقولون؟ ﴿يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ شيء طبيعي، يقُولونَ: الكون مادة وطبيعة تتفاعل ويَنْتُجُ بعضها من بعض وما أشبه ذَلِك مَا آمنوا بالآيَات.

والآيَات الشّرعية كَذَلِكَ، فمن النَّاس من لا يؤمن بها، ويكذبُ بأخبارها ويستكبرُ عن أحكامها، وَهَذا كثيرٌ.

إِذَن: الصّواب أن المُرَاد بقوْله تَعالَى: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ لا يشمل الآيَات الشّرعية كلها لكل الكتب النّازلة والآيَات الكونية كلها؛ لأَنَّ من النَّاس من ينكر الآيَات الكونية كما هُوَ معلوم.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ معلومٌ أن المُؤْمِنَ سامعٌ فكيف يقول: ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ﴾ والمُؤْمِنُ سامعٌ فكيف نُجِيبُ عن هذا؟

فالجوابُ: عن هَذَا من أحد وجهيْن:

- **إمَّا أن يُقَالَ**: ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ﴾ أي إِلَّا من كَانَ مستعدًا للإيمان بما تقول ومكتوب عند الله عَزَّوَجَلَّ أَنَّه مؤمن بحيث إن الله قدر لَهُ ذَلِك فَهَذَا يسمع وينتفع، وَهَذا أمر غير معلوم للرسول ﷺ لكن يجب علَيْه أن يبذلَ الدَّعوة فيُسمِعُها من كَانَ فِي عِلْمِ الله أَنَّه مؤمنٌ وكان مستعدًا للإيمان هَذَا وجه.

- **أو يُقَال**: إن الدّين شرائعُ لَيْسَ شَيْئًا واحدًا بل هُوَ شرائعُ وشعائرُ متعددة، فالَّذي ينتفع بهذه الشّعائر ويطبقها هُوَ المُؤْمِن بهَا يعني الَّذي يسمع مَا يتلقى بعد ذَلِك من شعائر الإسْلام وشرائعه، هَذَا المُؤْمِن الَّذي وقع الإِيمَان مِنْهُ فعلًا هُوَ الَّذي يسمع كل مَا دعا إِلَيْهِ الرَّسول ﷺ من جميع شرائع الدّين وَعَلَى قول من يثبتون للدين أصولًا وفروعًا نقول أصول الدّين وفروعه.

لكن شيخ الإسْلام ابن تيمية يقول: «إن تقسيم الدّين إِلَى أصول وفروع قولٌ مُبْتَدَعٌ لا دليل علَيْه»، وَهُوَ صحيح لا تجد فِي القرآن والسّنة أصولًا وفروعًا فِيهَا

مَا يدل عَلَى الرّكنية يعني عَلَى أن هَذَا ركن كما فِي قوله: «بُنِيَ الإِسْلامُ عَلَى خَمْسٍ»[1]، أَمَّا أنْ نقولَ أصولٌ وفروعٌ؛ فشيخ الإِسْلام رَحِمَهُ اللَّهُ أنكرَ هَذَا لا لأَنَّهُ مُجَرَّدُ اصطلاحٍ، فلا مُشَاحَّةَ فِي الاصطلاحِ، لكِنَّهُ توصل بِهِ إِلَى أمورٍ منكَرةٍ، فقَالُوا مثلًا لا نَحْتَجُّ بأخبار الآحَادِ فِي أصول الدِّين وجعلوا هَذَا بابًا يَلِجُونَ بِهِ إِلَى إنكارِ الصِّفات وإلى إنكار مَا ورد فِي أخبار اليوم الآخر وما أشبه ذلك.

قوْله تَعالَى: ﴿فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾ الْمُؤْمِنُ مسلمٌ ظاهرًا وباطنًا، والمنافق مسلم ظاهرًا لا باطنًا، والمعلِنُ بكفره لَيْسَ مؤمنًا لا ظاهرًا ولا باطنًا، والنَّاس لا يخرجون عن هَذِهِ الأحوال الثّلاثة:

- مَنْ كَفَرَ ظاهرًا وباطنًا.
- ومَنْ آمن ظاهرًا وباطنًا.
- ومَنْ آمن ظاهرًا لا باطنًا.

- توجدُ قسمةٌ رابعةٌ وهي: مَنْ آمن باطنًا لا ظاهرًا، وَهَذا لا يمكن، صحيح أَنَّه قد يَكُون ضعيف الإِيمان فتجد فِيهِ مخالَفاتٍ فِي ظاهره كالْمُؤْمِن الفاسق، أَمَّا أَنَّه يَكُون لَيْسَ عنده إسلام أبدا فَهَذَا لا يمكن.



(١) أخرجه البخاري: كتاب الإِيمان، باب قول النبي ﷺ: «بني الإسلام على خمس»، رقم (٨)، ومسلم: كتاب الإِيمان، باب قول النبي ﷺ: «بني الإسلام على خمس»، رقم (١٦).

الآيــة (٥٤)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [الروم:٥٤].

قوْله تَعالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ هَـذِهِ الآيَة سِيقَـتْ لِبيانِ حـالِ الإنسانِ وكمالِ قدرةِ الله عَزَّوَجَلَّ قَالَ: ﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأٌ و﴿ٱلَّذِى﴾ خبرُه.

قوْله تَعالَى: ﴿خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ يُقَال بفتـح الضَّاد وبضمها، ضمها لغـة الحجازيين، وفتحها لغة بني تميم، وَلِهَذا يروى عن ابن عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّه قَالَ: أَقْرَأَنِي رسولُ الله ﷺ مِنْ ضُعْـفٍ بِضَمِّ الضَّادِ[1]، «خَلَقَكُمْ مِنْ ضُعْـفٍ» لكنَّ الحديثَ ضعيفٌ، إنما ذكروا أن الضّاد مفتوحة ومضمومة قِراءَتَانِ سبعيتان[2]، فقراءة الضَّم صحيحة وأي إِنْسَان يقرأ بكل قراءة ثابتة فَهُوَ صحيح.

قوْله تَعالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ مَا هُوَ الضَّعف؟

يقول المُفَسِّـر رَحِمَهُٱللَّهُ: [ماء مَهِين]، فجعل الضَّعف هُوَ النُّطفة لأَنَّهُ كمـا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ و(مِنْ) هُنَا للابتـداء كقوْله تَعالَى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾

---

(١) أخرجه أبو داود: أبواب قراءة القرآن وتحزيبه، كتاب الحروف والقراءات، رقم (٣٩٧٨)، والترمذي: أبواب القراءات، باب ومن سورة الروم، رقم (٢٩٣٦).

(٢) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٨٤).

[الأنبياء:٣٧]، وقِيلَ: المُرَادُ بالضَّعف ضعفُه بعد نَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ، إِذْ إِنَّه حال النُّطفة جَماد لا يوصف بِأَنَّهُ ضعيف ولا أَنَّه قوي، ولكن المُرَاد بالضَّعف بعد نفخ الرُّوح فِيهِ وَهَذا هُوَ الصّحيح، فإن الإنسان لا يَكُون خلقًا تامًّا إِلَّا بعد نَفْخِ الرُّوح، وَلِهَذا قالَ الله تَعالَى: ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المُؤْمِنُونَ:١٤]، هَذَا الإنشاءُ هُوَ أولُ مَا يَكُون بِهِ الإنسان إنسانًا؛ لأَنَّ الإنسانَ إِنْسَانٌ ببدنِه وروحِه، وَعَلَى هَذَا فنقولُ المُرَادُ بالضَّعف بعد نفخ الرُّوح فيه: ضعف الطُّفولة، ويبتدأ من كونه حيًّا فِي بطن أمه، وَهَذا ظاهر لا يحتاج إِلَى دليل، فالإنسانُ الصّغير ضعيف والضّعف أيضًا بقواه الحسيةِ وقواه المَعْنَوِيَّةِ، فَهُوَ ضعيفٌ بالتّفكير وَهِيَ القوى المَعْنَوِيَّةُ.



الآيات (٥٥- ٥٩)

••ංഗ••

﴿ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الرّوم:٥٥-٥٩].

••ංഗ••

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ﴾ يَحْلِفُ ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ الْكَافِرُونَ ﴿مَا لَبِثُوا۟﴾ فِي الْقُبُورِ ﴿غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ يُصْرَفُونَ عَنِ الْحَقِّ: الْبَعْثِ كَمَا صُرِفُوا عَنِ الْحَقِّ الصِّدْقِ فِي مُدَّةِ اللَّبْثِ.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَغَيْرِهِمْ: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ فِيمَا كَتَبَهُ فِي سَابِقِ عِلْمِهِ ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ الَّذِي أَنْكَرْتُمُوهُ ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وُقُوعَهُ.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ﴾ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ فِي إِنْكَارِهِمْ لَهُ ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ لَا يُطْلَبُ مِنْهُمُ الْعُتْبَى: أَيِ الرُّجُوعُ إِلَى مَا يُرْضِي اللهَ.

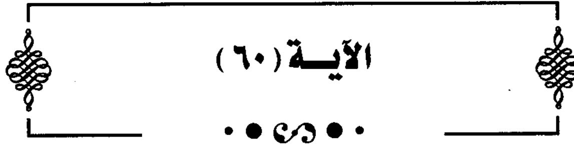
﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا﴾ جَعَلْنَا ﴿لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ تَنْبِيهًا لَهُمْ

﴿وَلَئِن﴾ لَامُ قَسَمٍ ﴿جِئْتَهُم﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿بِـَٔايَةٍ﴾ مِثْلِ الْعَصَا وَالْيَدِ لِمُوسَى ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ حُذِفَ مِنْهُ نُونُ الرَّفْعِ لِتَوَالِي النُّونَاتِ وَالْوَاوُ ضَمِيرُ الْجَمْعِ لِالْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ مِنْهُمْ ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿أَنتُمْ﴾ أَيْ مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ ﴿إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أَصْحَابُ أَبَاطِيلَ.

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ التَّوْحِيدَ كَمَا طَبَعَ عَلَى قُلُوبِ هَؤُلَاءِ]اهـ[1].



(١) لم يوجد تسجيل صوتي لتفسير هذه الآيات، ولهذا نُقل تفسيرها من تفسير الجلالين رحمهما الله تعالى.



الآية (٦٠)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الرّوم:٦٠].

هذا تَأْدِيبٌ مِنَ الله عَزَّوَجَلَّ للنبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ولغيرِه أيضًا، بأنَّ الإنسانَ يصبِرُ ولا يَسْتَخِفَّنَهُ الذين لا يؤمنونَ بها وعدَ الله الصابرينَ، وهذا يقعُ لكثيرٍ من الناس، تجد بعضَ الناسِ مثلًا يحصُلُ لَهُ مَا يحصلُ من الأمور، فمثلًا لو كَانَ لَهُ جارٌ يؤذيهِ، يأتيهِ بعضُ الناس يقولون: كَيْفَ تتحمَّلُ من جارك هذه الأذِيَّةَ، أو كَيْفَ تتحمَّلُ من صاحِبكَ هذه الأذِيَّةَ، أو من أهلِكَ أو مَا أشبه ذلك، فيستخِفُّونه فلا يصبر.

ولكن الذي يَنبغِي للإنسانِ العاقلِ أنْ لا يَسْتَخِفَّهُ أولئكَ القومُ الذين لا يؤمنونَ بها وَعَدَ الله بِهِ الصابرينَ، بل يصبرُ ولا يهمهُ كلامُ الناسِ حتى يحقِّقَ الله لَهُ مَا وَعَدَهُ.

وبهذا انتهت سورة الروم.

فهرس الأحاديث والآثار

الحديث الصفحة

فهرس الفوائد

الفوائد	الصفحة



فهرس آيات السورة

الآية	الصفحة

